

قضايا ونظرات

تجديد الوعي بالعالم الإسلامي والتغيير الحضاري

تقرير ربع سنوي

العدد التاسع عشر ـ أكتوبر ٢٠٢٠



قضايا ونظرات

تجديد الوعي بالعالم الإسلامي والتغيير الحضاري

تقرير ربع سنوي

يصدر عن مركز الحضارة للدراسات والبحوث

العدد التاسع عشر ـ أكتوبر ٢٠٢٠

إشراف

أ. د/ نادية مصطفى

مدير التحرير

مدحت ماهر

سكرتير التحرير

مروة يوسف

الموقع الإلكتروني: www.hadaracenter.com

المراسلات: alhadara1997@gmail.com

محتويات العدد



رؤية معرفية



ما بعد الموجة الأولى من كورونا، هل من بوادر تغيير؟

أ.د. نادية مصطفى(*)

اعتاد الساسة والمحللون الشروع في التفكير في "ما بعد" أحداث ما، والإعلان عن تصورات قبل أن تضع هذه الأحداث أوزارها: حروبا كانت أو كوارث طبيعية أو أزمات عالمية أو اتفاقيات ومعاهدات كبرى أو مؤتمرات عالمية....الخ. والسؤال هو: لماذا هذه "الما بعديات"؟ وما مغزي المفهوم أو المصطلح ذاته؟

إ نه يعني ببساطة أن وضعا ما في حالة تغير ولا يقين بعد عن مآله أو نتيجته؛ ومن ثم تتعدد وتتشابك التوقعات وتنتج صورة مركَّبة ومعقَّدة تحتمل أكثر من نهاية، إلا أنَّ كلَّ بديل أو توقُّع يحمل في جعبته مؤشرات عن مصداقيته مقارنة بغيره؛ ومن ثم تتعدد المؤشرات عن الشيء وعكسه، وتظل هناك مساحات رمادية يتقابل عندها وتتقاطع كافة السيناريوهات، وهي أن غداً لن يكون كالأمس، وقد تطول التوقعات والاحتمالات وقد تقصر عن "الما بعد" وفقًا لطبيعة الحدث، هيكليا كان أم ظرفيا أم طارئًا، عالميا كان أم قطريا أم إقليميا وبالطبع ت زداد "المابعديات" تعقدًا أو تركيبا مع الأحداث الهيكلية العالمية: العسكرية، الاقتصادية، البيئية.. وما إليها.

هكذا كان الحال في "ما بعد" الحرب العالمية الأولى، واستغرق الأمر قرابة ثلاثة عقود حتى اتضحت ملامح نظام دولي جديد ثنائي القطبية بعد نظام تعدد القوى أدى فشله إلى اندلا ع تلك الحرب الأولى. وهكذا كان الحال في "ما بعد" الأزمة الاقتصادية العالمية في الثلاثينات من القرن العشرين، وهكذا كان الحال من قبلهما في "ما بعد" الثورة البلشفية، والثورة الصينية، والثورة الإيرانية، وهكذا كان الحال أيضا في "ما بعد" وعد بلفور والانتداب البريطاني على فلسطين، و"ما بعد" نشأة دولة إسرائيل، وهكذا كان الحال ومازال، مع "ما بعد" الحرب الباردة، و"ما بعد" القطبية الثنائية، و"ما بعد" العدوان على العراق، و"ما بعد" الربيع العربي والانقلاب عليه، وحتى "ما بعد" صفقة القرن ٢٠٢٠.

فمازالت أدبيات العلاقات الدولية –بعد ثلاثين عاما من انتهاء الحرب الباردة– تتراوح بين أحاديث: استمرار أحادية أمريكية أم تعددية قطبية أم زوال الهيمنة الأمريكية؟ ومن ثم لا اتفاق على وصف النظام المعاصر: ما بعد الدولية، ما بعد العولمية، ما بعد ويستفاليا، ما بعد الرأسمالية الليبرالية!

ولقد ساعدت تطورات عالمية مهمة على كثافة وامتداد "المابعديات" دون حسم سريع أو جذري، وعلى رأسها الثورة التكنولوجية في شبكات الاتصالات والتواصل الاجتماعي بكافة أنواعها، وهي التي سهلت من توالد منصات المشروعات والأفكار التي تت فاعل فيما بينها "افتراضيا"؛ منشئ ة وعيا جماعيا نوعيا يتمركز حول سيناريوهات أو بدائل مبتغاة، حتى ولو لم يكن لديها على أرض الواقع، قاعدة واحدة. وفي المقابل تظل "السياسات العليا" الرسمية –وفق المنظور الواقعي– سواء العسكرية أو الاقتصادية أو الثقافية، هي التي تدير وتوجه "الحركة"، وقد تواجه معارضات

(*) أستاذ العلاقات الدولية المتفرغ، بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية/ جامعة القاهرة، ومدير مركز الحضارة للدراسات والبحوث.

وانتقادات ذات أصوات عالية من فوق المنصات الافتراضية تعيد تشكيل وعي ورأي قطاعات نوعية، ولكنها -أي المعارضات- لا تقدر على إحداث تغيير نوعي جذري يحدث نقلة نوعية تحولية في هيكل أو عمليات أو منظومة قيم النظام العالمي. ومن ثم يظل التصادم والتضاد، على صعيد البلد الواحد، أو الواقعة الواحدة، قائما بين اتجاهات "السلطة الرسمية" واتجاهات "السلطة الرابعة" ولا أقول المعارضات المنظمة. فلقد ولدت الساحات والمنصات الافتراضية قوى دفع على الأرض لتجميع صفوف وأصوات "الناس" في مجموعة ثالثة بين أصحاب السياسة والأموال وبين الحاكمين والمعارضين لهم.

وكان لما بعد "كورونا" مساحة خاصة بارزة لدى هذه المجموعة الثالثة، فقد بدا مع مرور الوقت أن "الدول"؛ أي الكيانات والسلطات الرسمية (على الأقل ظاهريا) ما زالت تفكر وتعمل بنفس منطق ما قبل كورونا، فإذا كانت أزمة كورونا أحيت آمالاً في بدايتها إمكانيات تغيير[1]؛ فيبدو الأمر الآن بعد تسعة أشهر مفصحا عن وضع آخر، جعلنا نطرح هذا السؤال في في هذا العدد: ماذا عن بوادر تغير في مواقف الدول؟ والأهم: تجاه ماذا؟ وكيف؟

(١)

يبدو الأمر منذ أغسطس ٢٠٢٠ وتخفيف الإجراءات الاحترازية ورفع الإغلاق العام عبر معظم أرجاء العالم الذي صعد خلال الثلاثة أرباع الأولى من العام، أن ما بعد كورونا، قد تراجع أمام تصاعد الطبول السياسية والعكسرية والاقتصادية غير ذات العلاقات المباشرة بتداعيات أزمة كورونا وإن كان لهذه التداعيات بالطبع أثارها على الفرص والقيود التي تواجهها سياسات الدول ومواقفها. **فهل منعت أزمة كورونا ما يلي من تجليات؟!:**

- تصاعد المواجهة العسكرية في ليبيا بين حفتر وفريقه وبين الحكومة الشرعية في طرابلس، فإن إستعادة السيطرة على ضواحي طرابلس وحتى محور الجفرة- سرت تم في ظل الموجة الأولى من الجائحة، ولم يكن للتهدئة ومحاولات الحل السياسي الجارية علاقة بتراجعها، وها هي تتجدد من جديد انتهاكات وقف النار بين الطرفين الذي تم إقراره في أغسطس بعد موجة اتصالات دولية متعددة ورغم استمرار تدفقات السلاح والمحاربين على الطرفين منذ أن توقف الهجوم المضاد لحكومة الوفاق عند محور سرت- الجفرة.
- استمرار الاستنزاف العسكري في اليمن بين الفرقاء المتحاربين واستمرار محاولات الإمارات السيطرة على الساحل الجنوبي لليمن وجزيرة سقطرى بعد عدن، في نفس الوقت الذي يتداعي الشعب اليمني بين ويلات القتال ونقص التغذية والأدوية وويلات الأوبئة المتفشية إلى جانب كورونا.
- استمرار الفوضي السياسية والأمنية في العراق مع سقوط حكومة وصعود أخرى، منذ بداية الاحتجاجات الشعبية في العراق في بداية ٢٠٢٠ ومع استمرار الانفجارات والشد والجذب في التحالف مع إيران تحت ضغوط الوجود الأمريكي العسكري والتهديد بسحبه في وقت تعود داعش من آن لآخر لتطل برأسها من جديد في العراق.
- الانهيار السياسي والاقتصادي في لبنان مع استمرار الفشل الحكومي في الإصلاح وحتى واقعة انفجار مرفأ بيروت التي وضعت كل شيء في لبنان على المحك في ظل هجمة تدخلات خارجية غربية، بالمنع مثل الولايات المتحدة،

(١) انظر العدد الثامن عشر من قضايا ونظرات، متاح على موقع مركز الحضارة للدراسات والبحوث، عبر الرابط التالي: https://cutt.us/aVvMZ

أو المراقبة والوعد بالمعونات مثل الاتحاد الأوروبي والسعودية، أو التهديد وإعلان الوصاية مثل فرنسا، أو التحفز والحذر مثل إيران حليف حزب الله. بل لقد كشفت أزمة لبنان الحالية تجدد الوجه الاستعماري التقليدي لفرنسا؛ فلقد أخذ ماكرون يبحث لنفسه عن دور خارجي ينقذ ماء وجهه من جوانب فشله الداخلية، وذلك مع اقتراب جولة انتخابات فرنسية برلمانية ورئاسية، ولقد وصل هذا الدور إلى حدّ التدخل صراحة والضغط من أجل إصلاحات سياسية داخلية ذات وجهة معينة.

- تصاعد الضغوط الأمريكية على إيران والتهديد بفرض عقوبات دولية من جديد عليها، وتوجه إيران نحو التهدئة والحذر وفتح الخطوط مع الأوروبيين لقلب المائدة على الولايات المتحدة.

- تصاعد جهود كافة الأطراف الإقليمية والدولية لاحتواء وتقييد الدور التركي النشط؛ سواء في ليبيا أو سوريا أو شرق المتوسط، في مقابل مبادرة دءوبة دبلوماسية من جانب تركيا تجاه كافة الأطراف الأوروبية والروسية والأمريكية والأطراف الإقليمية للحفاظ على زخم حركتها ولتقليل العداء والصدام وفتح جبهات التعاون أو المناورة، مع التأكيد المستمر على التمسك بحقوق تركيا ومصالحها في شرق المتوسط.

- استمرار سياسة شد الأطراف مع مصر؛ سواء من الجنوب (سدّ النهضة) أو من الغرب (التدخل في ليبيا)، وسياسة توظيف النظام المصري لتجفيف منابع المعارضة في مصر؛ في ظل استنزاف للموارد المصرية فيما لا يصبُّ في عافية القدرات المصر ية التنموية الحقيقية بل يصبُّ في مساحات خدمة النخب الجديدة المساندة لنظام ما بعد ثورة يناير.

- استحكام كمّاشة الضغوط في الخارج على السعودية: إدانات في أوروبا والولايات المتحدة للسياسات السعودية الداخلية والإقليمية، وتهديدات مستمرة بوقف مبيعات السلاح، وكشف مستمر إعلاميا لممارسات ولي العهد السعودي (مثل واقعة الجابري مؤخرا). فما المطلوب من السعودية أكثر مما تقدمه داخليا وإقليميا؟ هل التطبيع الرسمي والمعلن مع إسرائيل؟ ألم تكن فزاعة إيران التي رفعتها إدارة ترامب في وجه الخليج والتي أوصلت المواجهة العسكرية إلى حافة الهاوية لأكثر من مرة، من ناحية، وفزاعة التهديد بسحب الوجود العسكري ودعوة السعودية للاعتماد على النفس في الدفاع عن أمنها من ناحية أخري.. ألم تكن هاتان الفزاعتان بمثابة ضغوط صريحة أو ناعمة تدفع بالسعودية نحو التطبيع مع إسرائيل أكثر فأكثر؟

- من جمود صفقة القرن؛ لأسباب داخلية إسرائيلية أمريكية، إلى التطبيع الإماراتي الإسرائيلي في غمرة الأزمة الداخلية التي يواجهها نيتنياهو واستنزاف الموارد الإماراتية والفشل في السياسات الإقليمية الإماراتية؛ سواء في اليمن أو ليبيا. وفي المقابل كان ردُّ الفعل العربي والإسلامي تجاه هذا التطبيع مترديا وضعيفًا في حين تداعى الإعلان الإسرائيلي والأمريكي بفجاجة عن قرب دخول دول عربية وإسلامية أخرى في اتفاقات تطبيع مناظرة مع إسرائيل. وبالفعل تصدرت البحرين القائمة بإعلان ترامب قبل أيام من توقيع اتفاق الإمارات وإسرائيل أنه سيتم أيضا توقيع اتفاق مع البحرين يتضمن قيام علاقات دبلوماسية كاملة وفتح سفارتين في عاصمتي الدولتين (أين ستكون سفارة البحرين: هل في القدس؟).

- فشل الكيان الجماعي العربي المسمى الجامعة العربية في إدانة الاتفاق الإماراتي الإسرائيلي، ولم يصدر عن اجتماع وزراء الخارجية أوائل سبتمبر، إلا بيان هزيل يؤكد تردي دور الجامعة القومي في الحفاظ على حقوق الشعب الفلسطيني بل والشعوب العربية كافة.

- فشـــل أو تقييد أدوار أرادت أن تقوم بها بعض الدول الإســـلامية لتثبيط وتهدئة الصـــراعات الإقليمية مثل الدور الباكستاني بين السعودية وإيران، والدور الماليزي (مهاتير محمد) لتدعيم التضامن الإسلامي.
- تردُّد أصداء الانقلابات العسكرية من جديد في أفريقيا، بعد انقلاب السودان على البشير ثم على الثورة السودانية، وفشل الحكومة الانتقالية إلا في أمرٍ واحد؛ وهو الهرولة للتطبيع مع إسرائيل ثمنًا لرفع العقوبات الأمريكية ولرفع اسم السـودان من قائمة الدول الراعية للإرهاب، وفي المقابل يسـتمر الفشـل في مواجهة مشـاكل المواطنين السـودانيين وتحقيق آمال ثورتهم.
- تعاضد أوروبا مع اليونان في المواجهة مع تركيا شرق البحر المتوسط، وعلى نحو لم يسبق خلال جائحة كورونا، حين انكفأت الدول الأوروبية على حدودها وتهاوى التضـامن عبر الحدود على نحو أثار تكهنات البعض حول مستقبل تجربة الوحدة الأوروبية وقدرتها على الصـمود، أما التداعيات الاقتصـادية والسـياسـية للجائحة على أداء الاتحاد الأوروبي تجاه دوله الأعضاء.
- احتدام الصدام الصيني الأمريكي المباشر على الصعيد الاقتصادي بصفة خاصة بعد أن توالت الاتهامات الأمريكية للصين بالتآمر عليها بفيروس كورونا، كذلك انفجرت بؤر للمواجهة غير المباشرة على ساحة حلفاء للطرفين؛ هونج كونج، والحدود الهندية الصـينية، وتايوان، والفلبين. في نفس الوقت الذي استمر التنسـيق الصـيني الروسـي العلني والمناورات الروسـية الأمريكية حول سـاحات التنافس المعقدة في سـوريا وليبيا بصـفة خاصـة، ولم تعدّ العلاقة مع الصين ورقة انتخابية في يد ترامب بقدر أوراق أخرى، مثل التطبيع بين العرب وإسرائيل.
- ومن ناحية أخرى اختبرت المصـالح الاقتصـادية مع الصـين علاقات التحالف الأمريكية الأوروبية، حيث راهنت أوروبا على المحافظة على العلاقات الاقتصادية مع الصين ولو اغضب ذلك الحليف الأمريكي، وخاصة أن الأخير يعيد حسـاباته العسـكرية على أطراف القارة الشـرقية في مواجهة تجدد تنافسـه العسـكري مع روسـيا (بولندا) والسياسي (أوكرانيا وبيلاروسيا).

(٢)

وبقدر ما كانت وطأة أزمة كورونا على الاقتصـاديات الوطنية والعالمية شـديدة على مسـتوى كافة القطاعات، بقدر ما كانت تداعياتها على طبيعة النظم السـياسـية والاجتماعية أكثر شـدة، ناهيك عن تداعياتها على جهود المجتمع المدني العالمي. وإذا كانت الجهود الرسمية، وخاصـة للقوى الكبرى، قد تسـارعت لإعطاء قبلة الحياة للاقتصـاديات ولو على حسـاب الحماية الإنسـانية من الوباء إلا أنه كان "لما بعد كورونا" تأثيرات مغايرة على مجالات (غير المجالات الصلدة) أي الاجتماعية والشعبية والمدنية، وعلى نحو يبرز مؤشرات تغير، سواء سلبية أو إيجابية.

فمن ناحية، لم تمنع تداعيات كورونا وخاصـة الاقتصـادية والاجتماعية، بل قد تكون حفزت، حركات احتجاجية وتعاونية وبنائية من جانب الشـعوب، ومن ناحية المجتمع المدني العالمي في مواجهة الاسـتبداد والفسـاد والعنصرية والظلم الاجتماعي وعدم المساواة في توزيع الموارد. ومن أبرز المشاهد ما يلي:

- محاولة إنقاذ دور منظمة الصحة العالمية بعد الانسحاب الأمريكي من تمويلها واتهام ترامب لمديرها بالتنسيق مع قيادة الصـين لإخفاء حقيقة الوباء عن العالم في بدايته. فمن تبرعات مالية من جانب الاتحاد الأوروبي لدعم

جهود المنظمة في مجال اكتشاف لقاح ضد الفيروس، إلى مساندات معنوية وإعلامية مدنية لأهمية دور المنظمة عالميا وقت الأوبئة، إلى دعوات الحكومات للأخذ بنتائج الدراسات والبحوث التي توفرها المنظمة عند تخطيط وتصميم سياسات وبرامج الإجراءات الاحترازية، وقرارات الحكومات الخاصة بالتعليم والتواصل الاجتماعي والسياحة بصفة خاصة.

- وفي مقابل الجهود التعاونية عبر القومية، فإن المنافسات القومية بين الدول الكبرى قد بلغت أشدها للفوز بسبق الوصول إلى لقاح، لما يترتب على ذلك من مكاسب اقتصادية ومكانة سياسية.

- لم تحل الإجراءات الاحترازية والإغلاق الجزئي أو العام دون الشعوب الحرة و الخروج السلمي، وأحياناً العنيف، ضد العنصرية (بعد واقعة جورج فلويد) وإن تركزت المظاهرات في الولايات المتحدة الأمريكية بالطبع، إلا أنها امتدت أيضا إلى أرجاء أوروبا، وخاصة الدول الاستعمارية الكبرى السابقة.

- ولقد انفجرت المظاهرات أيضا في بيلاروسيا وبدون توقف طوال شهر أغسطس ٢٠٢٠؛ اعتراضا على تزوير الانتخابات الرئاسية التي استبقت رئيسا لمرة سادسة، وهي مظاهرات من أجل الحرية السياسية وحقوق الإنسان واحترام القانون، تحمل في طياتها توجها نحو الغرب وبعيدا عن روسيا في الشرق؛ وهو الأمر الذي يضع هذه الحركة في مأزق سبق وتعرضت له أوكرانيا، فمازال التنافس الروسي الغربي يمسك بخناق هذه الجمهوريات منذ استقلالها بداية التسعينيات.

- ولم تخرج للأسف مثل هذه المظاهرات في أوطاننا العربية والإسلامية التي تضج هي الأخرى بأشكال متعددة من العنصرية، والاستبداد السياسي والفساد والطائفية بل والاحتلال.

- إلا أن أشكالاً متقطعة من المظاهرات ظهرت في العراق، وبالطبع في لبنان بعد انفجار مرفأ بيروت، وفي المقابل في ظل الجائحة توقف الحراك الشعبي الجزائري الذي انتظم لما يزيد عن العام، ضد الاستبداد والفساد والطائفية.

- و لم تحل كورونا دون خروج المقد سيين المستمر رباطًا من أجل الأقصى، وكان الاحتفاء بإعادة الصلوات إلى الأقصى متجليا في عدد المصلين في باحات المسجد وخاصة أيام الجمع.

- كما كان مشهد الشعب التركي في أول صلاة جمعة في آيا صوفيا بعد عودتها مسجدا في منتصف يوليو، مشهدا شديد الدلالة على اجتماع شعوبنا العربية والإسلامية في مشاهد إيمانية لا تقل أهمية ودلالة عن مشاهد الاجتماع البشري التظاهري في عواصم الغرب ضد العنصرية؛ العنصرية التي تنخر في صميم جذور المجتمعات الغربية ونظمها منذ قرون والتي تجلت وكشفت عن نفسها جلية واضحة في موجات وممارسات الاستعمار الأوروبي عبر العالم، ولم تستطع ادعاءات "مهمة الرجل الأبيض في تمدين وتحضر الشعوب المستعمرة" إخفاء جذور وملامح هذه العنصرية بأشكالها المختلفة الدينية والمعرفية والثقافية والاجتماعية بل والسياسية والاقتصادية وبالأخص عند استخدام القوة العسكرية.

- التطور البارع و السريع لوسائل التواصل الاجتماعي لتصبح أكثر استجابة لمتطلبات "التواصل عن بعد" الجماعية؛ سواء على مستوى: مؤتمرات، اجتماعات عمل، وسائل ترفيه، وسائل تعليمية، خدمات متنوعة،

تسويق.. وهو الأمر الذي –وإن وفر استجابات عاجلة لمتطلبات استمرار الحياة وإدارتها– إلا أنه لا يخلو من تداعيات سلبية على إنسانية الاجتماع البشري. ناهيك عن عدم القدرة على ادعاء أن جميع أهل الأرض في مختلف بقاعها، قادرون على الاستفادة من هذا التطور الافتراضي السريع، بل ربما لا يعرف البعض عنه؛ ومن ثم فإن هذا الوضع العالمي الذي يلعب فيه التفاعل الا فتراضي دورا بارزا، يصبح وضعا يعاني من أنواع عديدة من الفروق والفجوات؛ ومن ثم الخلل وعدم التجانس؛ وذلك لصـــالح نخب جديدة أو طبقات جديدة، أو طبيعة جديدة للحياة والعالم، ما فتئ البعض يرســـم ملامحها، في حين يحذر البعض الآخر من مخاطرها على الإنسانية، إلا أن فريقـ ا ثالثا يرى أنها سنة التطور الطبيعي لدورات الحياة.

(٣)

ويبقى عند الحديث عن "**بوادر تغير في الأوضـــاع**" وجه ثالث يجمع بين الرسمي وغير الرسمي، يجمع بين السياسات العليا والسياسات الدنيا، يجمع بين القيمي والمصلحي؛ ولكن في مشاهد تشير إلى استحكام سلبيات الأوضـــاع المأمول تغييرها تحت وطأة وباء عالمي فجـ ر مع بدايته كل آمال علو القيم والأخلاق من جديد لإنقاذ الإنســانية؛ ولكن إذا بالممارســات، خلال احتدام الموجة الأولى في قلب الغرب وما بعدها وانتقالها من بقعة إلى أخرى على الأرض، تكشف عن قدر الاستمرارية في الوجه القبيح للسياسة ليس فقط على مستوى السياسات العليا، ولكن أيضا ما يسمى قضايا إنسانية عالمية. وعلى سبيل المثال وليس الحصر:

- مشهد أزمة الديمقراطية الأمريكية والغربية بصفة عامة في مقابل استحكام قبضة العسكرة والاستبداد والتبعية والتصهين على الصعيد العربي بصفة خاصة. ففي حين فجرت إدارة أزمة كورونا في الولايات المتحدة وأوروبا، جدالاً واسعا حول فعالية الخدمات والعلاقة بين مؤسسات السلطة وحول قواعد إدارتها خدمة لمصالح الإنسان أم الاقتصاد؟ وفي حين لم تحل الأزمة الوبائية دون اندلا ع المظاهرات ضد العنصرية وخاصة في أمريكا وأوروبا، فإن نصف الكرة الأرضية الآخر –شرقها وجنوبها– كان يشهد استحكام نمط آخر من علاقات السلطة؛ وأبرز هذا النمط استحكام قبضة الاستبداد والتبعية والتصهين وتمكنها من رقاب الشعوب، التي انكفأت خوفًا على حياتها في ظل دقات طبول الحرب ضد الوباء العالمي أو بحثا عن قوت اليوم في ظل التداعيات الاقتصادية لهذه الحرب.

وفي نفس الوقت ، تسارعت النظم التسلطية في ممارساتها تنفيذًا لتصوراتها عن "المصلحة الوطنية وعن الاستقرار والسلام العالمي"، وجميعها ممارسات تثير معارضات داخلية إلا أن أصوات المعارضة قد تم وأدها تحت مباركة القوى الكبرى وتحت ذريعة حماية الدول من مصير "المشهد السوري".

ومن أبرز مشاهد هذا التسارع في ممارسات النظم الاستبدادية: اتفاق التطبيع الإماراتي الإسرائيلي، عدم فعالية الموقف المصري تجاه "سد النهضة"، انطفاء جذوة الموجة الثانية من الثورات في لبنان والعراق والجزائر والأردن...، توالي موجات الاعتقال في الداخل السعودي باسم مقاومة الفساد، إحكام قبضة الإمارات على الساحل الجنوبي لليمن والسيطرة على سقطري لصالح التعاون مع إسرائيل، الهدوء المؤقت للمشهد السوري وتراجعه عن صداره الإعلام لصالح المشهد الليبي، اتخاذ المفاوضات للاتفاق على حل سياسي في ليبيا ذريعة لتزويد معسكر حفتر بالسلاح، أزمة معسكر

الثورة في تونس نتيجة هجوم معسكر الثورة المضادة المتحالف مع الإمارات، وعلى نحو تعرض معه النظام التونسي لأزمات متلاحقة.

- مشهد تواري أزمة اللاجئين عن الصدارة الإعلامية، بل عن مساندة الاتحاد الأوروبي لعمليات إغاثة اللاجئين من البحر أو توفير ملاجئ آمنة لهم حتى تنظيم استقبال بعضهم أو إعادة البعض الآخر لأوطانهم أو ترك فريق ثالث نهبا لأوضاع المعسكرات المؤقتة لاستقبال اللاجئين. فلقد رفضت قبرص وإيطاليا واليونان، أواخر أغسطس، نداءات الاستغاثة التي أطلقتها سفينة محملة باللاجئين على وشك الغرق، فهل هذه بداية تراجع سياسة الاتحاد الأوروبي في حماية شواطئه ولو على حساب حماية اللاجئين من الغرق؟

ويرتبط بهذا المشهد وجه آخر للعملة "الإنسانية" يكشف عن التردي في حماية هذه "الإنسانية" تحت وطأة "الواقعية المفرطة" للسياسات الوطنية أو الجماعية على صعيد أقاليم العالم، فرغم تعدد مؤتمرات "دعم" سوريا، واليمن، وليبيا، وأخيرا لبنان، ورغم تعدد الوعود الدولية بتقديم الأموال اللازمة للإغاثة الإنسانية، إلا أن هذه الإغاثات تظل في أضيق الحدود، ناهيك عن تعثر وصولها بسبب الاعتبارات السياسية أو الصدامات العسكرية بين الأطراف المتحاربة.

وازدادت هذه الأزمة استحكاما في ظل التداعيات الاقتصادية لكورونا على ميزانيات الدول والمؤسسات الدولية، ولذا لم يكف أمين عام الأمم المتحدة عن التحذير من عواقب كورونا على أوضاع اللاجئين في مناطق الحروب، وعلى الفقراء عبر أرجاء العالم.

وحظيت أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان وسوريا والأردن وغزة والضفة بنصيب لا يقل عما أصاب أوضاع أنماط اللاجئين الأخرى، في الدول العربية والإسلامية بصفة عامة. فلقد كادت تتوقف مفوضية اللاجئين الفلسطينين عن أداء أعمالها الإغاثية بعد الانسحاب الأمريكي من تمويلها وجمود التدفقات الدولية الأخرى إليها، ورغم بعض المساعدات الاستثنائية من جانب بعض الدول، إ لا أن أعمال المفوضية في تردّ دائم، تمثل في تكرار التظاهرات في غزة أمام أبواب مؤسساتها طلبا لصرف مستحقات الإغاثة، وذلك في وقت تزداد فيهً قيود الحصار من إسرائيل حتى أضحت غزة نموذجا عالميا للحصار الممتد من ناحية، ولمقاومة هذا الحصار من ناحية أخرى. ولم تشفع كورونا أو غيرها لفك هذا الحصار أو تخفيفه، فلقد وصل الحصار الإسرائيلي على غزة أقصاه متمثلاً في منع الوقود وإغلاق المعابر من إسرائيل لغزة طوال أغسطس عقابا على أعمال المقاومة الشعبية من غزة (البالونات الحارقة) ، بعد جمع كسر الحصار طوال ما يزيد عن العام، كما وصل العقاب الإسرائيلي للسلطة في الضفة أقصاه أيضا بعد رفض وإدانة صفقه القرن ثم التطبيع الإماراتي الإسرائيلي ووصف أبو مازن محمود عباس له بالخيانة.

- المشهد الثالث والأخير من مشاهد "الأبعاد الإنسانية" ما بعد كورونا، ومآلاتها في ظل ضغوط سياسات القوى الصلدة، مشهد استمرار انتهاكات حقوق الإنسان في سجون الدول العربية والإسلامية، وهي الانتهاكات ضد المعارضين السياسيين بصفة خاصة؛ والتي تمثل سياسات ممنهجة ذات أهداف سياسية، فرغم تكرار تقارير المنظمات الدولية والعالمية لحماية حقوق الإنسان؛ سواء الرسمية، مثل لجنة حقوق الإنسان للأمم المتحدة، أو المدنية مثل هيومان رايتس وتش أو منظمة العفو الدولية، ناهيك عن منظمات إقليمية عربية وإسلامية (ذات مقار في الخارج)، ترصد وتوثّق –وتعلن عن– وتدين هذه

الانتهاكات، رغم ذلك تظل هذه الانتهاكات مستمرة، بل وفي تصاعد في نفس الوقت الذي تنكر فيه النظم وجودها أو تبقى صامتة دون رد، والأكثر دلالة في هذا الصدد، هو موقف حكومات الدول الغربية (حيث مقار هذه المنظمات والمؤسسات) "البارد" من هذه الانتهاكات ومن هذه الإدانات، طالما أن النظم المتهمة هي نظم تلقى المساندة والدعم بحجة أنها تحافظ على الاستقرار وتشارك في الحرب العالمية ضد الإرهاب.

فإن هذه الحكومات الغربية وإن لم تمتنع عن إصدار إدانات لانتهاكات حقوق السجناء والمختفين قسريا، إلا أنها إدانات محدودة وعامة ولا تتجاوز الخطاب المعلن إلى عقوبات أو ضغوط حقيقية على هذه النظم المستبدة لتغيير سياساتها الداخلية ضد المعارضين، ولم تكن بالطبع كورونا لتمثل ظرفًا طارئًا يستوجب غير هذا النمط، فإنها لغة المصالح أولاً قبل قيمة حياة الإنسان ولو كان معارضا سجينا. ولقد كشفت واقعة المعارض الروسي أليكسي نافالني التي احتلت الصدارة الإعلامية الأسبوعين الأخيرين من أغسطس والأسبوع الأول من سبتمبر ٢٠٢٠، حقيقة النفاق والمعايير المزدوجة التي تتصف بها مواقف الحكومات الغربية تجاه هذه القضية الإنسانية.

فبعد نقل المعارض الروسي، إلى ألمانيا للعلاج، أفاضت السلطات الألمانية في ٣، ٤ سبتمبر ٢٠٢٠ في اتهام الحكومة الروسية بتسميم المعارض الروسي، واصطف الاتحاد الأوروبي وراء المواقف الألماني في إدانة روسيا بل وفي التهديد باتخاذ مواقف عقابية ضدها تتمثل في وقف خط غاز سيبريا إلى أوروبا...!! اعتراضا على هذا الموقف الروسي من المعارضين لبوتين، بل وصل الأمر بالناتو إلى اتهام روسيا بعدم احترام معاهدة خطر استخدام الأسلحة البيولوجية على اعتبار أن المعارض الروسي قد تم تسميمه بغاز أعصاب يستخدم في الحروب البيولوجية، وإذا كانت روسيا قد رفضت وأدانت هذا التوظيف السياسي الغربي لهذه الواقعة إلا أن المشهد مازال مفتوحا لم يصل إلى نهايته، فهل ستفرض عقوبات أوروبية على روسيا؟ ولماذا هذا التصعيد الآن ضد روسيا؟ وقد سبق واتخذت أوروبا وألمانيا بصفة خاصة مواقف أقل حدة من اتهام ترامب الصين بأنها المسؤولة عن تفشي وباء كورونا وانتقاله إلى الولايات المتحدة بصفة خاصة؟ بل إن أوروبا وألمانيا بصفة خاصة أعطت الأولوية للحفاظ على المصالح الاقتصادية مع الصين ولو على حساب الاصطفاف مع مواقف ترامب ضد الصين؛ ولكن الأهم، هل معارض روسي واحد يفوق في الأهمية آلاف سجناء الرأي والمعارضين في سجون النظم العربية والإسلامية وفي إسرائيل، بحيث لا يستحق هؤلاء ما هو أكثر من الإدانة اللفظية العابرة من حكومات غربية؟ ولماذا؟ إنها حسابات المصالح وتوازنات القوى التي تفوق أي اعتبارات أخلاقية وقيمية، فتلك الاعتبارات تقوم على توظيفها حكومات القوى الكبرى حين تحقق مصالحها وليس دفاعا عن حقوق منتهكة.

خلاصة القول: إن هذه المجموعات الثلاث من مشاهد "المابعديات" في مسلسل كورونا والنظام العالمي، وقدر ما يكون قد أصاب هذا النظام العالمي من تغير أو عدمه، **تشير للآتي:**

تغلب "الواقعية البراجماتية الملتحفة بالقيم والأخلاق" على سياسات نظم الدول الكبرى أو الصغرى على حد سواء، غربا وشرقًا وجنوبا، وفي المقابل تناضل مؤسسات المجتمع المدني العالمي وقوى المعارضة الداخلية من أجل تغييرات في داخل النظم، على اختلافها ديموقراطية أو مستبدة (لأن جميعها يمر بأزمته)، وعلى الصعيد العالمي، فإن وباء عالميا مثل كورونا، ورغم كل التوقعات التي فجرها عن آثاره على النظام العالمي والتي اجتهد الجميع لرصد ملامحها على مستوى الدول والمؤسسات العالمية (انظر الملف السابق)، فمما لا شك فيه أن التفكير الجدي في "ما بعد كورونا" على ضوء

الشهور الثلاثة الأخيرة منذ بداية تخفيف الإغلاق والإجراءات الاحترازية (رغم التحذير من موجه ثانية قادمة أكثر حدة من الجائحة)، يبين أنْ لا بوادر في تغيرات جذرية في طبيعة سياسات القوى وتوازناتها بين الدول، وأنه رغم اهتزاز منظومة القيم السائدة المهيمنة (قسرا من أعلى)؛ وهي قيم النظام الرأسمالي الاستهلاكي العولمي الذي يخترق الجهاز العصبي للشعوب، وذلك تحت وطأة وحشية العولمة وسلبياتها، إلا أن تداعيات جائحة كورونا لم توجه لهذه المنظومة ضربة في الصميم تفرض تغيرها ليصبح العالم أكثر صحة وحرية وإنسانية وعدالة؛ ولهذا يواجه النظام العالمي والنظم الإقليمية أزمات نوعية متعددة تختبر مدى استمرارية أو التغير في العالم في ظل "ما بعد كورونا"[١].

وكل هذا يفرض ويستوجب التفكير الجدي في كيفية تحويل دعاوي ومطالب الاتجاهات النقدية الغربية و"الحضارية" غير الغربية –وعلى رأسها "منظور حضاري إسلامي"– من أجل "التغيير العالمي" من مجرد تصورات فكرية لما يجب أن يكون إلى سيناريوهات حركة وعمل مدينة وشعبية لتدعيم حركات التغيير السلمية في المجتمعات وتوطيد شبكاتها عبر القومية وعبر الإقليمية، لتعلو الأصوات المطالبة بالتغيير وتصبح أكثر تأثيرا وفعالية وينتفى اتهامها بالمثالية واللاشرعية أو اللامشروعية أو الهامشية وعدم الواقعية.

فالحقوق تحتاج قوة تحميها وتخدمها، والشعوب تحتاج نظما تمثلها حقيقة، والفقراء والمهمشون لن يظلوا صامتين للأبد، ومشاكل الإنسانية المعذبة لن تظل طويلاً مجرد قنابل موقوتة، فهل قاربت على الانفجار؟! أستكون هي "الحرب العالمية الثالثة" أم سيكون جشع الكبار وصراعاتهم وخاصة الاقتصادية اللاأخلاقية هي المفجر لهذه الحرب كما حدث مع الحرب العالمية الأولى التي فجرتها التنافسات الاستعمارية، والحرب العالمية الثانية التي فجرتها تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية، والحرب الباردة التي فجرها تقسيم أيديولوجي وحروب بالوكالة بين قطبين، والحرب العالمية على الإرهاب التي فجرتها الولايات المتحدة لتأكيد هيمنتها الأحادية على العالم باستخدام كافة الأسلحة الملتحفة برداء ديني ثقافي مقيت؟ فما إذاً هو نمط الحرب الذي تتصوره سرديات "ما بعد كورونا": حرب تكنولوجية تغير نمط الحياة البشرية، وتزيد من الفجوات بين الشعوب والأمم بل وداخل الشعب الواحد والأمة الواحدة؟ أم ماذا؟

الحمد لله

سبتمبر ٢٠٢٠

*****

(١) وتقدم تقارير هذا العدد من الفصلية نماذج لها.

ملف العدد:

الآثار العاجلة لجائحة كورونا وقضايا عالمية ومحلية



السياسة والحقوق في النظم الديمقراطية والنظم التسلطية

د. نادية حسن

وجهت أزمة وباء كوفيد ١٩ ضربات -لا تخطئها العين- للإجماع حول أفضلية النظم الديمقراطية، وفرضت تحديات غير مسبوقة على عملية صنع السياسات واتخاذ القرارات في مختلف النظم السياسية، إلا أن التحدي كان أكبر أمام الديمقراطيات حول العالم. فكثير من الإجراءات المطلوبة لمواجهة تداعيات هذا الوباء تتناقض جذريا مع فلسفة تلك النظم وآليات عملها. فقد أعادت الأزمة الجدل العالمي حول مزايا كل من الديمقراطية والسلطوية، وأيهما الأقدر والأجدر على مواجهة هذه المحنة. ولكن بنظرة أعمق لتداعيات وباء كورونا، يمكن ملاحظة أنه رغم ما قادت إليه هذه الأزمة لأول وهلة من اهتزاز صورة الديمقراطيات وتلميع صورة الديكتاتوريات، إلا أنه بعدما هدأ غبار المعارك الدعائية الإعلامية (خاصة بين الصين والولايات المتحدة)، وتراجع الاهتمام بماكينة عدِّ المصابين والمتوفّين، بدأت تظهر التحليلات الأكثر عمقا والتي تنظر للأزمة من مختلف أبعادها وتقيّم النتائج بشكل أكثر موضوعية. فبانت كثير من نقاط القوة ومظاهر إيجابية أداء النظم الديمقراطية، والعكس صحيح أيضا: فيما يخصُّ مكامن ضعف النظم السلطوية؛ وليتضح أن عامل مصداقية النظم الديمقراطية والثقة فيها -رغم المشاكل التي ظهرت- هو محدد رئيس في الحكم على أداء النظم وإدراتها للأزمة.

هذا لا يمنع أن ضغوط أزمة كبرى مثل وباء كوفيد ١٩ تركت آثارها على عملية صنع السياسات والقرارات في مختلف النظم وخاصة الديمقراطية منها؛ لأن الفيروس ترك بصماته على مرتكزات مهمة للحكم الديمقراطي؛ مثل: العمليات الانتخابية، سيطرة المدنيين على العسكريين، استقلالية المجتمع المدني، التماسك السياسي/المجتمعي، العلاقة بين المحلي والمركزي، حقوق الإنسان وخاصة الحريات. وهو التغير الذي ستتناوله هذه الورقة؛ بالنظر في آثار كوفيد ١٩ على أربعة محاور أساسية؛ كل منها يمثل ركيزة من ركائز الحكم الديمقراطي يتأسس عليها حقٌّ من الحقوق الأساسية للإنسان. فبعد الإشارة إلى ما كشفت عنه الأزمة من إشكاليات بنيوية تعاني منها نظم ومجتمعات عدة منها الغربية، سيتم تناول أبعاد أربعة لانعكاس كوفيد ١٩ على سياسات وقرارات النظم من جانب وحقوق المواطنين من جانب آخر: أولها- الانتخابات وحق المحاسبة السياسية، ثانيها- سياسات الطوارئ وتقييد الحريات، ثالثها- تماسك الداخل سياسيًّا ومجتمعيًّا، ورابعها- عامل الشفافية وحق المعرفة.

مقدمة: كورونا كأزمة كاشفة

كشفت أزمة فيروس كورونا عن محاور هامة للتوتر والصراعات داخل النظم السياسية وفيما بينها، فخرجت للعلن عملية الشدّ والجذب المستمرة ما بين مؤسسات الدولة العميقة وبين المؤسسات المنتخبة، وما بين أيديولوجيات النظم الديمقراطية والسلطوية وما بين التيارات السياسية الأيديولوجية في داخل النظام الواحد. فتداعيات انتشار كوفيد ١٩ ألقت الضوء على بنية الصراعات السياسية بركيزتيها المؤسسية والفكرية.

أولا- لقد كانت أزمة كورونا أزمة كاشفة للخلل الكامن والخفي في أغلب نظم العالم ما بين السلطات التنفيذية من جانب والتشريعية من جانب آخر؛ فهى لم تنشِئ تلك الحالة من الشدِّ والجذب بين طرفي عملية

صنع القرار في النظم السياسية، وإنما كانت واجهة جديدة لها. وهي إشكالية تتعلق بالنظم الديمقراطية أكثر من السلطوية، فالأخيرة تتكامل مؤسساتها في اتّساق داخلي لإحكام السيطرة على المجتمع ولا تعاني مثل الديمقراطيات من تلك المعركة الخفية بين من يملك إدارة دفة كواليس مؤسسات الدولة العميقة وبين من يمثل الشعب؛ بين المعيَّن والمنتخب، بين من يملك القوة بنوعيها الصلدة والناعمة من قوة عسكرية واقتصادية وتكنولوجية وإعلامية وبين يملك القوة الناعمة بالأساس ممثلة في الشرعية السياسية والقبول المجتمعي. خرجت للعلن هذه العلاقة الصراعية المركبة التي لا يخلو منها أي نظام مهما بلغت درجة ديمقراطيته. فكثيرا ما أقرَّت الدراسات الأكاديمية بما لدى السلطات التنفيذية من مزايا تجعلها أقدر على إدارة دقّة الأمور ولو بشكل غير مرئي، وبما لدى مؤسسات الدولة (غير المنتخبة) من أفضلية بسبب ما تملكه من مصادر قوة تتعلّق بقوة المعرفة والاستمرارية، والتي نادرا ما تتوافر للمؤسسسات المنتخبة، بل الأولى هي التي تقرر ما تتيحه من معلومات وما تحجبه. وجاءت أزمة كورونا وكانت المشكلة في البداية: من يملك المعرفة الأدق حول الفيروس (نشأته وطرق مكافحته)، ثم في تحديد الإجراءات الوقائية اللازمة، ثم من سيملك اللقاح للقضاء عليه، وصولاً إلى من يملك الرقابة على عمل مؤسسات الدولة حتى لا تقصر أو تطغى أو تنتهك الحقوق.

ثانيا- لم يحتكر نموذج حكم بعينه الإدارة الناجحة للأزمة؛ حيث تفاوت الأداء في داخل كل معسكر (ديمقراطي أو سلطوي) وما بين المعسكرين. وبدا السباق على أيّهم أفضل صراع أيديولوجيات أكثر منه صراع نظم، ولا يمكن فيه ادعاء أن فريقًا احتكر النجاح دون غيره، وكما تفاوت الأداء تفاوتت معايير تقييم النجاح. ولعل التنافس الدولي والتدافع في داخل النظم إبان الأزمة أعاد أهمية العامل الأيديولوجى إلى الواجهة مرة أخرى وبقوة. في تغريدة لبن رود نائب مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق قال: "ليس مصادفة أن الدول التي يديرها القوميون اليمينيون هي الأسوأ في التعامل مع كوفيد ١٩ (انظر: الولايات المتحدة، روسيا، بريطانيا، البرازيل)". إلا أنها ملاحظة لا تمثل إلا جزءا من الصورة. وهو ما نبَّه إليه البعض باعتبار أن مثل هذا القول يتجاهل أمثلة أخرى تدل على العكس مثل: إيطاليا، السويد، المجر أو الإكوادور[1]. مثل هذا الجدل الدائر في الأروقة السياسية وأيضا الأكاديمية يعكس أمرين، تسييس النظرة للدول استنادا على موقف أيديولوجى أو سياسي أكثر من موقف موضوعى ينظر لواقع الأداء بإيجابياته وسلبياته، ثانيا أنه لا يمكن ربط أداء معين (إيجابى أو سلبي) للاستجابة لأزمة كوفيد ١٩ بنمط بعينه من النظم أو بأيديولوجية بعينها للإدارة الحاكمة.

تباينت الدول في درجة نجاحها في مواجهة فيروس كورونا: فنجحت بعض الدول السلطوية نسبيًا مثل سنغافورة وفيتنام، بينما دول أخرى مثل إيران كان أداؤها سيئا. ومن بين الدول الديمقراطية، كانت إدارة حكومات كوريا الجنوبية وتايوان من أفضل النماذج – بحسب معظم التقارير–، بينما لم يكن الوضع كذلك في إيطاليا والولايات المتحدة. لم يكن نمط النظام السياسي هو العامل الحاسم بقدر ما هي عوامل أخرى أهم مثل: خبرات سابقة في مواجهة أزمات صحية مماثلة، ومستوى قدرات وإمكانيات الدولة، الشرعية، وثقة المواطن في

---

(1) Dhruva Jaishankar, What does COVID19 tell us about democracy vs authoritarianism?, Observer Research Foundation, May 16 2020, available at: https://bit.ly/33LhaJG

الدولة، وهى العوامل التي حدَّدت مستوى الاستجابة ومستوى النجاح في مواجهة الأزمة. وهذا لم يمنع من انتشار مقولة إن اليد الحازمة التي يتمتع بها النظام السلطوي باتت ضرورية للتعامل الناجح مع وباء خطير مثل كوفيد ١٩، وتكررت المقارنة الشهيرة بين نتائج أداء الإدارتين الصينية والأمريكية للتدليل دوما على ذلك؛ حيث بدت مثل هذه المقارنة لصالح الصين[١]. إلا أنه اذا ما تم إدخال عنصر الشفافية والمصداقية، فإن البوصلة تتغير في اتجاه مزيد من التشكيك في حجم وثمن الإنجاز الذي حققته كثير من النظم السلطوية؛ حيث تمتاز الديمقراطيات عن الديكتاتوريات بعامل الثقة[٢]. وساعد على ذلك أن الآليات الديمقراطية تسمح بتصحيح الأخطاء —حال وقوعها– عبر الانتخابات والحوار المجتمعي وحرية تداول البيانات والشفافية وحرية الإعلام[٣].

ثالثا– ليس هناك توافق أكاديمي حتى الآن حول الآثار السياسية لكوفيد ١٩ على النظم من داخلها؛ فقد أثبتت الدراسات الراصدة للرأى العام على شبكات التواصل الاجتماعي تباينا واضحا في تأثير الأزمة على الدعم السياسي للنظم أو للأحزاب الحاكمة؛ ففي بعض الدول كانت النتيجة لصالح مزيد من تماسك القاعدة السياسية والمجتمعية للنخب الحاكمة؛ وفي أخرى: العكس. فعلى سبيل المثال، في كندا زاد تماسك القاعدة السياسية للحزب الحاكم والدعم المجتمعي للحكومة، وأيضا على المستويات المحلية الألمانية في بافاريا أفادت الأزمة شعبية الحزب الحاكم. وخلصت هذه الدراسات إلى أن أزمة الوباء دعمت من الوضع الديمقراطي القائم. كما أظهرت دراسات إحصائية في ١٥ دولة أوروبية أن نسبة التأييد لأحزاب الزعماء الحاليين (رؤساء أو رؤساء وزارة) قد زادت بنسبة ٤% بعد الإغلاق، وأن نسبة الرضاء بالديمقراطية والثقة في الحكومة زادت بنسبة ٣%. ولم يكن الموقف من الإغلاق مؤثرا على أو متأثرا بأيديولوجية الأفراد، فبدا أن الأغلبية أدركت أن الإغلاقات كانت ضرورية وأنها راضية عن المسؤولين عنه. في حين أنه على الجانب الآخر فإنه بالعكس، أشارت دراسة أخرى إلى ظهور نزعة قومية في إسبانيا مع مطالب متزايدة لنمط "تكنو–سلطوي" في صناعة القرار. أما في الولايات المتحدة فإن مساندة قرارات العزل والإغلاق ارتبطت بقوة بالانتماء الحزبي. ومن الأدلة على ذلك أن الانتماء الحزبي لحاكم الولاية الذي يعلن عن الإغلاق كان مفتاح درجة الالتزام به وقبوله من عدمه. وجميعها نتائج تشير إلى بداية تحول في السلوكيات الديمقراطية[٤].

---

(1) Frances Z. Brown, Saskia Brechenmacher, Thomas Carothers, How Will the Coronavirus Reshape Democracy and Governance Globally?, Carnegie Endowment for International Peace, 6 April 2020, available at: https://bit.ly/2Fl0D68

(2) Coronavirus: A stress test for democracy, DW, 8 April 2020, available at: https://p.dw.com/p/3aeUJ

(3) Ilan Alon, Matthew Farrell, Shaomin Li, Regime Type and COVID-19 Response, FIIB Business Review 9 (3), 2020, p. 153.

(4) Damien Bol , Marco Giani , André Blais, Peter John Loewen, The effect of COVID-19 lockdowns on political support: Some good news for democracy?, European Journal of political research, 19 May 2020, available at: https://bit.ly/2SERPer

أولًا– العملية الانتخابية وحق المحاسبة السياسية

تداول السلطة والرقابة الدورية على الحكومات عبر العمليات الانتخابية هي الضمانة الأولى لإنزال حق الشعوب في المحاسبة السياسية لحكامها على أرض الواقع. حيث تظل الانتخابات ركيزة هامة (وإن كانت غير وحيدة) للأداء الديمقراطي لأي نظام سياسي. فرغم كثير من المآخذ المرصودة في العمليات الانتخابية حول العالم –حتى الجزء الديمقراطي منه–، تظل الآلية الأفضل لتحقيق تداول سلمي للسلطة وفرض رقابة الشعب على الحاكم وتمكينه من محاسبة حكومته. وتعرضت هذه الآلية لتحديات كبرى على إثر الإجراءات المفروضة لمواجهة انتشار فيروس كورونا، وذلك على أكثر من مستوى، مستوى إجرائها من عدمه، ومستوى كيفية إجرائها، ومستوى مشاكل إجرائها، ومستوى مصداقية نتائجها.

بسبب الإجراءات الوقائية تعثرت بشكل كبير الانتخابات حول العالم. ففي الفترة من ٢١ فبراير إلى ٢٠ سبتمبر ٢٠٢٠ قرَّرت على الأقل إحدى وسبعين دولة تأجيل عمليات انتخابية كان من المقرَّر إجراؤها سواء انتخابات عامة أو محلية، منها حوالي ٣٨ انتخابا رئاسيًّا أو برلمانيًّا أو استفتاءات. وفي المقابل قرَّرت إحدى وستون دولة أخرى إجراء الانتخابات في موعدها رغم المخاوف من انتشار المرض، منهم على الأقل ٤٦ انتخابا عامًّا أو استفتاء[١]. ومن ناحية أخرى، رصدت كثير من الدراسات تراجعا ملحوظًا في نسب المشاركة في الانتخابات التي عقدت في فترة الوباء، منها الانتخابات المحلية الفرنسية في ١٥ مارس ٢٠٢٠[٢]، حيث بلغت نسبة المشاركة فيها ٤٦% مقابل ٦٣,٥% في ٢٠١٤. وبالمثل في إيران انخفضت المشاركة في الانتخابات البرلمانية من ٦٢% في ٢٠١٦ إلى ٤٣% في ٢٠٢٠ –وانخفضت النسبة أكثر في طهران إلى ٢٥%–، وفي الولايات المتحدة انخفضت في بعض الولايات معدلات المشاركة في الانتخابات الأولية بحوالي ٢٥% عن المرات السابقة). ولا تؤثر المخاوف من الفيروس على الناخبين فحسب، بل على الكوادر المنظمة للانتخابات أيضا، حيث ينسحب كثيرون منها، حتى إنه تم تأجيل انتخابات أوهايو الأولية عدَّة ساعات حتى يمكن تعويض من اعتذر من المشرفين على التصويت. ومما يزيد الأمور تعقيدا عدم كفاية المستلزمات الوقائية التي ترسلها اللجان الانتخابية مثل الكمامات والمطهرات، وغياب التدريب لاستخدامها[٣].

ومن بين الدول أيضا التي أجَّلت انتخاباتها جاءت كل من إيطاليا وصربيا وإسبانيا والمملكة المتحدة وإثيوبيا، ومن المتوقع تأجيل انتخابات أخرى في دول أخرى في المستقبل القريب. وهو ما يعني تجميد حق أصيل للمواطنين في كثير من دول العالم، وهو حق اختيار الحاكم ومحاسبته سياسيًّا. وحتى في حال انعقاد الانتخابات في موعدها يظل لأزمة كورونا تأثيرها على سير العملية الانتخابية ذاتها مثل انخفاض نسب المشاركة

(1) Global overview of COVID-19: Impact on elections, *updated on 25 September 2020,* available at: https://bit.ly/33Jz93r

(2) Erik Asplund, Toby James, Elections and Covid-19: making democracy work in uncertain times, 30 March 2020, available at: https://bit.ly/3lyx68b

(3) *Fernanda Buril*, *Staffan Darnolf*, Low Voter Turnouts, Fear, Disinformation and Disrupted Supply Chains: How Election Commissions Are Unprepared for COVID-19, International Foundation for electoral systems, 27 Mar 2020, available at: https://bit.ly/34EKssW

خاصة بالنسبة للفئات المهمشة أو لكبار السن. وهذا لم يمنع من ظهور جهود إبداعية للتغلُّب على مقتضيات تلك اللحظة الاستثنائية عبر ابتكار وتطوير أساليب جديدة في الانتخاب مثل التصويت المبكر أو التصويت عبر البريد. وتتَّخذ كوريا الجنوبية الخطوات للسماح لمواطنيها بالتصويت من المنازل أو المستشفيات في الانتخابات البرلمانية القادمة. إلا أن للتصويت الإلكتروني مشاكله، منها تزايد المخاوف من التدخلات الخارجية وتفاوت مستويات البنية التحتية التكنولوجية ما بين الدول[1]. ويتم تقييم التصويت الإلكتروني وفق خمس معايير: التكلفة، المشاركة، الكفاءة، الثقة والأمن. وبسبب الحاجة إلى مستويات متقدمة من التخطيط والإعداد والاختبار، سيكون من الصعب على الدول التي لا تمتلك متطلبات الشبكات الإلكترونية أن تطبق نظام التصويت الإلكتروني حتى لو استمرت مخاطر انتشار الفيروس[2].

كما تأثَّرت الحملات الانتخابية بغياب المؤتمرات الدعائية بشكلها التقليدى، وتغيرت البرامج الانتخابية بالتركيز على السياسات الصحية كقضية محورية لها الأولوية القصوى، وتراجعت مختلف القضايا الهامة الأخرى. وفي بعض الاحيان سمحت الإجراءات الاستثنائية للحكومة بالتضييق على مرشحي المعارضة وعلى حرية الصحفيين[3].

كانت الانتخابات الأمريكية من أكثر الانتخابات التي تأثرت بكوفيد ١٩ على أكثر من مستوى: سواء من حيث القضايا المثارة بالتركيز على السياسات الصحية وعدم المساواة الاقتصادية والعنصرية، أو من حيث أساليب الدعاية وجمع التبرعات التي أضحت تتم عبر الإنترنت. كما اضطرت كثير من الولايات إلى تغيير الكيفية التي يحصل بها سكانها على بطاقاتهم الانتخابية. وتتَّجه حاليًّا العديد من الولايات للتحوُّل إلى نظام الانتخاب عبر البريد، وتسمح بذلك للمواطنين بالتصويت غيابيًّا بدون تقديم أعذار أو بتحديد كوفيد ١٩ كسبب طبي مقبول. إلا أن الأمر ما زال يكتنفه الغموض والتباين فيما بين الولايات، ففي يونيو ٢٠٢٠ حكمت المحكمة الأمريكية العليا برفض قضية قدَّمها الديمقراطيون لجعل التصويت في كل أنحاء ولاية تكساس بالبريد. وفي جورجيا، تم إرسال طلب انتخاب لكل ناخب بالبريد في الانتخابات الأولية، إلا أنه لا يمكن تكرار مثل ذلك في الانتخابات الرئاسية. وبعض الولايات مثل كاليفورنيا ونيفادا وفيرمونت سترسل بطاقات الانتخاب بالبريد لكافة الناخبين، لتنضم بذلك لخمس ولايات أخرى تتبع مثل هذا الإجراء، وأخرى سترسل طلبات التصويت غيابيًّا لكافة الناخبين. وبالإضافة إلى مشكلة اختلاف الإجراءات ما بين الولايات، يحذر الخبراء من أنه قد لا يمكن التعامل بسهولة مع فيض البطاقات المتوقع، خاصة وأن متطلبات البريد والأختام والتوثيق تختلف بشكل كبير من ولاية إلى أخرى. كما تتفاوت الميزانيات اللازمة لتوفير الإجراءات الوقائية وملايين الطوابع، ولم يقدم الكونجرس إلا نسبة من التمويل الذي طلبته الولايات. لقد فرض الوباء نقلة مفصلية في أداء الديمقراطية الأمريكية قد لا تعود بعدها إلى سابق عهدها، فالأمر

---

(1) Frances Z. Brown, Saskia Brechenmacher, Thomas Carothers, Op. cit.

(2) Meredith Applegate, Thomas Chanussot, Vladlen Basysty, Considerations on Internet Voting: An Overview for Electoral Decision-Makers, International Foundation for electoral systems, 7 April 2020, available at: https://bit.ly/3nuCsU5

(3) Erik Asplund, Toby James, Op. cit.

تعدَّى المسألة الإجرائية، لأن التغيير في هذه التفاصيل فتح الباب للتوترات الكامنة أن تخرج إلى العلن، فمسألة تفصيلية مثل التصويت بالبريد كشفت عن أزمة كبرى متوقعة بعدما استخدمها رئيس برؤية وشخصية ترمب للتشكيك في النتائج، أي في العملية الانتخابية برمَّتها. ليظلَّ أكبر تحدّ متمثلًا فيما يمكن أن يثار من شكوك حول نتائج الانتخابات، خاصة وأنه قد لا يمكن تحديد فائز بشكل نهائي في ليلة الانتخابات كما هو معتاد، بل قد يمتد الأمر لأسابيع بل لشهور لإجراء إحصاء دقيق لجميع الأصوات. وأهم فارق بين الانتخابات الرئاسية في نوفمبر القادم وما حدث في الانتخابات الأولية في الشهور الماضية، أنه رغم ما حدث من اضطراب وتأجيل النتائج لأسابيع في الانتخابات الأولية، إلا أنه لم يكن هناك مرشَّح يكرر دوما أن الانتخابات تمَّت سرقتها أو تزويرها كما يفعل ترامب منذ مدة طويلة مشككًا في شرعية التصويت في الانتخابات الرئاسية ومصراً على أن التصويت غير مؤمن وأنه سيتم تزوير الانتخابات. حيث يميز ترامب ما بين إرسال بطاقات التصويت لكافة الناخبين وبين التصويت الغيابي عندما يتقدَّم المصوت بطلب للحصول على بطاقته الانتخابية، وهو عكس آراء الخبراء الذين لا يرون فارقًا بين الاثنين يمكن أن ينتقص من درجة تأمين العملية الانتخابية. ولا شك أن تقليل ترامب من الثقة في نزاهة الانتخابات الأمريكية يزيد من احتمالات تعرُّض الولايات المتحدة لأزمة دستورية أو ربما أسوأ[1].

ثانيا– السلطوية الجديدة وتقييد الحريات

ظهر اقترابان في التعامل مع فيروس كورونا: الأول– استجابة أمنية سلطوية والثاني استجابة تعلي من حماية المصالح الاقتصادية على حساب اعتبارات الصحة العامة. ويتحرك المعسكر الأمني السلطوي في اتجاه ما يمكن تسميته ب"غلق الديمقراطية". واعتبرت كثير من الدراسات أن سياسات وسلوكيات كل من أوربان رئيس وزراء المجر ومودى رئيس وزراء الهند مثالين صارخين على ذلك. فقد ضحَّيا بالحريات السياسية تحت مزاعم محاربة الوباء. وبالمثل سمح رئيس الوزراء الكيان الصهيوني نتنياهو بسلطات ضخمة لتتبع ومراقبة المواطنين بدون أي رقابة على مثل هذا الإجراء، وفي الفلبين هدَّد رئيس وزراء دوتيرتو بقانون الطوارئ وأعلن أنه أعطى الأوامر لقوات الأمن بقتل من يخرق حظر التجول. وبخلاف هذا الاقتراب اتجه البعض داخل ذات المعسكر السلطوي إلى التهوين أيضا من كوفيد ١٩ ويأتي كل من الرئيسين الأمريكي والبرازيلي في مقدمة هذه الفئة من الحكام، حيث تغلبت مراعاة المصالح الاقتصادية على حماية الأرواح، واستخدم هؤلاء الزعماء توليفة تجمع بين الحديث عن المؤامرات بالإضافة إلى اعتبار الاستهانة بمخاطر هذا الفيروس شكلا من أشكال الرجولة والقوة. ودعت ممارسات هذا المعسكر إلى أن تطفو على السطح ما عرف بالسلطوية الجديدة، والتي قامت في العقد الأخير على تحالفات يمينية منتخبة (يمين الوسط واليمين المتطرف) في ديمقراطيات عدَّة خاصة في أوروبا وآسيا، وتتَّسم هذه النظم بثلاث سمات كبرى: رأسمالية الأصدقاء حين تهيمن العلاقة الوثيقة بين المسؤولين السياسيين والنخبة الاقتصادية على عملية صنع السياسات وتبدو السلطة أكثر ميلا لمؤيديها، والتآكل الديمقراطي بإضعاف مؤسسات المراقبة، والخطابات إثنية قومية "ذكورية" بتعبئة شعوبية للمجتمع. وقد تجلَّت تلك التوليفة بوضوح في رد فعل الرئيس ترامب على مظاهرات "حياة السود مهمة"، والذي نقل فيها أزمة الديمقراطية الأمريكية إلى مستويات غير مسبوقة من تهديد لثوابت الهوية الثقافية–السياسية.

(1) How COVID-19 Changed Everything About the 2020 Election, Time, 17 *August 2020*, available at: https://bit.ly/34HaTyc

حيث كانت هذه أول مرة يتحدث رئيس أمريكي عن تحريك الجيش لاستعادة الأمن والنظام، كما شجّعت خطاباته ميليشيات اليمين المتطرّف على تهديد المحتجين من الأمريكيين الأفارقة، وعلى الاحتجاج على سياسات الإغلاق. ولكن في المقابل، شكّل عداء مؤسسات الدولة العميقة لترامب خيطًا رفيعا واقيا حاميا للشعب، مما صعَّب من تعبئة الجيش عسكريًّا ضد مناطق الاحتجاجات، ومنع ذلك الأوضاع من التفاقم في أكبر أزمة يمر بها النظام الديمقراطي الأمريكي منذ الحرب العالمية الثانية[١] . فما زال التحدّي كبيرا مع توالي خطابات ترامب المشكّكة في نتائج الانتخابات الرئاسية القادمة، وهو التشكيك وثيق الصلة بأزمة كوفيد ١٩، وكلمة السر هنا التصويت بالبريد.

وكرَّس التوسُّع عبر العالم في إعلان حالة الطوارئ من التوجُّه السلطوي الجديد، حيث أعلنت أكثر من خمسين دولة حالة الطوارئ. وكثرت المؤشرات الدالة على محاولات الحكومات حول العالم زيادة قوتها بقدر يفوق الحاجة لمواجهة الأزمة الصحية، ووصل الأمر أحيانا إلى التضييق على المعارضة والتقليل من فرصتها للوصول إلى السلطة، في ظل تراجع آليات الرقابة. وبذلك قد يؤدّي الوباء في نهاية الأمر إلى زيادة سلطوية النظم الديكتاتورية وتراجع الديمقراطية في الديمقراطيات الهشَّة، وزيادة قوة السلطات التنفيذية في مواجهة السلطات الأخرى في الدول الديمقراطية. وهو ما يمكن اعتباره اتجاها عامًّا نحو مركزة السلطة. فقد اتجه كثير من الزعماء إلى استغلال الأزمة من أجل إضعاف آليات المحاسبة والرقابة المتبادلة، مما أضرَّ بتوازن السلطات. ومن أبرز الأمثلة على ذلك القانون الجديد الذي يسمح لرئيس الوزراء المجري أن يحكم بالمراسيم بدون أي رقابة برلمانية ولأجل غير مسمى. وفي الفلبين مرَّر البرلمان قانوناً يمنح الرئيس دوتيرتي قوة استثنائية غير مسبوقة، وبالمثل في كامبوديا يعطي قانون الطوارئ الجديد للحكومة سلطات غير محدودة كحاكم عسكرى مع تحجيم كبير للحقوق السياسية للمواطنين. وبالفعل استخدمت كثير من أمثال هذه الحكومات الظرف الاستثنائي للجور على الحقوق الأساسية مثل حرية التعبير وحرية الإعلام بذريعة مكافحة "المعلومات المغلوطة" عن الفيروس. فالحكومة الصينية –على سبيل المثال– فرضت رقابة صارمة على أي معلومات تتناول كيفية استجابتها وإدارتها للأزمة وقامت باعتقال الصحفيين الذين تحدَّثوا عن القصور وغياب الشفافية خاصة في بداية الأزمة. كما تعرَّض المواطنون والصحفيُّون المنتقدون لأداء الحكومة التايلاندية في محاربة الفيروس لمضايقات وقضايا في المحاكم. وأضحى لرئيس الوزراء الأردني السلطة لتعليق حرية التعبير.

وكرَّس هذا الاتجاه توسُّع الدولة في الرقابة على المواطنين مستخدمة تكنولوجيات جديدة. ففي إسرائيل وكوريا الجنوبية استخدمت الحكومات تحديد المواقع بالتليفونات الذكية لتعقب من تعرَّضوا للعدوى. وفرضت هونج كونج على زائريها الجدد ارتداء أسورة التتبُّع. بينما قامت سنغافورة بعملية مكثفة من اتصالات التتبُّع ونشر البيانات المفصلة عن كل حالة. ورغم أن الرقابة في حدّ ذاتها ليست ضدَّ القواعد الديمقراطية، إلا أن الخوف يظل من مخاطر سوء استخدامها سياسيًّا، خاصة إذا لم تكن مصحوبة بشفافية وضوابط رقابية تمنع استغلالها لأغراض سياسية. في الهند على سبيل المثال، ضغطت السلطات الرسمية على الصحافة المحلية لتقديم تغطية إعلامية إيجابية عن أداء الحكومة في الأزمة، بالرغم من تطبيق استراتيجيات مثيرة للقلق مثل الطلب من الأشخاص الخاضعين للحظر أن يرسلوا صورا لأنفسهم

---

(١) Luke Cooper, Guy Aitchison, Covid-19,Authoritarianism and Democracy, LSE Conflict and Civil Society Research Unit, June 2020

"سيلفي"، واستخدام تتبُّع المواقع للتأكُّد من أن هذه الصورة التقطت في منزل المريض. بل إن الوباء أعطى مبررات لدول مستبدة مثل الصين وروسيا لتطبيق أنظمة تدخلية مثل تكنولوجيا التعرُّف على الوجه والرقابة على وسائل التواصل الاجتماعي. ومن ناحية أخرى، فإن مخاوف لها وجهاتها ظهرت من إمكانية استغلال النظم الحاكمة لسياسة العزل ومنع التجمُّعات لوقف أي أنشطة احتجاجية، وهو ما حدث بالفعل في الجزائر، فبعد أن أجبرت المظاهرات المستمرة لشهور الدولة على إجراء اصلاحات سياسية هامة، قامت الحكومة بإلغاء جميع اشكال الاحتجاج من وقفات ومظاهرات[١].

مثَّل عودة الحكومات إلى البؤرة المركزية نهاية مرحلة تراجع الدولة لصالح السوق. فخلال أزمة الوباء حظي رؤساء الحكومات بسلطات لم تتوافر لهم إلا في زمن الحروب. لقد كشفت أزمة الفيروس عن مثالب سياسات السوق الحر، والتي تجلّت في نهاية الأمر في انهيار النظام الصحى الأمريكي في أزمة صحية كبرى ككورونا. وبدأ الناخبون في أكثر الديمقراطيات تقدما يشعرون بأنهم يدفعون ثمن التصويت لأيديولوجية تفضل "دولة أقل وضريبة أقل". وتحتاج السوق الليبرالية إلى توافق سياسي كي يستمر ويعمل، ولذا اعتبر البعض أن كوفيد ١٩ بمثابة هدية للنظم الشعوبية ويكرس من الاتجاه ناحية السلطوية القومية. فبدى المناخ مواتيا لتفضيل إغلاق الحدود للحماية من العالم الخارجي، خاصة مع ميل الرأى العام في أغلب الدول إلى تفضيل الأمن على الحرية[٢].

في أغلب الدول الأوروبية، جاء قرار إعلان الطوارئ وأي من الإجراءات الاستثنائية مثل إجراء الانتخابات أو تأجيلها بناء على توافق سياسي ومجتمعي وأحيانا في إطار إجماع ، وبمشاركة ودعم المعارضة. ولكن لم يحدث مثل هذا التوافق في بعض الدولة مثل المجر وبولندا —وهي التي اعتبر قرار الاتحاد الأوروبي الصادر في ١٧ أبريل أن ممارستها منافية للقيم الأوربية. ففي الأولى تم مد حالة الطوارئ لأجل غير مسمى مع إعطاء الحكومة حق الحكم بالمراسيم في ظل إضعاف سلطة البرلمان الرقابية. في حين أن الحكومة البولندية قامت بتغيير القانون الانتخابي بالمخالفة لحكم المحكمة الدستورية، وأقرت قانونا يقرر إقامة الانتخابات الرئاسية وسط وباء ما زال مستشريا، معرضة حياة المواطنين للخطر ومنتهكة مفهوم الانتخابات السرية المباشرة والحرة والعادلة التي ينص عليها الدستور البولندى[٣].

هذا بالإضافة إلى أن دولًا كثيرة قامت باستدعاء الجيش للمساعدة في جهود مكافحة الفيروس ولفرض حظر جزئي أو كلي مثل إيران وإسرائيل وبيرو، وهو ما قد يفتح الباب أمام مزيد من التدخل العسكرى في الحياة المدنية والاقتصادية. وفي دول أخرى مثل باكستان التي تعاني بالفعل من خلل في توازن القوة بين المدنيين والعسكريين قد يزداد الصراع بينهما حول أنسب الوسائل لمكافحة الفيروس، وهو ما حدا بالقيادات الأمنية إلى تجاهل رئيس الوزراء المدني والعمل مباشرة مع إدارات المقاطعات على المستوى المحلي. كما بدا في إيران أن الجيش يكتسب مساحات أكبر من النفوذ في اتخاذ

(1) Frances Z. Brown, Saskia Brechenmacher, Thomas Carothers, Op. cit.

(2) Philip Stephens, How coronavirus is remaking democratic politics, Financial Times, 28 June 2020, available at: https://on.ft.com/30R1kvl

(3) Ottavio Marzocchi, The impact of Covid 19 measures on democracy, rule of law and fundamental Rights in the EU, Briefing, European parliament, Policy Department for Citizens' Rights and Constitutional Affairs, 23 April 2020.

قرارات التعامل مع الأزمة. وفي الدول ذات تاريخ في انتهاكات حقوق الإنسان، شهدت الأيام الأولى من مواجهة انتشار الفيروس خروقات من رجال الشرطة والجيش في فرض حظر التجول في دول مثل كينيا[١].

لقد قيَّدت سلطات الطوارئ في دول العالم – حتى الديمقراطية منها– كثيرا من الحقوق الأساسية مثل حرية الحركة والتجمع. كما أن لنظام تتبع جهات الاتصال وتعقُّب المواقع تأثيرات سلبية على مبدأي احترام الخصوصية وحماية المعلومات. وقد استحدثت عقوبات الغرامة والسجن للمخالفين للإجراءات الوقائية المفروضة من الدولة، وتم تعليق اللجوء في كل أوروبا، وحتى السجناء عانوا من انتهاك لعدد من حقوقهم منها منع الزيارات عنهم. وتم تعليق عمل القضاء في كثير من البلدان. واستغلت بعض الحكومات مناخ الأزمة الضاغط لتمرير قوانين جدلية تنتهك حق حرية التعبير. وتقدَّمت بعض الدول في الاتحاد الأوروبي مثل إستوانيا ورومانيا ولاتفيا بطلب للمجلس الأوروبى للخروج من مجلس حقوق الإنسان الأوروبي. وسواء تم إعلان حالة الطوارئ أم لا، فقد اتبعت جميع الدول نفس السياسات التقييدية. وما ضاعف من وطأة هذه الإجراءات على حقوق الإنسان هو غياب البرلمانات، والتى اضطر كثير منها لتعليق أو تأجيل أو تخفيض عدد جلساتها في إطار عملية إعادة هيكلة أنشطتها ليس لإعلان حالة الطوارئ فحسب ولكن لأسباب الوقاية الصحية أيضا. وكثير منها لجأت إلى الاجتماعات عبر الإنترنت وللتصويت عن بعد[٢].

وأصدرت كل من بلغاريا وجمهورية التشيك وسلوفاكيا وإسبانيا قوانين جديدة تجبر مقدّمي خدمات الاتصالات على مشاركة بيانات عملائها مع سلطات الدولة. على سبيل المثال تم تحديد شركة تليكوم بشكل خاص في بلغاريا وسلوفاكيا لإجبارها على إعطاء البيانات الشخصية مثل تحديد المواقع عند طلب الجهات الرسمية ، وفي جمهورية التشيك وحدها يتطلب موافقة المستخدم على ذلك. وفي كل من النمسا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا تم الإعلان عن أن شركات الاتصالات ستشارك بيانات المواقع المجهلة مع السلطات الحكومية من أجل رصد خريطة الحركة وأماكن تركز الأفراد. في حين طوَّرت بولندا تطبيقًا إجبارياً يحدد مواقع الأشخاص الخاضعين للعزل مع إرسالهم صورا ذاتية لأنفسهم "سيلفي". أما قبرص فعمَّمت تطبيقًا لتتبُّع الأشخاص العاملين خارج منازلهم. ويتم استخدام الطائرات المسيرة في بلجيكا وفرنسا وإيطاليا لإعلام الناس عن أماكن التجمعات ومراقبة مدى الالتزام بسياسات التباعد الاجتماعي[٣].

وتظل إشكالية الموازنة ما بين محاربة تضليل الرأى العام من جانب وبين عدم انتهاك حرية التعبير من جانب ثان قائمة. ففي الوقت الذي تبنَّى فيه الاتحاد الأوروبي حملات لمواجهة الأخبار الزائفة والمعلومات المضلّلة (التي اعتبر مصدرها دولًا أجنبية مثل روسيا والصين) وتعاون في تلك الحملات مع الشركات الخاصة لإكسابها الفعالية المطلوبة، أظهر أيضا قلقه من بعض الحملات الوطنية التي تهدف إلى تجريم "الأخبار الزائفة". وانتقدت المنظمات الدولية أحد القوانين الصادرة في بلغاريا باعتباره ينتهك حرية التعبير ويساهم في جمود الصحافة. وبالمثل، أصدرت رومانيا مرسوما يسمح للسلطات بمحو أي محتوى على مواقع التواصل الاجتماعى وحظر المواقع التي نشر عليها مع سلب حق استئناف هذا القرار. كما تم رصد منع الصحفيين من

---

(1) Frances Z. Brown, Saskia Brechenmacher, Thomas Carothers, Op. cit.

(2) Ottavio Marzocchi, Op. cit.

(3) Ibid.

الحصول على المعلومات من الجهات الصحية في كل من إيطاليا والتشيك. وفي المقابل دافعت كل من إيطاليا والدنمارك عن حرية التعبير ضد التدخلات الخارجية كرد فعل رافض لتهديدات السلطات الروسية لصحفي حقَّق في المساعدات الروسية المقدَّمة لإيطاليا(١).

لا يمكن اعتبار أي تدخُّل حكومي مهما كان قاسيا بأنه غير ديمقراطي، إذ العبرة بمدى الحاجة إليه وقوة السبب الدافع لمثل هذا التدخُّل، والسؤال يصبح هل هذا الإجراء يخدم عملية مكافحة الفيروس؟ وهل سيظل تشريعه وتنفيذه محكوما بحكم القانون؟ فالتوافق وعدم احتكار جهة بمفردها لاتخاذ القرار من ضوابط تدخُّل الدولة حتى لا يتنافى تدخُّلها مع القيم والأعراف الديمقراطية. على سبيل المثال أراد وزير الصحة النمساوي أن يصدر ما عرف "بقانون عيد الفصح"، والذي بمقتضاه يحق لرجال الشرطة دخول المنازل بدون إذن للتأكُّد من أن العائلات غير مجتمعة للاحتفال بهذا العيد. وهذا الإجراء رغم انتهاكه الواضح للخصوصية، إلا أنه يمكن اتخاذه في نظام ديمقراطي على شرط موافقة البرلمان وقبول الرأي العام، وهي شروط لم تتوافر لهذا القانون ولذا تم إلغاء هذا المشروع بسبب الاحتجاجات الكبيرة عليه من المعارضة ومن المجتمع المدني(٢).

فعند تقييم مدى تأثير إجراءات مكافحة كوفيد ١٩ على حقوق الإنسان ومنها حرية الحركة والتعبير والخصوصية وغيرها، من المهم التمييز بين النظم بحسب مستوى الديمقراطية، ففي الدول راسخة الديمقراطية مثل فرنسا والنرويج والدنمارك يتم صياغة هذه الإجراءات عبر عملية ديمقراطية وتقوم بتطبيقها مؤسسات ديمقراطية ويكون لها تاريخ محدَّد، تعود الأمور لطبيعتها بعده. بينما يختلف الوضع في الديمقراطيات الهشة أو التي شهدت تراجعا حسب بعض التقارير، فالتحديات تكون في هذه الحالة أكبر، بالنظر إلى المستويات الأعلى من عدم المساواة والمستويات الأقل من شبكات الرعاية الاجتماعية والخدمات العامة، بالإضافة إلى مشاكل متعلّقة بالشرعية، ولذا قد تتراجع مؤشرات الديمقراطية، لأن مثل هذه الإجراءات ستضعف أكثر مؤسسات مثل البرلمان والإعلام وأحزاب المعارضة والمحاكم(٣).

رغم أن تطبيقات التعقُّب هي التي سمحت بإعادة فتح الاقتصاد وتخفيض المخاطر الصحية، إلا أن الخوف من آثارها السياسية يظل قائما، ومن بين هذه المخاوف سبل تأمين البيانات، وهل يمكن جعل هذه التطبيقات إجبارية في المستقبل، وهو ما يؤثر سلبا على الحريات والحقوق الدستورية للمواطنين. ولذا أثيرت المخاوف من أنه باستمرار تطبيق تلك الأنظمة قد يكون إيذانًا بتغيير نمط الحياة الغربية ذاتها، فيجد الأوروبيون والأمريكيون أنفسهم يعيشون مثل الصينيين، حيث كل شيء مراقب ويتم بإملاء فوقي مركزي يحدِّد من له حق السفر أو حتى من له أولوية الحصول عَلى الخدمات الصحية(٤).

ثالثًا– تماسك الجبهات الداخلية.. تحديات سياسية ومجتمعية

في مناخ أزمة كوفيد ١٩، طفت على السطح بقوة الانقسامات السياسية والمجتمعية والتجاذبات ما

---

(1) Ibid.

(2) Coronavirus: A stress test for democracy, Op. cit.

(3) Annika Silva-Leander, The devastating effects of COVID-19 on democracy - but what if there is a silver lining?, 14 April 2020, available at: https://bit.ly/33GVz5f

(4) Guy Verhofstadt, Is COVID-19 killing Democracy?, Project Syndicate, Brussels, 18 May 2020.

بين مستويات إدارة الدولة المركزية والمحلية. فقد مثَّل الوباء ضغطًا على التماسك السياسي والمجتمعي في بعض الدول، حيث تباينت وطأة الأزمة الصحية على ثنائيات رئيسية مثل الفقراء والأغنياء، والمدن والريف، والمناطق في مواجهة بعضها لبعض داخل الدولة، والمواطن والمهاجر، وجميعها مثَّلت حدودا لصراعات تمَّ شحذها للكشف عن شروخ كامنة في المجتمعات على اختلاف درجة تقدُّمها أو مرجعيَّتها الثقافية. فقد كشف الوباء عن استقطابات سياسية واجتماعية موجودة بالفعل، لم ينشئها ولكنه بلورها. فكثير من الديمقراطيات مثل الهند وبوليفيا وبولندا والولايات المتحدة تعاني من تنامي التوتُّرات ما بين المعسكرات السياسية المتنافسة. وتزداد الأزمة سوءا مع اختلاف الأطراف السياسية حول مدى خطورة الوضع أو حول أنسب الطرق للتعامل معه، وتتصاعد أجواء التوتُّر مع اعتماد الأفراد بشكل متزايد على التواصل عبر الإنترنت بينما يظلُّون في عزلة في منازلهم، وبينما تستخدم الحكومات الأزمة لتطبيق أجندات حزبية. وهو ما حدث في الولايات المتحدة حيث إن الانتماءات السياسية الحزبية حدَّدت إلى حدّ كبير درجة الثقة في الحكومة وكيفية تقييم المخاطر التي يمثلها الفيروس. وفي البرازيل، كان إنكار الرئيس بولسونارو لخطورة الأزمة سببا في احتقان الانقسام السياسى في البلاد[1].

ومن الأوجه الأخرى للتماسك الداخلي: العلاقة بين المحلي والمركزي، حيث أعادت الأزمة تشكيل العلاقة بين السلطات المحلية والحكومة المركزية أو بين المقاطعات الإقليمية والحكم الفيدرالي في كثير من الدول. فقد وجد المسؤولون المحليون أنفسهم في الخطوط الأمامية لمواجهة الأزمة على الأرض، يدعمون السياسات المركزية أحيانًا ويتحدُّونها أحيانًا أخرى أو ينافسونها. في أفغانستان حيث حضور السلطة المركزية ضعيفًا في الأطراف، اتجه حكّام الولايات إلى تقديم مساعدات عاجلة للمرضى للبقاء في منازلهم، وقاموا بدعم السياسات المركزية. بينما في مناطق أخرى من العالم ظهرت انقسامات ما بين المسؤولين المحليين والحكوميين. في بلغاريا حيث يسيطر حزب المعارضة على المحليات في المدن الرئيسية، اتخذت الحكومة المركزية عدة إجراءات تقلّل من سلطات العمد خلال فترة الطوارئ. في المقابل، هاجمت الإدارات المحلية خطة الحكومة في مواجهة الفيروس، فتراجعت عنها الأخيرة حتى لا يؤثّر هذا الخلاف سلبيًّا على فاعلية التعامل مع الأزمة. وفي تركيا عادت للظهور التوترات ما بين أردوغان وعمدة إسطنبول القادم من حزب المعارضة، والذي فرض إغلاقًا للمدينة بخلاف توجيهات الحكومة المركزية، وأطلق حملته الخاصة لجمع التبرعات. وبالمثل كرَّست الأزمة من الخلافات بين ترامب وعدد من حكام الولايات الديمقراطيين المنتقدين لطريقة تعامله مع أزمة كورونا. وتعدَّدت أشكال الشدّ والجذب بين المستويات المحلية والمركزية للحكم. وتؤثّر هذه التجاذبات على علاقات القوة الداخلية في الدولة، إما في اتجاه تقوية السلطات المحلية وشرعيتها على حساب المركزية، أو في اتجاه مزيد من التشرذم، خاصة إذا ما تطابقت هذه الانقسامات ما بين الحكومات والقيادات المحلية مع الخطوط الأيديولوجية أو الإقليمية أو ما بين الريف والمدن أو ما بين الأغنياء والفقراء أو ما بين الأجناس، وهنا يزداد الاستقطاب السياسي الموجود بالفعل[2].

ومن الأبعاد الأخرى الهامة للعلاقة بين المحلي والمركزي، دور القوى المجتمعية أو الفواعل من غير الدولة،

(1) Frances Z. Brown, Saskia Brechenmacher, Thomas Carother, Op. cit.

(2) Ibid.

حيث قامت مؤسسات المجتمع المدني على المستويات المحلية بأدوار هامة في مواجهة الفيروس مثل ما حدث في سيراليون وأيضا أفغانستان التي أطلقت فيها طالبان حملة للتوعية بسبل مكافحة الفيروس، وتعاونت هذه الفواعل مع منظمة الصحة العالمية. بل إن عصابات المخدرات في ريودي جانيرو كان لها دور حاسم في فرض حظر التجول في بعض المناطق، وأمَّدت القيادات المحلية بكميات من الصابون لتوزيعها، حتى إنها انتقدت أيضا تقصير الحكومة البرازيلية. ومن تلك المشاهد أيضا أنه في لبنان قام حزب الله –عبر شبكة متطوعين بلغت حوالي ٢٥ ألف متطوع– بجهود ملحوظة في مكافحة الفيروس عبر الإمدادات الطبية، وتنظيم مراكز الاختبار الجديدة وسيارات الإسعاف وتجهيز إحدى المستشفيات للتعامل مع مرضى كورونا، وأعلن الحزب أن تلك الجهود مكمّلة للجهود الحكومية[(١)].

لقد زادت مساحات التعبير والمشاركة على وسائل التواصل الاجتماعي خاصة من قوى المجتمع المدني، إلا أنها تظل متأثّرة بمستوى تقدُّم الخدمات السيبرانية في الدولة وبمستوى الرقابة والتحكّم في وسائل التواصل الاجتماعي. فقد وفرت الأزمة فرصا متفاوتة للفواعل من غير الدولة للعمل، وبشكل أوضح على مستوى المجتمعات المحلية. ففي الصين على سبيل المثال، نظم الطلاب حملة على وسائل التواصل الاجتماعي لجمع تبرعات للمستشفيات، ونشروا شكوى عن أن المساعدات الحكومية تؤول للمسؤولين الحكوميين أكثر من المستشفيات. وبالمثل نظَّمت الجامعات في الفلبين مع بعض مؤسسات المجتمع المدني حملات لمساعدة الجماعات المهمشة التي تأثرت بالإغلاق الحكومي. وظهرت حركات مماثلة في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا والكونغو وأفغانستان. ولكن من الملاحظ أن معظم هذه الأنشطة تمّت على المستويات المحلية أكثر منها على المستوى المركزي في الدولة[(٢)].

إلا أنه في الدول الهشَّة أو منخفضة الدخل، قد تتَّجه الحكومات المركزية للسيطرة على قوى المجتمع المدني التي إن زاد دورها عن حدّ معيَّن قد يكون ذلك بمثابة إدانة لتقصير الحكومة المركزية ويعيد تشكيل شرعيَّتها في عيون المواطن وتوقُّعاته منها[(٣)]. من جانب آخر، ساهم نشاط قوى المجتمع المدني كصفوف أمامية في مواجهة الفيروس في تقوية الحياة الديمقراطية خاصة على المستويات المحلية. وهو ما يوازن نسبيًّا التوسُّع المتسارع في السلطات التنفيذية حول العالم والذي يؤثّر سلبا على مساحات الحرية في المجال العام[(٤)].

تختلف أنماط العلاقة بين المستويات المركزية والمحلية في الدول الفيدرالية، وغالبا ما تكون العلاقة تعاونية كما اتَّضح في الحالتين الإيطالية والإسبانية. ولكن في دول أخرى مثل الولايات المتحدة وروسيا والبرزيل أجبرت الحكومات الفيدرالية السلطات المحلية على لعب أدوار رئيسية خلال الأزمة. على سبيل المثال، في البرازيل لم يكن لحكام الولايات لعقود نفوذ في السياسات العامة، إلا أن خلافاتهم مع الرئيس البرازيلي حول إجراءات التباعد الاجتماعي وحَّدت كثيرا من الناس حولهم وحازوا ثقتهم، بينما تراجعت شعبية الرئيس. ومن ناحية أخرى، سمح هيكل توزيع السلطات في النظم الرئاسية للرؤساء خلال الأزمة أن يتَّخذوا قرارات لإبعاد من يعارض رؤيتهم من داخل الحكومة. فقد أقال الرئيس البرازيلي وزير الصحة –المختلف معه في كيفية معالجة الأزمة– ليقوم بتعيين عسكري مكانه قريب من فكره،

(1) Ibid.
(2) Ibid.
(3) Ibid.
(4) Ibid.

وسعى لسحب البساط من تحت أقدام قادة السلطات المحلية[1].

أما فيما يخص العلاقات بين المركز والأطراف، فقد مثَّلت الولايات المتحدة أيضا حالة كاشفة لأزمة بنيوية كامنة في التفاعلات والعلاقات البينية للدولة الفيدرالية. فقد أعادت أزمة كورونا الجدل حول العلاقة بين الولايات والسلطة الفيدرالية، كانت حكومات الولايات هي أول من تحرَّك لمكافحة انتشار الفيروس، فقد جاء تحركها أسرع من الحكومة الفيدرالية في إعلان حالة الطوارئ وفرض قيود على الانتقال. وحتى بعد أن بدأت إدارة ترامب في التعامل مع الأزمة بجدية أكبر واتجهت للتعاون مع الكونجرس، كثيرا ما غاب الاتفاق بينها وبين السلطات المحلية على مستوى حكام الولاية أو المقاطعات أو المدن حول الإجراءات الواجب اتباعها. وزادت الفجوة لكون الديمقراطيين أكثر دعما من الجمهوريين لدور أكبر للحكومة الفيدرالية. ومثَّل النموذج الأمريكي ما يشبه الاستثناء بين أغلب الدول –حتى تلك التي تطبق نظما غير مركزية مثل ألمانيا وإيطاليا–، فالاتجاه في هذه الدول مالَ بقوة ناحية نموذج مركزية صنع القرار، الذي فيه تصنع السياسة من أعلى إلى أسفل.

ولكن من ناحية أخرى، لم يكن الاقتراب الحزبي للنظر إلى أداء الدولة (على المستوى المركزي أو المحلي) وانتشار المعلومات المغلوطة واستخدامها لأغراض سياسية حكرا على الساحة الامريكية، إنما ظهرت مثل هذه الأمور أيضا في البرازيل وتركيا وروسيا وأيضا بين بعض الأحزاب الصغيرة في أوروبا. لقد انتشرت الأخبار الكاذبة ونظريات المؤامرة، منها على سبيل المثال: ربط انتشار الفيروس بتكنولوجيا الجيل الخامس وهو ما تسبَّب في مئات الحوادث مثل إشعال النار في الأبراج اللاسلكية في عدَّة بلاد[2].

لقد كشفت أزمة كورونا عن بداية تفكُّك القاعدة المشتركة للهوية السياسية والثقافية داخل المجتمعات الغربية، خاصة الولايات المتحدة التي تزامنت تداعيات الأزمة فيها مع وجود رئيس شعبوي مثل ترامب، الذي انطلق من مخاوفه من التصويت بالبريد إلى الحديث لأول مرة في التاريخ الأمريكي عن احتمالات عدم تسليمه للسلطة لشكّه في تزوير التصويت عبر البريد (وهو التزوير الذي يحدث فقط حال خسارته وليس فوزه بالطبع). إن التباين الأيديولوجي ما بين الأحزاب تخطَّى مرحلة الخلاف السياسي إلى شق الصف الحضاري والنسيج المجتمعي، فالاجتماع حول ثوابت حضارية كان الضمانة لإدارة أكثر عدالة للخلافات السياسية وهو الأمر الذي بات مهددا الآن في ظل انتخابات رئاسية أمريكية مع كورونا والأخطر مع رئيس شعبوي ذي توجُّهات سلطوية.

كما كشفت الأزمة أيضا عن عمق الانقسامات الاجتماعية والثقافية، وهو الانقسام الذي اتَّضح أكثر في الدول الغربية لأن المناخ الديمقراطي سهَّل

---

(1) Scott L. Greer , Elizabeth J. King , Elize Massard da Fonseca, Andre Peralta-Santos, "The comparative politics of COVID-19: The need to understand government responses", Global Public Health, 20 Jun 2020, pp. 1414 -1415, available at: https://cutt.us/nLmmu

(2) Philippe Dauba-Pantanacce, The political implications of COVID-19, Standard Chartered, 20 April 2020, available at: https://bit.ly/3daJx7s

أكثر من رصده وسمح بارتفاع الأصوات بالاحتجاج والاعتراض. وقد كرَّست عدم عدالة السياسات الاجتماعية من هذه الانقسامات لتظهر تداعياتها بوضوح عند مواجهة وباء مثل كوفيد ١٩. وهو الأمر الذي أبرز انتهاك حق أصيل من حقوق المواطنة وهو حق المساواة، ليس في الدول الاستبدادية فحسب ولكن في أعتى الديمقراطيات أيضا. ودلّت خريطة الإصابات الجغرافية والعمرية والفئوية على فروقات خطيرة تجسَّدت في تفاوت الخدمة الصحية في داخل هذه الدول.

وللتداخل ما بين المجتمعي والسياسي، كان لخريطة القوى السياسية في المجتمع دلالاتها أيضا في قضية عدم المساواة. ومرة أخرى مثَّلت الحالة الأمريكية مثالًا واضحا على ذلك. فهناك فروقات في الواقع بين المناطق المؤيدة للديمقراطيّين والأخرى المؤيدة للجمهوريّين. فالأولى أكثر تضرُّرا بالوباء، بينما الجمهوريون غالبا ما يعيشون في مناطق لم ينتشر بها الفيروس، ولذا فإن المعسكر الجمهوري هو الأكثر شعورا بالثمن الاقتصادي للإجراءات الوقائية والعزل. فوفق تحليل "نيويورك تايمز" لم يسجل في المقاطعات التي انتخبت ترامب إلّا ٢٧% من الإصابات و٢١% من الوفيات رغم أنه يعيش بها حوالي ٤٥% من الأمريكيّين، كما أن الأمريكيّين من أصول أفريقية أو من أصول لاتينية هم الأكثر إصابة بالفيروس وموتا به، وأكثرهم محسوبون على المعسكر الديمقراطي. وساهم هذا التباين في نسب الوفيات إلى الخلاف الكبير حول مخاطر المرض والسياسات الواجب تبنّيها للتقليل من انتشاره[١].

رغم إنفاق الولايات المتحدة على الصحة ضعف النِسبة من الناتج القومي التي تنفقها الدول المتقدّمة الأخرى، إلّا أن أداء نظامها الصحي كان سيئًا خلالَ الأزمة. ورغم أن الولايات المتحدة بدأت حملات للحرب على الفقر منذ أكثر من ستين عاما وأنفقت مليارات الدولارات عليه، إلّا أن المجتمعات المستهدفة من هذه البرامج ظلّت ترزح تحت نير الفقر، وظلّت الفجوة في الدخول وما بين المناطق بل زادت. ووجَّه الوباء مزيدا من الانتباه إلى معضلة عدم المساواة وإلى الحاجة لزيادة دخول الأُسر والمناطق المهمَّشة[٢].

لقد احتلّت مسألة عدم المساواة في الخدمات الصحية أولوية كبرى في أجندة الديمقراطية الاجتماعية في دول أوروبية مثل بريطانيا والسويد. إلّا أن اتجاه سياسات الليبرالية الجديدة لتقليص الإنفاق أثّر على النُظم الصحية التي أنشأها الديمقراطيون الاجتماعيون في الأربعينيات. على سبيل المثال عانى نظام الرعاية الصحية الإيطالي جرَّاء سياسات الخصخصة وتخفيض الميزانيات المتكرر، هذا بالإضافة إلى أن الكساد ساهم في تكريس عدم المساواة. فلم يعد الفقراء قادرين على البقاء في المنازل حتى لو ظهرت أعراض المرض عليهم. وفي نفس الوقت تحول المشاكل الاقتصادية دون توفير المتطلبات التكنولوجية اللازمة للعمل من المنازل ومساعدة الأطفال الذين أغلقت مدارسهم. وإلى جانب ذلك فقد كشف النقص الكبير في أجهزة التنفُّس عن عيوب هيكلية في ترتيب أولويات صنع قرار الحكومات الغربية، الذي أعطى الأولوية لإنتاج ما هو مربح على حساب ما هو ضروري وأساسي. وجميعها عوامل تشجع على عودة التيار الديمقراطي الاجتماعي بقوة على

(1) Jennifer Medina, Robert Gebelof, The Coronavirus Is Deadliest Where Democrats Live, The New York Times, 25 May 2020, available at: https://nyti.ms/2SCBeI6

(2) John Raidt, Coronavirus has exposed the United States’ own political virus Beyond COVID-19, Atlantic Council, 29 April 2020.

الساحة السياسية، فآليات السوق لم تستطع أن تتكيَّف مع مقتضيات الأزمة، وبدت الحاجة أكبر لتدخُّل الحكومة أكثر من أي وقت مضى. وفي بعض الدول مثل السويد تم استحضار القيم الديمقراطية الاجتماعية مثل التضامن والرعاية المجتمعية، وإيمانًا بقوة هذه القيم لم تر الحكومة السويدية ضرورة التطبيق الصارم لسياسة الإغلاق لفرض التزام المجتمع. وحكومات ديمقراطية اجتماعية أخرى مثل الدنمارك كانت أول من قدَّم أجورا لدعم من فقد عمله. ولكن لعل الحاجة إلى حكومات ديمقراطية اجتماعية لن تكون ملحة كما هو متوقَّع بالنظر لما قامت به حكومات محافظة مثل تلك الموجودة في بريطانيا وألمانيا وأستراليا التي تخلَّت عن قيود السياسات المالية لليبرالية الجديدة واتجهت لإنفاق المليارات على مواجهة الوباء ودعم الاقتصاديات المنهارة.

ولا يمكن تجاهل حدوث عملية تسييس للوباء في بعض الدول، منها: الولايات المتحدة والهند والبرازيل، مثال ذلك رفض ترامب مد حكام الولايات الديمقراطيين بالمستلزمات الطبية المطلوبة، بل حتى عمل على إعاقة تلك المرسلة من قبل القطاع الخاص. كما أنه دعم التيارات التي تقاوم فكرة البقاء في المنازل –خاصة في الولايا ت تحت سيطرة الديمقراطيين مثل ميتشيجان ومينيسوتا– . وبالمثل، اتَّبع الرئيس البرازيلي نفس السياسات ولكن بطريقة أكثر مباشرة وبشكل أوتوقراطي واضح. أما عن رئيس وزراء الهند مودي، فإلى جانب تطبيق سياسات إغلاق غير مدروسة تركت ملايين من الهنود الفقراء بدون عمل أو طعام بين ليلة وضحاها، استخدم الفيروس لخدمة سياساته المعادية للمسلمين[١].

رابعا– الشفافية وحق المعرفة:

في التقييمات المبكرة لنماذج إدارة أزمة كورونا، غاب عامل هام هو مدى وضوح سياسات الدولة واتّساقها وعدم تخبُّطها. إنه معيار الشفافية الذي يحمي حقًّا أصيلًا من حقوق المواطن وهو حقه في المعرفة. ومع غياب هذا المعيار (الشفافية) وانتهاك هذا الحق (المعرفة)، يهتزُّ مبدأ أصيل من مبادئ الإدارة الرشيدة اللازمة وهو الثقة، فالثقة هي التي تيسّر من عملية احتواء خطر المرض بالتزام أكثر سلاسة من المواطنين بالإجراءات الوقائية المطلوبة، وبالتالي أقل كلفة، مع قدرة أكبر على رقابة الأداء وتقييمه بموضوعية أدق.

لقد ظهرت أصوات عدَّة ترى أن امتلاك الدولة السلطوية ميزة التحرُّك السريع للتعامل كان عاملًا حاسما في نجاح الصين في القضاء على الوباء، إلا أنه في المقابل تغفل تلك النظرة أنه لو كانت الشفافية حاضرة منذ البداية لما كانت إجراءات الغلق والعزل ضرورة من الأساس. واتَّضحت أهمية الشفافية في مكافحة الفيروس في النمسا أيضا، فعندما لم يتم الغلق السريع لأماكن قضاء العطلات في الجبال التي ظهر بها المرض ومنع السفر منها وإليها، كانت النتيجة انتشار الفيروس في مناطق أخرى بأوروبا[٢].

ففي الإجابة عن تساؤل رئيس: هل النظم السلطوية أم الديمقراطية كانت أنجح في إدارة أزمة كوفيد ١٩؟ ظهر سيل من الدراسات والتقارير والتغطيات الإعلامية التي ترجّح كفَّة النمط الأول من النظم مستخدمين في أغلب الأحوال النموذج الصيني كدليل على النجاح في احتواء الوباء. ويتبلور هذا النجاح أكثر إذا ما قورن بمؤشّرات فشل تعامل النمط الثاني من النظم. إلا أن هذه الخلاصة تجاهلت عاملًا رئيسا آخر بخلاف القدرة على السيطرة وفرض السياسات بالسرعة المطلوبة التي تمتاز بها النظم السلطوية، ألا وهو عامل

(1) Guy Verhofstadt, Op. cit.

(2) Coronavirus: A stress test for democracy, Op. cit.

الشفافية الذي له تأثير على مستوى احتواء الأزمة منذ بدايتها لمنع انتشار المرض في المقام الأول، وله تأثير أيضا في الكشف عن الأعداد الحقيقية للإصابات والوفيات التي هي من أهم مؤشّرات قياس النجاح في التعامل مع الوباء في مراحله المختلفة. فأرقام دول مثل الصين وروسيا تظل دوما محل شك، كما أنه من المؤكّد أن تأخُّر الصين في الاعتراف بالمشكلة يظل من الأسباب الجوهرية لانتشار المرض خارجها بهذه المعدلات، بل وانتشار المرض في الصين ذاتها خارج مقاطعة ووهان. وتعدَّدت الدلائل على عدم دقّة البيانات الحكومية الصينية، منها تقارير أشارت إلى رفض المستشفيات استقبال مرضى جدد بعدما أعلنت الحكومة عن "صفر إصابات" حتى تحافظ على إنجازها المعلن. كما أن استمرار بكين وشنغهاى ومناطق صينية أخرى في حظر دخول سكان ووهان يشكك في صحة تلك الدعاية الحكومية. هذا بالإضافة إلى أن الأرقام الرسمية محل شك كبير سواء الخاصة بالمصابين أو بالوفيات، حيث إن الصين لا تحصي إلّا من تظهر عليهم الأعراض بينما باقي العالم يحصي من جاءت نتائج اختباراته إيجابية بغض النظر عن ظهور أعراض من عدمه. أمَّا عن الوفيات، فمن الملاحظ أنه في أواخر مارس ٢٠٢٠ بعد السماح لأهالي المتوفين في ووهان بدفن أقربائم تحت رقابة أمنية مشدَّدة، اتَّضح الفارق الشاسع بين الأرقام المقدَّرة بناء على الأعداد التي تمّت لها مراسم الجنازة وهي حوالي ٦٤ ألفا في ووهان وحدها وبين الرقم الرسمى المعلن وهو ٢٥٣٥ حالة وفاة. وإذا كانت الإحصائيات السابقة تشير إلى أن عدد الوفيات في ووهان في الظروف العادية عن نفس الفترة تدور حول رقم خمسة آلاف حالة وفاة، يصبح الرقم الأقرب للواقع هو ٥٩ ألف وفاة بفيروس كورونا، وبتطبيق هذا التصور على باقي أنحاء الصين فإن الرقم المقدَّر للوفيات في الصين هو مليون ومئتي ألف[1].

ثم إذا ما قارنَّا الأداء الصيني بما تمَّ في تايوان، وهي المقارنة التي لها دلالتها حيث تشترك تايوان مع الصين في الجغرافيا وفي ميراث تاريخي وثقافي واحد بل وصحي أيضا حيث تعرَّضت تايوان مثل الصين لأزمة فيروس سارس، وتعرَّضت سابقًا لمعلومات مضلّلة أو لحجب معلومات من الصين مما خلق عندها منظومة تحذير مبكّر جيدة؛ سنلاحظ أن تايوان كنموذج ديمقراطي كان أداؤها لا يقل عن الصين بل يفوقها في نواحي كثيرة. حيث أسرعت الحكومة التايوانية بإنشاء مركز لإدارة أزمة الوباء، وأوقفت الرحلات من ووهان منذ ٢٦ يناير. ووزَّعت مستلزمات الوقاية بكميات كبيرة مع وضع عامل الزمن وحجم السكان في الحسبان (٦,٥ مليون كمامة و٨٤ ألف لتر مطهّر)، وفعَّلت أنظمة المراقبة في المطارات وتكنولوجيا التعقُّب وتوفير بيانات طبية دقيقة، ونجحت بالفعل في منع انتشار المرض. وكان اتسام تايوان بالشفافية والتواصل المفتوح هو ما سمح بالاستجابة المرنة الناجحة والأكثر فعالية في مواجهة الفيروس من اقتراب الصين الذي وصفه البعض "بالتدخُّل الغازي". وقد أفاد هذا الأسلوب التايواني المنفتح في إدارة الأزمة، ليس في تايوان وحدها بل بالنسبة إلى العالم أيضا، حيث تشاركت معه المعلومات والخبرات، وذلك في الوقت الذي أصدر فيه الحزب الشيوعي الصيني أوامره بأن تكون كافّة الأبحاث عن الفيروس مشروطة بموافقته أولًا. لقد نجح النظام الديمقراطي في تايوان في فرض سيطرة سريعة وهي الميزة

---

[1] Ilan Alon, Matthew Farrell, and Shaomin Li, Op. cit., p. 155.

بل إنه في روسيا تم إلقاء ثلاثة أطباء من النوافذ بشكل غامض وجميعهم ممن ينتقدون سياسة التعامل مع أزمة كورونا، انظر المرجع التالي:

- Guy Verhofstadt, Op. cit.

التي روج أنها خاصة بالنظم السلطوية وحدها. ونجحت في مراقبة مدى التزام المواطنين بالإجراءات الوقائية، وطبقت أيضا برنامجا للرعاية الاجتماعية للمواطنين المضارين من التداعيات الاقتصادية للأزمة، مما مكنهم من البقاء في منازلهم دون الخوف من الجوع[١].

وفي المقابل، فشلت الصين في التنبيه المبكر من الفيروس، بل إنها عاقبت الأطباء الذين حذّروا مبكرا منه. إن النجاح النسبي لتايوان وكوريا الجنوبية واليابان يؤكّد أن المسؤولية أمام الشعب في الديمقراطيات تظل مفتاح الاستجابة الفعَّالة للأزمات، وإن الأزمات لا تستدعي الديكتاتوريات لكي تكون الإدارة كفؤة وناجحة[٢]، خاصة وأن التزام وطاعة المواطنين ليس رهين الخوف وحده، بل يمكن أن يكون أفضل لو كان رهينا بالثقة والتواصل الجيد بين الحكومة والشعب، بالإضافة إلى مراعاة عوامل الاقتصاد السياسي التي وفّرت للمواطنين سبل البقاء في المنازل بدون أن يخافوا على أرزاقهم. وهنا تزداد الاستفادة من التدفُّق الجيد للمعلومات وتوفُّر الثقة العامة في الدولة. بينما تعاني النظم السلطوية من قصور كبير في توفُّر المعلومات الصحيحة داخليًّا وخارجيًّا والمثال كان واضحا في الصين وروسيا. وهذا لا يمنع من الإشارة أيضا إلى تشابه أداء الزعماء ذوي الاتجاهات السلطوية في النظم الديمقراطية مع النموذجين الروسي والصيني، حيث أعاق رؤساء مثل الرئيسين الأمريكي والبرازيلي التدفُّق السلس للمعلومات الموثوق بها، وكانت خطاباتهم مصدرا لإثارة البلبلة والتشويش وعدم وضوح الرؤية. وهي التي مثَّلت أحد معوقات التعامل الناجح مع أزمة وباء كورونا[٣].

وفي أوروبا استطاع الزعماء الذين تحدَّثوا بصراحة وشفافية لشعوبهم أن يستعيدوا الثقة في الحكومة، مثال ذلك الخطاب الصريح لكل من رئيس الوزراء الإيطالي كونت والرئيس الفرنسي ماكرون والمستشارة الألمانية ميركل، حيث حظوا جميعا بمساندة مجتمعية للإجراءات القاسية المتَّخذة عبر المصارحة والمكاشفة لحجم المخاطر وكيفية مواجهتها. ولكن في المقابل فشل الاتحاد الأوروبي في إظهار إجراءات حقيقية للتضامن ومساعدة أعضائه الأكثر تضرُّرا من الوباء مثل إيطاليا. وأضحى واضحا أنه من السهولة بمكان لمن رفع راية العالمية أن يتقهقر خلف حدوده الوطنية عند الضرورة[٤].

*****

(1) Ilan Alon, Matthew Farrell, and Shaomin Li, Op. cit., p. 156.
(2) Ibid, p. 157.
(3) Scott L. Greer, Elizabeth J. King, Elize Massard da Fonseca, Andre Peralta-Santos, Op. cit.
(4) Philip Stephens, Op. cit.



مؤشرات الاقتصاد العالمي في ظل جائحة كوفيد ١٩

أحمد شوقي(*)

مقدمة:

ظهرت أولى حالات الإصابة بوباء كورونا لأول مرة في مدينة ووهان الصينية خلال ديسمبر ٢٠١٩، ومنها انتشر في جميع أنحاء العالم[١]. وفق موقع ورلد ميتر "worldometers"؛ بلغ عدد الإصابات بفيروس كورونا منتصف يوم ٢٣ سبتمبر ٢٠٢٠ عبر العالم؛ نحو ٣١,٨ مليون شخص؛ فيما سجلت الوفيات الإجمالية نحو ٩٧٦,٤ مليون شخص؛ وبلغت حالات الشفاء ٢٣,٤ مليون شخص، فيما كانت حالات الإصابة القائمة في هذا التاريخ ٧,٤ مليون؛ بينها ٦٢,١ ألف حالة إصابة حرجة. وفق هذه الإحصاءات؛ سجلت متوسط الإصابات حول العالم لكل مليون نسمة ٤٠٨٤ حالة، ومتوسط حالات الوفاة ١٢٥,٣ حالة[٢].

حقق فيروس كورونا انتشارا أفقيًا واسع النطاق؛ دون تمييز بين الدول الكبرى والصغرى، ولا بين الدول الغنية والفقيرة، ولا الدول المتقدمة أو النامية؛ باستثناء ما يتعلق بقدرة كل دولة على حدة على التعامل مع الوباء ومكافحة انتشاره. الولايات المتحدة الأمريكية وهي الدولة الأقوى في النظام الدولي؛ تحتل المركز الأول بقائمة الدول الأكثر تضرُّرا بالوباء بما يتجاوز ٧ ملايين إصابة.

ويتبيَّن أن دولة كالصين التي خرج منها وباء كورونا للعالم كله ليست بين الخمس عشرة دولة الأكثر تضررا (حيث في المقدمة نجد الولايات المتحدة الأمريكية تليها البرازيل) من المرض إذ إنها تحتل المركز الـ ٤٤ بما يقرب ٨٥ ألف إصابة حتى ٢٩ سبتمبر ٢٠٢٠ كما أن إيطاليا التي كانت مركز تفشي الوباء في أوروبا والتي عانت كثيرا بسبب انهيار منظومتها الصحية في مواجهة المرض؛ تحتل المركز الـ ٢٠ بين أكثر الدول تضررا بنحو ٣١١,٤ ألف إصابة[٣].

وقد أدَّى الانتشار الواسع والسريع في ظل عدم وجود عقار للعلاج وانهيار البنية التحتية للمنظومة الصحية بالكثير من الدول إلى أشد كساد عالمي منذ الحرب العالمية الثانية ليصل معدل التراجع المتوقع في الناتج المحلي العالمي خلال ٢٠٢٠ إلى ٥,٢% (وفق تقديرات البنك الدولي في يونيو ٢٠٢٠)؛ بسبب الانكماش الاقتصادي في غالبية الاقتصادات عبر العالم؛ خاصة في البلدان النامية والصاعدة، والتأثيرات السلبية على إنتاجية اليد العاملة ومعدلات الإنتاج عبر العالم؛ مما أثَّر سلبا على نصيب الفرد من الدخل بغالبية الاقتصادات الصاعدة والدول النامية خلال العام الحالي؛

(*) باحث دكتوراة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة.

(١) خارطة انتشـــار كورونا في أوروبا، موقع الحرة، ٢٨ فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي:
https://cutt.us/l86dg

(٢) COVID-19 CORONAVIRUS PANDEMIC, worldmeters, 23 September 2020, Available at: https://bit.ly/34pckRv

(٣) COVID-19 CORONAVIRUS PANDEMIC, worldometers, 29 September 2020, Available at: https://bit.ly/34pckRv

وذلك وفقًا لتقرير الآفاق الاقتصادية العالمية الصادر عن مجموعة البنك الدولي في يونيو ٢٠٢٠.

تستهدف هذه الورقة دراسة تداعيات أزمة كورونا على مؤشرات الاقتصاد العالمى خاصة تلك المتعلّقة بالأداء الاقتصادي العالمي، وتقلُّبات أسعار النفط، ومعدَّلات الفقر، وتفاقم عدم المساواة بين الدول من جهة وبين الطبقات داخل الدول من جهة ثانية، وذلك وفق العناصر التالية:

- الانكماش الاقتصادي العالمي: الأسباب وبوادر التعافي
- انهيار أسعار النفط: التفسير والتأثير
- الفقر في زمن كورونا: معدلات التزايد وخريطة الانتشار
- الموجة الثانية من كورونا وتهديد فرص الانتعاش الاقتصادي
- التداعي السريع للاقتصاد العالمي: محاولة للتفسير

أولًا– الانكماش الاقتصادي العالمي: الأسباب وبوادر التعافي

تأثرا بوباء كورونا وإجراءات مكافحته؛ انكمش الناتج العالمى في عدد من الأسواق المتقدّمة والناشئة بأكثر من ٢٠% خلال النصف الأول من عام ٢٠٢٠، إذ شهدت هذه الفترة تراجع الإنفاق الأسري خاصة على السلع المعمرة، خفتت الخدمات المتعلقة بالسفر والسياحة، كما تراجعت ساعات العمل بشكل كبير.

كان الانكماش الاقتصادي خلال النصف الأول من ٢٠٢٠ حادًّا نظرا لتجمُّد النشاط الاقتصادي العالمي بشكل شبه كامل باستثناء عدد من القطاعات الأساسية كالمنتجات الغذائية والطبية. شمل هذا الجمود جميع قارات العالم وغالبية القطاعات الانتاجية والخدمية فضلًا عن أن أسواق المال اضطربت بشدة؛ ما عزَّز احتمالات حدوث ركود في الاقتصادات الكبرى خاصة الصين التي بدأ انتشار الوباء منها[١].

ولولا سياسات الإنقاذ التي لجأت إليها العديد من الدول؛ فإن التقديرات تشير إلى أن معدل الانكماش كان سيتجاوز الأرقام المعلن عنها؛ فقد ساعدت خطط الدعم الحكومية في الحفاظ على دخول شريحة واسعة من الأسر واستمرار العديد من الشركات قائمة. تبنَّت الدول خططًا ضخمة للإنقاذ من تبعات كورونا؛ ففي الولايات المتحدة الأمريكية؛ أعلن عن خطة إنقاذ بقيمة ٢,٢ تريليون دولار؛ كأضخم حزمة تحفيز في التاريخ الأمريكي؛ بغرض تخفيف تبعات الأزمة على الشركات والأفراد وإمداد المؤسسات الصحية بالاحتياجات الطبية. وبغرض تمكينها من إطلاق حزمة تحفيز بقيمة ٥٠٠ مليار يورو؛ أعلنت الحكومة الألمانية التراجع عن سياسة عدم إقرار عجز في موازنتها العامة والتي تهدف إلى عدم الاستدانة. على مستوى الاتحاد الأوروبي؛ أعلن عن تجميد مبدأ الانضباط المالي الذي يستهدف الحد من عجز الموازنة بالدول الأعضاء. سمح التجميد للأعضاء بتبني خطط إنقاذ مالي ضخمة للحدّ من التباطؤ الاقتصادي. في نفس الوقت؛ تدخَّلت المؤسسات النقدية في كثير من الدول لدعم الاقتصاد عبر خفض أسعار الفائدة الرئيسية، وإعادة شراء الأوراق المالية خاصة سندات الدين، وتوفير السيولة للبنوك[٢].

وقد أدَّى تخفيف إجراءات الإغلاق أو التراجع عنها بالكلية إلى عودة الإنتاج العالمي للانتعاش مرة

---

(١) وحدة الدراسات السياسية، وباء فيروس كورونا المستجد: نماذج من استجابات الدول للوباء وتداعياته على الاقتصاد العالمي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سلسلة تقارير، رقم ٢، أبريل ٢٠٢٠، ص ٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٣٢، ٣٣.

أخرى؛ لكنه انتعاش بطيء بسبب ضعف الاستثمارات التي تضخها الشركات في قطاعات الانتاج والتجارة الدولية خاصة في الاقتصادات الموجَّهة للتصدير.

أسهمت استعادة وتيرة الانتعاش الاقتصادي؛ وإن بشكل محدود؛ خلال الربع الثالث من ٢٠٢٠ في تحسن التوقعات بشأن معدل الانكماش الكلي الذي سيحققه الاقتصاد العالمي خلال ٢٠٢٠؛ إذ يقدَّر حاليا بنحو ٤% وفق توقعات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية خلال سبتمبر ٢٠٢٠؛ بدلًا من ٦% وفق تقديرات المنظمة خلال يونيو السابق؛ على أن ينمو بواقع ٥% خلال العام التالي بدلًا من ٥,٢% وفق تقديراتها بيونيو ٢٠٢٠. ورغم توقعات النمو خلال ٢٠٢١؛ فإن الإنتاج العالمي سيظل في معظم الاقتصادات أقل من المستويات المحققة في عام ٢٠١٩؛ أي قبل انتشار الوباء على نطاق واسع[١].

رفعت المنظمة أيضا توقُّعاتها لتعافي اقتصادات مجموعة العشرين لتسجل انكماشا بواقع ٤,١% خلال ٢٠٢٠ بدلًا من ٥,٧% وفق توقعات المنظمة في يونيو الماضي؛ على أن تنمو هذه الاقتصادات بواقع ٥,٧% خلال العام المقبل بدلًا من ٥,٥% في مؤشر على أن الأداء الاقتصادي لهذه الدولة سيتعافى بشكل أسرع مقارنة ببقية دول العالم من تداعيات الوباء.

في أوروبا؛ يتوقع أن ينكمش اقتصاد منطقة اليورو بنسبة ٧,٩% خلال ٢٠٢٠؛ وفق تقديرات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية؛ مقابل ٩,١% وفق تقديرات يونيو الماضي على أن ينمو اقتصاد المنطقة بواقع ٥,١% خلال العام المقبل بدلًا من ٦,٥%. وبالنسبة للاقتصادات الأكبر ضمن المنطقة؛ توقعت المنظمة أن تصل نسبة الانكماش في الاقتصاد الفرنسي إلى ٩,٥% بدلًا من ١١,٤% على أن ينمو بنسبة ٥,٨% خلال ٢٠٢١ بدلًا من ٧,٧%، وستصل نسبة الانكماش للاقتصاد الإيطالي خلال ٢٠٢٠ إلى ١٠,٥% مقابل ١١,٤% على أن ينمو بواقع ٥,٤% خلال العام المقبل بدلًا من ٧,٧% وفق التوقعات السابقة.

ورغم أن المنظمة توقعت أن يكون أداء الاقتصاد الألماني الأفضل داخل منطقة اليورو؛ فإنها توقعت أن تسجل برلين انكماشا بنسبة ٥,٤% خلال العام الحالي بدلًا من ٦,٦%؛ على أن ينمو اقتصادها بواقع ٤,٦% بدلًا من ٥,٨% وفق التوقعات الصادرة في يونيو ٢٠٢٠[٢].

في الولايات المتحدة الأمريكية؛ ستصل نسبة الانخفاض في الأداء الاقتصادي وفق تقديرات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية الصادرة في سبتمبر ٢٠٢٠ إلى ٣,٨% بدلًا من ٧,٣% وفق تقديرات يونيو الماضي؛ على أن ينمو الاقتصاد الأمريكي بمعدل ٤% بدلًا من ٤,١%.

وفق توقعات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية؛ فإن الصين ستكون الدولة الوحيدة داخل مجموعة العشرين التي ستحقق نموًا اقتصاديًا خلال العام الحالي؛ وذلك بمعدل ١,٨% في حين كانت المنظمة تتوقع في يونيو الماضي تراجع الاقتصاد الصيني بنسبة ٢,٦%؛

(1) Organisation for Economic Co-operation and Development (OECD), OECD Economic Outlook, Interim Report Coronavirus (COVID-19): Living with uncertainty, September 2020, p. 1.

(٢) البنك الدولي: تعافي الاقتصاد العالمي قد يستغرق ٥ أعوام.. وهذه الدول هي الأكثر تضررا، الجزيرة نت، ١٧ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي:
https://cutt.us/3hCGa

على أن ينمو اقتصاد بكين بنسبة ٨% العام المقبل بدلًا من ٦,٨%.

وسينكمش الاقتصاد السعودي بواقع ٦,٨% خلال العام الجاري وفق توقعات المنظمة خلال سبتمبر ٢٠٢٠ بدلًا من ٦,٦% وفق توقعاتها في يونيو الماضي؛ على أن ينمو بمعدل ٣,٢% العام المقبل بدلًا من ٣,٨%. وقدرت المنظمة نسبة الانكماش للاقتصاد التركي بنحو ٢,٩% بدلًا من ٤,٨%؛ على أن ينمو بنسبة ٣,٩% مقابل ٤,٣%. وفي جنوب أفريقيا؛ ستصل نسبة الانكماش إلى ١١,٥% بدلًا من ٧,٥%؛ على أن ينمو بواقع ١,٤% العام المقبل بدلًا من ٢,٥% وفق التوقعات السابقة.

ورغم أن الانكماش المتوقع لمعظم اقتصادات العالم يعكس تدهورا كبيرا وستكون له تبعاته في العديد من المؤشرات الاقتصادية الأخرى كالتوظيف والفقر.. إلخ؛ فإن غالبية هذه المعدلات تعتبر أفضل من التوقعات السابقة، كما سبق التوضيح.

ولتوضيح مدى الاستفادة التي حققها الاقتصاد العالمي من التراجع عن إجراءات الإغلاق أو تخفيفها في إطار خطط مكافحة كورونا، يمكن الإشارة لتقديرات وتوقعات سابقة على يونيو ٢٠٢٠ بشأن أداء عدد من الاقتصادات ليتبين مدى الخطر الذي كان يحيط بالاقتصاد العالمي.

خلال الربع الأول من ٢٠٢٠؛ فقد الاقتصاد الصيني ١٠% من الناتج المحلي الإجمالي؛ نتيجة تفشّي وباء كورونا وإجراءات المكافحة والإغلاق التي تبنَّتها السلطات هناك. اعتبر الانكماش الذي عاناه الاقتصاد الصيني خلال هذه الفترة أسوأ ركود اقتصادي في البلاد منذ ستينيات القرن العشرين.

وقد بلغت نسبة الانخفاض المتوقَّعة للاقتصاد الأمريكي ٥,٥% وفق تقديرات أبريل ٢٠٢٠؛ رغم إجراءات الإنقاذ والتحفيز التي شملت ما يقرب من ٤ تريليون دولار لتمويل مشروعات البنية التحتية ومساعدات البطالة.. إلخ. في المملكة المتحدة ارتفعت معدلات البطالة خلال أول شهرين من ٢٠٢٠ بواقع ٤% ليصل عدد العاطلين ١,٤ مليون شخص تقريبا، مع توقعات بوصول مديونية البلاد لنحو ٢٧٩ مليار جنيه إسترليني (٣٥٠ مليار دولار)؛ مع توقعات بانكماش الاقتصاد البريطاني وفق تقديرات أبريل الماضي بنحو الربع خلال ٢٠٢٠-٢٠٢١[١].

ثانيا– انهيار أسعار النفط: التفسير والتأثير

أدَّى الركود الاقتصادي العالمي خلال الربع الثاني من ٢٠٢٠ إلى انهيار أسعار النفط عالميًّا بسبب تراجع الطلب من جانب أكبر المستوردين وفي مقدّمتهم الصين التي تحتلُّ قائمة أكثر الدول طلبا للخام؛ وذلك نتيجة عمليات الإغلاق خلال هذه الفترة. حيث أدَّى ذلك إلى تراجع حاد في أسعار النفط. واعتبر يوم الإثنين ٢٠ أبريل ٢٠٢٠ يوما أسود لصناعة النفط بعد انهيار سعر النفط الأمريكي "خام غرب تكساس الوسيط"– تسليم مايو ٢٠٢٠– الذي هوت أسعاره تحت الصفر بـ ٣٧ دولارا للبرميل[٢]؛ أي إن المنتجين عرضوا دفع الأموال للعملاء لتشجيعهم على الشراء وتحمل تكاليف النقل والشحن؛ بسبب تقلُّص السعة التخزينية لدى المنتجين في الولايات المتحدة وارتفاع تكاليفها بشكل باهظ على نحو جعل تقديم الإغراءات المالية للمشترين أقل خسارة

(١) وحدة الدراسات السياسية، كيف عصفت جائحة كورونا بأسعار النفط؟ التداعيات على الدول العربية والاقتصاد العالمي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سلسلة تقييم حالة، ٢٩ أبريل ٢٠٢٠، ص ٧.

(٢) فوق الصفر.. أسواق النفط تتنفس الصعداء غداة انهيار تاريخي، دويتشــه فيليه، ٢١ أبريل ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/dF22e

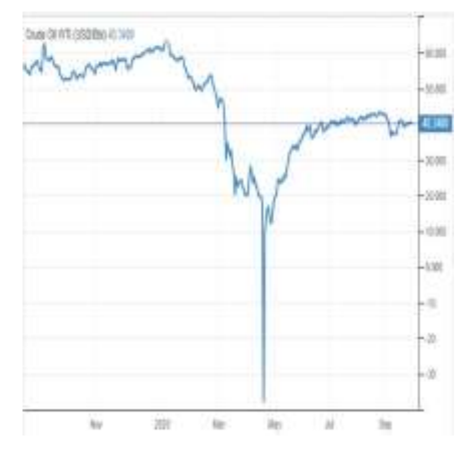
من الاحتفاظ بالإنتاج. وتشير تقارير إلى أن منتجين كبارا للنفط كالمملكة العربية السعودية يستأجرون ناقلات النفط الضخمة للانتفاع بها كمخازن عائمة بتكاليف مرتفعة تصل لنحو ١٠٠ ألف دولار يوميًّا(١).

حاولت الدول المنتجة ضبط الأسعار عبر خفض الإنتاج لكنها فشلت بسبب انهيار المفاوضات بين روسيا والسعودية التي دشَّنت حرب أسعار أسهمت في مزيد من الانخفاض الحاد في أسعار النفط حتى ٢٠ دولارا للبرميل؛ في أسوأ انهيار منذ ١٩٩١(٢).

كانت السعودية تستهدف خفض الإنتاج بواقع ١,٥ مليون برميل يوميًّا حتى نهاية ٢٠٢٠؛ لكن موسكو رفضا وخوفا من فقدان حصَّتها السوقية؛ ما دفع السعودية للإعلان عن خفض أسعار الخام وزيادة الإنتاج؛ ما أدَّى لمعاناة السوق العالمية من تخمة نفط بواقع ٢٥ مليون برميل يوميًّا.

أدَّت هذه الأزمة إلى تأثر قطاع الزيت الصخري الأمريكي وإفلاس العديد من شركاته؛ فسارعت الإدارة الأمريكية إلى التدخل لدى كل من الرياض وموسكو لخفض الإنتاج لرفع أسعار النفط ومن ثم حماية منتجي النفط الصخري الأمريكي وشركاته. وبالفعل تمَّ التوصُّل لاتفاق لخفض الإنتاج بواقع ٩,٧ مليون برميل يوميًّا بما يوازي نحو ١٠% من المعروض العالمي؛ ليطبَّق القرار خلال شهري مايو ويونيو ٢٠٢٠. استهدفت إدارة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب من وراء هذه الخطوة الحفاظ على قطاع الطاقة المحلي ودعمه لتحقيق الريادة في مجال الطاقة والوصول إلى الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن نفط الشرق الأوسط، والحفاظ على الوظائف القائمة بالقطاع الذي يوظف نحو ١,٦ مليون شخص؛ في مغازلة للناخب الأمريكي مع قرب الانتخابات(٣).

أسهم اتفاق خفض الإنتاج إلى جانب التراجع عن إجراءات الإغلاق في تحسُّن أسعار النفط لتقترب من ٤٠ دولارا للبرميل. ورغم هذا التحسُّن النسبي؛ فإن الأسعار تقل بأكثر من ٢٠ دولارا عن المستويات التي كانت عليها مطلع ٢٠٢٠. يوضح الرسم البياني التالي تطوُّر أسعار الخام الأمريكي ومدى تأثُّره بوباء كورونا نقلًا عن موقع "Trading Economics"(٤).



وقد امتدَّت تداعيات أزمة انهيار أسعار النفط لتشمل الدول النفطية الغنية بما فيها الدول الخليجية؛ التي باتت تواجه عجزا كبيرا في الموازنات العامة؛ حاولت التعامل معه عبر الاستدانة وإجراءات التقشُّف فضلًا عن اللجوء إلى الاحتياطات المالية الضخمة. على سبيل المثال؛ أعلنت السعودية؛ بالتزامن مع اشتداد تداعيات الأزمة؛ عن خفض الإنفاق العام بنسبة ٥% مع رفع الحد الأقصى للاقتراض بالنسبة للناتج المحلي الإجمالي من ٣٠% إلى ٥٠% ، كما علَّقت العديد من المشاريع

(١) وحدة الدراسات السياسية، كيف عصفت جائحة كورونا بأسعار النفط؟ التداعيات على الدول العربية والاقتصاد العالمي، مرجع سابق، ص ص ١-٣.

(٢) وحدة الدراسات السياسية، وباء فيروس كورونا المستجد: نماذج من استجابات الدول للوباء وتداعياته على الاقتصاد العالمي، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٣) وحدة الدراسات السياسية، كيف عصفت جائحة كورونا بأسعار النفط؟ التداعيات على الدول العربية والاقتصاد العالمي، مرجع سابق، ص ص ١-٣.

(4) Crude oil, Trading Economics, 29 September 2020, Available at: https://bit.ly/2GyRO8T

التي أُعلن عنها مسبقًا. بلغت قيمة العجز المقدر بموازنة الكويت للعام ٢٠٢٠-٢٠٢١ نحو ٢٩ مليار دولار على أساس سعر ٢٩ دولارا للبرميل؛ مع توقعات بارتفاع العجز لنحو ٥٥-٦٠ مليار دولار بعد الهبوط الكبير في أسعار النفط، كما خفضت مؤسسة ستاندرد آند بورز التصنيف الائتماني السيادي للكويت[١].

اضطرت الدول النفطية في القارة الأفريقية كالجزائر وليبيا وأنجولا ونيجيريا أيضا إلى تقليص ميزانيتها بعد انهيار أسعار النفط. يتوقع أن تصل نسبة الانكماش في الاقتصاد النيجيري الذي يعتمد على النفط لتدبير ٥٠% من الإيرادات على سبيل المثال لنحو ٣,٤% في ظل غياب خطط التحفيز المالي.

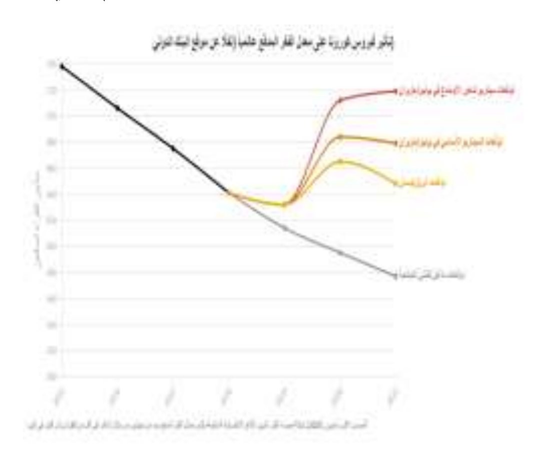
لم يختلف الأمر كثيرا في أمريكا اللاتينية التي لا تزال اقتصاداتها تعاني جرَّاء انهيار أسعار النفط عام ٢٠١٤. على سبيل المثال؛ لجأت المكسيك تحت ضغط تلاشي الجدوى الاقتصادية لإغلاق العديد من آبار النفط، فيما تراهن الأرجنتين على إنتاج الزيت الصخري في ظل توقُّعات بإحجام المستثمرين عن التمويل بسبب تدني الأسعار، كما أصدر الرئيس الأمريكي تعليمات لعملاق الطاقة في بلاده "شيفرون" بالانسحاب من فنزويلا التي تضاءل إنتاجها من النفط وتلاشت صادراتها، مع توقعات بفقدان البرازيل جانبا كبيرا من إيراداتها بسبب انخفاض الإنتاج.

في روسيا عمَّقت أزمة انهيار أسعار النفط عجز الموازنة في البلاد؛ على نحو سيؤدّي لتسريع وتيرة إنفاق موارد صندوق الثروة السيادي الروسي البالغة ما يقرب من ١٥٧ مليار دولار؛ والتي قيل إنها كانت كافية لسداد عجز الموازنة لمدة ٨ أعوام بناء على سعر ٤٢ دولارا لبرميل النفط[٢].

ثالثًا- الفقر في زمن كورونا: معدلات التزايد وخريطة الانتشار

عززت أزمة تفشي كورونا التوقعات باتساع نطاق الفقر عبر العالم. ووفق تقديرات أبريل ٢٠٢٠ كان يتوقع اتساع نطاق الفقر المدقع ليشمل شريحة جديدة تقدر بما يتراوح بين ٤٠ و٦٠ مليون شخص. ويقاس الفقر المدقع بعدد من يعيشون على أقل من ١,٩ دولار يوميًّا.

غير أن انتقال مركز تفشّي كورونا من أمريكا الشمالية وأوروبا، إلى جنوب العالم، وزيادة أعداد الضحايا بالبلدان منخفضة ومتوسطة الدخل، وطول فترة تطبيق إجراءات الإغلاق التي لجأت إليها الكثير من الدول للحد من انتشار الوباء، وتفاقم التكاليف الا قتصادية للأزمة أدَّى إلى توقعات بأن يتجاوز معدل انتشار الفقر تقديرات أبريل ٢٠٢٠، وذلك وفق دراسة منشورة بالموقع الإلكتروني للبنك الدولي. وستزداد معدلات الفقر عند مستوى ١,٩ دولار يوميًّا للفرد؛ وفق الدراسة؛ على النحو الذي يوضحه الرسم التالي[٣]:



(١) وحدة الدراسات السياسية، كيف عصفت جائحة كورونا بأسعار النفط؟ التداعيات على الدول العربية والاقتصاد العالمي، مرجع سابق، ص ص ٤-٦.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٧، ٨.

(٣) دانيال ماهلر وآخرون، التقديرات المحدَّثة لتأثير جائحة كورونا على الفقر في العالم، البنك الدولي، ٦ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3jvnpqt

وللتوضيح؛ فإن السيناريو الأساسي وسيناريو تدهور الأوضاع يتعلّقان بتقديرين متباينين لتأثيرات أزمة كورونا على مستويات الفقر العالمي. ووفق السيناريو الأساسي؛ يتوقع عدم تفشي الوباء بشكل أوسع من الوضع الحالي ومن ثم سيتعافى النشاط الاقتصادي العالمي بنهاية ٢٠٢٠ ليسجل معدل الانكماش الاقتصادي العالمي ٥%، فيما يتوقع السيناريو الثاني تفشي الوباء بوتيرة أسرع وزيادة معدل الانكماش الاقتصادي العالمي إلى ٨% نتيجة استمرار الركود لفترة أطول بسبب استمرار إجراءات الإغلاق أو إعادة تطبيقها؛ ممَّا سيؤدّي لضغوط مالية أشد على البلدان متوسطة ومنخفضة الدخل، كما ستتأثر وتيرة الاستهلاك الأسري بشكل حاد.

ووفق السيناريو الأساسي؛ ستزداد شريحة الفقر المدقع بواقع ٧١ مليون شخص؛ في حين سيرتفع العدد بواقع ١٠٠ مليون وفق السيناريو الثاني؛ وذلك طبق تقديرات الفقر العالمي بناء على توقعات النمو خلال يونيو السابق[١]. وتعتبر هذه هي المرة الأولى منذ ٢٠ عاما التي تزداد فيها معدلات الفقر العالمية؛ وفق كبيرة خبراء الاقتصاد في البنك الدولي كارمن راينهارت[٢].

ورغم التوقعات بنمو الاقتصاد العالمي بواقع ٤% خلال العام المقبل؛ يبقي البنك الدولي على تقديراته بشأن أعداد الفقراء المدقعين خلال ٢٠٢١ على ما هي عليه في العام الحالي، وذلك بسبب ضعف معدلات نمو نصيب الفرد من الناتج المحلي الحقيقي في الدول التي تضم الشريحة الأوسع من فقراء العالم بشكل لا يكفي لتقليل أعداد الفقراء، وهذه الدول هي نيجيريا والهند وجمهورية الكونغو الديمقراطية؛ وتضم نحو ثلث فقراء العالم، وتقدر معدلات النمو في نصيب الفرد من الناتج المحلي الحقيقي بـ -٠,٨%، و٢,١%، و٠,٣%؛ في مجتمعات ستصل فيها معدلات النمو السكاني إلى ٢,٦%، و ١%، و ٣,١% على التوالي.

وعلى خط الفقر المقدر بـ ٣,٢ دولار للفرد يوميًّا؛ سيزداد عدد الفقراء وفق السيناريو الأساسي بواقع ١٧٦ مليون شخص خلال العام الحالي، وستضم منطقة جنوب آسيا ثلثي هذا العدد. ووفق دراسة البنك الدولي أيضا؛ ستصل الزيادة في أعداد الفقراء على أساس خط الفقر المقدَّر بنحو ٥,٥ دولار للفرد يوميًّا بنحو ١٧٧ مليونا كجزء من تداعيات كورونا.

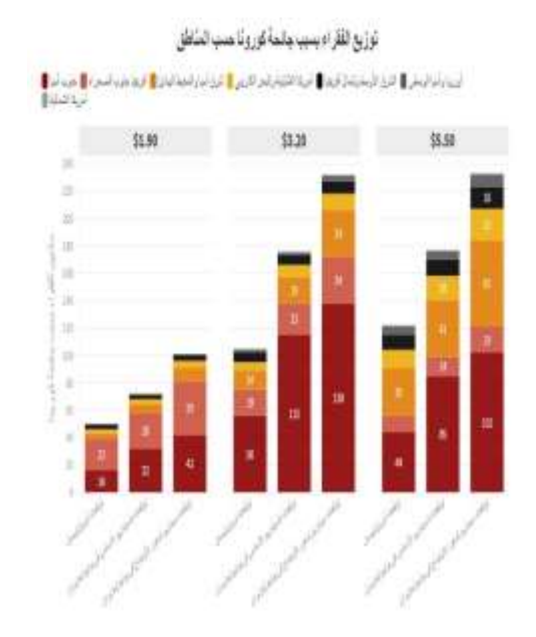
يلاحظ من هذه التقديرات أن الفارق ضئيل بين حجم الزيادة في أعداد الفقراء عند مستويي الفقر ٣,٢ دولار و٥,٥ دولار للفرد يوميًّا؛ فالفارق لا يتجاوز مليونا واحدا؛ الأمر الذي فسَّرته دراسة البنك الدولي بأن القليل من السكان في مناطق شرق آسيا والمحيط الهادئ ومنطقة أفريقيا جنوب الصحراء يعيشون على هذا المستوى.

وفيما يلي رسم بياني منقول من دراسة البنك الدولي يوضح توزيع الفقراء بسبب جائحة كورونا حسب مناطق العالم المختلفة عند مستويات الفقر الثلاثة التي اعتمدتها الدراسة[٣].

(١) المرجع السابق.

(٢) البنك الدولي: تعافي الاقتصاد العالمي قد يستغرق ٥ أعوام.. وهذه الدول هي الأكثر تضررا، مرجع سابق.

(٣) دانيال ماهلر وآخرون، مرجع سابق.



رابعا– الموجة الثانية من كورونا وتهديد فرص الانتعاش الاقتصادي:

اضطرت الكثير من الحكومات لفتح الأبواب واستعادة العمل بمختلف الأنشطة الاقتصادية؛ بغرض استعادة وتيرة النشاط الاقتصادي لكن في ظل مخاوف وقلق من تسارع وتيرة انتشار الوباء مرة أخرى؛ ففرضت بالتوازي مع عمليات فتح الأبواب إجراءات احترازية للوقاية من كورونا؛ في ظل عدم وجود سقف للتوقعات بشأن موعد إنتاج لقاح فاعل ضد المرض. وقد حذّرت منظمة الصحة العالمية من فتح الأبواب قبل السيطرة الكاملة على الوباء. وتهدد عودة انتشار المرض مرة أخرى بخسائر بشرية جديدة فضلاً عن خسائر اقتصادية في حالة الاضطرار إلى العودة إلى عمليات الإغلاق مرة أخرى؛ وإن كان البعض يرجح أن يكون الإغلاق –إذا تم إقراره– على نطاق محدود بحيث يشمل البؤر التي ينتشر فيها الوباء فحسب؛ لكن المخاوف لا تزال قائمة بشأن احتمال الاضطرار للعودة للإغلاق الكامل إذا خرجت الأمور عن السيطرة(١).

وبالفعل؛ تشهد بعض دول العالم موجة ثانية من انتشار فيروس كورونا بشكل يبطئ من وتيرة التعافي في الأداء الاقتصادي العالمي؛ خاصة أن أكبر اقتصاد في العالم يواجه تبعات الموجة الثانية. كما يشير تقرير نشرته مجلة "فورين بوليسي" الأمريكية إلى أن الإنفاق الحكومي الكبير في الولايات المتحدة الأمريكية لم يساعد في تحقيق التعافي الكامل للاقتصاد من تداعيات كورونا؛ بسبب تراجع الدخول، وانخفاض معدلات الاستهلاك، وتدنّي حركة الانتقال مقارنة بالمستويات الطبيعية في ظل موجة ثانية من تفشي الوباء لا زالت تعاني منها الولايات المتحدة الأمريكية. يضاف إلى ذلك؛ أن الموجة الثانية من الوباء تضرب ولايات أمريكية ذات ثقل اقتصادي على نحو يؤثّر على الأداء الإجمالي للبلاد؛ فالولايات الأشد تضرُرا هي: كاليفورنيا وفلوريدا وتكساس، وتشكّل الولايات الثلاث مجتمعة نحو ٣٠% من الناتج المحلي الإجمالي(٢).

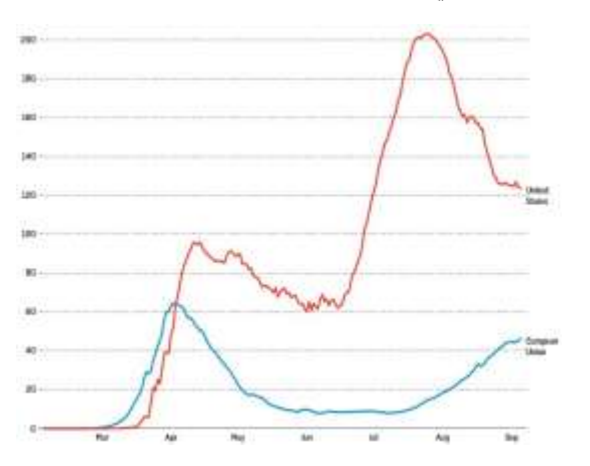
وأجرى التقرير مقارنة بين معدل انتشار الوباء في كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي في ظل الموجة الثانية من الوباء. إذ يبلغ معدل الإصابة اليومي بالولايات المتحدة الأمريكية نحو ١٢٠ حالة لكل مليون نسمة خلال سبتمبر ٢٠٢٠. وهو ما يشير إلى انخفاض معدلات الإصابة مقارنة بما كانت عليه في الموجة الأولى والتي وصلت إلى ٢٠٠ حالة في المليون في نهايات يوليو ٢٠٢٠. وعلى المستوى الأوروبي بلغ معدل الإصابة اليومي نحو ٤٦ حالة لكل مليون شخص (سبتمبر ٢٠٢٠)، مقابل ٦٠ حالة للمليون (مارس وأبريل ٢٠٢٠). ويوضح الرسم البياني التالي تطور حالات الإصابة على المستويين الأمريكي والأوروبي منذ

---

(١) كيف سيتأثر الاقتصاد العالمي في ظل موجة ثانية لكورونا؟، إندبندنت عربية، ٣ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/e6jha

(٢) أوروبا تتفوق على أميركا.. كورونا يغير مسلمات في الاقتصاد العالمي، الجزيرة نت، ١١ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/0TPA2

بداية الجائحة حتى سبتمبر ٢٠٢٠؛ نقلاً عن موقع مجلة فورين بوليسي(١).



وزعم التقرير أن الاقتصاد الأوروبي كان قادرا على امتصاص تبعات الموجة الثانية من الوباء على نحو يؤهله للتعافي بشكل أفضل وأسرع من الاقتصاد الأمريكي؛ بخلاف ما حدث خلال الأزمات الاقتصادية العالمية السابقة وأبرزها: الركود الناجم عن خفض إمدادات النفط للدول الداعمة لإسرائيل عام ١٩٧٣، والأزمة الاقتصادية العالمية عام ٢٠٠٨. وقد أسهم في تحقيق مرونة الاقتصاد الأوروبي حزم المساعدات التي بلغت ٨٩٠ مليار دولار الموجهة لمساعدة الدول الأكثر تضررا من الأزمة، ونمو تجارة التجزئة بدول الاتحاد وعودة النشاط بالقرب من مستوياته الطبيعية في المطاعم والمتاجر.

ورغم ارتفاع عدد حالات الإصابة بكورونا في اليونان وإسبانيا وفرنسا؛ يعتبر التقرير أن المعدلات المرتفعة للإصابات تتركز في عدد قليل من الدول مثل إسبانيا؛ في حين يعتبر الوضع في إيطاليا وألمانيا وغالبية دول البلطيق والشمال الأوروبي تحت السيطرة، وبدأت الموجة الثانية في الانحسار بعدد من الدول كالدنمارك وهولندا، واستعاد الموظفون مكاتبهم، كما أن الدول الأكثر تضررا بالموجة الثانية في أوروبا ليس لها وزن كبير باقتصاد منطقة اليورو فهي تمثل نحو ٢٠% من الناتج المحلي الإجمالي(٢).

خامسا– التداعي السريع للاقتصاد العالمي: محاولة للتفسير

مما سبق يتبين عمق التداعيات السلبية والتقلُّبات التي تعرَّض لها الاقتصاد العالمي والاقتصادات الوطنية جرَّاء أزمة وباء كورونا التي فاجأت الكثيرين في العالم بشأن خطورتها ونطاق وسرعة انتشارها عبر العالم؛ مسبّبة انكماشاً غير مسبوق منذ عقود في الأداء الاقتصادي العالمي، كما أدَّت لانهيار أسعار النفط الذي يشكّل المورد الأساسي للعديد من الدول، كما أسهمت في زيادة أعداد الفقراء عبر العالم وتعميق عدم المساواة؛ فكيف يمكن فهم التداعي الواسع والسريع للاقتصاد العالمي جرَّاء الوباء؟ يمكن في هذا الصدد الإشارة لعدَّة عوامل أسهمت في عمق التأثير والتأثُّر بالأزمة، منها:

- **الاعتماد المتبادل الدولي في عصر العولمة:**

ظهر وباء كورونا في خضم حالة من العولمة والترابط والاعتماد المتبادل العالمي تشمل الغالبية العظمى من دول العالم على نحو يجعل عواقب الأزمات وخيمة كما حدث بالأزمة الاقتصادية العالمية عام ٢٠٠٨. على سبيل المثال؛ تشير الدراسات إلى أن الصين قد أصبحت أكثر ارتباطاً بالعالم مما كانت عليه قبل عقدين من الزمان، كما تضخَّم حجم السلع والخدمات التي تصدرها بالتوازي مع نمو اقتصادها أكثر من ٩ مرات.

---

(1) Joseph De Weck, Elettra Ardissino, The Pandemic Is Showing What the EU Is Good For, Foreign Policy, 8 September 2020, available at: https://bit.ly/2SrHuSM

(٢) أوروبا تتفوق على أميركا.. كورونا يغير مسلمات في الاقتصاد العالمي، مرجع سابق.

جعلت هذه الحالة من الترابط والعولمة مواجهة انتشار الوباء أمرا بالغ الصعوبة، فرغم أن الوباء ظهر في الصين كما أعلن خلال ديسمبر ٢٠١٩؛ تسارعت وتيرة انتشار المرض لتشمل كافة الدول بما فيها الدولة الأقوى عالمية "الولايات المتحدة الأمريكية"(١). وتشير إحصاءات موقع ورلد ميتر إلى تسجيل حالات إصابة بوباء كورونا في ٢١٥ دولة وإقليما حول العالم(٢)؛ على نحو يكشف عن جانب من سلبيات العولمة وهو المتعلق بسرعة انتشار الأمراض والأوبئة؛ خاصة تلك التي ليس للعالم خبرة في التعامل معها، وذلك في ظل حركة الطيران العالمي والانتقال السريع للبشر الذين انتقل عبرهم المرض في مختلف القارات. يضاف إلى ذلك سرعة التأثر بالأزمات والأحداث الدولية عبر أجزاء العالم المختلفة على نحو ينعكس في صورة تقلبات اقتصادية وحالة من عدم الاستقرار. تشير التقديرات إلى أن عمليات الإغلاق في مدينة ووهان الصينية –موطن ظهور كورونا– قد أدَّت إلى تراجع في الاقتصاد الصيني بقيمة ٤٠ مليار دولار مسبّبة انخفاضا بنسبة ٤% في الناتج المحلي الإجمالي، وهو ما ظهرت تداعياته في تراجع الناتج العالمي بنسبة ١% بما يعادل ٦٥ مليار دولار، وذلك على أساس شهري(٣).

- **عدم اليقين:**

من أبرز المشكلات التي تواجه مستقبل الأداء الاقتصادي العالمي وعلى المستويات الوطنية أنه يمر حاليًّا بحالة من عدم اليقين خاصة فيما يتعلق بوتيرة انتشار وباء كورونا ومساعي التوصل إلى عقار للعلاج منه؛ لذا تُبنى جلُّ التوقعات المستقبلية المتعلّقة بالمؤشرات الاقتصادية العالمية على أساس سيناريوهات متباينة؛ قد تسهم في رسم خطط للحركة؛ لكنها في نفس الوقت تبقي على حالة الشك وعدم اليقين قائمة، وهو ما ينعكس سلبا على ثقة المستثمرين في الأداء الاقتصادي العالمي ومن ثم تتراجع معدلات الإنتاج وفرص التوظيف؛ الأمر الذي يلقي بظلاله على بعض المؤشرات الاقتصادية العالمية مثل توقعات النمو في الناتج الاقتصادي العالمي وكذلك معدلات انتشار الفقر وغيرها(٤).

هذه الحالة من عدم اليقين أدَّت إلى قلق عميق لدى المستثمرين الذين سعوا بدورهم لتأمين أنفسهم عبر تصفية الأصول التي يمتلكونها مما أدَّى إلى انخفاضات كبرى في أسواق المال(٥).

- **إجراءات العزل والإغلاق:**

اضطرَّت جميع دول العالم لتبنِّي خطط لمكافحة الوباء تعتمد أساسا على عمليات الإغلاق المفاجئ وغير محدَّد المدة لغالبية الأنشطة والقطاعات، خاصة خلال الربع الثاني من ٢٠٢٠. شملت الإجراءات

---

(١) وحدة الدراسات السياسية، وباء فيروس كورونا المستجد: نماذج من استجابات الدول للوباء وتداعياته على الاقتصاد العالمي، مرجع سابق، ص ٣٠.

(2) COVID-19 CORONAVIRUS PANDEMIC, worldometers, 28 September 2020, Available at: https://bit.ly/34pckRv

(٣) وحدة الدراسات السياسية، وباء فيروس كورونا المستجد: نماذج من استجابات الدول للوباء وتداعياته على الاقتصاد العالمي، مرجع سابق، ص ٣٠.

(4) Organisation for Economic Co-operation and Development (OECD), op. cit., p. 1.

(٥) وحدة الدراسات السياسية، وباء فيروس كورونا المستجد: نماذج من استجابات الدول للوباء وتداعياته على الاقتصاد العالمي، مرجع سابق، ص ٣١.

الاحترازية التي أعلن عنها في كثير من الدول: تجميد العمل بالقطاعات السياحية والتجارية والصناعية، وتعطيل شبكات النقل والإمدادات، وحظر التجوال والسفر. على سبيل المثال؛ انخفض السفر بالطائرات بنسبة ٩٥% ؛ ما أدَّى لخسائر تصل لنحو ٣١٤ مليار دولار لدى شركات الطيران ومقدّمي الخدمات بالمطارات. في الشرق الأوسط؛ بلغت الخسائر التي تكبدتها خطوط الطيران نحو ٢٤ مليار دولار؛ وفق تقديرات أبريل ٢٠٢٠[١].

أسهمت هذه الإجراءات في زيادة حدَّة الانكماش الاقتصادي العالمي نتيجة توقُّف الإنتاج في ظل انكماش الطلب وتوقُّف سلاسل التوريد والشحن العالمي؛ في ظل حالة من التشاؤم بشأن إمكانيات الخروج من الأزمة وفرص استعادة النمو الاقتصادي العالمي[٢].

● المشكلات الاقتصادية الهيكلية:

بقدر ما تسبَّبت أزمة فيروس كورونا في صدمة للاقتصاد العالمي والاقتصادات الوطنية؛ بقدر ما سلّطت الضوء على العديد من المشكلات والاختلالات الهيكلية التي تعاني منها هذه الاقتصادات والتي قوَّضت قدرتها على الصمود في مواجهة الأزمة الطارئة. على سبيل المثال؛ لا تزال العديد من الدول المنتجة والمصدّرة للنفط تعتمد عليه بشكل كبير لتدبير مواردها المالية بشكل يجعل أداءها الاقتصادي رهناً لتقلُّبات أسعار النفط المتأثّرة بشكل كبير بالأزمات والأحداث على الساحة الدولية. رغم أن المملكة السعودية تتبنَّى خططاً لتنويع مصادر إيراداتها؛ فإنها لا تزال تعتمد على النفط بنسبة ٧٠% لتدبير الإيرادات، وينطبق الأمر نفسه على دول مجلس التعاون الخليجي الأخرى كالكويت التي تعتمد على صادرات النفط والغاز وقطر التي تعتمد بشكل أكبر على تصدير الغاز.. إلخ.

خاتمة:

يشهد الاقتصاد العالمي حاليًّا تعافيا سريعا من تداعيات وباء كورونا نتيجة للتراجع عن إجراءات الإغلاق التي اضطرَّت الدول إلى فرضها في إطار خطط الحد من انتشار الجائحة، وهو ما انعكس في خفض توقعات الانكماش بنهاية ٢٠٢٠ وتحسين توقُّعات النمو خلال العام المقبل للعديد من الاقتصادات عبر العالم. ومع ذلك؛ فإن خبراء البنك الدولي يتوقَّعون التعافي الكامل في غضون خمس سنوات.

ورغم بطء وتيرة النمو خلال ٢٠٢٠ ورغم طول المدة المرتقبة للوصول لحالة التعافي الكامل من تداعيات كورونا؛ فإن الاقتصاد العالمي يتعافى خلال ٢٠٢٠ بوتيرة أسرع مما كان يعتقد بسبب احتواء الأزمة بشكل كبير في كل من الصين والولايات المتحدة وهو ما انعكس في التراجع عن كثير من إجراءات الإغلاق واستعادة وتيرة النشاط الاقتصادي؛ وإن كان بشكل بطيء في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومع ذلك؛ لا يمكن الجزم باتجاه معين للأداء الاقتصادي العالمي بسبب حالة عدم اليقين التي تجتاح العالم بشأن موعد القضاء على الوباء أو التوصل لعقار للعلاج منه أو وتيرة انتشاره.

وعلى نحو يعكس هذه الحالة من عدم اليقين التي يمر بها العالم حاليًّا على خلفية وباء كورونا؛ رسمت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية سيناريوهين للأداء الاقتصادي العالمي خلال ٢٠٢١؛ إذ اعتبرت أنه في حالة اختفاء التهديد الناجم عن وباء كورونا بوتيرة أسرع

(١) وحدة الدراسات السياسية، كيف عصفت جائحة كورونا بأسعار النفط؟ التداعيات على الدول العربية والاقتصاد العالمي، مرجع سابق، ص ٦.

(٢) وحدة الدراسات السياسية، وباء فيروس كورونا المستجد: نماذج من استجابات الدول للوباء وتداعياته على الاقتصاد العالمي، مرجع سابق، ص ٣٣.

من المتوقع؛ فإن ذلك سيعزز الثقة في الاقتصاد العالمي على نحو قد يدفعه لتسجيل أداء أفضل من ٥%. وفي نفس الوقت أشارت المنظمة إلى مخاطر الارتداد الذي قد يحدث في حالة عودة الوباء للانتشار على نطاق واسع مرة أخرى على نحو قد يدفع الحكومات لتبني إجراءات أشد صرامة على نحو قد يخفض توقعات النمو للعام المقبل بحيث لا تتجاوز ٢-٣% فضلاً عن تزايد معدلات عدم التوظيف جراء ضعف الاستثمارات[١].

ومن الجدير بالملاحظة عند رسم سيناريوهات مستقبلية أن أزمة وباء كورونا أصابت دول العالم بلا استثناء وبلا قيود؛ متسببة في أعباء ضخمة على كافة الاقتصادات. ومع ذلك؛ تشير دراسات إلى أن تداعيات الأزمة على الاقتصادات المتقدمة ستكون مؤقتة ويمكنها أن تتعافى سريعا لتعود لحالة الاستقرار المالي والنقدي؛ في حين ستظل الدول النامية تئن من التبعات؛ لأن الأزمة أصابتها في وقت تواجه فيه أصلاً مشكلات وأزمات هيكلية عميقة تؤثّر سلبا على أدائها الاقتصادي في الظروف الطبيعية. بين هذه المشكلات: الديون السيادية، والفساد المالي، والاختلالات الهيكلية في بنية الاقتصادات النامية، ومحدودية الابتكارات، والاحتكارات.. إلخ[٢].

لذا تسهم أزمة كورونا وتبعاتها في تعميق حالة عدم المساواة العالمية. في أمريكا اللاتينية على سبيل المثال؛ وضع وباء كورونا ضغوطًا على معدلات الدين العام إلى الناتج المحلي الإجمالي، وهي معدلات مرتفعة من قبل أزمة كورونا لكن تتفاقم وستستمر في المنحنى التصاعدي في ظل محاولات احتواء الوباء وتداعياته عبر خطط الإنقاذ المعتمدة على التوسُّع في الإنفاق العام كما في دول مثل: الأرجنتين والإكوادور وتشيلي والبرازيل والمكسيك. وتزداد خطورة الأزمة بالنظر إلى بعض دول أمريكا اللاتينية قد تخلّفت من قبل عن سداد التزاماتها المالية تجاه المقرضين ودخلت في مفاوضات لإعادة الهيكلة في وقت تعاني فيه من أزمات ضعف الأداء الاقتصادي وتهالك البنى التحتية للنظم الصحية والاختلالات الهيكلية في بنية اقتصاداتها فضلاً عن ضعف الإيرادات والاتجاه المتزايد نحو برامج التقشف في الإنفاق؛ وذلك على نحو يشكل بيئة طاردة للاستثمارات وقد يدفع اقتصادات المنطقة إلى الركود.

وختاما؛ من الضروري الإشارة لعدد من الملاحظات المهمَّة عند النظر في تداعيات كورونا على الاقتصاد العالمي:

الأولى- النجاح الصيني في احتواء أزمة الوباء والسيطرة عليه ومن ثم الانتقال لمرحلة التعافي الاقتصادي التدريجي ممَّا يعزز جاذبية النموذج الصيني في التنمية في مقابل النموذج الرأسمالي النيوليبرالي الذي تقوم عليه الاقتصادات الغربية ومؤسسات بريتون وودز؛ خاصة وأن الصين قد سعت لجني مكاسب سياسية عبر التسويق السياسي لسياساتها في احتواء الوباء فضلاً عن المساعدات التي قدَّمتها للدول الغربية الموبوءة؛ على نحو دفع البعض لرفع أعلام الصين وحرق أعلام الاتحاد الأوروبي مثلاً في بعض الدول الأوروبية.

والملاحظة الثانية- أنه رغم السلبيات والانتقادات الموجّهة للنموذج الرأسمالي الغربي خاصة فيما يتعلّق بالجانب الاجتماعي؛ فإنه في واحدة من أبرز النماذج الرأسمالية في العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية؛ لجأ الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في إطار إدارته للأزمة إلى إجبار مصانع بما فيها مصنع جنرال موتورز المتخصّصة في إنتاج السيارات على المشاركة في مواجهة

(1) Organisation for Economic Co-operation and Development (OECD), op. cit., p. 1.

(٢) وحدة الدراسات السياسية، وباء فيروس كورونا المستجد: نماذج من استجابات الدول للوباء وتداعياته على الاقتصاد العالمي، مرجع سابق، ص ٣٢.

وباء كورونا عبر إنتاج الأجهزة والمعدات الطبية[١]. ويثير هذا الموقف تساؤلات حول موقف كثير من أصحاب رؤوس الأموال في مجتمعاتنا العربية والذين ضغطوا بشدَّة للتراجع عن سياسات الإغلاق فضلًا عن التهديد بتسريح العمال بدعوى تعرُّضهم لخسائر! كما يثير استفسارات حول استجابة السلطات لهم؛ ولو كان ذلك على حساب البشر!

الملاحظة الثالثة– لم تكن إدارة أزمة كورونا منفصلة عن الجوانب الأخلاقية؛ بما تتضمَّنه من مسائل متعلّقة بأخلاقية إجبار الناس على التعايش مع الوباء في ظل عدم السيطرة عليه! وأخلاقية لجوء أصحاب رؤوس الأموال والشركات لخفض الرواتب أو فصل العمال وعدم المساهمة في تحمُّل أعباء الأزمة مع العمال الذين ساهموا في بناء المؤسسات الاقتصادية الضخمة التي تدرُّ الأرباح على أصحابها! فضلًا عن كيفية إدارة الدول نفسها للأزمة، فبعض الدول لجأت لقرصنة شحنات المعدَّات الطبية المنقولة عبر العالم للاستحواذ عليها وحرمان الآخرين.

الملاحظة الرابعة– كشفت أزمة كورونا عن مواطن الضعف في البنى التحتية والمنظومات الصحية في كثير من دول العالم؛ خاصة الدول النامية، وإن كانت الأزمة شملت أيضا العديد من الدول المتقدمة؛ لذا فإن إصلاح هذا الخلل أمر مهم في إطار منظومة متكاملة لبناء الإنسان واحترام آدميته وحقوقه وتكريمه، وهو أمر ينبغي أن تتضافر الجهود وخطط التنمية لإنجازه.

*****

(١) "جنرال موتورز" وأجهزة التنفس.. ترامب: سأستخدم كل الصلاحيات لمواجهة كورونا، موقع الحرة، ٢٨ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://arbne.ws/2HSP5aZ



الأمن في العالم وإشكالياته بين القومي والإنساني: مشاهد في ظل كورونا

إيمان علاء الدين سليمان(١)

مقدمة:

يعيش العالم منذ بداية العام الجاري أزمة واسعة النطاق بسبب فيروس كورونا المستجد المسبب لمرض "COVID-19"، والذي أصاب أكثر من ٢٦ مليون شخص، وأسفر عن أكثر من ٨٦٤ ألف حالة وفاة حول العالم(٢)، كما أدَّى انتشار الفيروس إلى تعطُّل الخدمات الصحية في ٩٠% من بلدان العالم. حيث تركزت الصعوبات الأكبر في البلدان المنخفضة الدخل وتلك المتوسطة الدخل. وأفادت معظم البلدان بتعليق العديد من الخدمات الروتينية والاختيارية، فيما تعطلت على نحو شديد الخطورة خدمات الرعاية الحرجة –مثل فحوص الكشف عن السرطان وعلاجه وعلاج فيروس العوز المناعي البشري– في البلدان المنخفضة الدخل(٣)، ما يجعل تأثير الفيروس على الحياة المباشرة للأفراد أضخم مما يمكن أن تقف عليه الإحصائيات بدقة، ومع هذا الكم الهائل من الضحايا، دخل الاقتصاد العالمي في مرحلة شديدة من الركود، مع سعي حكومات البلدان إلى محاولة السيطرة على انتشار المرض. فتمتلئ المطارات والموانئ الدولية في غالبية البلدان بالسفن والطائرات الساكنة، وتكافح الشركات العالمية للبقاء واقفة على قدميها على صعيد الإنتاج والتوزيع، حتى الجيوش، المكلفة بالدفاع عن الأمن القومي، تعلق تدريباتها العسكرية، بالإضافة إلى آثاره السياسية كما تم تجربتها من خلال فرض حالات الطوارئ، وإضفاء الطابع الأمني على الفضاء العام، والعزلة الذاتية، ما يشكل تحديا لقواعد السياسة الديمقراطية والحياة اليومية.

بهذا تكشف جائحة فيروس كورونا عن جوانب أزمة أمنية تواجه البشرية، حيث يعجز البشر عن مواجهة فيروس شديد العدوى مع ارتفاع عدد الحالات الإيجابية وعدد الوفيات على مستوى العالم، وفي الوقت الذي لا تمتلك فيه البشرية علاجا لمرض COVID-19 ، فإنها تشعر بالذعر، وبعد أن اعتبر الأمن التقليدي، مثل الحروب والنزاعات المسلحة، أكبر تهديد للبشرية، يمر العالم الآن عمليًّا بأزمة تهدّد الأمن في العالم، متجاوزة الإشكاليات النظرية التي اعتلت دراسات العلاقات الدولية حول مفهوم الأمن، بين الأمن التقليدي والقومي والأمن الإنساني (البشري)، منذ فترة الحرب الباردة وحتى نهايات القرن الماضي، وقد أظهرت الجائحة الحالية المعنى الحقيقي المعاصر للأمن البشري العالمي، فلا حدود ولا قوة عسكرية ولا قدرة اقتصادية قادرة على كبح انتشارها في جميع أنحاء العالم(٤).

---

(١) باحثة دكتوراة في النظرية السياسية، جامعة القاهرة.

(2) Worldometers, COVID-19 Coronavirus Pandemic, accessed on: 2 September 2020, available at: https://cutt.us/ex3v6

(٣) منظمة الصحة العالمية، دراسة استقصائية عالمية للمنظمة تبيّن أن ٩٠ في المئة من البلدان تعطلت الخدمات الصحية الأساسية فيها منذ اندلاع جائحة كوفيد-١٩، ٣١ أغسطس ٢٠٢٠، تم الاطلاع عليه في: ٢ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/BMSw6

(4) Carlos Milani, RS. COVID-19 between Global Human Security and Ramping Authoritarian Nationalisms, Geopolitica (s) 11 (2020), p. 143.

ويحاول هذا التقرير النظر إلى أزمة جائحة كورونا وتأثيراتها على الأمن في العالم، بعد أن تجاوزت هذه الأزمة إشكاليات البحث في مفهوم الأمن عبر نظريات العلاقات الدولية المعنية بالدراسات الأمنية –النظرية الواقعية والنظرية الليبرالية ومدرسة كوبنهاجن والنظرية النقدية– فقد امتدت تأثيرات كورونا على موضوع الأمن عبر مختلف تعريفاته وأبعاده؛ الأمن القومي والأمن الإنساني.

أولًا– مفهوم الأمن

ظهر النقاش حول تعريف مفهوم الأمن مع ثمانينيات القرن العشرين، وتشكل في إطار مراجعة إشكالية الدراسات الاستراتيجية التي تحصر مفهوم الأمن في الجانب العسكري، ومع نهاية الحرب الباردة وتسارع وتيرة العولمة وظهور موجة تهديدات جديدة، ظهرت الحاجة إلى توسيع مفهوم الأمن وقطاعاته، لتشمل الفقر وانعدام العدالة الاقتصادية وانتهاكات حقوق الإنسان وتلوث البيئة والأمراض. لترتبط جميعها بمفهوم أمن الإنسان كنقطة تحول من خلال الانتقال من أمن الدولة والحدود والأرض إلى أمن الأفراد[١]، ومن أكثر التعريفات تداولًا لمفهوم الأمن، تعريف باري بوزان Barry Buzan بأنه حالة يغيب فيها الخطر والتهديد[٢].

مع نهاية القرن الثامن عشر، أُسند الأمن للدولة كمؤسسة إنسانية تستلزم استعمال الوسائل العسكرية والدبلوماسية، وساهمت الثورة الفرنسية (١٧٨٩–١٧٩٩) في التأكيد على أن أمن الأفراد متضمَّن ومُحتوى في إطار الأمن القومي/الوطني، وأصبح الأمن شرطًا للدولة بمقتضى التقاليد الليبرالية، حيث لا يمكن للأفراد أن يكونوا آمنين إلا إذا كانت الدولة آمنة[٣].

وقد تمَّ تعريف الأمن القومي لأول مرة من قبل أرنولد وولفرز Arnold Wolfers في مقال له بعنوان "الأمن القومي كرمز غامض National Security as an ambiguous symbol". حيث يرى وولفرز الأمن بأنه مقياس لغياب التهديدات ضد القيم المركزية، إما بمعنى ذاتي، فهو يشير إلى غياب الخوف من أن تكون هذه القيم محل هجوم"، ويعرف هانس مرغانثو Hans Morgenthau الأمن القومي، بأنه "ما يساهم في حماية وحدة الإقليم الوطني ومؤسساته"، ويرى كل من فرانك تراجر Frank Trager وفرانك سيموني Frank Simonie أن "الأمن القومي هو ذلك الجزء من السياسة الحكومية التي هدفها المركزي هو إتاحة الظروف الوطنية والدولية المناسبة لحماية وانتشار القيم الوطنية الحيوية ضد الخصوم الموجودين أو المحتملين"[٤]، أما ميكائيل ديلون Micheil Diloun فينظر إلى الأمن باعتباره مفهوما مزدوجا؛ فلا يعني وسيلة للتحرر من الخطر فحسب بل يعني أيضا وسيلة لإرغامه وجعله محدودا، وبما أن الأمن قد أوجده الخوف فإنه يقتضي ضرورة القيام بإجراءات مضادة للتحكم والاحتواء، أي أن الأمن يحوي في الوقت نفسه الأمن واللاأمن[٥].

وتعد النظرية الواقعية من أبرز مقاربات العلاقات الدولية التي تناولت موضوع الأمن، واحتلّت المشهد في فترة الحرب الباردة، حيث تركّز على الدولة ذات السيادة كوحدة مرجعية للنظام الدولي، ويعني الأمن

(١) جويدة حمزاوي، المقاربات النظرية للأمن: من الأمن القومي إلى الأمن الإنساني، مجلة الدراسات الاستراتيجية والعسكرية، المركز الديمقراطي العربي– برلين، المجلد الثاني، العدد السادس، مارس ٢٠٢٠، ص ص ٨–٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) هشام صاغور، الأمن: دراسة مفاهيمية في ضوء الاتجاهات النظرية، مجلة القانون، المركز الجامعي أحمد زبانة بغليزان، العدد السابع، ٢٠١٦، ص ٢٣٤.

وفقها قدرة الدولة على الحفاظ على بقائها وسيادتها، في مواجهة أي تهديد خارجي، وضمان استقلالها السياسي، ضمن نظام دولي يتَّسم بالفوضى وبغياب حكومة مركزية، وبالاعتماد على القوة لتحقيق مصالح أطرافه، خاصة القوة العسكرية[١]، وتعلي المدرسة الواقعية من منظور **الأمن القومي** مع تقديم البعد العسكري للأمن على ما عداه، كما يظهر في فكر روادها الأشهر؛ هاليت كار E. H. Carr وهانس مورغانثو[٢].

ومع نهاية الحرب الباردة، علت أصوات داخل المدرسة الواقعية تنادي بتوسيع مفهوم الأمن ليصبح قادرا على التعاطي مع المسائل المستحدثة التي عرفتها بيئة النظام الدولي[٣]، وفي إطار ما يعرف بالواقعية الجديدة، أكدت جيسيكا توشمان أنه لا بد من توسيع مفهوم الأمن ليشمل مجالات أخرى غير المجال العسكري؛ كالتأثيرات التكنولوجية على البيئة، ودعى دافيد بالدوين إلى التركيز على الأزمات الاقتصادية والتضخُّم بدلًا من التركيز على الأمن الدولاتي كمرجع لمفهوم الأمن[٤].

ثم قامت النظرية الليبرالية في إثر الانتقادات التي وجهت إلى المدرسة الواقعية، وقدمت الليبرالية البنيوية فكرة أن التمثيل الديمقراطي والالتزام الأيديولوجي بحقوق الإنسان، والترابط العابر للحدود الوطنية هي العناصر الأساسية للميل نحو السلام، ويهتز الأمن عندما تغيب الصفات والقيم الديمقراطية[٥]، ومع عقد معاهدة الاتحاد الأوروبي عام ١٩٩٢، وانهيار الكتلة الشرقية، وتنامي ظاهرة العولمة وتراجع فعالية الدول، ظهرت الليبرالية المؤسساتية، وطور جوزيف ناي نظرية الاعتماد المتبادل، التي ترمي إلى أن الأمن يتحقق بالنسبة للدول نتيجة عقد الاتفاقات التجارية والاقتصادية والترابط الشديد فيما بينها، ما يخلق نوعا من العمل المشترك ضد أي قوة متمردة على دولة لها علاقة مصلحية مع دولة أخرى فتقل أو تنعدم احتمالات اللجوء إلى الحرب[٦].

ثم تناولت مدرسة كوبنهاجن ما يعرف بالقطاعات الجديدة في دراسة الأمن، وهي أيضا أحد نتائج انتقاد المدرسة الواقعية، ويعتبر باري بوزان أحد أشهر من كانوا ضمن التيار الواقعي ثم طوَّر مع مدرسة كوبنهاجن دراساته حول الأمن، وقدم بوزان في هذا الإطار مفهوم "الأمن المجتمعي" بأنه "الاستمرارية ضمن الشروط المقبولة لتطور الأنماط التقليدية للغة والثقافة والهوية الدينية والقومية والعادات" أي استمرار المجتمع في طابعه، فيصبح المجتمع أو العادات الاجتماعية هي الطرف المعرض للتهديد[٧].

وقدَّمت مدرسة كوبنهاغن أيضا مفهوم الأمننة Securitization، بواسطة أولي ويفر، وهو يجادل بشكل أساسي بأن الأمن فعل كلام: حيث تصبح القضية تهديدا عندما يعلن أحد الفاعلين أنها مسألة تتعلق بالأمن القومي، وهي خطوة لها عواقب سياسية مميزة. فالقضايا الأمنية – وفقا لهذه المدرسة– لا توجد

---

(١) جويدة حمزاوي، المقاربات النظرية للأمن: من الأمن القومي إلى الأمن الإنساني، مرجع سابق، ص ١٢.

(٢) سليمان عبد الله الحربي، مفهوم الأمن.. مستوياته وصيغه وتهديداته: دراسة نظرية في المفاهيم والأطر، المجلة العربية للعلوم السياسية، الجمعية العربية للعلوم السياسية، العدد ١٩، ٢٠٠٨، ص ص ١٥- ١٦.

(٣) سليم قسوم، الاتجاهات الجديدة في الدراسات الأمنية: دراسة في تطور مفهوم الأمن في العلاقات الدولية، (الإمارات: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠١٨)، ص ٥٠.

(٤) هشام صاغور، الأمن: دراسة مفاهيمية في ضوء الاتجاهات النظرية، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٤٠.

(٦) المرجع السابق، ص ص ٢٤١-٢٤٢.

(٧) المرجع السابق، ص ٢٤٤.

ببساطة "هناك" كحقائق موضوعية، بل يجب تحديدها وتوضيحها على أنها تهديدات من قبل الفاعلين السياسيين، إن تأثير هذه العملية، التي حدَّدتها مدرسة كوبنهاغن على أنها أمننة، هو أنه من خلال وضع علامة على شيء ما على أنه "أمن"، يتم تصوير القضية باعتبارها قضية ذات أولوية عليا، كما يجادل بوزان، ويفر، ودي وايلد، فإن "الطبيعة الخاصة للتهديدات الأمنية تبرر استخدام تدابير استثنائية للتعامل معها"، وتعليق "السياسة العادية" في التعامل مع هذه القضية، بما يتجاوز مستوى السياسة اليومية، والذي يبرر استخدام تدابير الطوارئ للتعامل معها[١].

وتزايد الاهتمام بالفرد والجماعة والهوية كمرتكزات للأمن في تسعينيات القرن الماضي، ضمن الدراسات النقدية وفي إثر أعمال يورغن هابرماس وغيره، وينظر النقديون إلى النظام الدولي على أنه مبني اجتماعيًّا وليس ماديًّا، مبنى عبر ممارسات لغوية خطابية، وهي مسألة ملازمة للخطاب حول التهديدات، كما يرون أنه ينبغي توسيع مفهوم الأمن لأن التهديدات الجديدة للأمم والشعوب لم يعد لها علاقة بالقوة العسكرية للدول المجاورة، بل بالركود الاقتصادي والمواجهات الإثنية وتلوث البيئة والإرهاب والجريمة والأمراض، فيصبح الأمن متعدّد الأوجه وأكثر تعقيدًا، وذهب النقديون إلى اعتبار الإنسان الفرد موضوع مرجعي أساسي للأمن؛ حيث أن العمل على حماية الإنسان أو الجماعة البشرية بصورة أشمل تجعل الهدف الأساسي هو البحث عن وسائل واستراتيجيات لضمان الأمن العالمي الشامل والأمن الإنساني[٢].

ويشمل مفهوم **الأمن العالمي** كل التهديدات التي من شأنها كبح حرية الإنسان على المستوى العالمي، ويصبح من الضروري أمننة كل ما يوفّر الانعتاق والتحرُّر للفرد؛ ويعرف كين بوث الانعتاق بأنه "تحرير الشعوب من القيود التي تعيق مسعاها للمضي قدمًا في اتجاه تجسيد خياراتها، ومن هذه القيود: الحرب، الفقر، الاضطهاد، الجور السياسي، نقص التعليم وغيرها كثير"[٣].

أما مفهوم **الأمن الإنساني** فيتم تناوله من عدة زوايا مختلفة: فيمكن النظر إليه من خلال علاقته بمفهوم الأمن القومي، كما قدمه بول هينبكير في تصور تكاملي، بأن: "الأمن الإنساني يركز على الأفراد والمجتمعات بدلًا من الدول، كما أنه يقوم على فكرة أن أمن الدول ضروري لكنه ليس كافيا لتحقيق بقاء البشر، والأمن الإنساني يركّز على مصادر التهديد العسكرية وغير العسكرية، إذ يعد أمن وبقاء الأفراد جزءا مكمّلًا لتحقيق الأمن العالمي، كما أنه يكمل ولا يحل محل مفهوم الأمن القومي، يضاف لذلك أن تحقيق الأمن الإنساني يعتمد على أدوات جديدة منها دور المنظمات غير الحكومية"[٤]، أما أمارتيا سن فينظر إلى العلاقة بين المفهومين على أنها متعارضة، حيث يعرف مفهوم الأمن الإنساني بأنه يعني "الحد من أوجه انعدام الأمن التي تبتلى بها حياة البشر، والتخلُّص منها إن أمكن، وهو ما يتعارض مع فكرة أمن الدولة التي ترتكز

(1) Adam Hoffman, The Securitization of the Coronavirus Crisis in the Middle East, The COVID-19 Pandemic in the Middle East and North Africa, 2020, p. 10.

(٢) جويدة حمزاوي، المقاربات النظرية للأمن: من الأمن القومي إلى الأمن الإنساني، مرجع سابق، ص ١٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧.

(٤) خديجة عرفة محمد أمين، الأمن الإنساني: المفهوم والتطبيق في الواقع العربي والدولي، (الرياض: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ٢٠٠٩)، ص ٣٣.

أساسا على صون سلامة الدولة وقوتها، ومن ثم فأمن الأفراد يرتبط ارتباطاً غير مباشر بأمن البشر الذين يعيشون في الدولة"[١].

وقدَّم لورا ريد ومجيد تهارينين تعريفًا واسعا للأمن الإنساني، بأنه "يتطلّب إعادة النظر إلى الاعتبارات الأمنية من خلال التركيز على بقاء الأفراد بدلًا من الأمن المادي للدولة.. وهو يتكوَّن من عشرة أبعاد هي الأمن المادي، والأمن النفسي، وأمن النوع، والأمن الاجتماعي، والأمن الاقتصادي، والأمن الثقافي، والأمن الإعلامي، والأمن البيئي، والأمن القومي، والأمن العالمي "[٢].

وترى الجمعية العامة للأمم المتحدة أن أي فهم لمفهوم الأمن البشري أو الأمن الإنساني يجب أن ينطوي على حق الشعوب في العيش في حرية وكرامة، بمنأى عن الفقر واليأس، ولا ينطوي هذا المفهوم على استعمال القوة أو التدابير القسرية أو التهديد باستعمالها، ولا يحل الأمن البشري محل أمن الدول، وأنه على الحكومات العمل بالدرجة الأولى على أن تكفل لمواطنيها البقاء وسبل كسب الرزق والكرامة[٣]. وقد جمعت جائحة كورونا العديد من الأبعاد التي تناولتها هذه النظريات والتعريفات المختلفة.

ثانيا– الأمن وأزمة كورونا

مع سقوط آلاف الضحايا أمواتًا حول العالم بسبب فيروس كورونا، أصبح هذا الفيروس تهديدا حقيقيًّا للأمن في مختلف الدول، وقد نظر البعض إلى كورونا باعتباره مهددا للأمن بمعناه التقليدي؛ أي ما يتعلّق بالقوة العسكريَة للدول، ومع محاولات حكومات البلدان التصدّي لهذا الفيروس ظهرت إشكاليات أمنية أكثر تعقيدًا، فبعض الحكام خرجوا على شعوبهم مرتدين زي الحرب، مستدعين عناصر الأمن التقليدي في مواجهة هذا التهديد المستجد، بعد أن أعلنوا أمننة أزمة كورونا. كما استخدم آخرون تقنيات المراقبة والتحكّم للسيطرة على انتشار المرض بين الأفراد، ليصبح هؤلاء بين شقي الرحى؛ الفيروس الذي قد يودي بحياتهم من ناحية، وزيادة الميل السلطوي لدى حكوماتهم من ناحية أخرى. هذا بالإضافة إلى الركود الاقتصادي الهائل الذي سبَّبته الجائحة والسياسات الساعية لمكافحتها، ما يجعل كورونا مُهدّدة للأمن الإنساني بمعناه الواسع بأنه كل ما يهدّد الأفرادَ ويجعلهم في حالة من الخطر والحاجة واليأس، إلى جانب عدد من التأثيرات على الأمن بمفهومه التقليدي القومي.

– تهديد كورونا من منظور الأمن التقليدي

في مارس الماضي، أبلغ النقيب بريت كروزير، قائد حاملة الطائرات يو إس إس تيودور روزفلت، أن أكثر من ١٠٠ بحار أصيبوا بفيروس كورونا، فبسبب القيود المادية على متن السفينة، كان التباعد الاجتماعي مستحيلًا، وكتب كروزر أن "انتشار المرض مستمر ومتسارع" بين طاقم يضم ٤٠٠٠ فرد على متن السفينة[٤]، وفي وقت لاحق، تم الإبلاغ عن إصابة ٨٤٠ من أفراد الطاقم؛ وبعد أسابيع قليلة، عانت

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٣٣-٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧.

(٣) الجمعية العامة للأمم المتحدة، قرار اتخذته الجمعية العامة في ١٠ سبتمبر ٢٠١٢، متابعة الفقرة ١٤٣ المتعلقة بمفهوم الأمن البشري من الوثيقة الختامية لمؤتمر القمة العالمي لعام ٢٠٠٥، تم الاطلاع عليه في: ٢ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Uf4oe

(4) Matthias Gafni and Joe Garofoli, Exclusive: Captain of aircraft carrier with growing coronavirus outbreak pleads for help from Navy, San Francisco Chronicle, March 31, 2020, accessed on: 2 September 2020, available at: https://cutt.us/Mct4R

حاملة الطائرات الفرنسية شارل ديغول من نفس المصير عندما أصيب حوالي ٦٠٪ من طاقمها. وبغض النظر عن التداعيات السياسية اللاحقة، توضح الحالات كيف تجعل الأمراض الوبائية منصات القتال الحديثة عرضة للخطر -هذا، بالطبع، ليس بالأمر الجديد- لطالما كان المرض تحديا كبيرا في ساحات القتال بسبب الظروف القاسية في الحرب، إلا أنه أقل شيوعا في وقت السلم، ومع ذلك، فإن المساحة المحصورة على السفن والثكنات تجعل البحارة والجنود عرضة للخطر بطرق مختلفة عن بقية المجتمع. وعلى المدى القصير، كان على القوات المسلحة في جميع أنحاء العالم إلغاء التدريبات والأنشطة الأخرى المخطط لها بسبب الوباء، كما أنهم يتّ خذون تدابير جديدة ليكونوا أكثر استعدادا، وهو جهد شمل كل شيء من الحصول على أقنعة الوجه إلى ابتكار إجراءات جديدة في القواعد[1].

ومع ذلك، فإن التحديات على المدى المتوسط للأمن والدفاع عديدة، الأول هو أن هناك خطرا يتمثل في تقليص ميزانيات الدفاع، أو على الأقل عدم زيادتها، في ضوء الانهيار الاقتصادي، نظرا لأن معظم الحكومات الغربية تقترض الأموال لتجاوز الأزمة، فلا بد من اتخاذ خيارات صعبة، ومن المرجح أن يعطي السياسيون الأولوية لإجراءات استعادة الاقتصاد، وتأمين الرفاهية الاجتماعية، وتعزيز الرعاية الصحية وما إلى ذلك. بعبارة أخرى، من الممكن أن تكون الأولوية للرفاهية على الحرب حتى بعد انتهاء الوباء، حيث من الممكن أن تكون الأولوية للرفاهية على الحرب حتى بعد انتهاء الوباء، وبالفعل قد ظهر ذلك في تصريحات عدد من الدول؛ فقد أعلنت كوريا الجنوبية أنها سوف تخفض ميزانية الدفاع للعام المقبل بنسبة ٢٪ (٧٣٨ مليون دولار)، وكذلك تايلاند بنسبة ٨٪ (٥٥٧ مليون دولار)، لتذهب الأموال عوضا عن هذا إلى صندوق الإغاثة في حالات الكوارث، ومن المتوقع أن يتبعها آخرون، وبالنسبة للولايات المتحدة، يقول فرانك هوفمان من جامعة الدفاع الوطني بواشنطن إن الأولويات الوطنية "ستتجه أولاً وقبل كل شيء نحو تحسين الدخل والأمن الصحي، وتحسين المرونة والبنية التحتية"، ويقول إنه في أسوأ السيناريوهات، قد ينخفض الإنفاق الدفاعي إلى حوالي ٦١٠ مليار دولار، "وهو مستوى قد يتطلب تخفيضات في القوة، وتقليص القواعد الأمريكية والتدريبات في الخارج"[2]، وقد يأمل المرء أن يكون السياسيون قد تعلّموا أن أيَّ أزمة قد تحدث بشكل غير متوقع، وأن استعداد المجتمع والدولة العام مطلوب للتعامل معها[3]، ما يدفع بملفات الصحة والرعاية الاجتماعية إلى صدارة المشهد السياسي على حساب ملفات التدخلات العسكرية الخارجية، بعد أن استفاقت شعوب الدول الديمقراطية المتقدمة على كارثة وضع نظامها الصحي في مواجهة وباء أودى بحياة الآلاف.

- أمننة فيروس كورونا

ظهرت الحاجة العالمية للاستجابة لانتشار فيروس COVID-19 بطرق مميزة في المنطقة العربية، بالإضافة إلى تنفيذ تدابير الصحة العامة مثل الحجر الصحي والاختبارات وعمليات الإغلاق، وقد اختارت بعض الدول في المنطقة أيضا تأطير فيروس كورونا باعتباره تهديدًا أمنيًّا وليس مجرد مشكلة تتعلق بالصحة

(1) Karsten Friis, Biowar next? Security implications of the coronavirus, LSE Ideas Strategic Update, 2020, p. 5.

(2) Global arms spending is rising, but covid-19 will trim budgets, The Economist, 26 April 2020. accessed on: 24 September 2020, Available at: https://cutt.ly/4fVwMIh

(3) Ibid.

العامة، هنا يصبح من الأفضل فهم التعامل مع جائحة كورونا من خلال مفهوم الأمننة. ويبدو الخيار الاستراتيجي لتأطير الاستجابة الوبائية من الناحية الأمنية واضحا وسط الجهود الوطنية (والقومية) لوقف الوباء، خاصة في الأنظمة العربية التي تركز بالفعل بشكل كبير على الأمن، لكن الاستجابات غير الأمنية للجائحة في العديد من البلدان -بما في ذلك بلدان عربية- تظهر أن الأمننة هي خيار سياسي من قبل صانعي السياسة وليس حالة "طبيعية"، كما جادل علماء مدرسة كوبنهاغن[١].

فقد نشرت سلطنة عمان على سبيل المثال، قوات السلطان المسلحة (SAF) لفحص ومراقبة نقاط ضد حركة المواطنين والمقيمين في جميع محافظات السلطنة، ونشر المتحدث باسم الرئاسة المصرية مقطع فيديو أظهر استعدادات القوات المسلحة المصرية للتصدّي لفيروس كورونا المستجد، تظهر جنودا يرتدون بدلات حرب كيميائية ووحدات عسكرية تعرض أدوات التطهير[٢].

وفي منتصف شهر مايو، قدَّم الأردن بعضا من أصعب تدابير مكافحة فيروس كورونا في العالم، وشملت هذه الإجراءات حظر التجول لأجل غير مسمى، وحكما بالسجن لمدة عام على من ينتهكه بالخروج، وإغلاق جميع الأعمال التجارية في المملكة، وبالإضافة إلى هذه الإجراءات القاسية ، قام الأردن أيضا بأمننة أزمة فيروس كورونا، ووصفها بأنها حالة شبيهة بالحرب، ومن جانبه وضح الملك عبد الله الثاني ذلك في خطاب نشر على فيسبوك، حيث خاطب الملك في الخطاب الأردنيين بلهجة أبوية "أبناء وبنات شعبي العزيز"، وحذرهم من الخطر العالمي الذي يشكّله وباء فيروس كورونا، وفي معرض الحديث عن الخطر الذي يشكّله الفيروس، استخدم عبد الله استعارة الحرب باستدعاء معركة الكرامة، ودعا الملك عبد الله الأردنيين إلى إظهار روح الشجاعة والشرف والتضحية كما فعل الجنود الأردنيون قبل خمسين عاما، وقال جلالة الملك إن كل أردني "هو جندي" اليوم في حملة الأردن ضد الوباء، والأهم من ذلك أن الملك ألقى الخطاب بالزي العسكري، وقد استخدم الملك هذا العرض في الماضي في أوقات الأزمات، مثل مقتل طيار سلاح الجو الأردني معاذ الكساسبة على يد تنظيم الدولة الإسلامية في فبراير ٢٠١٥، حيث سعت رسائل الملك -من حيث المضمون والشكل- إلى أن ينقل للأردنيين الشعور بالأزمة والخطر، ويحول الجمهور إلى حالة ذهنية تشبه الحرب، ولم يتم أمننة فيروس كورونا في الأردن من قبل الملك عبد الله فحسب، بل قام به أيضا وزير الصحة الأردني سعد جابر، الذي أصبح المسؤول الحكومي الأكثر شهرة في الأردن لمخاطبة الجمهور بشأن أزمة فيروس كورونا، وكثيرا ما قال في تصريحاته ومقابلاته الإعلامية إن "الأردن اليوم يقاوم فيروس كورونا وينتصر بإذن الله"، كما روج جابر لحملة وسم (هاشتاغ) في ملفه الشخصي على تويتر بعنوان "#الأردن_يقاوم". وفي الخطاب السياسي في الشرق الأوسط ، ترتبط كلمة "يقاوم" ارتباطًا وثيقًا بحملات حماس وحزب الله للمقاومة العنيفة (المقاومة) ضد إسرائيل، أي حملات النضال الشعبي العنيفة ضد عدو خارجي، لذلك كانت هذه محاولة أخرى -هذه المرة، من قبل مسؤول الصحة الأردني الكبير- لوضع عقلية شبيهة بالحرب لجهود الأردن لاحتواء فيروس كورونا[٣].

– تهديد كورونا للاقتصاد العالمي

---

(1) Adam Hoffman, The Securitization of the Coronavirus Crisis in the Middle East, Op. cit., p. 10.

(2) Ibid.

(3) Ibid, p. 12.

مع إعلان منظمة الصحة العالمية أن تفشي فيروس كورونا حالة طوارئ عالمية في ٣٠ يناير ٢٠٢٠. فرضت الحكومات إغلاقًا للحدود وقيودا على السفر وحجرا صحيًّا في البلدان التي تشكِّل أكبر اقتصادات العالم، ثم لحقها عدد من البلدان النامية، مما أثار مخاوف من أزمة اقتصادية وشيكة وركود[١].

وفي مايو الماضي، أعلنت إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة (DESA) أنه اعتبارا من منتصف عام ٢٠٢٠ سيهبط الناتج المحلي الإجمالي في البلدان المتقدمة إلى -٥,٠% في حين سيتقلص ناتج البلدان النامية بنسبة ٠,٧%. وقال مساعد الأمين العام للأمم المتحدة للتنمية الاقتصادية، إليوت هاريس، أن فيروس كورونا قد أطلق العنان لأزمة صحية واقتصادية لم يسبق لها مثيل من حيث النطاق والحجم، مع الحظر وإغلاق ا لحدود وهو ما شلَّ النشاط الاقتصادي وبسبب ذلك، تم الاستغناء عن ملايين العمَّال على الصعيد العالمي، وأضاف هاريس: "مع القيود واسعة النطاق المفروضة على الأنشطة الاقتصادية ومع تزايد عدم اليقين، وصل الاقتصاد العالمي إلى طريق مسدود تقريبا في الربع الثاني من عام ٢٠٢٠"، وأضاف أن العالم الآن يواجه واقعا كئيبا يتمثَّل في ركود حادّ لم يسبق له مثيل منذ الكساد الكبير، هذا بالإضافة إلى أن قطاعي التجارة والسياحة أُصيبا بالشلل، في حين أن العجز الكبير وارتفاع مستويات الدَّ ين العام يشكِّلان تحديات كبيرة في البلدان النامية والدول الجزرية الصغيرة[٢].

كما يرى صندوق النقد الدولي، في نسخة تقريره "آفاق الاقتصاد العالمي"، الصادرة في أبريل الماضي، أن هناك "عدم يقين شديد يحيط بتنبؤات النمو العالمي، فالتداعيات الاقتصادية تعتمد على عوامل تتفاعل بطرق يصعب التنبؤ بها، بما في ذلك مسار الجائحة، وكثافة جهود الاحتواء ودرجة فعاليتها، ومدى الاضطرابات المتعلقة بالعرض، وتداعيات التشديد الحادّ لأوضاع الأسواق المالية العالمية، والتحولات في أنماط الإنفاق، والتغيرات السلوكية (كأن يتجنَّب الناس مراكز التسوق والمواصلات العامة)، والآثار على الثقة، وأ سعار السلع الأولية المتقلّبة، ويواجه كثير من البلدان أزمة متعدّ دة الأبعاد تتألَّف من صدمة صحية، واضطرابات اقتصادية محلية، وهبوط حاد في الطلب الخارجي، وتحولات في وجهة تدفقات رؤوس الأموال، وانهيار في أسعار السلع الأولية، وتهيمن على الأجواء مخاطر احتمال أن أيلولة الأمور إلى عاقبة أسوأ"[٣].

وربما يتأثَّ ر الاقتصاد القومي في البلدان المتقدّمة كما أوضحت التقارير الدولية، إلا أن قدرتها عَلى التعافي بحلول العام المقبل أمر متوقَّع، أما على مستوى الأفراد، فأغلب هذه الدول تمكَّنت بالفعل من مساندة من تضرَّروا جراء حالة الإغلاق التي أعلنت بصور مختلفة من الإعانات؛ كإعانة البطالة والتخفيف من

(1) Maria Nicola, Zaid Alsafi, Catrin Sohrabi, Ahmed Kerwan, Ahmed Al-Jabir, Christos Iosifidis, Maliha Agha, and Riaz Agha, The socio-economic implications of the coronavirus and COVID-19 pandemic: a review, International Journal of Surgery, 2020, accessed on: 2 September 2020, available at: https://cutt.us/KqRv2

(٢) كورونا تنذر "بواقع مرير": توقعات بانكماش الاقتصاد العالمي وخسائر بأكثر من ٨ تريليون دولار عام ٢٠٢٠، أخبار الأمم المتحدة، ١٣ مايو ٢٠٢٠، تم الاطلاع عليه في: ٢ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/eRmVV

(٣) صندوق النقد الدولي، تقرير آفاق الاقتصاد العالمي: الإغلاق العام الكبير أبريل ٢٠٢٠، تم الاطلاع عليه في: ٢ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ljY3h

سداد المدفوعات الدورية. إلا أن الحال يختلف كثيرا في البلدان النامية، والتي يعتمد عدد هائل من سكانها على قطاع الخدمات، فالعديد قد فقدوا مصدر دخلهم اليومي والشهري، مع ثبات المدفوعات المستحقة عليهم، ولم تقدّم لهم حكوماتهم أكثر من إعانات ضعيفة في كثير مَن الأحيان، فعلى سبيل المثال، تكتظ هذه البلدان بما يعرف بالاقتصاد غير الرسمي، ومع إجراءات التباعد الاجتماعي وغلق الأسواق وحظر التجوال، يصبح هؤلاء المحتاجون إلى الخروج اليومي لإطعام أنفسهم وأسرهم في أزمة حقيقية، تقول أوكسانا أبودا مديرة مؤسسة "ستريت نيت" الدولية، وهي منظمة تمثل الباعة المتجولين في جميع أنحاء العالم، حول ما يقوله الأشخاص الذين تمثِّلهم المنظمة عن وضعهم: "علينا أن نختار بين خيارين؛ لكن كليهما مريع، إما أن نعرض أنفسنا للخطر (جراء تفشي العدوى) ونواصل عملنا غير الرسمي، أو أن نعرض عائلاتنا لخطر التضوُّر جوعا، وهذا هو الواقع بالنسبة لمليارات البشر في جميع أنحاء العالم، فالعمل غير الرسمي أمر طبيعي في البلدان النامية"[(١)]، ما يدفع مجدًّ دا بجائحة كورونا إلى تهديد الأمن الإنساني لهؤلاء الأفراد، بسبب ما ألجأتهم إليه من مزيد من الفقر والحاجة.

– كورونا وزيادة الميل إلى السلطوية

ينظر البعض إلى أزمة كورونا على أنها فرصة لإثبات مرونة الاستبداد وفشل القيادة الديمقراطية التي يمكن أن تأخذ دبلوماسية القوة الناعمة الاستبدادية إلى آفاق جديدة، فعندما يجتاح العالم وباء لا يعلم أحد على وجه الدقة ماهيته ولا كيفية التصدّي له بشكل رادع، ربما ينظَر إلى النظم الديمقراطية على أنها بطيئة ومتردّدة في اتخاذ القرارات التي من شأنها حماية مواطنَيها، حتى وإن عنى ذلك إجبارهم على أخذ الحيطة والحذر لحماية أنفسهم، في مقابل النظم الاستبدادية التي تتَّسم بالحسم السريع في اتخاذ القرارات وفي فرضها وإجبار مواطنيها على الانصياع.

والأنظمة الاستبدادية مثل الحزب الشيوعي الصيني لا تعزز قبضتها المحلية على السلطة فحسب، بل تروج أيضا لأنظمتها السياسية كنموذج يحتذي به الآخرون، وفي ظل كون جائحة فيروس كورونا مشكلة خطيرة، وأنه لا يزال هناك عدم يقين بشأن رد فعل صانعي السياسات، حيث أشاد محلِّلو الصحة العامة بالمحاولات التي قامت بها بعض الأنظمة الاستبدادية مثل استجابة سنغافورة والصين للأزمة، ووصفت منظمة الصحة العالمية ما حدث في الصين، بقولها: "ربما يكون احتواء المرض الأكثر إبد اعا وكفاءة وفعالية في التاريخ"، وهو ما سارعت السلطات الصينية إلى استغلاله لصالح رئيسها، الرئيس شي جين بينغ، وصرَّحت بأنه: "لا يمكن اتخاذ خطوات حاسمة إلا في الصين، وتحت قيادة الرئيس شي، للسيطرة على هذا المرض الذي لا يمكن التنبؤ به"[(٢)].

وهناك العديد من الحكومات الأخرى التي بالغت في الاستجابة للوباء للاستفادة منه، كما حدث في الفلبين، فقد حصل الرئيس رودريغو دوتيرتي، على صلاحيات أكبر بكثير لمكافحة العدوى، بما في ذلك إمكانية السجن لنشر تقارير كاذبة بشأن فيروس كورونا، وهي خطوة قد تستخدم لإسكات المعارضة

(١) فيروس كورونا: اقتصادات الدول النامية تتضرر بشدة جراء أزمة الوباء، بي بي سي عربي، ٢٤ أبريل ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٣ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/zwFBY

(2) Lily Kuo, How did China get to grips with its coronavirus outbreak?, The Guardian, 9 March 2020, accessed on: 5 September 2020, available at: https://cutt.us/uhRpt

السياسية، كما أقرت الفلبين عقوبة السجن أو الغرامة لمن يرفض الخضوع لاختبار كورونا[١].

وفي عدد من الدول، لم تحترم الحكومات الحق في حرية التعبير، واتخذت تدابير ضدَّ الصحفيين والعاملين في الرعاية الصحية، فعلى سبيل المثال، احتجزت السلطات الصينية أشخاصا بسبب نشر تقارير عن الوباء على وسائل التواصل الاجتماعي، ومستخدمي الإنترنت بسبب "ترويج الإشاعات"، وفرضت رقابة على النقاشات المتعلقة بالوباء على الإنترنت، وكبحت تغطية وسائل الإعلام، كما حدث في مطلع يناير الماضي، مع لي وينليانغ الطبيب المعالج في مستشفى ووهان، بعد أن حذّر من الفيروس الجديد في غرفة دردشة على الإنترنت. وفي تايلند، تعرَّض أشخاص من قطاع الصحة العامة وصحفيين تحدَّثوا على الإنترنت، إلى ملاحقات قضائية انتقامية من السلطات، بعد أن انتقدوا استجابة الحكومة لتفشّي الوباء، وأثاروا مخاوف من احتمال وجود تستُّر، ونشروا تقارير عن فساد مزعوم يتعلّق بتكديس الأقنعة الجراحية ولوازم أخرى والتربُّح من ذلك[٢].

ويعد واحد من جوانب الأزمة هو التقدم العلمي للنظام الحاكم، الذي قد يكون استبداديًّا في الوقت نفسه، مثل الصين، حيث تتمتَّع المجتمعات المحكومة والمراقبة جيدا بقدرة الحصول على المعلومات بدقة متى أرادت، وقد لا نعرف أبدا مدى خطورة الوباء بسبب المراقبة غير الكافية في الدول الأقل حكما، وقد لا نحصل أبدا على إجابة مباشرة، وفي حين يمكن اعتبار تقنيات المراقبة آلية فعالة للوقوف على الحجم الحقيقي لكارثة مثل هذا الوباء، ومن ثم رفع كفاءة التصدّي لها، إلا أنه لا يمكن إغفال تخوف أن تصبح هذه التقنيات أكثر انتشارا وأكثر جرأة بعد الأزمة، ما يضعف الميول الديمقراطية بشكل عام.

خاتمة

يبدو أنه من العسير، أن يُختلف على أزمة أودت بحياة مئات الآلاف وتهدّد حياة وسبل عيش ملايين غيرهم، بأنها أزمة تهدّد أمن البشرية، أيًّا كان تعريف هذا الأمن، غير أنهَ يمكن اعتبار أزمة كورونا مثال للحوادث التي تدفع بأوساط الباحثين والسَّاسة على حدّ سواء، إلى مراجعة تعريفاتهم ومعاييرهم فيما يخص موضَوع الأمن، لتجاوز إشكاليات القومية والإنسانية. فما يهدد حياة الفرد العادي قد يمتد إلى أفراد القوات المسلحة التي تمثل درع الدول لحماية ما يعرف بأمنها القومي، وما يعرض الاقتصاد في دولة ما إلى الركود، يؤثر بالضرورة في قدرتها على التحرُّك في مساحات الأمن التقليدي، فضلًا عن امتداد تأثير هذا الركود وما على شاكلته إلى غيرها من الدول. فقد تعرَّض العالم بأسره هذا العام إلى مشاهد لم يعهدها في تاريخه القريب، رأى دولًا عظمى في إمكاناتها الاقتصادية والعلمية والعسكرية تقف عاجزة أمام وفاة وإصابة الآلاف من مواطنيها. كما وقفت شعوب الدول الديمقراطية حائرة ومذعورة ما بين تردُّد وعجز ساستها عن الرعاية الصحية الكافية لهم من جهة وعلى اتخاذ قرارات فعالة بما يكفي لرأب صدع الاقتصاد مع حالات الإغلاق وارتفاع معدلات فقدان الوظائف، في مقابل دول استبدادية تواترت سياساتها على القمع وازدراء حقوق الإنسان تنجح في احتواء الأزمة بسياسات متزنة وفعَّالة إلى حدّ كبير. وربما يدفع ذلك

(١) الفلبين تفرض السجن أو دفع غرامة عقوبة على من يرفض إجراء اختبار كورونا، بوابة الأهرام، ٢٤ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٥ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي:
https://cutt.us/VJZIe

(٢) الأبعاد الحقوقية في الاستجابة لفيروس "كورونا" المستجد، هيومن رايتس ووتش، ١٩ مارس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٥ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي:
https://cutt.us/cWusp

بالكثير من الملفات إلى صدارة المشهد السياسي عندما تمر أزمة كورونا؛ كملف أولوية الرعاية الصحية في مختلف الدول أياً كان مستواها الاقتصادي والعلمي، وملف تدابير الإعانات الاجتماعية. كما قد تؤدّي الأزمة إلى تجدُّد النقاش حول ثنائية الاستبداد والديمقراطية، ومدى الفاعلية السياسية للنظم الواقعة بين قطبي هذه الثنائية.

*****



الآثار المجتمعية لجائحة كورونا على العلاقات والتفاعلات داخل المجتمعات

زينب البقري(*)

تمهيد:

ثمة مشروع لتوثيق شهادات الناجين من وباء إنفلونزا الأسبانية الذي اجتاح العالم مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وانتشر عبر الجنود إلى أمريكا وأوروبا، وحصد مئات الآلاف من الموتى بما يزيد عن مجموع الوفيات الناتجة عن الحربين العالميتين الأولى والثانية معا. اعتمد هذا المشروع على جمع حكايات شهود هذه الفترة بالولايات المتحدة الأمريكية ممن تجاوزت أعمارهم التسعين عاما. من الملفت للنظر في هذه الشهادات، أن هذا الحدث "وباء الإنفلونزا الإسبانية" لم تنته آثاره بمرور الزمن. فمن ضمن هذه الشهادات، يروي أحدهم أن أمه قد ورثت قلقا لانهائيا بسبب معاصرتها لهذا الوباء، فقد ظلت تنتابها نوبات قلق من كل شيء بخاصة تغير الطقس، فكانت ترقب منسوب البركة التي تجاور منزلها في الحي الصغير طيلة حياتها، وكل يوم تحدثهم في الهاتف عن قلة منسوب المياه بالبركة المحتضرة مما يعني أن العالم أوشك على الانهيار، وفي طريقه نحو الهاوية.

شهدت هذه السيدة حوادث عدة، انتحار والدها عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها؛ الكساد والحرب العالمية الثانية؛ ثم فقد زوجها، ومع كل هذه الأحداث المؤلمة يذكر الابن أن حدث الوباء هو الذي حدد شخصية المرأة التي أصبحت أمه، فحينما اجتاح وباء الأنفلونزا بلدتها الصغيرة خارج فيلادلفيا كانت والدته تبلغ من العمر ٧ أو ٨ سنوات ومريضة في المنزل. وصفت أمه مشاهد الوقوف على الشرفة والتحديق في الجيران عبر الشارع. لقد ماتوا. كانت جثثهم ملقاة في الفناء الأمامي. ثم رأت الجثث أمام منازل أخرى وحتى في الشارع. حتى الحيوانات الأليفة ماتت. لقد كان جائحة عام ١٩١٨ مروعة. ومنذ ذلك اليوم حتى وفاتها سكنها هذا القلق الأبدي، ولم يترك أثره فيها فقط، ولكن حينما سكن أخيه بجوار هذه البركة، ظل يترقب منسوب المياه سرا، وظل هو نفسه ينظر إلى الطيور ويتساءل عما إذا كانت ستجلب الوباء القادم الذي سيكون حتما نهاية الأزمنة، لا لشيء سوى أنهما أبناء هذه السيدة"[١].

هذه القصة وغيرها الكثير توضح كيف تعد الأوبئة من الخبرات الاجتماعية التي تترك تأثيرات طويلة المدى، وتظل انعكاساتها عبر أجيال ممتدة، وقد تساهم في تطوير أو تغيير الملامح الاجتماعية للدول، خاصة مع زخم التفاعلات التي تصاحب فترة وجود الوباء.

فيذكر المؤرخ فرانك إم سنودن "أستاذ فخري للتاريخ وتاريخ الطب في جامعة ييل" أن الأوبئة مثل فيروس كورونا هي مرآة للبشرية، تعكس العلاقات الأخلاقية التي تربط الناس ببعضهم البعض. وفي كتابه "الأوبئة والمجتمع: من الطاعون الأسود حتى الوقت الحاضر" يدرس فرانك م. سنودن الطرق التي شكل بها تفشي الأمراض والأوبئة الحقل السياسي والثورات المدمرة والتمييز العنصري. فقد ساهمت بعض الأوبئة في تحديد نتائج الحروب كالحمى الصفراء التي تفشت في صفوف جنود نابليون، ولعبت أوبئة دورا في اندلاع حروب

(*) باحثة في العلوم الاجتماعية.

(١) Centers for disease control and prevention, Pandemic Influenza Storybook, access date 1-8-2020, available at URL: https://bit.ly/3jRtIEG

أخرى، وتطور الطب الحيوي على إثر انتشار الأوبئة، وكان للطاعون دور في مجيء الثورة الصناعية. بشكل عام غيرت الأوبئة المجتمعات التي انتشرت فيها، وأثرت على العلاقات بين الأفراد، وعلى شكل الفنون والآداب، فتأثير ها واسع النطاق، يمتد عبر القرون والقارات[١].

فيؤكد فرانك إم سنودن أن الأوبئة لا تقل في تأثيراتها الكبرى على المجتمعات من الأزمات الاقتصادية الكبرى والحروب، فقد كانت الأمراض المعدية أهم سبب للمعاناة والموت حتى عام ٢٠١٠ مع حمى الإيبولا[٢]، وتختلف الآثار المجتمعية والسياسية الناتجة عن كل وباء، فليس لجميع الأوبئة نفس القدر من التأثير، فقد كان الطاعون هو الأخطر، حينما قضى على نصف سكان العالم، ولم يكن هنالك عدد كافي لدفن الموتى، وظل تأثيره المدمر على المجتمعات فترة طويلة، عانى الناس وقتها من الفوضى وظهرت طوائف دينية جديدة، وتطورت استراتيجيات مقاومة الأوبئة والصحة العامة، واستخدمت صلاحيات واسعة لفرض حالة طوارئ غير مسبوقة والحصار وإجراءات شاملة للعزل الصحي... إلخ.

وعلى الرغم من أن الأزمة الحالية التي يمر بها العالم مع تفشي وباء كورونا "كوفيد-١٩" تأتي في سياق مغاير تماما للأزمات المشابهة تاريخيا كالطاعون الأسود والإنفلونزا وسارس وغيرها؛ حيث تلعب وسائل التواصل الاجتماعي عاملا مركبا آخر بين نشر الوعي والشائعات وتخفيف حدة "التباعد الاجتماعي" الذي طُبق مع هذه الأزمة؛ فإن هذه الفترة شهدت ظهور سلوكيات وتوجهات جديدة استجابة للوضع الحالي[٣]. في هذا التقرير سنتناول بعض الآثار المجتمعية لجائحة كورونا على العلاقات والتفاعلات داخل المجتمعات.

ويمكننا رصد نوعين من استجابات الأفراد للأوبئة بوجه عام وكورونا على وجه التحديد؛ استجابة على المدى القصير واستجابات لها آثارها الممتدة التي يصعب القطع بها، فيصعب قياس تأثيرات هذا الوباء على المدى الطويل حتى بالرجوع للسرد التاريخي للأوبئة السابقة، لأن لكل وباء سياقاته الخاصة وطبيعة البنية الاجتماعية التي سمحت بانتشاره، حتى وإن اشتركت المجتمعات في كثير من الأمور، فكما يذكر رانك إم سنودن: "إن الأمراض الوبائية ليست أحداثًا عشوائية تصيب المجتمعات بشكل نزوي ودون سابق إنذار، بل على العكس من ذلك كل مجتمع يتميز بخصوصيته وبنقاط ضعفه الخاصة. ولدراستها يجب فهم بنية المجتمع ومستوى معيشته وأولوياته السياسية"[٤].

ولهذا فإن دراسة الآثار المجتمعية لفيروس كوفيد ١٩ لا ينفك عن فهم حال المجتمعات قبل هذه اللحظة، كما أنه تجدر الإشارة إلى أنه إذا كان من اليسير القطع بمآلات التغيير والتحولات التي أحدثها الفيروس في كل المجتمعات على المدى القصير إلا أنه يصعب القطع بمآلات هذه التغييرات على المدى الطويل، وهل ستترتب تغييرات جذرية في العالم نتاج هذا الفيروس أم لا؟

---

(١) عبده حقي، الأوبئة مرآة لأنفسنا.. هناك روايات كتبت حول الأحداث الكبرى وتأثر الأدب والثقافة معا، حوار مترجم مع فرانك إم سنودن، ١٣/٠٤/٢٠٢٠، تاريخ الدخول: ٢٥-٨-٢٠٢٠، متوفر على الرابط التالي: https://bit.ly/33dQ8Jw

(2) Epidemics in Western Society Since 1600 with Frank, Yale courses, lecture 1, Mar 16, 2011, acess date: 5-8-2020, available at URL: https://bit.ly/3mO846J

(٣) الأوبئة مرآة لأنفسنا، هناك روايات كتبت حول الأحداث الكبرى وتأثر الأدب والثقافة معا، مرجع سابق.

(٤) المرجع السابق.

فيذكر عالم الاجتماع إدغار موران: "السنا متيقنين من مصدر الفيروس: سوق في مدينة ووهان الصينية يفتقر للشروط الصحية أو ربما مختبر مجاور له، لذلك لا نعلم سبل التحولات التي يخضع لها الفيروس أو احتمالاتها إبان فترات انتشاره. أيضا لا نعلم متى سيتراجع الوباء أو إمكانية بقائه مستوطنا. كذلك لا نعلم قط، إلى أي حد سيجعلنا العزل الصحي نكابد موانع، وقيودا، وتقنيات ثم مستويات ذلك. في نفس الوقت، يصعب علينا، الإحاطة بالمآلات السياسية، الاقتصادية، المحلية والعالمية لتلك القيود التي انطوت عليها إجراءات العزل الصحي. أخيرا، لا نعلم إن كان ينتظرنا الأسوأ، أو الأفضل، أو مزيجا بينهما : جراء مختلف ذلك، نحن بصدد الاتجاه نحو لا يقينيات جديدة"[١].

لا يقلل ذلك من حجم التغييرات قصيرة المدى التي لم يكن يتوقعها الكثيرون مع انتشار فيروس كوفيد ١٩، فكما ذكر الفيلسوف الفرنسي بورنو لاتور "أن الدرس الأول الذي علمنا إياه الفيروس التاجي خلال الأيام الأولى من الإغلاق هو الأكثر ذهولا: لقد أثبتنا بالفعل أنه من الممكن، في غضون أسابيع قليلة، تعليق نظام اقتصادي في كل مكان في العالم"[٢].

ويركز هذا التقرير على التغيرات الاجتماعية التي أحدثتها جائحة COVID-١٩ على المدى القريب، أي تغييرات قد عايشها معظم سكان العالم، وبالطبع ثمة آثار مرتقبة على المدى البعيد ولكن لا يمكن الجزم بتوقعاتها الحاسمة. ويتناول هذا التقرير المحاور التالية:

- الخوف من المخاطر الاقتصادية والفقر أكثر من المخاطر الصحية
- العلاقات الأسرية في ظل انتشار وباء كوفيد -19
- التباعد الاجتماعي وإعادة التفكير في المساحات الاجتماعية الآمنة وغير الآمنة
- "العقلانية الهشة" الحاكمة للتفاعلات اليومية
- تزايد الاعتماد على التكنولوجيا الرقمية ومآلاتها الاجتماعية
- الشعور بالوحدة والقلق والاكتئاب أثناء الجائحة: التأثير والتغيرات الاجتماعية

أولًا- الخوف من المخاطر الاقتصادية والفقر أكثر من المخاطر الصحية:

بحسب التقرير الصادر عن منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية عن تأثيرات فيروس كوفيد ١٩ على التنمية[٣]، تسببت تدابير العزل المنزلي للحد من انتشار كوفيد ١٩ في انقطاع مؤقت للدخل لكثير من الفئات الأكثر تضررا من محدودي ومتوسطي الدخل، هؤلاء الذين لا يتوفر لديهم أي أصول مادية يمكن الاعتماد عليها عند ظهور مخاطر مفاجئة. فعبر ٢٨ دولة من دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية هنالك ٣٦٪

---

(١) إدغار موران: "تمثّل فترة ما بعد الوباء مغامرة يكتنفها الغموض"، ترجمة سعيد َأبو بوخليط،بتاريخ 28/04/2020، تاريخ الدخول ١٠-٨-٢٠٢٠، متوفر على الرابط التالي: https://bit.ly/2R3JY9p

(2) Jonathan watts, The influential French thinker explains the politics of the Gaia principle, the problems of post-truth and how coronavirus gives us a model for spreading ideas, access date: 25-8-2020, available at URL: https://bit.ly/2R63tOv

(3) How COVID-19 is changing the world: a statistical perspective, p 44, access date: 25-8-2020 available at URL: https://bit.ly/32ajTMf

من الناس غير آمنين ماليا – ولا يعتبر هؤلاء حاليا فقراء الدخل، فدخلهم أعلى من نصف متوسط الدخل في بلادهم، ولكنهم يفتقرون إلى الأصول المالية للحفاظ على أسرهم فوق خط الفقر لأكثر من ٣ أشهر. هذا الخطر يرتفع بشكل خاص بين الفئات الأشد فقرا، والأسر ذات العائل الوحيد، خاصة الأسر التي تعولها نساء، اللاتي يواجهن مضاعفة التحديات من فقدان الدخل، وصعوبات في رعاية الأطفال مع إغلاق المدارس ومسؤوليات الرعاية الجديدة، ونقص في دعم الأسرة. كما أن أكثر من ٤٠ في المائة من سكان العالم ليس لديهم أي حماية اجتماعية[1].

وفي هذا الإطار يطرح التساؤل: هل ستمتد التأثيرات المادية لوباء كوفيد ١٩ على العالم خلال السنوات القادمة؟ وفقا لتقديرات البنك الدولي[2] فمن المرجح أن يتسبب هذا النظام في حدوث أول زيادة في الفقر العالمي منذ عام ١٩٩٨، عندما ضربت الأزمة المالية الآسيوية. ومن المتوقع أن يرتفع معدل الفقر العالمي –وهو نسبة سكان العالم الذين يعيشون على أقل من ١,٩٠ دولار في اليوم– من ٨,٢% في عام ٢٠١٩ إلى ٨,٦% في عام ٢٠٢٠، أو من ٦٣٢ مليون نسمة إلى ٦٦٥ مليون شخص.

كما تشير بعض التقديرات الأخرى إلى أن "كوفيد–١٩" سوف يدفع ٤٩ مليون شخص إلى الفقر المدقع في عام ٢٠٢٠. وتعتمد الأماكن التي يحصد فيها الفيروس أكبر عدد من الوفيات في المقام الأول على عاملين: أولا: تأثير الفيروس على النشاط الاقتصادي، وثانيا: عدد الأشخاص الذين يعيشون بالقرب من خط الفقر الدولي. وتتوقع تقديرات صندوق النقد الدولي أن تتقلص الاقتصادات المتقدمة بنسبة ٦% في عام ٢٠٢٠، في حين ستتقلص الأسواق الناشئة والاقتصادات النامية بنسبة ١%. ومع ذلك، فإن البلدان منخفضة ومتوسطة الدخل ستعاني من أكبر العواقب من حيث الفقر المدقع، مع زيادة عدد الأشخاص الذين يعيشون على مقربة من خط الفقر الدولي. ومن المعروف أن الدول الأكثر فقرا هي الأكثر عرضة للهشاشة ا لاجتماعية، والأكثر تهديدا لاستقرار الأسر ومن ثم المجتمع على المدى الطويل.

فجائحة كوفيد ١٩ ليست مجرد أزمة صحية، ولكنها أيضا أزمة إنسانية وتنموية تهدد بإحداث آثار اجتماعية واقتصادية وسياسية لسنوات قادمة، لا سيما في البلدان المثقلة بالفعل بالفقر والصراع. ويزداد وقع الأزمة على الفئات الأشد فقرا، والمحتاجين للرعاية الصحية ومتحدي الإعاقة، والعاملين في الوظائف المحفوفة بالمخاطر. فقد جلبت العولمة بعض الفرص الاقتصادية للبلدان النامية، ولكن كما يتضح بسبب جائحة كوفيد ١٩ أنها جلبت معها الاضطرابات أيضا، في الوقت نفسه، تعيد هذه الاضطرابات المصاحبة للوباء إثارة المحلية وعودة كثير من الدول للاهتمام بالمحلي بصورة أكثر جدية من طرح مساعدات حقيقية للدول الفقيرة[3].

ثانيا– العلاقات الأسرية في ظل انتشار وباء كوفيد ١٩:

قد أعادت جائحة كوفيد ١٩ تشكيل علاقاتنا الاجتماعية، فقد فرض الحجر الصحي على الأسر في جميع أنحاء العالم ما يمكنه وصفه بالقرب القسري فقد أرغم الحجر الصحي أفراد الأسرة الواحدة على البقاء تحت سقف واحد والتواصل معهم على مدار

(1) Ibid, P. 40.
(2) Ibid, P. 60.
(3) Ibid, P. 60- 64.

الساعة، وترتب على هذا القرب القسري للأسر عدة نتائج منها سلبية وبعضها إيجابية.

فقد ارتفعت معدلات العنف المنزلي في كثير من الأسر في دول متعددة، وزادت معدلات الطلاق، وفرضت المزيد من الأعباء على الأسر بعد انغلاق الحضانات والمدارس والجامعات، والعمل من المنزل.

وبالنسبة إلى أثر الوباء على تزايد معدلات العنف المنزلي فنجد في الصين وهي أولى الدول التي فرضت الحجر الصحي بعد ظهور الفيروس، وهونغ كونغ، التي طبقت إغلاقا شاملا في احتواء الوباء، وقد خلف الوباء بعض الشروخ العميقة في العلاقات الأسرية. فبحسب سوزان تشوي، عالمة اجتماع بالجامعة الصينية في هونغ كونغ، ثمة زيادة ملحوظة في الخلافات الزوجية بسبب ضغوط العزل المنزلي التي ترافقت مع الضغوط المالية الناجمة عن الركود الاقتصادي إثر تفشي الوباء[١].

فقد شهدت مدينة شيآن شمال غربي مقاطعة شانشي، ارتفاعا غير مسبوق في طلبات الطلاق بعد إعادة فتح مكاتب تسجيل الزواج في مارس ٢٠٢٠. و في مقاطعة هوبي الوسطى، بالقرب من المكان الذي بدأ فيه الوباء في ووهان، تلقت ١٦٢ تقريرا عن العنف المنزلي في فبراير، وهو ثلاثة أضعاف التقارير الـ ٤٧ المبلغ عنها خلال نفس الشهر في عام ٢٠١٩[٢].

وفي تقرير عن بعض الطلبة بالولايات المتحدة الأمريكية وعلاقتهم مع أسرهم خلال الحجر الصحي تنوعت الإجابات بين زيادة التوتر وحدة الخلافات بينهم على أمور تافهة، واستغراب بعض الطلاب حضور والديهم بهذه الكثافة يوميا، إلا أن البعض قد استمتع بشعورهم بأنهم كعائلة محاصرين معا، والاحتفاء بتمضية وقت ممتع معهم لم يكن متاحا من قبل، ومشاركة الضغوط المتزايدة معهم[٣].

على الرغم من أننا لا نعرف سوى القليل عن الكيفية التي يمكن أن تشكل بها الأوبئة نتائج طويلة المدى مثل معدلات الطلاق والزواج والولادة، فإن الأبحاث حول آثار الكوارث، والتي تشبه في بعض النواحي الأوبئة، تشير إلى أن طبيعة الكارثة قد تحدد كيفية التأثير على التركيبة السكانية المتعلقة بالزواج. فبعد إعصار هوغو، على سبيل المثال، زادت معدلات الطلاق والزواج والولادة في العام التالي في المناطق الأكثر تضررا من الإعصار مقارنة بالمناطق التي لم تتأثر.

وفي المقابل، بعد هجمات ١١ سبتمبر وتفجير مدينة أوكلاهوما عام ١٩٩٥، انخفضت معدلات الطلاق. قد تعكس هذه الآثار المتباينة الاختلافات في سياقات نوعي الكوارث، فقد تضمنت الهجمات الإرهابية خسائر كبيرة في الأرواح بالإضافة إلى شيوع حالة من عدم اليقين والخوف بشأن الهجمات المستقبلية، وفي مواجهة مثل هذه التهديدات الشديدة يسعى الناس عادة إلى التقارب والبحث عن العلاقات الآمنة من المقربين، وهذا قد يفسر سبب تحول الأزواج لبعضهم البعض وتقليل احتمالية الطلاق بعد هجمات ١١ سبتمبر. على النقيض من ذلك، لم يتضمن إعصار هوغو عددا كبيرا من الوفيات ولكنه تطلب إعادة بناء

(1) Association for Psychological Science, Pandemic Effects on Marriage and Relationships, 28-Apr-2020, access date: 28-8-2020, available at URL: https://bit.ly/3m1sqsK

(2) Ibid.

(3) What Students Are Saying About Family Conflict in Quarantine, Starting Over and Health Care Heroics, New York Times, April 23, 2020, accessed: 20-8- 2020, available at URL: https://nyti.ms/3h5uaNS

المجتمعات على مدى فترة زمنية أطول، وهو ما رتَّب على الأرجح ضغوطًا ضريبية أكثر وقعت أعباؤها على الأسر مما ساهم في ارتفاع نسب الطلاق. فالكيفية التي تشكل بها الأوبئة التركيبة السكانية المتعلقة بالزواج والطلاق يمكن أن تعتمد على السمات السياقية المحددة للوباء والتغيرات الاقتصادية المصاحبة له.

لذلك تبين الكثير من الدراسات أن الفقراء وذوي الدخل المنخفض أكثر عرضة لعدم استقرار علاقاتهم الزوجية والأسرية، نظرا لأنهم أكثر عرضة لتحديات وصعوبات اقتصادية أكبر. بالإضافة إلى ذلك، فإن معدل الطلاق أعلى بالفعل بالنسبة لهؤلاء الأزواج مقارنة بالأزواج ذوي الدخل المتوسط والمرتفع، لذلك، قد يظهر معدل الطلاق انخفاضا أو زيادة أو عدم تغيير بعد الأزمة، اعتمادا على نوعية العلاقات الزوجية قبل الأزمة(١).

ثالثًا- التباعد الاجتماعي وإعادة التفكير في المساحات الاجتماعية الآمنة وغير الآمنة:

لتجنب انتشار الفيروس، فرضت السلطات في جميع أنحاء العالم التباعد الاجتماعي الذي يترتب عليه العزلة بين الناس في مناطق العاصمة بأكملها وإجبار السكان على البقاء في المنزل، وإغلاق أماكن الاجتماعات والمدارس، والعزلة الطوعية لكبار السن والمجموعات الفرعية الأخرى المعرضة للخطر. في حين أن هذه التدابير يمكن أن تكون فعالة ضد انتقال المرض، فإنها تؤدي أيضا إلى العزلة الاجتماعية لكثير من الناس. ويمكن للعزلة الاجتماعية أن تحفز الشعور بالوحدة، بالإضافة إلى أنها يمكن أن تعزز أعراض الإجهاد اللاحق للصدمة والارتباك والغضب. وقد جاء هذا الوباء في وقت يعيش فيه عدد أكبر من الناس في أسر نووية(٢).

وطرح بعض الباحثين تساؤلات عدة حول تأثير هذا التباعد الاجتماعي على تعريفنا للمسافات الآمنة والعلاقات الودية المقربة بعد شهور من العزلة والتباعد الاجتماعي. فثمة افتراض بين العديد من علماء الأنثروبولوجيا أن المسافات التي نحتفظ بها بيننا وبين الآخرين يتم تعلمها وتصبح جزءا من اللاوعي الاجتماعي والثقافي. على سبيل المثال، في حين أنه من الشائع، أن يقبل العرب والفرنسيون بعضهم البعض عند اللقاء، فإن الناس في إنجلترا وأمريكا الشمالية يتصافحون، وفي أماكن أكثر شيوعا، يحتضنون، بينما يميل اليابانيون إلى تحية بعضهم البعض بالانحناء. من الواضح أن هذه الآداب الاجتماعية تختلف على أساس الطبقة والنوع والخلفية الاجتماعية والمكانية.

درس عالم الأنثروبولوجيا إدوارد ت. هول (١٩٦٦) المسافة الاجتماعية التي تتعلق بالتواصل بين الأشخاص، كان هول مهتما بالنقطة أو المسافة التي قد يشعر فيها بعض الناس بالتطفل إذا لم يتم احترام هذه المسافات. تغيرت هذه الاحتمالات المختلفة للمكان المتجسد بشكل جذري خلال جائحة COVID-١٩؛ أصبح "التباعد الاجتماعي" وارتداء أقنعة الوجه هو المعيار في العديد من البلدان، لا يمكننا تقبيل واحتضان العائلة والأصدقاء أو حتى مصافحة الزملاء لفترة من الوقت. هذه التوقعات الجديدة للتباعد الاجتماعي سيكون من الصعب استمرارها، لأنها تتعارض مع استجاباتنا المجسدة للتفاعل الاجتماعي وأنماطنا المكتسبة من إشراك الآخرين والتفاعل معهم.

(1) Pandemic Effects on Marriage and Relationships, op. cit.

(2) Karl Samuelsson, Stephan Barthel, Johan Colding, Gloria Macassa, Matteo Giusti, Urban nature as a source of resilience during social distancing amidst the coronavirus pandemic, 2020-04-12, available at: https://osf.io/3wx5a

ومن ناحية أخرى تحد أغطية الوجه بشكل كبير من قدرة الطبيب على قياس مشاعر المريض. فيمكن لهذه الأقنعة أن تعرقل محاولات العاملين في مجال الرعاية الصحية لتقديم الدعم غير اللفظي للأشخاص في رعايتهم، فحتى مع الألم، فإن المرضى الذين يتلقون دعما غير لفظيا عاليا من أطبائهم يظهرون تسامحا متزايدا. إن سلوك الأطباء المنفصل والتباعد –مثل غياب الابتسام والنظرة المباشرة للعين– له تأثير معاكس ويرتبط بنتائج أسوأ للمرضى. وجدت دراسة حديثة أجريت على ٧١٩ مريضا مصابا بنزلات البرد، أنه كلما زاد تعاطفهم مع طبيبهم تعافوا بشكل أسرع. طُلب من كل مريض أن يسجل التعاطف الذي أظهره له الطبيب على مقياس من ١ إلى ١٠، أولئك الذين حصلوا على درجة مثالية للطبيب ١٠ (حوالي ثلث المرضى) قللوا من شدة الأعراض، وتعافوا بشكل أسرع وكان لديهم أيضا وظيفة مناعية أعلى، حوالي ٥٠ ٪ أفضل من الآخرين(١).

ولكن قد تكون هناك آثار جانبية طويلة المدى لأنماط التواصل وعدم القرب والتواصل المباشر خلال فترة انتشار الوباء، خاصة على الأطفال الصغار، الذين ما زالوا يتعلمون ممارسات وأنماط التواصل الاجتماعي. كما يثور التساؤل: ماذا عن آثار الوباء على المجموعات التي عانت بالفعل من العزلة الاجتماعية والبعد، وكذلك العنف الاجتماعي وعنف الدولة والإهمال، قبل سنوات من اندلاع هذا الوباء(٢)؟

فطالما كان التباعد الاجتماعي أو العزلة الاجتماعية جزءا من التجربة الثقافية للسكان المهمشين لفترة طويلة. فوضع توصيف محدد لما هو نقي صنع معه تعريف لما هو غير نقي/ قذر، ترسيخ تميز الأبيض خلق معه عنصرية ضد السود، وهكذا، كما وصفته ماري دوجلاس حيثما يوجد نظام تصنيف يوجد مستبعدون، وفي الجائحة ظهرت هذه الفجوة العنصرية غير المتكافئة، ولكن لم تصنع شيئا جديد.

ليس من المستغرب أن وصف COVID-١٩ بأنه "فيروس صيني" أدى إلى هجمات ضد الآسيويين في أمريكا الشمالية، وفي القاهرة تعرض مواطن صيني للتنمر والهجوم عليه من قبل بعض الطلاب استهزاء به(٣). كما أنه ليس من المفاجئ أن يتهم المهاجرون الأفارقة في الصين بأنهم ناشرون للأمراض، ربما بسبب جلدهم الأسود، وهو ما تربطه الاستعارات العنصرية المحلية بالمرض والخطر.

ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن التباعد الاجتماعي يظل إمكانية أكبر للنخبة والطبقة الوسطى، مما يخلق مسافة أكبر بين الفئات والطبقات الاجتماعية. يرى بورنو لاتور أن أحد الأسباب الرئيسية لمثل هذه المسافة والتفاوت هو اللحظة النيوليبرالية التي نعيش فيها، فالأشخاص الأكثر تضررا من الوباء هم الفئات الأضعف، كالعمال بالأجور المتدنية، والمشردون، واللاجئون، إلخ.

(1) Bianca Nobilo, Coronavirus has stolen our most meaningful ways to connect, CNN, access date: 20-8-2020, available at URL: https://cnn.it/3hd7Hyt

(2) Amiri, M., Pagheh, B., Amiri, M., The impact of the coronavirus crisis on human social life, Poster presentation at the online meeting related to the COVID-19 crisis, June 2020, available at: https://bit.ly/2RjP8yh

(٣) تعاطف مصري مع صيني تعرض للتنمر في القاهرة بسبب «كورونا"، جريدة الشرق الأوسط، ١٠ مارس ٢٠٢٠، تاريخ الدخول: ٣٠-٨-٢٠٢٠، متاح على الرابط التالي: https://bit.ly/329jRUC

ففي غانا أثر الإغلاق على أعداد كبيرة من العاملين في القطاع غير الرسمي (الباعة الجائلين، الباعة في السوق)، والمهاجرين الذين يأتون من المناطق الريفية البعيدة، وليس لديهم منازل في المدينة ولا يمكنهم العودة بسهولة إلى قريتهم. وفي سنغافورة كان العمال المهاجرون من جنوب آسيا أكثر عرضة لخطر الإصابة بالفيروس لأنهم لم يكن لديهم سوى القليل من القدرة على ممارسة التباعد الاجتماعي وعاشوا في مهاجع ضيقة وغير صحية. وفي الولايات المتحدة، تم وصف COVID-١٩ بأنه "قنبلة زمنية عنصرية"؛ فالأمريكيون الأفارقة أكثر عرضة للإصابة بالفيروس بسبب ارتفاع معدلات الإصابة بمرض السكري بينهم، وزيادة معدلات الفقر ومعدلات الوفيات.

فالتباعد الاجتماعي وإن كان إلزاما صحيا وإجراء فرضته منظمة الصحة العالمية وحكومات الدول المختلفة إلا أنه ظل رفاهية طبقية لا تتحملها ظروف الكثير من المواطنين الفقراء والمهمشين. ومن ثم فقد أعاد الوباء مساءلة قضية العدالة الاجتماعية والمساواة، فرغم أنه للوهلة الأولى يبدو فيروسا منتشرا في الأجواء لا يفرق بين الجميع، فكل الدول بطبقاتها المتنوعة وأعراقها المنتشرة عرضة للإصابة، إلا أن فرص الوقاية والشفاء ورفاهية الحماية منه ليست متوفرة للجميع. ومن هنا كان العبء الاقتصادي بسبب الوباء أكثر تأثيرا على العلاقات الاجتماعية من المرض نفسه[١].

وقد ظهرت مقالات عدة تتحدث عن أسباب تأخر استجابة السود للتعافي من الوباء، وأسباب انتشار كورونا بين أوساط السود في أمريكا وكيف أعاد الوباء مساءلة قضايا العنصرية ومدى توفر الفرص الجيدة للعلاج والخدمات الطبية والرعاية الاجتماعية التي يحظى بها السود. وفي المقابل وردت تقارير أخرى تنتقد ما تم تداوله بأن الأمريكان السود هم الناقل الرئيسي للوباء في الولايات المتحدة لاعتبارات عنصرية أكثر منها حقائق واقعية[٢].

رابعا– "العقلانية الهشة" الحاكمة للتفاعلات اليومية:

على عكس الفكرة السائدة التي سادت لعقود، التي تتأسس على "عقلانية" الإنسان، وافتراض اتخاذه قرارا من طقيًّا، وبالتالي القيام بسلوكيات رشيدة، تشير سيكولوجيا الأوبئة إلى وجود طبيعة مزدوجة للسلوك الإنساني؛ حيث يغلف بقشرة من العقلانية تُخفي اتجاهات وتحيزات لا منطقية. وفي الأوقات الطبيعية، يتمكن غالبية البشر من الحفاظ على قدر من العقلانية بطريقة أو بأخرى، غير أنه في الأزمات تأخذ اللاعقلانية بزمام الأمور، ويدفع الخوف والقلق والارتياب الفرد نحو سلوكيات متناقضة غير منطقية، ويستعيد الفرد نمطًا أشبه بالحياة البدائية غير المتحضرة التي تحركها المشاعر والاحتياجات البدائية حتى تسيطر على الفرد تماما.

---

(1) Girish Daswan, iNear and Far: how COVID-19 will affect social interactions, June 19 – 2020, access date: 25-8-2020, available at URL: https://bit.ly/3ieFIzJ

(٢) من أمثلة هذه المقالات:

- Gus Wezerek, Racism's Hidden Toll in America, how long you live depends on the color of your skin, Aug. 11, 2020, URL: https://nyti.ms/3jZfzpa
- Sabrina String, It's not obesity.. It's slavery: we know why Covid 19 is killing so many black people, The New York Times, May 25, 2020, available at: https://nyti.ms/33bLL1E

يؤكد عالم الاجتماع "ألفريد شوتز" (Schutz) أن هذه "العقلانية الهشة" تحكم في الأوقات الطبيعية ملامح الحياة اليومية، وهو ما أطلق عليه الروتين، فالحياة اليومية للأفراد والمجتمع عبارة عن روتين، بما يتضمنه ذلك من أنماط معتادة من التفاعلات والعلاقات والسلوكيات، وهو ما يشكل واقع الحياة المشتركة، غير أن هناك بعض الأحداث الاستثنائية التي تخرج تماما عن هذا الروتين، وتتحدى الأوضاع الروتينية الثابتة، عندها تكون الاستجابة لهذه التهديدات عبارة عن موجات من الفزع تغير ممارسات الحياة اليومية، وقد تتضاعف مع مرور الوقت حالة الفزع من تغير الأوضاع المعتادة، لتنتج تصرفات لا تعالج المشكلات والمخاطر التي يتوقعها الأفراد، ولكن على العكس من ذلك تزيدها سوءا، وتعجل من حدوث هذه المخاوف، مثال على ذلك، هلع الشراء، وتزايد نسب الاستهلاك للمواد الغذائية الأساسية والرفاهيات وخلو المتاجر الكبرى من المنتجات الاستهلاكية مع بداية الأزمة وانتشار وباء الكورونا خوفاً من نفادها، وكذلك المطهرات والمنظفات، وغيرها من التصرفات الأنانية الناتجة عن هذا الشعور بالفزع[١].

وهنا يأتي سؤال عن دور الدولة في التحكم في سلوكيات الأفراد وضبطها بما يتوافق مع تحقيق مصلحة الجميع، ولكن بقدر ما أعادت الأزمة أهمية تدخل الحكومة وفرضها ضوابط جمعية على المواطنين لتتحكم في سلوكياتهم الاجتماعية للحد من انتشار الفيروس، كالحجر الصحي أو ضبط حركة البيع في الأسواق، وغيرها، بقدر ما أعادت المساءلة والتشكيك في قدرتها على التصرف، والوثوق في صحة القرارات التي تتخذها[٢].

ولا يتوقف الأمر على السلوكيات غير الرشيدة، ولكن خلال فترات الوباء أو الكوارث تثار الأسئلة الكبرى؛ فنجد في فيلم "الختم السابع" للمخرج السويدي النجار بيرجمان التمازج بين الشخصي والجماعي والعالمي وقت انتشار الطاعون وكيف تفشى القلق بين الناس، ودفع الوباء البشر للتفكير في تلك الأسئلة الوجودية الكبرى؛ فقد أثار اندلاع الطاعون، على سبيل المثال، السؤال عن علاقة الإنسان بالله؛ كيف يمكن أن تحدث جائحة من هذا النوع مع إله حكيم وكامل العلم؟ من الذي سيسمح بتعذيب الأطفال بآلام شديدة وبأعداد هائلة؟ فقد قتل الطاعون الأسود نصف سكان القارات[٣]. ومع انتشار الكورونا قال البعض أن هذا هو انتقام الطبيعة واستدعيت الممارسات الطبية الشعبية بكثرة[٤].

ففي دراسة للباحث أحمد عبدالموجود الشناوي عن الريف المصري وأزمة كورونا نجد أن أبناء الريف في

---

(١) هالة الحفناوي، "سيكولوجيا الأوبئة": ماذا يحدث للمجتمعات عند تعرضها لوباء مفاجئ؟، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، ١٧ مارس، ٢٠٢٠، متاح على الرابط التالي: https://bit.ly/3hdc10F

(٢) نعوم تشومسكي، إدغار موران: التحذير من ديكتاتوريات أزمة كورونا، ترجمة سعيد بوخليط، صحيفة الحدث، ٨ أيلول ٢٠٢٠، تاريخ الدخول: ٨-٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2R4S8OT

(٣) رحمة الحداد، الفن والإيمان في زمن الوباء في فيلم الختم السابع، 23/04/2020، تاريخ الدخول: ٢٠-٨-٢٠٢٠، متاح على الرابط التالي: https://bit.ly/3icq487

(4) Jonathan watts, The influential French thinker explains the politics of the Gaia principle, the problems of post-truth and how coronavirus gives us a model for spreading ideas, The Guardian, 6 June 2020, access date: 25-8-2020, available at URL: https://bit.ly/35e2QuF

مصر قد عانوا من صعوبة في تبني عادات وتقاليد وسلوكيات جديدة عكس المعتاد في فترة وجيزة، وتحولت الأفعال اليومية الاعتيادية إلى ما يشبه الجريمة مثل الخروج من المنزل خلال فترة حظر التجوال، بالإضافة إلى توقف الأعمال والأنشطة كالبيع في الأسواق في الريف، كذلك عدم القدرة على التأقلم مع ضرر التباعد الاجتماعي، ما انعكس على مدى الاستجابة والنظر للجائحة بوصفها ابتلاء من الله، وزاد الإقبال على طرق الوقاية والعلاج التقليدية والعلاج بالأعشاب[١].

خامسا– تزايد الاعتماد على التكنولوجيا الرقمية ومآلاتها الاجتماعية:

من الواضح أن الاعتماد على القطاع الرقمي قد زاد بكثافة مع فرض العزل المنزلي، فالكثير من الشركات وقطاع الأعمال والمصالح الخاصة والحكومية اعتمدت على تقديم خدماتها من خلال الإنترنت، وسمحت لموظفيها بالعمل من المنزل، وإن كان التوجه نحو العمل من المنزل قد أخذ حظًا كبيرا من التطبيق خلال السنوات السابقة، ولكنه على الناحية الأخرى اتضح أن هنالك العديد من الأعمال والخدمات كان يمكن أن تكون مجرد بريد إلكتروني. وقد اتُخذت بسبب الأزمة قرارات كان هنالك تباطؤ بيروقراطي في تنفيذها، وتم السماح بالتعليم المنزلي الجزئي أو التعلم عبر الإنترنت للأطفال من رياض الأطفال وحتى الصف الثاني عشر[٢].

تشجيع الأزمة الشركات على أخذ خطوة فعلية نحو استمرار العمل المنزلي[٣]يثير إشكاليات أخرى، وهي مدى قدرة القطاع الرقمي في الدول المختلفة متقدمة ونامية على السواء على الاستمرار، ومدى سعة وقدرة البنية التحتية على الاستجابة لهذا الطلب الواسع الممتد في الفترات الراهنة ومستقبليا مع توقعات بحدوث انكماش اقتصادي؟ وما الفرص المتاحة لمواطني الدول التي لا تتوفر فيها هذه البنية التحتية للجميع؟

الإشكالية الأخرى هي مآلات هذا الاعتماد على التقنية في مجالات كالتعليم والعلاج والعمل وغيرها على التواصل الإنساني وعلى مخرجات هذه الخدمات، كالاستشارات الطبية والخدمات العلاجية والعلاقة بين المعلم والتلاميذ، ومدى الاستيعاب وحسن الفهم، مع وجود الإتاحة وتوفير الوقت والجهد والانتشار. يرى البعض أنه في عصر الرقمنة هذا سيجعل التواصل الافتراضي ينسينا شعور القرب في العلاقات. كما أن هنالك صعوبة في استمراره كنمط أوحد، سيظل هنالك حاجة للبشر للتواصل والتفاعل المباشر في التعليم والعمل وتلقي الخدمات أو حتى الترفيه.

سادسا– الشعور بالوحدة والقلق والاكتئاب أثناء الجائحة: التأثير والتغيرات الاجتماعية

لا يقتصر أثر الأزمة على الظروف المادية وتزايد معدلات الفقر، ولكن للأزمة آثار مباشرة على قلق الناس وتوترهم. وأشارت استطلاعات الرأي التي أجريت

---

(١) أحمد عبدالموجود الشناوي، الريف المصري وأزمة كورونا، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، سلسلة مقالات معاصرة: فيروس كورونا COVID ١٩ الأزمة والمواجهة، ص ٥–٦، تاريخ الدخول: ٢٥–٨–٢٠٢٠ متاح على الرابط التالي: https://bit.ly/3m608NU

(2) Sherry Turkle, A healthier digital lifestyle, in: Coronavirus Will Change the World Permanently. Here's How, POLITICO MAGAZINE, 03/19/2020, available at: https://politi.co/2Fhi0Ex

(3) Allar Tankler, Does This Change Everything? The digital divide and coronavirus, 22 April 2020, access date 26-8-2020 available at URL: https://bit.ly/3hhQYKA

في أوائل مارس بالولايات المتحدة الأمريكية إلى أن ٦٠٪ من الأميركين كانوا قلقين "جدا" أو "إلى حد ما" من أنهم أو شخص ما في أسرهم سيتعرض للإصابة بالفيروس وهذا قبل تصاعد حالات الفيروس بالولايات المتحدة. كما يشكل الحبس الإلزامي مشاكل للأشخاص المعرضين لخطر العنف المنزلي، مع ارتفاع حالات إساءة المعاملة في هذا الوباء[١].

ويرى بعض الأخصائيين النفسيين أننا قد نشهد أزمة صحية بسبب تداعيات الجائحة على الصحة النفسية. فقد أظهرت دراسة أجريت في هونغ كونغ في أعقاب تفشي متلازمة الالتهاب التنفسي الحاد "سارس" أن الناجين من المرض ظلوا يعانون من الضغوط النفسية والاكتئاب بمستويات مثيرة للقلق بعد عام من الجائحة. لكن دراسة أخرى كشفت عن تبعات إيجابية لوباء "سارس" منها توطيد العلاقات بين أفراد العائلة والأصدقاء، وذكر ٦٠ % من المشاركين أنهم أصبحوا أكثر حرصا على مشاعر أفراد عائلاتهم وأكثر اهتماما بالصحة النفسية[٢]. لذا فمن المتوقع أنه حتى عندما ينحسر الوباء وتعود الحياة إلى طبيعتها النسبية، أن تستمر الضغوط النفسية والاقتصادية لأشهر.

في حالة الوباء نجد عدة دراسات تشير إلى مصاحبة مشاعر القلق للأفراد حتى بعد انقضاء الوباء نفسه، فقد عايش الأفراد مشاعر القلق والتوتر والخوف من العدوى والخوف على الأقارب والأصدقاء أو فقدان أشخاص عزيزة، والقلق والخوف على فقدان الوظيفة، والخوف من وصمة العار التي تصاحب عادة المرض وتغير شكل الحياة المعتاد للبعض[٣]، والخوف من الموت مع تزايد أعداد المتوفين ونشر أخبار الوفاة وأعدادها، خاصة مع تشابه أعراض الكورونا مع نزلات البرد العادي، فيصاب المرء بالتوتر في كل مرة يتعرض لهذه الأعراض، فيتولد الخوف من المجهول، هذا الفيروس الخفي، فضلا عن الأزمات الاقتصادية والضغوط النفسية المصاحبة للحجر المنزلي[٤].

ملاحظات عامة ختامية:

يمكننا في ختام التقرير الإشارة لبعض الملاحظات والتساؤلات التي يمكن أن تفيد لاحقا في دراسة وتتبع أعمق لأثر جائحة كورونا على المجتمعات والعلاقات الاجتماعية:

- أظهر فيروس كوفيد١٩ مدى سرعة انتشار شيء عالميا فقط من خلال الانتقال من فم إلى آخر. هذا دليل قوة لنظرية برونو لاتور عن الشبكة، فطالما حاول إقناع علماء الاجتماع بهذا الأمر منذ ٤٠ عاما، فيرى لاتور أننا لا ينبغي أن نفكر في الشخصية والجماعية على أنهما مستويين متميزين. ولمواجهة هذه الأحداث يحتاج البشر إلى إدراك أننا جميعا في هذا الموقف سواء، وأن ما يؤثر على شخص واحد في أي مكان يؤثر على الجميع في الكوكب الأرضي، وبالتالي فإننا نحتاج إلى التفكير

---

(1) Amy Dawel, Eryn Newman, Sonia McCallum, Coronavirus lockdown made many of us anxious. But for some people, returning to 'normal' might be scarier, May 25, 2020, access date: 27-8-2020, available at URL: https://bit.ly/2DFdkHY

(2) Yi-Ling Liu, Is Covid-19 changing our relationships?, BBC, 5th June 2020, access date: 27-8-2020, Available at URL: https://bbc.in/2ZiLCbP,.

(٣) د.ريهام محيي الدين، سيكولوجية الخوف من الكورونا، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، متاح من خلال الرابط التالي: https://bit.ly/3czWzv2

(4) Amiri, M., Pagheh, B., Amiri, M., The impact of the coronavirus crisis on human social life. Op. cit.

بهذه الطريقة بدلا من الانقسامات العرقية والإثنية وإلخ[1]. ويضيف لاتور أن ما نحتاجه ليس فقط تعديل نظام الإنتاج ولكن الخروج منه تماما. لقد أظهر لنا الوباء أن الاقتصاد طريقة ضيقة ومحدودة للغاية لتنظيم الحياة وتحديد من هو المهم ومن غير المهم، فالفيروس يتطلب الخروج من نظام الإنتاج السائد[2].

- يثير سلافوي جيجك أسئلة حول سيادة الدولة ودور الدول القومية مع الانغلاق وحصر الاهتمام بالشؤون المحلية والانكفاء حول الإثني والديني، مقابل الدعاوى الكبرى للديمقراطية والانفتاح العولمي، تلك الدعاوى التي تضعها الكورونا على المحك، وإجابة الدول المختلفة عن هذه التساؤلات سيتغير معه بالضرورة شكل المجتمعات وحيوات الأفراد ونمط الإدارة، وشكل النظام الحاكم على المدى البعيد.

- ما يمكن قياسه على مستوى الطبقات والفئات المتنوعة داخل المجتمع الواحد يمكن رصده على مستوى المجتمعات نفسها، فكما حملت سلوكيات البشر التضامن الإنساني أو السلوكيات الأنانية كالاستهلاك أو الاحتكار، كذلك حدث على مستوى الدول، فمثلا أسرعت الجمهورية التشيكية إلى سرقة شحنة كمامات كانت في طريقها نحو إيطاليا،أيضا اختلست الولايات المتحدة الأمريكية لصالحها مخزونا من الكمامات الصينية، متوجهة أصلا إلى فرنسا. بناء عليه، أطلقت الأزمة الصحية العنان لتداعيات أزمات متسلسلة، تشمل هذه الأزمة المتعددة أو الهائلة: الوجودي وصولا إلى السياسي مرورا بالاقتصاد، ثم من الفردي إلى الكوني مرورا بالعائلات، والأديان، والدول. فكيف لفيروس ضئيل انطلق من حاضرة مجهولة إحداث كل هذا التخبط في العالم.

- تغيير بعض العادات والطقوس الاجتماعية في الأفراح والجنائز سواء بمن أصر على ممارسة نفس الطقوس قبل انتشار الوباء وفرض الحظر، أو من اتخذ ممارسات أخرى مراعاة لحظر التجمعات، وردود الفعل على دفن موتى الكورونا، سواء بالنفور ومنع الدفن أو التضامن والمواساة مع أهل المتوفين .ثمة تأكيد مرة أخرى أن فيروس كوفيد ١٩ لم يفرض ممارسات جديدة أو تغييرات جذرية على العلاقات الاجتماعية، فقد عزز ما كان بالفعل موصولا راسخا، وهدد ما كان غير سوي أو هشا بطبعه ولكن تزايدت هشاشته مع فرض ظروف جديدة كطول المكوث في نفس المكان لشهور طويلة.

- أعاد الوباء مساءلة الأولويات وتحديد ما هو ضروري وما هو غير ضروري في الممارسات اليومية المعتادة من قبل، ولكن هل ستستمر تقييمنا لما هو ضروري وما هو غير ضروري في الطقوس الاجتماعية اليومية لما بعد انتهاء انتشار الفيروس؟ تجدر الإشارة إلى أنه لم تكن استجابات الفئات والأعمار والأجيال المختلفة واحدة على انتشار الوباء، فكانت الأجيال الأكبر سنا هي الأكثر عرضة للشعور بالخطر والتهديد والانعزال لعدم القدرة على إجادة التعامل التقني، ولضعف المناعة.

- ثمة استجابات أخرى لطبقات كادحة تتمثل في اللاستجابة لأي من التعليمات الخاصة للوقاية من الإصابة بالفيروس، فقد بيَّن انتشار الفيروس عمق

(١) عبده حقي، الأوبئة مرآة لأنفسنا..، مرجع سابق.

(2) Jonathan watts, The influential French thinker explains the politics of the Gaia principle, op. cit.

اللامساواة والتهميش في بنية المجتمعات نفسها، وبالتالي لم يكن لديهم أزمات الطبقات الأخرى من الشعور بالعزلة والوحدة والكآبة من الحجر المنزلي، أو عدم القدرة على التواصل عن بعد لفترات طويلة والتعلم عن بعد والعلاج عن بعد وغيرها من الممارسات، لأن مخاطر الفقر والتهديد بالجوع أرغمتهم على النزول يوميا في ظل انتشار الفيروس طلبا للرزق، وبعضهم لا يمتلك رفاهية العزل المنزلي حال الإصابة في بيوت مكدسة مزدحمة، ودورات مياه مشتركة ومساحات غير آمنة، يصبح معها شرط كاستمرار غسل اليدين بالماء والصابون رفاهية لهم.

- تعليق الممارسات والشعائر الدينية وأثرها على الناس كصلاة الجمعة والعيدين وصلاة الجماعة بشكل عام، دفع البعض لخلق مساحات جديدة بعيدة عن الدولة ورقابتها إصرارا على إقامة نفس الشعائر في مجموعات صغيرة، وإصرار البعض الآخر على رفض هذه المخالفات وإبلاغ الشرطة عنها. فهل أحدث انتشار الفيروس كوفيد ١٩ تغييرا في علاقات الناس مع الدين ومع الشعائر والطقوس الدينية، وهل ذلك له أثر ممتد على المدى المتوسط والبعيد أم أنها تفاعلات لحظية انتهت بالسماح بالعودة إلى الصلاة في المساجد، ولن يكون لها مآلات أبعد من مشاعر الحزن لتعليق الشعائر والفرحة لاستعادتها مرة أخرى؟

*****



دور منظمات المجتمع المدني في تخفيف حدة الجائحة: ماذا وكيف؟

نادية عبد الشافي(*)

مقدمة:

مثل فيروس كورونا (Covid-19) الذي ظهر في الصين بنهاية ديسمبر ٢٠١٩، أزمة كونية تعتبر من الأزمات الكبرى التي واجهت العالم بأكمله على اختلاف وتنويعات تكويناته، ونموذجا للأوبئة غير متوقعة والتي تضرب المجتمعات ويتسع حجم تأثيراتها على نحوٍ يصعب مجابهته بالإمكانات المعتادة، فانتشار وباء شرقًا وغربا على هذا النحو والآثار المترتبة عليه من حيث إغلاق المدن والدول وفرض قيود على تنقلات المواطنين، وتقليص النشاطات ذات الطبيعة الجماعية، ليس فقط شأنًا طبيا، ولكنه في جانب كبير منه يتعلق بالسياسات الاجتماعية والاقتصادية سواء فيما يتعلق بمسارات التصدي له أو معالجة الآثار الناجمة عنه على المديين القصير والطويل[١].

ذلك أثار أسئلة ومخاوف متعددة حول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية الراهنة والمستقبلية، وحول إدارة هذه الأزمة على تلك الأصعدة سواء على المستوى المحلي أو على المستويات الإقليمية والدولية، وفي هذا السياق طُرحت تساؤلات عديدة منها ما يتصل بدور منظمات المجتمع المدني[٢]؟ خاصة بعد اتخاذ حكومات الدول العديد من القرارات والإجراءات الوقائية والصحية، كان من أبرزها الإغلاق الكامل والجزئي للاقتصاد وفرض الحجر الصحي على المواطنين بما في ذلك العائلات غير القادرة والتي تعمل من أجل كسب قوتها اليومي، فضلا عن حظر السفر والطيران والانتقال بين الدول وبعضها البعض، بما رتبته هذه الإجراءات من تداعيات على جميع القطاعات والفئات في المجتمع، كل هذه التطورات المتلاحقة كشفت عن ضرورة تكاتف جهود الجميع من حكومات وأفراد ومجتمع مدني وقطاع خاص؛ لاحتواء الأزمة والتقليل من الآثار المتفاقمة لها انطلاقًا من المسئولية المجتمعية لتلك القطاعات تجاه تحقيق المصلحة العامة[٣].

وبالطبع واجهت منظمات المجتمع المدني في دول عديدة من العالم (خاصة دول الشرق الأوسط نظرا لما تعيشه من أزمات اقتصادية وسياسية) تحديات وأزمات ربما تكون أكثر وطأة وخطورة من فيروس كورونا، ولكن لم تواجه تحديا مثل التحدي الراهن؛ من حيث طبيعته الكونية، إضافة إلى السياقات المعقدة للإجراءات والتدابير الوقائية وآثارها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتي قد تستمر لفترة طويلة، وبالحديث عن المواجهة، فإن المسئولية الرئيسية تقع على عاتق الدول على المستويات المحلية بمؤسساتها السياسية والصحية والأمنية، ولكن فداحة الأزمة –على نحو ما أُشير–

(*) باحثة بمركز الحضارة للدراسات والبحوث.

(١) د. سامح فوزي، الشراكة بين الحكومة والمنظمات غير الحكومية دروس من مواجهة فيروس (كوفيد-١٩)، مجلة الديمقراطية، العدد ٧٨، أبريل ٢٠٢٠، ص١٣.

(٢) محمد العجاتي وآخرين، أزمة فيروس كورونا: هل يحقق نمط السياسات السائد الحماية للجميع؟ مصر- لبنان- تونس دراسة مقارنة، منتدى البدائل العربي للدراسات الاجتماعية، مايو ٢٠٢٠، ص ٣.

(٣) د. حنان رجائي عبد اللطيف، المسئولية المجتمعية للقطاع الخاص في مواجهة أزمة كورونا، سلسلة أوراق الأزمة، معهد التخطيط القومي، يونيو ٢٠٢٠، ص٢.

أوجبت أن تلعب منظمات المجتمع المدني دور رئيسا في مواجهة الجائحة وفي التصدي لأثارها المستقبلية[١].

وفي ضوء المقدمة السابقة، يأتي تساؤل هذا التقرير المتمثل في الآتي: ما أبرز ملامح وآليات دور واستجابة منظمات المجتمع المدني لتخفيف حدة الجائحة خاصة على الصعيد الإقليمي؟ ومن ثم سوف يتناول التقرير بقدر الإمكان الإجابة عن التساؤل من خلال الآتي: **أولًا–** المجتمع المدني وجائحة كورونا: أنماط الاستجابة، ومجالات الجهود. **ثانيا–** دراسات حالة: مؤسسة مرسال، ومنظمة أطباء بلا حدود. و**خاتمة**.

أولًا– المجتمع المدني وجائحة كورونا: أنماط الاستجابة، ومجالات الجهود:

يعد "المجتمع المدني" القطاع الثالث من قطاعات المجتمع جنبا إلى جنب مع الحكومة وقطاع الأعمال، وتقر الدول بأهمية الشراكة مع المجتمع المدني[٢]، وتعد منظماته إحدى أنواع الكيانات البارزة على الساحة، والتي ظهرت نتيجة إخفاق الدولة القومية[٣] في سد الاحتياجات الأساسية لمواطنيها؛ لذلك برزت كفاعل أساسي خاصة في مجال الخدمات الاجتماعية[٤]، وتتمتع هذه المنظمات بقاعدة شعبية عريضة, في كثير من الدول؛ بسبب مساهمتها في تمويل مشاريع صغيرة للشباب أو المحتاجين، وكثيرا ما تعتمد هذه المنظمات علي التمويل الدولي، بسبب العجز الموجود في الموارد المحلية، خاصة في العالم العربي والدول النامية[٥].

كما استطاعت هذه المنظمات إثبات أنها شريك في عملية التنمية، وتحديث المجتمعات ليس على الصعيد العالمي فقط ولكن أيضا على الصعد الإقليمية والمحلية. ففي الغرب ازداد دورها في العملية التنموية من الهامش إلى المركز[٦]، بالإضافة إلى الخدمات التي يتم تقديمها خلال الأزمات الإنسانية والكوارث الطبيعية في مختلف دول العالم، وعلى الرغم إن الحديث عن الشراكة بين الحكومة والمجتمع المدني ليس أمرا جديدا، إلا إن أهميته باتت تزداد بشكل كبير لاسيما في ظل انتشار جائحة فيروس كورونا، والحاجة الماسة إلى تكثيف الجهود من أجل التغلب على هذه الأزمة التي باتت تهدد الجميع، مع الأخذ في الاعتبار أن تلك الشراكة تقتضي وجود مجتمع مدني قوي، له صلاحيات حقيقية، وشريك

---

(١) د. يسري مصطفى، المجتمع المدني في مواجهة الوباء: الفاعل والفاقد، المنظمة العربية لحقوق الإنسان، ٨ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: http://aohr.net/portal/?p=12118

(٢) عبد الناصر التهامي، رؤية حول دور منظمات المجتمع المدني لمجابهة كورونا، كنوز عربية، ١ أبريل ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/v0TEG

(3) The Role and Structure of Civil Society Organizations in National and Global Governance Evolution and outlook between now and 2030, AUGUR Project, Challenges for Europe in the world in 2030, 2012, pp 7-8.

(٤) هويدا عدلي، المجتمع المدني والتنمية المستدامة في مصر، مجلة رؤى مصرية تحليلات متخصصة وحوارت، مركز الأهرام للدراسات الاجتماعية والتاريخية، السنة ٣، العدد ٣٥، ٢٠١٧، ص٢٨.

(5) Ranjita Mohanty, Civil Society and NGOs, India: The Indian Journal of Political Science, Vol 63, No 2/3, 2002,217-221.

(6) Galia Chimiak, The Rise and Stall of Non-Governmental Organizations in Development, Poland: Polish Sociological Review, No. 185 ,2014, pp. 25-27.

فعلي[١] بإمكانه أن يوفر على الحكومة الكثير من الإجراءات التي تستهلك طاقتها، بحيث تتفرغ لدورها الفعلي في الحد من الأزمة بدلا الانشغال بتوابعها؛ ومن ثم يصبح المجتمع المدني شريكًا مهما يوفر على الحكومة الكثير من الإجراءات الإدارية في مثل هذه الحالات[٢].

وتعتبر فاعلية المجتمع المدني بمثابة مفتاح رئيس للنجاح الاقتصادي والاجتماعي والثقافي بالنسبة لعلماء السياسة والقيادات السياسية[٣]، وتختلف أحوال وفاعلية هذه المنظمات من دولة عربية إلى أخرى، ففي البعض منها لا توجد حرية لإنشاء مثل هذا النوع من المنظمات، وفي البعض الآخر يتم منح قدر من الحرية في إنشائها، ولكنها تبقى مقيدة إلى حد كبير، وفي الغالب ما تكون هناك مساحة للمرواغة، ولذلك من الصعب اعتبار هذه المؤسسات قوى قادرة على التأثير في مسار التنمية في مجتمعاتها[٤]، ويمكن القول أيضا أنه قد تختلف أحوال هذه المنظمات داخل الدولة ذاتها؛ لأنها ليست كيانا واحدا متجانسا من حيث المصالح والتوجهات ومجالات العمل[٥]، فضلا عن تقييم الدولة للأبعاد الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية التي تعمل في إطارها، ومن ثم تتعامل بعض الدول مع هذه المنظمات من هذا المنطلق فتقبل الدمج الوظيفي لبعضها، ولا تثق في البعض الآخر؛ لذلك تقوم باتخاذ حزمة من الإجراءات القانونية والأمنية والسياسية وأيضا الإعلامية ضد من لا تثق بها، ولكن هذه الإجراءات في المحصلة تؤثر على المجتمع المدني ككل. ولاشك أن تلك المتغيرات كان لها آثارها في طبيعة فاعلية واستجابة منظمات المجتمع المدني للتعامل مع جائحة كورونا، خاصة على الصعيد الإقليمي المليء بالتعقيدات.

- **حالة التعاون بين منظمات المجتمع المدني والجهات الحكومية للتصدي لجائحة كورونا:**

تتوقف فاعلية منظمات المجتمع المدني في التصدي لجائحة كورونا على جدية الشراكة والتعاون بين الجهات الحكومية والمجتمع المدني كما تم التوضيح سابقا، خاصة أن الجهات الحكومية مهما توافر لديها من أدوات ومواد وقدرات أمنية تسمح لها بالتغلل في المجتمع قد لا تستطيع مواجهة أزمة كبرى كجائحة كورونا منفردة[٦].

ولا تأتي هذه الشراكة على صورة واحدة في كل المجتمعات؛ وذلك يرجع لتباين الإطار القانوني الذي ينظم عمل المنظمات غير الحكومية ويعبر عن البيئة السياسية السائدة والإرث الثقافي والخبرة التاريخية وتباين مراكز القوة، والمؤكد أنه لا يخلو مجتمع من الشراكة بين الجهات الحكومية والمنظمات في مجال من المجالات (مع تباين مضمون هذه الشراكة بحسب طبيعة النظام السياسي)[٧].

---

(١) كيف قامت المؤسسات الخيرية مثل "مرسال" بتوظيف خدماتها لمواجهة كورونا؟، عربي ٢٢، ٤ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/HDqKz

(٢) أحمد عزب، الدور المجتمعي المأمول لمواجهة أزمة كورونا، المبادرة المصرية للحقوق الشخصية، ٥ مايو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/J2v0B

(3) Navanethem Pillay, hand book of civil society, united nation human rights program, new York, Office of the United Nations High Commissioner for Human Rights, 2008, p 1.

(4) Sarah Ben Nefissa, "NGOs, Governance and Development in the Arab World", paper presented for Management of Social Transformations program, UNESCO, 2000 pp 18-26.

(٥) د. علي الدين هلال، النظام السياسي بين إرث الماضي وآفاق المستقبل (١٩٨١-٢٠١٠)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠، ص٤١٢.

(٦) د. سامح فوزي، مرجع سابق، ص١٤.

(٧) المرجع السابق، ص١٨.

وقد ساعدت الأزمة في إظهار بعض أمثلة التعاون، التي توضح مدى الإفادة من الإمكانات المتوافرة لدى مختلف الأطراف[١]، فعلى سبيل المثال وليس الحصر:

إنجلترا: حيث دخول هيئة الخدمات الصحية الوطنية في اتفاقية مع القطاع الخاص؛ لإعادة تخصيص قدرات المستشفيات الخاصة لصالح الهيئة، وفي **أيرلندا وإسبانيا** جعلت الدولة جميع المستشفيات الخاصة عامة طوال فترة أزمة فيروس كورونا، أما **الدول العربية** فأتاحت المنظمات في الإمارات العربية المتحدة شبكة خاصة من مقدمي الرعاية الصحية الموظفين والأسرة في المستشفيات عند حاجة السلطات الحكومية لها، وأعربت منظمات المجتمع المدني في العراق عن استعدادها لدعم الحكومة من خلال توزيع مستلزمات النظافة وتدريب العاملين الصحيين ومراقبة الحماية وتوفير الأموال، ولكن الجهات الحكومية لم تفسح المجال أمامها[٢]، وفي مصر تعاونت مؤسسة أهل مصر مع وزارتي الصحة والتضامن الاجتماعي لتحويل ثلاثة مباني بطاقة استيعابية ٥٢٠ سريرا، لتكون تحت إشراف وإدارة وزارة الصحة[٣]، ومنحت الدولة في البحرين التراخيص لمقدمي الرعاية الصحية من القطاع الخاص الذين يستوفون معايير منظمة الصحة العالمية للتعامل مع كورونا من أجل تقديم الخدمات للمرضى[٤].

لكن حتى ما اتخذ من الخطوات لا تنفي أننا مازلنا نحتاج في مجتماعاتنا العربية إلى تنسيق قوي؛ لضمان أن تعمل جميع القطاعات بصورة تعاونية؛ ولتحقيق استجابة كاملة من الجهات الحكومية والمجتمع بأسره لمواجهة التحديات الملحة وبناء أنظمة صحية وقادرة على الصمود في وجه هذه الأزمة[٥].

- **أنماط استجابة منظمات المجتمع المدني للتصدي لجائحة كورونا:**

أدت جائحة فيروس كورونا إلى تحفيز المجتمع المدني، لذلك استجاب عدد كبير من منظماته للضغوط التي تعرضت لها الدول بسبب الفيروس، وتمثلت إحدى أهم استجاباتها في التحرك السريع حيث قامت المنظمات بإسداء خدمات، ونشرت معلومات مهمة عن الفيروس وسعت لحماية المواطنين وخاصة الغير قادرين والمهمشين[٦]، وتنوعت استجابات المجتمع المدني حيال هذه الجائحة بين استجابة مباشرة ذات طابع إغاثي، واستجابة غير مباشرة لا ترمي للتعامل مع التداعيات المباشرة للجائحة.

الاستجابة المباشرة (التعامل مع واقع الأزمة وتداعياتها الآنية): تنقسم إلى نوعين: هما الاستجابة المباشرة ذات المنحى الصراعي، والاستجابة ذات المنحى التعاوني (وذلك تأثرا بطبيعة العلاقة بين المجتمع المدني والحكومات على نحو ما أُشير):

– المنحى الصراعي (في مواجهة الحكومات): لعبت بعض المنظمات دورا مهما في توعية المجتمعات حيال الفيروس، كان مجال نشاطها الأساسي يتمثل في

---

(١) المرجع السابق، ص١٨.

(٢) العراق.. لماذا فشل المجتمع المدني في المعركة ضد كورونا؟، الجزيرة نت، ١٣ يوليو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/1e3Aa

(٣) جهود متواصلة من القطاع الخاص والمجتمع المدني لعبور أزمة كورونا، البورصة، ١١ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/AbFTT

(٤) بعد الجائحة: إعادة تصور دور الجهات الحكومية وغير الحكومية في (إعادة) بناء النظم الصحية الوطنية في العالم العربي، مبادرة الإصلاح العربي، ١٠ أبريل ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/aCB91

(٥) بعد الجائحة: إعادة تصور دور الجهات الحكومية وغير الحكومية في (إعادة) بناء النظم الصحية الوطنية في العالم العربي، مرجع سابق.

(٦) وسام فؤاد، أزمة كورونا– آفاق العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني، المعهد المصري للدراسات، دراسات سياسية، ٥ أغسطس ٢٠٢٠، ص ١١: https://bit.ly/34GO1yN

مكافحة توجهين ينتشران في هذا الصدد، هما اتجاه الحد من المعلومات، واتجاه بث المعلومات المغلوطة، فبعض المعلومات المغلوطة كانت تزيد من حدة التوتر بخصوص تداعيات الفيروس، وقامت منظمات المجتمع المدني بمواجهة التراخي الذي لمسته من الحكومات في مواجهة الجائحة، ودعت لتفعيل الإجراءات الاحترازية الملائمة. ففي نيجيريا على سبيل المثال قامت جماعة "الحركة من أجل الحرية والمجال المدني" بتوثيق استجابات الحكومة النيجيرية المرتبطة بجائحة فيروس كورونا وتحليلها جنبا إلى جنب، مع رصد وتوثيق حالات العنف التي تمارسها السلطات النيجرية تحت نفس الغطاء، وفي زيمبابوي قامت جماعة "محامو زيمبابوي من أجل حقوق الإنسان" بتأسيس خط ساخن للإبلاغ عن حالات انتهاك حقوق الإنسان تحت غطاء الجائحة، وفي سنغافورة قامت منظمات بالضغط على الحكومة من أجل تحسين أوضاع المعيشة للعمال المهاجرين الذين انعزلوا ضمن جهود مكافحة الجائحة الوبائية، أما في جنوب أفريقيا ضغت منظمات المجتمع المدني على الحكومة من أجل وقف عمليات الإخلاء مع استمرار الجائحة، كما ضغت على الحكومة لتقديم مزيد من الخدمات للفئات المتضررة[١].

أما في **الأردن** فلم تُمنح مؤسسات المجتمع المدني المساحة الكافية للحركة خلال أزمة كورونا؛ لذلك طالبت عدة منظمات الحكومة بإشراك ممثلين عنها في "خلية الأزمة"؛ للاستفادة من خبراتهم في بناء السياسات وإيجاد حلول في التعامل مع جائحة كورونا في البلاد، وعلى الرغم من الظروف ثمة منظمات قامت بدور جيد في مواجهة التحديات التي فرضتها الأزمة، مثل مشاركة منظمة أرض في بعض الجهود في مواجهة الجائحة مع الحكومة، وكان التواصل والتنسيق مع الجهات الحكومية المعنية، لكن ليس في الإطار الرسمي، وقد تم توزيع أربعة آلاف طرد عن طريق وزارة الداخلية والحكام الإداريين[٢].

ولا يختلف الوضع كثيرا في **تركيا** فهناك من يرى أن منظمات المجتمع المدني تعاني قمعا شديدا من قبل النظام، وأن منظمات المجتمع المدني العاملة في تركيا هي فقط تلك الموالية للحكومة، كما يستخدمها النظام بعد تمويلها من الدولة ضد المعارضة[٣]، في هذا الإطار شنت النقابات العمالية التركية هجومها مجددا ضد نظام أردوغان، متهمة إياه بالتقاعس عن دعم العمال في مواجهة التداعيات السلبية لتفشي فيروس كورونا، وأصدرت العديد من نقابات العمال، ومنظمات المجتمع المدني، والهيئات الحقوقية في تركيا، بيانا مشتركا، طالبته باتخاذ مزيد من التدابير لتقديم المساعدات اللازمة للعاملين بتركيا من المتضررين من تداعيات تفشي الفيرو[٤]، وإن كان على الجانب الآخر هناك من يرى أن الدولة والمجتمع متناغمين ومتعاونين بشكل قوي، مما جعلها تتغلب على الكثير من المشكلات، مثل مواجهة فيروس كورونا[٥].

أما في **إيران** فقد تسببت عدم الشفافية في الإعلان عن عدد المصابين وتضارب الأرقام إلى تفشي الفيروس، مما أعطى الانطباع بأن الحكومة تخشى الإعلان حتى لا

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٣-١٤.

(٢) المجتمع المدني الأردني... مؤسسات مهمشة في ظل كورونا، العربي الجديد، ٢٧ مايو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/ja5cc

(٣) نائب تركي يكشف لـــ"العين الإخبارية" جرائم وسقطات بالجملة لأردوغان، ١٥يونيو ٢٠٢٠، العين الإخبارية، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/WS5OO

(٤) تداعيات كورونا.. عمال تركيا يهاجمون "أردوغان المتقاعس"، العين الإخبارية، ٥ أبريل ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/ojF99

(٥) ياسين أقطاي (مستشار الرئيس التركي)، المجتمع المدني في تركيا مكمل للدولة وليس منافســـا لها، الجزيرة نت، ٢١ أبريل ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/r1v7u

تتجدد الاحتجاجات مرة أخرى[١]، وسحبت السلطات الإيرانية الموافقة من منظمة أطباء بلا حدود دون سابق إنذار[٢].

وتتمثل الاستجابة التعاونية في أنماط المبادرات التي قامت على أساس المشاركة، على سبيل المثال شهدت مصر حالة تعاونية بين كل من المنظمة المصرية للصليب الأحمر، ووزارتي التعاون الدولي والتضامن الاجتماعي برعاية كل من شركة أوبر مصر والهيئة الأمريكية للمعونة الدولية التي دعمت الصليب الأحمر المصري بمبلغ حوالي ٥١ مليون دولار وتضمنت المجهودات تدريب ٦٠٠٠ متطوع لإجارة ٢٧٠ حملة توعوية تهدف لاحتواء انتشار الفيروس في مصر[٣].

أما **الاستجابة غير المباشرة (مواجهة التداعيات على المدى الطويل)** ونجد هذا النمط من الاستجابة بشكل أوضح بالعالم الغربي، حيث على سبيل المثال توجه بعض منظمات المجتمع المدني في الولايات المتحدة الأمريكية نحو عمل سياسي أكثر اتساعا، حيث سعت لتعزيز مرونة المجتمع حيال صدمات المستقبل، وبناء أسس حركة اجتماعية جديدة تهدف لمقاومة الاختلالات الهيكلية الاجتماعية والسياسية الراهنة، وتسعى لإحداث التغيير السياسي والاقتصادي[٤].

وبشكل عام، شاركت منظمات المجتمع المدني في الوقاية من الوباء، سواء بالتعقيم أو توعية المواطنين بمخاطر فيروس كورونا وبالقواعد الصحية ووسائل المواجهة، وطرق الوقاية، خاصة في المجتمعات الفقيرة والمهمشة، أيضا قامت المنظمات بتوزيع أغذية أو تقديم خدمات صحية أولية لبعض الفئات الأكثر تضررا، وصولا إلى المساهمة في تخفيف وطأة التداعيات الاقتصادية طويلة المدى. وبالنظر إلى هذا المنحى يمكن القول إن المنظمات التي لها تواجد في الأماكن الفقيرة والمهمشة وقع على عاتقها القدر الأكبر من المسئولية، وعلى رأسها المنظمات الخيرية وعدد من المنظمات التنموية[٥]، وفيما يلي يتناول التقرير أهم هذه الجهود لمنظمات المجتمع المدني في المراحل المختلفة من تطور الجائحة.

- **مراحل ومسارات جهود منظمات المجتمع المدني للحد من الجائحة:**

تمثلت جهود منظمات المجتمع المدني في البداية المبكرة للأزمة في أنشطة تعود لها بعائد ربحي مثل تصنيع المزيد من الملابس الوقائية، ومنتجات التعقيم، وأجهزة التنفس الصناعي، ذلك بما يكفل استمرار نشاطها الذي لم يتوقف إلى هذا الحد بل وصل لنجدة العديد من الحالات والاستغاثات على مواقع التواصل الاجتماعي، بهدف خيري دون تلقي أي رسوم من المصابين أو ذويهم[٦].

ويمكن تقسيم جهود منظمات المجتمع المدني إلى ثلاث مسارات (تطورت وفق مراحل تطور الجائحة، ولم يكن الانتقال إلى مرحلة جديدة يعني انتهاء المسار المتبع في المرحلة السابقة):

المرحلة الأولى– المسار التوعوي الوقائي بداية الأزمة: حيث القيام بعرض برامج توعية للمواطنين حول الأزمة، وكيفية الاستعداد لها والتعامل معها، ونشر الوعي

(١) الشعب بدلاً من النظام، نشاط المؤسسات المدنية في إيران من أجل مكافحة أزمة كورونا، أيران ويرأرابيك، ٨ أبريل ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/oMSth

(٢) استجابتنا لمكافحة جائحة مرض الكورونا كوفيد-١٩، موقع منظمة أطباء بلا حدود، ١١ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/SmF9E

(٣) المرجع السابق، ص١٥.

(٤) المرجع السابق، ص١٦

(٥) يسري مصطفى، المجتمع المدني في مواجهة الوباء الفاعل و"الفاقد المدني"، كوتريات، عدد ٧٦، مايو ٢٠٢٠، ص ٤.

(٦) حرز الله محمد لخضر، فيروس كورونا.. هل سيعيد تشكيل الوعي والسلوك الإنساني، الجزيرة نت، ٢٣ مارس ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://2u.pw/tM2fu

بمخاطر فيروس كورونا، وبأهمية العمل التطوعي بالمجتمع، وتوفير التمويل الذاتي لتنفيذ المبادرت اللازمة في هذه المرحلة، هذا فضلا عن توزيع المعونات ووضع خطة متكاملة لإقامة (حجر صحي) للمشتبه فيهم، وفق مطالب مديريات الصحة في المحافظات.

المرحلة الثانية– مسار توفير الحاجات الطبية المتزايدة مع تفشي الفيروس، وأهم إجراءاتها: انتقال أطقم متطوعي الجمعيات الأهلية لمناطق الإصابة، وإرسال الفرق التطوعية، وتقديم المعونة المباشرة في مناطق الحجر الصحي، والتواصل مع أطقم ووحدات التطهير في المناطق المصابة، والمعاونة في تحديد أولويات الإجراءات العاجلة لمواجهة الجائحة، وتقدير الاحتياجات بالتعاون مع الجهات التنفيذية في كل محافظة أو إقليم، وفق توجيهاته دعما لخطة الدولة.

أما المرحلة الثالثة– ما بعد التراجع (النسبي) للجائحة، وتمثل هذا المسار من عمل منظمات المجتمع المدني من خلال: المساهمة في إعادة تأهيل المناطق التي تم تطهيرها وفق أولويات أولها تقديم خدمات الرعاية العاجلة للمتعافين عبر: زيارة المتعافين وتقديم الرعاية العاجلة لهم ولأسرهم، ودعم احتياجات المستشفيات وزيارة المصابين الجدد ودعمهم وذويهم كذلك، من خلال تنفيذ مشروع متكامل لرعاية المتضررين، ولتكون مشاركة المجتمع المدني في مرحلة ما بعد الأزمة في إطار منظومة وزارات التضامن الاجتماعي[١].

ليبرز البعد الاقتصادي على صعيد أشمل (لا يتوقف عند توفير المستلزمات الطبية)، ففي **مصر**: ما خصصته الدولة المصرية من أموال لمواجهة خسائرها لم يكن كافيا لمواجهة تداعيات الجائحة؛ لذلك كان من الضروري تدخل منظمات المجتمع المدني[٢]، فقدمت بعض المنظمات جهود كبيرة تمثلت في طرح عدد من المبادرات من خلال تقديم التبرعات العينية والمادية، والتي تستهدف التخفيف من الأعباء المعيشية جراء تضرر شرائح واسعة من المجتمع من توقف العمل في بعض المجالات، وفي مقدمتهم العمالة اليومية. كحملة "دعم العمالة اليومية مسؤولية" والتي أطلقها بنك الطعام المصري، والتي تم من خلالها توزيع ٥٠٠ ألف كرتونة طعام كدعم غذائي، بالإضافة إلى الجهود المبذولة من جانب المجتمع المدني لدعم القطاع الصحي الحكومي، باعتباره يحمل على عاتقه الجزء الأكبر من مسئولية مواجهة جائحة كورونا، فكان عدد من المبادرات في هذا السياق، فضلا عن تقديم العديد من الشركات ومؤسسات المجتمع المدني تبرعات مالية لوزارة الصحة والسكان.

<u>ويمكن توضيح نماذج أكثر تفصيلا لتلك المبادرات ذات البعد الاقتصادي على النحو التالي:</u>

- مبادرات الدعم الوقائي؛ من خلال توفير المستلزمات الطبية التي تحتاجها المستشفيات، من أدوات الوقاية الشخصية من العدوى، وعلى سبيل المثال مؤسسة "مصر الخير"، التي أسهمت في تقديم المستلزمات الطبية والملابس الوقائية الخاصة بالأطباء والمرضين، بمستشفيات العزل والحجر الصحي والحميات، على مستوى الجمهورية، المبادرة المصرية لإنتاج خمسة آلاف جهاز تنفس صناعي؛ حيث هدفت هذه المبادرة إلى رفع سعة وكفاءة غرف الرعاية المركزة؛ وذلك بإعادة تصنيع خمسة لآلاف جهاز PB 560 باستخدام التصميمات التي أتاحتها إحدى الشركات

(١) عبد الغفار عفيفي الدويك، المجتمع المدني ومواجهة جائحة "فيروس كورونا"، بوابة الأهرام، ١ أبريل ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/9NMF9

(٢) آية نبيل، المجتمع المدني في مصر في مواجهة "الكورونا" تحديات افتراضية وتقييد على الأرض، كوتريات، عدد ٧٦، مايو ٢٠٢٠، ص ١٤.

العالمية؛ وذلك بعد إنتاج نموذج تجريبي، وإجازته من وزارة الصحة[١].

- أطلقت بعض منظمات المجتمع المدني حملة تحت اسم: تحالف المجتمع المدني المصري للحد من انتشار فيروس كورونا، داعية كافة المنظمات للمشاركة، وجاء خطاب الحملة كالآتي:"آن أوان أداء دورنا الحقيقي وقت الأزمات، وأن دور المجتمع المدني في ظل هذه الظروف يستدعي أن نتكاتف جميعا للعمل على مكافحة انتشار الفيروس، وليس الهرب منه ولهذا فإننا قد بدأنا بأنفسنا وندعو كافة الشركاء وأصحاب القلوب المؤمنة بقضاء الله والمؤمنة بمبادئها أن نبدأ فورا كل في نطاق عمله، بدء تنفيذ حملة توعية وتدخل لمساندة جهود الدولة والمواطنين في الحد من انتشار المرض[٢]"، كما أطلقت جمعية رسالة للأعمال الخيرية في مصر "تحدي الخير" للمساعدة في مواجهة فيروس كورونا، وذلك عن طريق التكفل بعائلات غير قادرة[٣].

وأطلقت جمعية إنسان في **السعودية** مبادرة "معا لصحة إنسان"؛ لمحاربة فيروس كورونا، وهدفت إلى مساعدة الأسر من خلال جمع مبالغ لتقديم سلات تحتوي على أغراض وقائية مثل القفازات، معقم اليدين والمطهر، وخصصت جمعية النجاة الخيرية **بالكويت** برامج للمساعدة على تداعيات فيروس كورونا، ومن بين المبادرات التي قامت بها هي توزيع ١٠٠ ألف وجبة داخل الكويت، وذلك بالتعاون مع جمعية العون المباشر التي خصصت برامج محددة للمساعدة في مكافحة فيروس كورونا مثل مشاركتها بحملة "فزعة الكويت" والتي تهدف إلى تقديم حصص غذائية، ومواد صحية وغيرها، لتجهيز المحاجر والمراكز الطبية.

أما جمعية قطر الخيرية في **قطر** أطلقت مبادرات عدة لمواجهة فيروس كورونا بالتعاون مع وزارة التنمية والعمل والشؤون الاجتماعية ووزارة الصحة العامة، وقدمت جمعية قطر الخيرية المستلزمات الوقائية للعمال في المناطق الصناعية بالدولة، كما أطلقت مبادرة لتوزيع مواد تموينية وصحية من خلال جمع التبرعات من المؤسسات كافة[٤]، أما **تونس** فقامت منظمات المجتمع المدني بجملة من المبادرات والأنشطة لمعاضدة الدولة والمجتمع في مواجهة الوباء، وتراوحت مساهمات المجتمع المدني بين المبادرات الإغاثية أو التوعوية أو تلك التي قامت بتقديم دعم صحي[٥].

ولعبت بعض المنظمات في **المغرب** دورا مهما في محاربة فيروس كورونا منذ الإعلان عن انتشاره، وقدمت عدد من المبادرات تمثلت في تعقيم الفضاءات العمومية، وتوزيع المعقمات والكمامات والقفازات، وكذلك رسم بعض الخطوط التي ترمز إلى مسافات الأمان عند أصحاب المحلات التجارية، علاوة على رسم جداريات كبيرة في الشارع العام لدعم كل الأطقم المجندة لمحاربة انتشار الفيروس بالمغرب[٦].

ودعا العديد من منظمات المجتمع المدني حول العالم إلى الإلغاء الفوري لمدفوعات الديون من قبل البلدان

---

(١) الدور المجتمعي المأمول لمواجهة أزمة كورونا، الملف المصري، مرجع سابق.

(٢) المجتمع المدني المصري يطلق حملة للحد من انتشار فيروس كورونا، دنيا الوطن، ١٧ مارس ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/t1zvf

(٣) أبرز الجمعيات الخيرية العربية التي تقدّم المساعدات لمواجهة فيروس كورونا وتداعياته، jamalouki، ٢٧ مارس ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/9SOcK

(٤) أبرز الجمعيات الخيرية العربية التي تقدّم المساعدات لمواجهة فيروس كورونا وتداعياته، مرجع سابق.

(٥) محمد العجاتي وآخرين، مرجع سابق، ص٤٥

(٦) المجتمع المدني ينخرط في محاربة كورونا عمل ميداني مستمر لتوعية المغاربة وتحسيسهم بخطر الجائحة، ١٧ مايو ٢٠٢٠، بيان اليوم، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/lrge8

النامية؛ استجابة للأزمة الصحية والاقتصادية نتيجة لفيروس كورونا، وقالت حملة اليوبيل لتخفيف أعباء الديون ومقرها لندن نيابة عن أكثر من ١٥٠ منظمة وجمعية خيرية في بيان لها "إنها أرسلت خطاب إلى حكومات مجموعة العشرين وصندوق النقد والبنك الدولي من أجل المطالبة بمجموعة من الإجراءات لإلغاء مدفوعات ديون ٦٩ دولة في العام الجاري للدول النامية[١]".

ثانيا– دراسات حالة: مؤسسة مرسال، ومنظمة أطباء بلا حدود:

يركز هذا الجزء من التقرير على دراستي حالة لمؤسسات مدنية طبية هما؛ "مؤسسة مرسال" بمصر كنموذج لكيان مدني محلي، ومنظمة "أطباء بلا حدود" كنموذج للمجتمع المدني العالمي، وذلك لتوضيح جهودهما في التصدي لجائحة فيروس كورونا وإلقاء الضوء على أبرز التحديات التي واجهتهما.

١– مؤسسة مرسال (مصر):

مؤسسة خيرية مصرية غير هادفة للربح تعمل في مجال الصحة، وتسعى لتقديم كافة أنواع الرعاية الطبية بجودة عالية لكل من يحتاجها، كما تعمل على نشر الثقافة والتوعية الطبية في مصر وامتدادا إلى الوطن العربي، تسعى أيضا إلى إنشاء نظام تأمين صحي شامل يعمل بالتوازي مع النظام الحكومي القائم؛ بهدف توفير كافة الخدمات الصحية بجودة عالية لكل من يحتاجها من غير القادرين دون أي تفرقة، ويتم ذلك من خلال شبكة من الأطباء والمستشفيات المتعاقدة مع مرسال.

وتهدف المؤسسة بشكل رئيس لفتح أبوابها لكل المرضى أيا كانت درجة خطورة حالتهم أو احتياجاتهم وتوفيرها بالكامل تحت شعار فتح باب أمل جديد[٢]، تقوم على التبرعات إذ تجمع ما يقارب ٢٠٠ ألف جنيه شهريا لعلاج عشرات المرضى، وارتفع هذا الرقم إلى خمسة ملايين جنيه، بخلاف التبرعات الخاصة بمرضى كورونا[٣].

- **دور المؤسسة في الحد من الجائحة**: اهتمت بالجانب التوعوي من خلال تقديم محاضرات توعوية عبر صفحتها الرسمية على فيسبوك، بالإضافة إلى إرسال القوافل التوعوية والطبية لبعض المناطق الفقيرة التي لم تصل إليها التوعية من فيروس كورونا[٤].

ولم يقف دورها عند الجانب التوعوي بل امتد إلى الجانب العيني حيث توفير أماكن إجراء المسح (PSR)، وتوفير العلاج والرعاية المركزة للحالات التي في حاجة لها، والقيام بحملات وقائية تضمنت تقديم أدوات تعقيم وتنظيف إلى جانب كمامات وقفازات للحماية من العدوى للمرضى الذين يترددون على المؤسسة لتلقي الخدمات العلاجية من الأمراض المختلفة، وشراء أجهزة التنفس، وقامت المؤسسة بتجهيز ٥٠٠ كيس تم توزيعها على غير القادرين، وتحتوي هذه الأكياس على مستلزمات الوقاية، مثل الصابون والمطهرات والمناديل وغير ذلك، ووصلت المؤسسة إلى الصعيد وقامت بتعقيم المساجد التي توجد بالنجوع

---

(١) منظمات المجتمع المدني تدعو لتخفيف ديون الدول الفقيرة المتضررة من "كورونا"، مباشر، ٧ أبريل ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/9RVFc

(٢) للمزيد، انظر: موقع المؤسسة، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/i0WRD

(٣) هي أشياء لا تشترى: "مرسال" قصة نجاح أهلي في مواجهة كورونا.. باب مفتوح لإنقاذ أرواح تستحق الحياة دون ألم، درب، ١١ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/H9l7B

(٤) مؤسسة مرسال الخيرية تبدأ حمله وقائية وتوعوية لفيرس الكورنا، البيان، ١٧ مارس ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/2dKYv

المجاورة للإصابات والشوارع والمنازل في قرى ونجوع الكرنك والمؤسسات الحكومية مثل قاعة المؤتمرات وجراج القاعة وجراج الحملة بالعوامية ومكاتب الاثار بالأقصر ولاقت المبادرة قبولا بين أهالي القرى المختلفة(١).

وعندما تزايدت الإصابات وأصبح هناك عجز في الوصول للرعايات المركزة التابعة لوزارة الصحة، كثفت المؤسسة من تواجدها عبر وسائل التواصل الاجتماعي حتى يتواصل معها مرضى كورونا من الحالات الخطيرة الذين يحتاجون لأَسرَّة في الرعاية المركزة.

وقامت المؤسسة بإنشاء مجموعة على الفيس بوك تسمى "فريق مرسال لدعم مرضى الكورونا" تسمح للمرضى في العزل المنزلي وذويهم بطرح الاستفسارات الخاصة بهم، ويجيب على أسئلتهم أطباء متخصصون(٢)، كما أتاحت المؤسسة "خدمة عملاء" يقوم عليها أطباء متخصصون كذلك؛ للرد على كافة الأسئلة على مدار الـ٢٤ ساعة، وتوجيه المرضى إلى الأماكن المتخصصة، سواء المستشفيات الحكومية أو الخاصة، والموجود بها رعايات مركزية متوفرة، وذلك مع تحمل "مرسال" تكلفة من لا يستطيع دفع ثمن الرعاية المركزية في المستشفيات الخاصة(٣).

واستطاعت المؤسسة توفير أجهزة ومستلزمات طبية لأكثر من عشر مستشفيات عامة وجامعية(٤)، وتدفع مرسال حوالي ٧٥٠ ألف يوميا للمستشفيات، وتبرعت بسبعة أجهزة تنفس صناعي يقدر ثمنها بنحو ٢ مليون جنيه، كما استأجرت مبنى يحوي ٢٠ سرير رعاية مركزة، حيث السرير الواحد وصل تكلفته ٣٠ ألف في الليلة الواحدة داخل بعض المستشفيات؛ بسبب عدم مقدرة المستشفيات الحكومية على استيعاب كل حالات(٥)، وتم توريد أجهزة تنفس صناعي ومواد تعقيم وملابس خاصة بالأطقم الطبية للوقاية عند التعامل مع الحالات المصابة وهذا لعدد من مستشفيات العزل في القاهرة، ومحافظات الصعيد كبني سويف والمنيا وسوهاج والفيوم(٦).

وتتميز مرسال بأنها تعالج جميع المحتاجين لخدمة العلاج المجاني من جميع الجنسيات ودون أي تفرقة، وقد قامت حتى الآن بعلاج مرضى من إحدى عشر جنسية مختلفة، ولا ترفض علاج أي مريض مهما كانت حالته خطيرة، أو لمعاناته من مرض مزمن صعب علاجه(٧).

- **التعاون مع الحكومة:** تعاونت المؤسسة مع وزارة الصحة من خلال غرفة ١٠٥، لتكون همزة الوصل بين المرضى الذين يحتاجون رعاية مركزة ووزارة الصحة، بحيث إذا وجد سرير في الرعاية يحول المريض على الفور إلى المستشفى الحكومي، وإذا كان هناك ضغط ولا يوجد سرير متاح يُحول المريض على مكان طبي خاص

(١) جمعية مرسال الخير: استمرار أعمال التطهير والتعقيم بالشوارع والمؤسسات الحكومية تحت مبادرة "حياتك تهمنا" لمواجهة كورونا فى الأقصر، صدى مصر، ٣١ مارس ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/xvblD

(٢) كيف قامت المؤسسات الخيرية مثل "مرسال" بتوظيف خدماتها لمواجهة كورونا؟، مرجع سابق.

(٣) «مرسال» تتيح «خدمة عملاء» لمرضى كورونا، الدستور، ٢ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/fVN5L

(٤) رئيس مرسال: نوفر الدم والأكسجين والأدوية للمرضى مجانا ونتحمل تكلفة علاج المرضى في المستشفيات الخاصة، بوابة أخبار اليوم، ١٦ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/pjPP5

(٥) "مرسال" مدد الله.. هنا مركز دعم ربع مليون إنسان من ضحايا كورونا (معايشة)، القاهرة ٢٤، ١٩ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/6iZyD

(٦) «فتح باب أمل جديد».. «مرسال» تساهم في إنقاذ حياة مرضى «كورونا»، المصري اليوم، ٤ يوليو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/gBFEr

(٧) "مرسال" مؤسسة طبية خيرية تضيء ظلام كورونا في مصر، عمر خالد بناء إنسان، ٩ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/WwiY5

إلى أن يتوفر له مكان في مستشفى حكومي أو تتحسن حالته ويتم شفاؤه، واستطاعت بالفعل توفير أماكن عديدة في العناية المركزة(١).

- **بعض آراء المتعافين حول المؤسسة:**

حيث يمكن رصد آراء بعض المتعافين في تقييم عمل المؤسسة من خلال النقاط التالية:

–الخدمات:

قدمت مرسال العديد من الخدمات والنصائح لبعض المواطنين، وعلى سبيل المثال وليس الحصر سردت مواطنة تجربتها قائلة: أنها انتقلت لها العدوى عن طريق زوجها، وتواصلت مع طبيب عن طريق جروب "مرسال" وظل يساعدها طوال فترة عزلها، وأنها كنت معتمدة على جروب أطباء مرسال فقط في المتابعة(٢).

–المطالبة بالتبرع:

طالب الكثير من المواطنين بضرورة التبرع للمؤسسة، وعرض مواطن تجربة تحث على التبرع قائلا: أن مرسال هي الكيان الوحيد اللي كان دوره فعال أكثر من الجهات المعنية ذاتها، وأن المرسسة عرضت تكفلها بعلاج والد صديقه إذا كانت الحالة غير قادرة على تحمل النفقات، أو بجزء منه إذا كانت مقتدرة، ولذلك طالب بالتبرع لمرسال؛ لتخفيف قوائم الانتظار(٣)".

–المقارنة مع تعامل الجهات الطبية المعنية:

استطاعت مرسال أن تتغلب على مشكلة التكلفة الباهظة التي تطلبها المستشفيات الخاصة، وأسعفت الكثير من الحالات وعلى سبيل المثال وليس الحصر: أوضحت مواطنة هذا الأمر قائلة: أن زوج إحدى صديقاتها كانت حالته متأخرة من الإصابة، وتم التواصل مع أكثر من مستشفى لاستقباله، وكان رد معظمهم أنه لا توجد أماكن، كما تواصل مع مستشفى خاص في منطقة المعادي لكن طلبت إدارتها ٣٠٠ ألف جنيه للإقامة بالإضافة إلى ٧٠ ألف أخرى إضافية ولم تستطع أسرته تحمل النفقة، كما كانت هناك حالات أخرى في حاجة للمساعدة، وبعد أيام من البحث عن سرير للعلاج، وجدوا أن أقل تكلفة تصل إلى ٢٠٠ ألف جنيه، وقد يتطلب الأمر أحيانا واسطة، حتى حال توافر المبلغ، والردود المحبطة التي تلقتها الأسرة دفعتها للبحث عن جهات أخرى أملا في سرعة إسعاف المصاب، حتى تم التواصل مع فريق مرسال لدعم مرضى كورونا، الذين وفروا طبيبا لمتابعة الحالة مجاناً إلى حين شفائها، الحالة كانت متعبة لدرجة كبيرة، حتى بدأ الطبيب متابعة وضعها وتنظيم مواعيد حصولها على الأدوية في العزل المنزلي، مع مواعيد قياس التنفس(٤).

- وسردت مواطنة أخرى مشكلتها، وكيف استطاعت مرسال المساهمة في علاج والدها قائلة: أن والدها خرج من المستشفى التي كان يعالج بها، بالرغم من استمرار إيجابية تحاليل فيروس كورونا، ما أدى إلى انتقال العدوى لزوجته وابنتيه أيضا، واستجابت مرسال لاستغاثتها(٥).

٢– منظمة أطباء بلا حدود:

(١) «إيد لوحدها ما تصقفش».. جمعيات خيرية أسهمت في إنقاذ حياة مصابي «كورونا»، الدستور، ١٠ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://www.dostor.org/3112249

(٢) «مرسال» و«مستشفى ٢٥ يناير».. مواجهة كورونا بوعي مختلف، مدى مصر، ٢٧ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://2u.pw/FWIgs

(٣) المرجع السابق.

(٤) هي أشياء لا تشترى، مرجع سابق.

(٥) استجابة لـ"الوطن".. مرسال تتكفل بحالة والد "منى" المصاب بكورونا وأمراض مزمنة، هن، ١٨ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/zIqj4

منظمة طبية إنسانية دولية مستقلة غير حكومية تقدّم المساعدات الطبية إلى الأشخاص المتضررين من النزاعات والأوبئة والكوارث أو المحرومين من الرعاية الصحية، وتتكون الطواقم من عشرات الآلاف من المهنيين الصحيين والموظفين اللوجستيين والإداريين ويعين معظمهم محليا، ولا تتطلب الربح، وذات حكم ذاتي وقائمة على الأعضاء. وتأسست أطباء بلا حدود عام ١٩٧١ في باريس على يد مجموعة من الصحفيين والأطباء، إلى أن أصبحت حركة عالمية تضم أكثر من ٤٢٠٠٠ شخص، لا تنظر إلى العرق أو الدين أو العقيدة أو الانتماء السياسي، ويلتزم أعضاء المنظمة باحترام المبادئ الأخلاقية لمهنتهم والحفاظ على الاستقلالية التامة عن جميع السلطات السياسية والاقتصادية أو الدينية[١].

ورغم أنه على مدى العقدين الماضيين وقفت المنظمة على الخطوط الأمامية لمواجهة الأوبئة مثل متلازمة الالتهاب الرئوي الحاد ومتلازمة الشرق الأوسط التنفسية وإيبولا، وصولا لفيروس كورونا، ولكن وفقًا لرئيس منظمة أطباء بلا حدود كوروميا تاكاشي فإن النطاق العالمي لتفشي الفيروس قد قدم للمنظمة مجموعة من التحديات غير المتوقعة[٢]، وهي كالآتي:

- ضعف القدرة على السيطرة على انتشار المرض.
- توفير الدعم للأشخاص في بيئات غير مستقرة.
- عدم توافر الإمدادات الخاصة ببعض المواد الأساسية، ونقص تبادل الخبرات بين أطباء المنظمة، وحماية العاملين في مجال الرعاية الصحية، وسيطرة الجماعات ما دون الدولة على المنافذ بشكل يعقد من فرص الحصول على التراخيص اللازمة لإدخال المعدات والعاملين.
- رفض بعض الدول خدمات المنظمة للرعاية الصحية باعتبارها "جهة أجنبية"[٣].

ترى المنظمة أنها لا يمكن أن تواجه هذه الأزمة بمفردها، وعلى الأمم المتحدة والدول المانحة الأخرى إيجاد طرق عاجلة لتعزيز الاستجابة، وأنه لابد على السلطات المحلية أن تيسر عمل المنظمات الدولية للتصدي للفيروس، وضمان دخول الإمدادات الطبية والموظفين الدوليين لتعزيز عمل الفرق على الأرض[٤]".

- **جهود المنظمة للحد من الجائحة:**

تعمل المنظمة على الاستجابة لجائحة فيروس كورونا في أكثر من سبعين بلد تدير فيه برامجها الطبية، وتفتتح مشاريع في بلدان جديدة عندما تصبح مركزا لتفشي الفيروس، وتركز أنشطتها على ثلاث أولويات:

الأولى– دعم السلطات في توفير الرعاية للمرضى المصابين.

الثانية– حماية الأشخاص الأكثر عرضة للإصابة.

(١) للمزيد انظر موقع أطباء بلا حدود، متاح على الرابط الآتي: https://www.msf.org/ar

(٢) المساعدات الطبية في أوقات الجائحة: لقاء مع رئيس منظمة أطباء بلا حدود في اليابان، اليابان العربي، ٢٤ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/5RH66

(٣) تحديات دور منظمة "أطباء بلا حدود" في مواجهة "كورونا" بالشرق الأوسط، المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، ٢١ أبريل ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/6iJah

(٤) كوفيد-١٩ قضى على ما تبقى من النظام الصحي في اليمن، أطباء بلا حدود، ١٠ يونيو ٢٠٢٠: https://cutt.us/4lMzg

الثالثة– مواصلة الأنشطة الطبية المعتادة التي تخدم آلاف الناس[١].

ومن ثم سوف يتم التطرق إلى بعض جهود المنظمة على سبيل المثال وليس الحصر، والتي جاءت كالآتي:

أ– في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا:

اليمن: عالجت المنظمة مئات المرضى الذين يعانون أعراض تنفسية في كل من مراكز علاج فيروس كورونا التابعة للمنظمة في صنعاء وعدن، واستقبلت مراكز أخرى تديرها أطباء بلا حدود أو تدعمها في شمال اليمن المرضى، إنما بأعداد أقل، من بينها مراكز في حجة وخمر وإب وحيدان والحديدة[٢].

وطالبت المنظمة الأمم المتحدة والدول المانحة بمد يد المساعدة بصورة عاجلة لليمن في مواجهة تفشي وباء كورونا الذي قالت إنه خلق وضعا «يفطر القلب» وسط ظروف الحرب المندلعة منذ ٥ سنوات، فيما ألقى مراقبون من المنظمة بالمسؤولية على ميليشيات الحوثي التي ترفض الهدنة المعلنة من قبل تحالف دعم الشرعية[٣].

العراق: قدمت المنظمة الدعم لمستشفى ابن الخطيب والكندي في بغداد، ويشمل هذا الدعم تقديم تدريبات حول فرز المرضى (في ابن الخطيب)، والرعاية في وحدات العناية المركزة أثناء العمل (في الكندي) وتطبيق تدابير الوقاية من العدوى ومكافحتها في كلاهما، وتعاونت في الموصل مع السلطات الصحية المحلية على تقديم العلاج للمصابين بأعراض بسيطة، وقدمت في أربيل ودوهوك الدعم التقني واللوجستي[٤].

لبنان: دعمت المنظمة موظفي مستشفى الياس الهراوي الحكومي، من خلال فرز الأطفال لتحديد الإصابات بفيروس كورونا، وتقديم التدريبات اللازمة لموظفي المستشفيات في الهرمل وصيدا وطرابلس حول تدابير الوقاية من العدوى ومكافحتها، وإطلاق برنامج لتدريب ومساعدة العائلات على الحماية الوقائية، وإرسال فرق استجابة طبية لدعم وزارة الصحة في استراتيجيتها للكشف عن الفيروس[٥].

سوريا: جدير بالذكر أن المنظمة تقدم الإغاثة لمن يحتاجها ودون أي تمييز، وتستعين باستقلاليتها وحيادها للتفاوض مع مختلف أطراف النزاع كي تصل إلى المواطنين، وتراجع منذ بدء الجائحة أنظمة فرز المرضى وتدفقهم في المستشفيات والمراكز الصحية التي تدعمها في محافظة إدلب، وذلك لنضمن سرعة كشف حالات الإصابة المحتملة[٦].

ب– آسيا:

هونج كونج: بدأت المنظمة أنشطة التوعية الصحية للأشخاص الأكثر عرضة للإصابة وتدريبهم حول تدابير الوقاية، وقامت الفرق الطبية بزيارة المشردين في الشوارع على نحو مرتين أسبوعيا، لتقدم لهم الطعام والشراب ومجموعة من مواد النظافة العامة، وأنشأت موقعا

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سلمان إسماعيل، أطباء بلا حدود تدعو العالم لإنقاذ اليمن من جائحة «تفطر القلب»، الرؤية، ٢١ مايو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/BrzjE

(٤) استجابة أطباء بلا حدود لمكافحة مرض الكورونا كوفيد-١٩، أطباء بلا حدود، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/xEbRm

(٥) المرجع السابق.

(٦) متحدثة «أطباء بلا حدود»: «كورونا» لم يغير موقف النظام السوري من السماح لنا بالعمل، الشرق الأوسط، مرجع سابق.

إلكترونيا لعامة الناس قدمت خلاله الأدوات والنصائح المفيدة للتعامل مع التوتر والقلق(١).

كمبوديا: قدمت المنظمة الدعم التقني للعاملين في المرافق الصحية في ثلاث محافظات: بايلين وباتني مينشي وأودار مينشي، وتم تدريب أكثر من ثلاثمائة موظف تابع لوزارة الصحة على المبادئ التوجيهية والبروتوكولات المتعلقة بفيروس كورونا، بينهم سائقو سيارات الإسعاف وعاملو النظافة وتقنيو المختبر والأطباء وطواقم التمريض، وساهمت أيضا في تطوير بروتوكولات العلاج المحلية(٢).

شمال شرق الهند: تم افتتاح مستشفى ميدانيا بطاقة استيعابية من ١٠٠ سرير في ستاد رياضي في ولاية بيهار.

إيران: أرسلت المنظمة فريقا ومعدات طبية لإنشاء وحدة علاج للحالات الحرجة في أصفهان(٣)، ولم تستطع المنظمة استكمال دورها في التصدي للجائحة، لأن سلطات طهران طردت فريق منظمة أطباء بلا حدود، من أراضيها بفعل ضغوط من أصوليين موالين للمرشد الإيراني علي خامنئي عقب خطابه الذي اتهم فيه الولايات المتحدة بتصنيع فيروس كورونا معمليا واستهدافها عبر جزء منه جينات الإيرانيين(٤)، وصرح مسؤول إيراني إن بلاده لا تحتاج إلى وجود "قوات أجنبية أو أطباء بلا حدود"ن للمشاركة في جهود مكافحة انتشار فيروس كورونا المستجد"(٥).

ج- أفريقيا:

جنوب أفريقيا: تم افتتاح مستشفى ميداني بطاقة استيعابية من ٦٠ سرير في كايليتشا(٦).

السودان: تعمل المنظمة مع العاملين الصحيين في المرافق التي تدعمها؛ إذ تزودهم بالمعلومات والتدريبات اللازمة، ويتوافر فريق تابع للمنظمة يتكون من ستين عامل وعاملة في مستشفى أمدرمان التعليمي وتعد أكبر مستشفى في السودان، وتعمل أيضا مع وزارة الصحة لتحضير قسم الطوارئ الخاص بالمصابين، كما دعمت الوزارة في إنشاء وإدارة مركزين لعزل المرضى(٧).

النيجر: دعمت المنظمة جهود وزارة الصحة عبر المشاركة في فريق الخط الساخن الوطني للطوارئ.

مالي: عملت المنظمة على دعم السلطات الصحية في علاج المرضى في باماكو(٨).

الكاميرون: قامت بتشييد أربع غرف وتجهيزها بعشرين سرير لتصبح الطاقة الاستعابية مائة وعشرة سريرا، وقامت أيضا بتعزيز تدابير الوقاية من العدوى ومكافحتها، وتنظم فرز المرضى وحركتهم في المستشفى العام للسيطرة على العدوى(٩).

---

(١) أزمات إنسانية تحت المجهر مرض الكورونا كوفيد-١٩، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أزمات إنسانية تحت المجهر مرض الكورونا كوفيد-١٩، مرجع سابق.

(٤) لماذا طردت إيران فريق "أطباء بلا حدود" لمواجهة كورونا؟، العين الأخبارية، ٢٥ مارس ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/YTjVM

(٥) مسؤول إيراني: لا نحتاج مشاركة "أطباء بلا حدود" أو أي قوات أجنبية في مواجهة فيروس كورونا، CNN بالعربي، ٢٤ مارس ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/o9YPw

(٦) أزمات إنسانية تحت المجهر مرض الكورونا كوفيد-١٩، مرجع سابق.

(٧) استجابة أطباء بلا حدود لمكافحة مرض الكورونا كوفيد-١٩، مرجع سابق.

(٨) أزمات إنسانية تحت المجهر مرض الكورونا كوفيد-١٩، مرجع سابق.

(٩) استجابة أطباء بلا حدود لمكافحة مرض الكورونا كوفيد-١٩، مرجع سابق.

د– أوروبا:

إيطاليا: كانت مركزا لتفشي الجائحة، وعملت المنظمة في المخيمات غير الرسمية، وأنشأت لجان صحة مجتمعية خاصة بكورونا، ودربت اللجان على تدابير الوقاية من العدوى ومكافحتها، كذلك أنشأت خط هاتفي للمساعدة يعمل عليه أطباء ووسطاء؛ لتقديم المشورة ودعم الاحتياجات الصحية المجتمعية، وقدمت أيضا التوعية الصحية للمجتمع المدني العامل في المناطق الأكثر حاجة وتهميشا، وعملت في أربعة مستشفيات على تعزيز تدابير الوقاية من العدوى ومكافحتها وتنظيم حركة المرضى في شمال إيطاليا[١].

فرنسا: عملت المنظمة في بعض الملاجئ التي تستقبل المشردين والمهاجرين في باريس؛ إذ تقيم حالتهم الصحية وتحدد الأشخاص المصابين، وتدير مركزين للمصابين منهم، واستخدمت في مرسليا مقاربة العيادات المتنقلة للوصول إلى الأشخاص الذين يعيشون في ظروف غير مستقرة بعيدا عن المراكز الصحية، ودعمت أكثر من ثلاثين دارا لرعاية المسنين[٢].

هـ– الأمريكيتين:

البرازيل: دشنت المنظمة وحدة رعاية مركزة بطاقة استيعابية من ثمانية أَسرَّة في مستشفى تايد سيتوبال في شرق المدينة، وقدمت الرعاية للأشخاص المقيمين في المنطقة ومن خارج ساو باولو، كما عملت الفرق الطبية على أنشطة التوعية الصحية في الأحياء الفقيرة المجاورة، وعلى المراقبة الوبائية في القرى الريفية، وعملت أيضا في مستشفى ميداني حيث تقدم الرعاية الطبية في وحدة عناية مركزة وجناح يعالج الأشخاص المصابين بأعراض مرضية متوسطة وحادة[٣].

الولايات المتحدة الأمريكية: تعاونت المنظمة مع جمعيات محلية في نيويورك؛ لتعزيز تدابير الوقاية من العدوى ومكافحتها ولمساعدة المجتمعات الأكثر عرضة للإصابة والتي لا تستطيع غالبا الحصول على الرعاية الصحية، إضافة إلى مساعدة المقيمين والموظفين في المرافق الصحية طويلة المدى للتقليل والحد من انتشار فيروس كورونا، وتوزيع المواد الأساسية كالكمامات والأقنعة الواقية للوجه ومجموعة مواد النظافة العامة إلى مرافق الرعاية الصحية والفئات الأكثر حاجة، ووزعت المنظمة حوالي ألف هاتف محمول على سكان نيويورك الأكثر حاجة والذين لا يمتلكون التكنولوجيا الأساسية اللازمة للاتصال بخدمات الطوارئ والدعم[٤].

المكسيك: قدمت المنظمة العلاج للمصابين بأعراض مرضية معتدلة من فيروس كورونا في وحدة بطاقة استيعابية من ٥٠ سريرا، كما دربت موظفي الصحة.

جمهورية هايتي: أعادت المنظمة تنظيم مستشفاها لرعاية الحروق في بورت أو برانس؛ ليصبح جاهزاً لعلاج المصابين بفيروس كورونا[٥].

يوضح لنا العرض السابق كيف استطاعت كل من مؤسسة مرسال، ومنظمة أطباء بلا حدود المساهمة في الحد من تفشي الجائحة، وذلك من خلال دورهما سواء التوعوي أو العيني، وأثبتا أن الدور الذي قاما به لا يمكن أن تقوم به الدول منفردة، بل يجب أن يكمل دور الدول فواعل أخرى غير حكومية مثل هذه المنظمات.

(١) أزمات إنســـانية تحت المجهر مرض الكورونا كوفيد–١٩، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) استجابة أطباء بلا حدود لمكافحة مرض الكورونا كوفيد–١٩، مرجع سابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) أزمات إنســـانية تحت المجهر مرض الكورونا كوفيد–١٩، مرجع سابق.

– **بعض التحديات التي تواجه المنظمة في بعض البلدان، خاصة بمنطقة الشرق الأوسط:**

اليمن: الإنكار لتفشي الفيروس والخوف منه، وافتقار اليمن بشكل كامل إلى وسائل الاستجابة لهذا التفشي، فضلا عن انهيار نظام الرعاية الصحية بالكامل، وإغلاق عدة مستشفيات خوفاً من الفيروس، أو بسبب النقص في الموظفين ومعدات الوقاية الشخصية كما صرحت كلير هادونج رئيسة بعثة أطباء بلا حدود في اليمن(١)، بالإضافة إلى الإمكانات المحدودة للغاية للفحص، وبالتالي ينتشر الفيروس دون أن يتم تتبع الحالة الوبائية(٢).

سوريا: لا تستطيع المنظمة على سبيل المثال العمل في المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة السورية، وتقتصر أنشتطها على المناطق التي لا تخضع حاليا لسيطرة الحكومة؛ لأنها قائمة بالاتفاق والتنسيق مع السلطات الصحية المعنية في تلك المناطق(٣).

غزة: محدودة الإمكانات، بالإضافة إلى تهالك منظومة العمل الصحي؛ بسبب الحصار الممتد منذ ١٤ عاما، كما صرح د.يوسف أبو الريش، رئيس بعثة منظمة أطباء بلا حدود ببلجيكا(٤).

العراق: التحدي الأساس الذي يواجه المنظمة هو معاناة النازحين والذين يعيشون في مخيمات رسمية وغير رسمية محفوفة بالمخاطر ومكتظة في أغلب الأحيان، لذا خشت تفشي الفيروس داخل المخيمات كما صرح رئيس بعثة أطباء بلا حدود في العراق غول بادشاه(٥).

البرازيل: تزايد الحالات بشكل سريع، ووصفت المنظمة الوضع بالكابوس(٦).

خاتمة:

يتبين مما سبق أن البلدان أصبحت تعتمد اعتمادا كبيرا على منظمات المجتمع المدني، وأن أي استجابة تقتصر على دور الدولة فقط قد لا تكون كافية، مهما توافر لديها من أدوات ومواد وقدرات أمنية تسمح لها بالتغلغل في المجتمع، فليس من السهل مواجهة أزمة كبرى كجائحة كورونا. لذلك هناك ضرورة ملحة لإعطاء الدولة منظمات المجتمع المدني المزيد من المساحة والاعتراف؛ لتسهيل تحركها ولتيسير استجاباتها، حيث من الصعب الوصول للمجتمعات المحلية بينما تكون هناك معوقات تعرقل حركتها، كما من الضروري للدولة أن تتيح فرص للتعاون وللشراكة بينها وبين المجتمع المدني.

ولابد من الاعتراف بأن منظمات المجتمع المدني شريك للدولة في التصدي للأزمات، خاصة وأنها وفرت عليها

(١) أطباء بلا حدود: كورونا بدأ ينتشر على نطاق واسع في اليمن، مصراوي، ١١ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الآتي: https://cutt.us/ovHOF

(٢) في ظل انتشار كوفيد-١٩، الخوف يدفع الناس لعدم الذهاب للمستشفيات في اليمن، أطباء بلا حدود، ١٢ يوليو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/hxdp5

(٣) متحدثة «أطباء بلا حدود»: «كورونا» لم يغير موقف النظام السوري من السماح لنا بالعمل، الشرق الأوسط، ٢٧ أبريل ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/xa0WX

(٤) "أبو الريش" يطلع بعثة أطباء بلا حدود بلجيكا على جهود الوزارة في مواجهة كورونا، الرأي، ٨ أبريل ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/i3phk

(٥) النازحون في العراق من أكثر الفئات عرضة لخطر الإصابة بكوفيد-١٩، أطباء بلا حدود، ١٥ يوليو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/olurX

(٦) أزمات إنسانية تحت المجهر مرض الكورونا كوفيد- ١٩، موقع منظمة أطباء بلا حدود، ١٩ يونيو ٢٠٢٠، متاح على الرابط الآتي: https://cutt.us/a4xHX

الكثير من الإجراءات والمجهودات كما حدث في التصدي لجائجة كورونا من خلال مراحل ثلاث هي: المرحلة الأولى- المسار التوعوي الوقائي في بداية الأزمة، والمرحلة الثانية-مسار توفير الحاجات الطبية المتزايدة مع تفشي الفيروس، أما المرحلة الثالثة- ما بعد التراجع (النسبي) للجائحة وتمثل هذا المسار من عمل منظمات المجتمع المدني من خلال: المساهمة في إعادة تأهيل المناطق.

ولنعلم أن الشراكة الفاعلة بين الدولة والمجتمع المدني تدل على وجود مجتمع قوي، ودولة قوية، لذلك على الدولة أن تساهم في إزالة المعوقات التي تواجه المنظمات، وتوفر لها بيئة تساعد على فاعليتها مثل: البيئة السياسية، البيئة القانونية (التشريعات)، والبيئة الاجتماعية والثقافية.

وعلى منظمات المجتمع المدني توفير المناخ والآليات الداعمة للشراكة والتعاون بينها وبين الدولة، وفيما بينها، خاصة وأن أزمة كورونا فرصة للتعاون؛ من أجل إعادة البناء والتأهيل، وربط التطور في أدوار المجتمع المدني بالمواطن وسبل تمكينه وتقوية أشكال المشاركة.

*****



اضطراب التعليم أثناء أزمة كورونا: النتائج والدلالات وإعادة التفكير

د. محمد درويش درويش(*)

مقدمة:

وقفة مع الغرب لتصحيح مسار التفكير ومنهجية التناول:

صحيح أننا في عالمنا العربي تبع للغرب في كثير من التدابير والاحترازات التي اتخذوها لمكافحة كورونا، لكن: هل واكب هذه النهضة العلمية، والتي شابها قصورا واضحا في الاستعداد والتهيؤ لمثل هذه الجائحة؟ هل أفرزت قيما وسلوكًا سويا على الأفراد والمجتمعات؟ وبمعنى آخر، فإنه ينبغي لهذه الأسبقية العلمية أن يكون لها مردود على الشعوب التي تنعم بها، لكن المشاهد غير ذلك؛ حيث سيطرت النزعة الأنانية، وبرزت إلى السطح البراجماتية في أسوأ صورها، وأنت تشاهد هؤلاء الناس يتسابقون ويتصارعون أيهم أسبق لجمع أكبر قدر من الغذاء والمؤن لتنفيذ الإغلاق الكلي الذي اتخذته بعض الدول، هذا بعد أن جربت هذه الدول خطط الإغلاق الجزئي، فما كان من عموم الناس إلا التهاون والمجازفة ومخالفة الحظر حتى عم الوباء.

فضلاً عن اشتعال نار العنصرية البغيضة مع أصحاب البشرة السمراء(1)، وانطلقت المظاهرات والتخريبات، وحمل القوم السلاح في وجه بعضهم بعضا، وتحزب كل فريق ضد الآخر، ألم يتعلم هؤلاء القوم في نهضتهم العلمية تنحية الخلافات والنزاعات وقت المحن، وتذكر حينها مضطرا قول النبي صلى الله عليه وسلم لما قامت الفتنة بين الأوس والخزرج: "**أ بدَعوى الجاهلية، وأنا بين أَظْهُرِكُم**"(2)؛ فخمدت الفتنَة.

هل ينقص القوم شيء ما إلى جوار نهضتهم العلمية؟

تساؤل يفرض نفسه بقوة، ويحضرك حينها ذلك المشهد الرقيق لما جاء قوم من مضر مجتابي النمار(3) إلى النبي صلى الله عليه وسلم حزينا مغضبا لما أصاب القوم من الفاقة الشديدة، ثم بعد الصلاة يخطب في الناس، ويحثهم على النفقة بالدينار والدرهم والثياب والبر إلى أن قال: "**ولَوْ بشقِّ تَمرة**"(4)، فالكل يشارك على قدره وطاقته، ولَم يَذهب مًا كان بالنبي

(*) أستاذ مساعد بقسم أصول التربية/ كلية التربية –جامعة السويس.

(١) من ذلك ما حدث مع جورج فلويد، وهو مواطن أمريكي من أصل أفريقي، توفي في الخامس والعشرين من مايو ٢٠٢٠م في مدينة مينابولس، بولاية مينيسوتا في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك أثناء تثبيته على الأرض؛ بغية اعتقاله من قبل شرطة المدينة، حيث قام ضابط شرطة منيابولس «ديريك تشوفين» بالضغط على عنق فلويد (بركبته)؛ لمنعه من الحركة أثناء الاعتقال لما يقارب تسع دقائق، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/5D73W

(٢) صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، ح (٣٥١٨)، ص ٤١٦.

(٣) مجتابي النمار: النِّمار: جمع نَمِرة، وهي الكساء من الصوف المخطَّط، والاجتيابَ من الجوبَ، وهو القطع، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ [الفجر: ٩]؛ أي: نحتوه وقطعوه، والمراد أن هؤلاء القوم لَفاقَتهم ورقة حالهم لبسوا أرديتهم، أو عباءهم، وقد خرقوها في رؤوسهم، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/qm4Na

(٤) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، ح (١٠١٧)، ص ٤٨٦.

صلى الله عليه وسلم من الكرب إلا بعدما استجاب الناس لما أصاب إخوانهم.

هذا أثر العلم الحقيقي الذي أقصد، وكيف نصل إلى هذا التطبيق العملي للعلم النظري؟

ومن ناحية أخرى، فـ حينما يحدث إعصار قوي في بقعة ما من الأرض، تقوم هيئات متخصصة برصد قوة الإعصار واحتمال توابعه من عدمه، ومدى تأثيره على البنية التحتية، وإصدار التحذيرات المناسبة لتلافي ما قد يصاحبه أو يتبعه من المخاطر، وتستطيع كـ ثير من الدول توقع تلك الأعاصير قبل حدوثها وتأهيل الناس للتعامل معها تقليلاً للخسائر وحفظاً للأرواح والممتلكات، لكن لا تغفل هذه الدول ما كشفه الإعصار من اهتراء البنية التحتية في بعض الأماكن حيث كان التأثر أكبر ما يكون، ولو أصرت هذه الدول على سلوك هذا المنحى فهي لا تبحث لها عن مكان في المستقبل، بل هي تدفن رأسها في الرمال، وستترك لها ذكرا في الماضي مع من هلك من الغابرين.

والذي أريد أن أقوله أن أزمة فيروس كورونا أزمة كاشفة – وليست منشئة– عن تقصير وخلل واهتراء أصاب كثيرا من الهيئات: سواء تلك المنوط بها توقع واستشراف المخاطر، أو التي تقوم على أمر التعليم مباشرة، ولكي أُدلل على هذا الذي أزعم لا بدَّ من رصد جيد لما صاحبها من إشارات وعلامات وقراءات صادمة، وأيضا حتى نستطيع الخلوص إلى شئ نرجو أن يُجدي نفعا للأجيال التي نحمل همها في الحاضر والمستقبل.

قضية الورقة البحثية:

لا تُخطئ العين المجربة حالةً التخبط والهلع التي أصابت العالم بعد تفشي فيروس كورونا، ليس بين عموم الناس فقط لكن في أوساط من المفترض أنها المسئولة عن بيان الحقائق للناس في أمرٍ جللٍ مثل هذا، والمتابع لأطبائنا ومتخصصينا في هذا المضمار يجد شجارا مُحزناً غاية الحزن، فهذا ينشر توصيات منظمة الصَحة العالمَية على أنها المرجع الرسمي الصحيح الوحيد للنصائح والإرشادات الواجب اتباعها، وآخر يوصي بالتجربة الألمانية حيث الاحترازات أقل، وثالث ينشر التجربة السويدية حيث الانفتاح أكثر وأكثر، والمتمكن منهم هو الذي يُحسن ترجمة التقارير التي تصدرها تلك البلدان، وصراع فارغ أيهم أفضل ترجمة ودقة، وللأسف لا وزن لنا.

أين نحن وأين هي مؤسساتنا التعليمية وجامعاتنا ومعاملنا البحثية من هذا السجال؟ أسنكتفي بدور المترجم؟ ليست هذه دعوة للانغلاق بقدر ما هي دعو ة للمصارحة، إنَّ غاية عظمى من غايات التعليم هي إيجاد طائفة من الناس تحافظ لنا على ثمرة ما حققناه من تنمية وتقدم ولو طفيف، فإذا لم يَخرج لنا التعليم مثل هذا الصنف من الناس، فلا نحلم بالبقاء على وجه الأرض كثيرا ولا قليلاً، هذه واحدة.

والثانية: هي ظهور بعض من أبنائنا ممن يشاركون في هيئات عالمية لوضع بروتوكولات علاجية لمثل هذه الأوبئة، إذًا عندنا كوادرنا القوية ولو قليلة، لكنها موجودة بيد أنها تحلق بعيدا.

وثالثة الأثافي: حالة الارتياح الواسع التي شهدتها أوساط الآباء والأمهات والطلاب من جراء توقف الدراسة التقليدية في المدارس والجامعات، ويكأنها كانت شديدة الوطء عليهم جميعا ماديا وبدنيا ونفسيا، ولم يكن للحضور المعتاد في دور التعليم كبير نفع، بل كان الغياب أحب إليهم، وأكثر لهم نفعا.

أما الرابعة: فهي الأمية الشديدة التي أصابت من لهم علاقة بهذه الجائحة من قريب أو بعيد، فالممارسون الصحيون من أطباء وصيادلة وتمريض فضلاً عن غيرهم كشفوا لنا أمية من وجه آخر إذ ظنوا أن مجرد دراستهم تعطيهم الحق في الكلام عن هذه

الجائحة، وانطلق كل واحد في ملأ صفحته على الفيسبوك أو تويتر بالبيانات والتحذيرات والتوجيهات التي هي محض تجربة فردية، وعلى اقصى التقديرات تجد المحسن منهم يترجم تقارير الهيئات العالمية بعد الرجوع للسيد جوجل، يذكرني هذا بالسجال الفقهي حين تنزل نازلة بالمسلمين وينطلق كل من له صلة بالعلم الشرعي من قريب أو بعيد لبيان الحكم الشرعي فيها.

وخامسا: حالة اللامبالاة التي ظهرت جلية في تعامل قطاعات عريضة من الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية والمادية مع اجراءات السلامة التي تنشرها الهيئات الصحية من ارتداء الكمامات والاهتمام بالتباعد الاجتماعي وغيرها من الاحترازات، حتى سمعنا عمن يعيد توزيع نفس الكمامة على أشخاص مختلفين في وسائل النقل خشية الغرامة المادية، وبعضهم يؤجرها على أبواب بعض المصالح الحكومية ويستعيدها بعد انتهاء الإيجار.

سادسا: ومع اتخاذ بعض الدول اجراءات تخفيف الحظر وفتح دور العبادة، انتشرت صور للمساجد وقد انتظم أهلها على الصفة التي طلبتها الهيئات المختصة من التباعد وجلب كل مصلٍ لسجادة الصلاة الخاصة به وارتداء الكمامة، وهذا الالتزام يحمل معان كثيرة سنتعرض إليها تباعا.

هذا من وجهة نظري بعض من خلاصة أثر العملية التعليمية الحالية وخططها على الأفراد والمجتمعات ومُخرج أصيل من مُخرجاتها، ومن أراد التعرف على جدوى أساليب التعليم الحالي والسابق وتقويم نفسه، وهل أدت أزمة كو رونا لاضطراب التعليم حقًا أم هو مضطرب ابتداء، والاستعداد الحقيقي لما هو آت -والمؤشرات تقول إنه أشد من سابقه- فعليه أن يضع هذا الرصد المجتمعي وغيره نصب عينيه لئلا نحرث في الماء.

أولاً- مظاهر وصور اضطراب التعليم في ظل أزمة كورونا:

لا أدري لماذا يصر البعض على أنّ ثمَّ قصور حديث العهد قد أصاب العملية التعليمية في مقتل، في الوقت الذي لا يفتر هؤلاء عن الشكوى من مستوى الخريجين في مُختلف مراحل التعليم الأساسي منها إلى الجامعي وما يليه.

والذي حدث من وجهة نظري وكأن سيارة قديمة وقد دبَّ الوهن في إطاراتها، وأصاب الخلل مختلف أجزائها، وملأ الصدأ هيكلها، لكنها تتحرك وتنقل صاحبها من مكان إلى مكان، مع فارق الإمكانات والسرعات والرفاهيات عما حولها من السيارات، لكنها في النهاية على صورة السيارة، وفجأة أصاب العطب موتور السيارة فتوقفت، إن الذي حدث مع تفشي داء كو رونا كان منتظرا ومتوقَّعا ينتظر وقوعه كل من حمل الهم في قلبه وكيانه تجاه أبناء وطنه وجلدته.

ولكن لا مفر من الحديث عن شئ من مظاهر هذا الاضطراب الذي أظهرته هذه الجائحة، فكشفت آخر ورقة توت كان يستتر بها التعليم، فمن ذلك ما يلي:

١- توقف العملية التعليمية تماما:

أشارت اليونسكو إلى تأثّر ٨٧٪ من عدد الطلاب في العالم بإغلاق المدارس بسبب فيروس كورونا، وتم إلحاق ضرر بأكثر من مليار ونصف المليار متعلّم موزعين في ١٦٥ دولة، وقد قالت المديرة العامة لليونسكو، السيدة أودري أزولاي، في هذا السياق: "لم

يسبق لنا أبدًا أن شهدنا هذا الحد من الاضطراب في مجال التعليم"[١].

فلم يأت بخلد أكثر المتشائمين من حال التعليم أن يحدث توقف تام للعملية التعليمية، بحيث تُلغى مناهج دراسية كاملة، ويكون النقاش الدائر هو فقط عن كيفية تجاوز هذه المرحلة الدراسية إلى التي تليها، ويتم الاستعاضة عن الامتحانات بعمل أبحاث فردية أو مُجمَّعة، أو إجراء امتحانات صورية على أجهزة التاب التي سلمتها الجهات المسئولة إلى طلاب بعض المراحل الدراسية، وتقرر إجراء الامتحانات–على ما صاحبه من قلق وفزع– لبعض المراحل الأخرى سواء في الشهادة الثانوية أو الجامعات.

٢– ترد ثقافي واضح:

فمع أن فكرة إنشاء منصة إلكترونية تُرفع عليها الأبحاث الخاصة بالطلاب فكرة جيدة في مجملها، لكنها كشفت عن كارثة كثيرا ما نبه إليها أساتذة التربية، وهي تردي المستوى الثقافي لكثير من الآباء والأمهات؛ إذ لا يستطيعون مساعدة أبنائهم في كتابة بحث، ولجأ الكثيرون إلى بعض من يُحسن كتابة الأبحاث، وضج الناس بالشكوى كيف نكتب الأبحاث؟ ألا ترقبون فينا إلا ولا ذمة!

وهذه الفئة التي أتحدث عنها من الآباء والأمهات ممن يمتلكون أجهزة الموبايل والتاب واللاب توب وليس عندها مشكلة في الدخول على الإنترنت، ويستخدمونه في شتى أمور حياتهم مثل: تعلم إعداد ألوان الطعام، ومعرفة أفضل الأسواق والبضائع، وكيفية شراء السيارات والفروق بينها وتعلم قيادتها، ومتابعة حركة سوق المال والذهب وغير ذلك كثير جدًا، لكن لم يكلف هؤلاء الآباء أنفسهم مئونة البحث في أي موقع على الشبكة العنكبوتية عن كيفية كتابة بحث، وإنما لجئوا إلى شرائها مباشرة.

لطالما نادى التربويون وبح صوتهم أن أعدوا هؤلاء الناس للقيام بدورهم في العملية التعليمية، فلا يكون دور الوالدين هو توفير النفقات والثياب والذهاب والإياب مع ذويهم فقط، إنهم منوط بهم دور أكبر وأعظم من ذلك لطول ملازمتهم لأولادهم واطلاعهم على خفايا شخصياتهم، ومعرفة ما يحفزهم وما يؤثر عليهم سلبا، وهم أكثر الناس حرصا على نبوغهم واستخراج أقصى ما عندهم من القدرات والإمكانات. فأين الخطط والبرامج العلمية والنفسية والتثقيفية الموجّهة لأولياء الأمور؟!

٣– أزمة مالية طارئة:

لا يزال شبح الدروس الخصوصية يطارد كثيرا من القائمين على أمر التعليم، وقد احتاروا في كيفية القضاء عليه، فمع توقف العملية الدراسية مبكرا، توقفت الدروس الخصوصية لمراحل النقل، وتأثرت الحالة المادية لكثير من المدرسين خاصة مع ضعف رواتبهم، وهنا أطرح تساؤلاً مشروعا: كيف لهذا القائم على ركن ركين من أركان العملية التعليمية أن يقوم بالدور المنوط به؟ وكيف ينمي نفسه معرفيا وعلميا؟ وكيف يستقر نفسيا وأعباء الحياة الدنيا تطارده ليلاً ونهارا، وسرا وجهارا؟

بل مما زاد الطين بلة وصار أنكى وأنكى ويدفع المرء لضحك كالبكا تلك المنافسة الحميمة لخريجي كليات التربية في مهنتهم، فتجد المهندسين يعطون دروسا في الرياضيات وفروعها من التفاضل والتكامل وغيرها وكذلك الفيزياء، والصيادلة وخريجو كليات العلوم يشرحون الكيمياء والأحياء، وبعض

---

(١) تصـريح مديرة اليونسكو حول جائحة كورونا، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ddsr

المعيدين في بعض الجامعات يعطون دروسا للثانوية العامة، ذكرني هذا بمن اشترى سيارة خاصة (ملاكي) وصار ينافس بها سيارات الأجرة، ومما ساعد على زيادة رقعة هذا الاضطراب ضعف المستوى عند بعض أو كثير من القائمين على العملية التعليمية من المدرسين.

٤- غش جماعي:

عندما تقرر إجراء الامتحانات على التاب الخاص ببعض مراحل النقل، حدث ما كان متوقعا، فلقد تجمع الأصدقاء والأحباء على طاولة واحدة، وفتح كل واحد امتحانه وصاروا يتشاركون في حل الامتحان.

متى تنتهي هذه الطريقة في تقويم الطلاب؟ أو حتى يقل الاعتماد عليها حتى تشكّل نسبة أقل في تقويم الطلاب.

يظل الطالب يذاكر شهورا ثم تكون نتيجة تعبه وكده في ساعة أو ساعتين، وربما يؤدي الامتحان في مادتين في اليوم نفسه، والفترة بين الامتحانات متقاربة أحيانا، وفي بعض الجامعات بعد امتحان النظري امتحان شفوي يقضي على ما تبقى من الطالب، إن هذا لظلم عظيم!

وها هم أبناؤنا في الثانوية العامة يعانون ضغوطًا شديدة مجتمعة، فماذا لو أصاب أحدهم طارئ -لا قدر الله- عطله عن إكمال الامتحانات بهذه الطريقة؟ وما تأثير ذلك على نفسه وقلبه وأهله وذويه، وقد سبقه زملاؤه للعام الذي يليه وتأخر هو؟

وبعيدا عن الظرف الطارئ الذي أدى لسلوك هذا الطريق، فإن المخرج النهائي من هذا الغش الجماعي، سيكون جماعة من الضعفاء المتواكلين الانتهازيين، والذين سيظلون عبئا على أهليهم وذويهم ومجتمعاتهم وبلدانهم وعلى الناس أجمعين.

٥- دور المكتبة : دور غائب أم دور غائم أم دور منسي:

تقوم العملية التعليمية عندنا معتمدة فقط على دور التعليم سواء المدارس والجامعات، ولما تفشي فيروس كورونا، ظهر هذا العيب جليا، فليس هناك من يتحمل ولو شيئا يسيرا من دور دور التعليم، ولو سألنا كم بيتا فيه مكتبة؟ أو على التاب أو اللاب توب أو الكومبيوتر العادي في بيته؟ ثم ما نوعية الكتب في هذه المكتبات؟ وهل يقرأ أبناؤنا وبناتنا شيئا من هذه المكتبات؟ وما دور مكتبة المدرسة والجامعة الذي كانت تقوم به أثناء الدراسة؟ وكم من الطلاب يدخلها ويستعير منها؟ لا أنكر أن فكرة القرائية التي انتهجتها إدارات التعليم جيدة، لكنها تبقى حكرا على نوعيات معينة من الطلاب ممن يحبون القراءة أصلا، فأين بقية الطلاب؟

إن مكتبة تعني اطلاعا على الجديد، وشغفا بمتابعة الاطلاع، وتوسيعا للآفاق والمدارك، إن قراءة سوية تعني بحثا وفهما، تعني نشئا جديدا غير الذي كان، لكن يبدو أن هذه الأخرى لم تكن على المستوى المرجو، فلم نسمع عن أب أو أم أنشأ مكتبة في بيته تحاكي فكرة مكتبة المدرسة، فيها من الأساسيات التي تناسب عقل وعمر وعاطفة ونفسية ولده، ولم نجد تواصلا بين المسئول عن المكتبة وبين أولياء الأمور لتنبيهه إلى ما يحبه ولده من الكتب، أو ما يميل إليه من القراءات، ولم نجد استفادة ملموسة من وجود المكتبات في الجامعات والمدارس، إنها ويا للحسرة جزر منعزلة متباعدة، تدعي كلها وصلا بليلى، وليلى لا تقر لهم بذاك.

٦- الجميع ناجح:

أتفهم الحالة النفسية السيئة التي يمر بها عموم الناس، لكن ليس معنى ذلك أن يمر العام الدراسي بهذه الصورة المهينة، فإما غش جماعي، وإما أبحاث لا يعرف عنها أصحابها شيئا، ثم يكتمل مثلث الرعب بأن الجميع ناجح ومنقول للمرحلة التي تليها، هذا الجزء الضخم من

المنهج الدراسي الذي مر ولم يدرسه الطلاب: إما أنه مهم فلا بدَّ من إعادة الحسابات مرة أخرى في المنتقلين إلى المراحل التعليمية التالية بأن يضاف بصيغة أو بأخرى لتلك المراحل، وإما إنه غير ذي جدوى بالنسبة لما هو آت من الدراسة، فهنا تكون المصيبة أعظم.

٧- ارتياح عام:

لاحظنا جميعا ذلك الارتياح والفرح بانتهاء العام الدراسي مبكرا، ثم نجاح جميع الطلاب وانتقالهم إلى المراحل التي تليها، وهذا الارتياح مقلق جدًّا لكل المهتمين بالعملية التربوية، إذ يطرح استشكالات عدة:

- لماذا صارت الدراسة عبئا لا يمكن تحمله؟
- ما العيب في المناهج الذي أدى بها لثقلها على كاهل الطلاب والآباء؟
- ما مدى متانة العلاقة بين الطلاب والمدرسين، وإلى أي مدي يؤثرون في تشكيل وجدانهم وعقولهم وحبهم أو بغضهم لمدارسهم وجامعاتهم؟
- كيف تكون المدرسة عاملاً حافزا لتحسين تلك العلاقات الاجتماعية بين الطلاب، فيأتون إليها طائعين؟
- لماذا يعاني الآباء والأمهات لإيقاظ أولادهم يوميا؟

هذه وغيرها استشكالات تبحث عن إجابات؛ لكي نعيد توجيه البوصلة حيث تنطلق السفينة إلى حيث ينبغي لها أن تكون.

ثانيا- النتائج والدلالات ومعاودة التفكير للحد من اضطراب التعليم بسبب أزمة كورونا:

إن النكبات العظيمة التي تصيب الأمم والشعوب تترك أثرا بالغًا في شتى مناحي الحياة خاصة عند تلك الشعوب التي ليس لها حظ من التعود على مواجهتها كما يحدث في الأعاصير والزلازل والتسربات الإشعاعية في آسيا وأوروبا، وكذلك ليس عندها القدر الكافي من الاستعداد لما هو آت؛ لتخفف عن نفسها تبعات تلك النكبات.

وسوف نحاول في هذه الورقات اليسيرة تلمس بعض التأثر الذي ربما تتركه فاجعة كورونا على العملية التعليمية، فهي أولى بأن نبدأ بها، وبما قد يصيب مكوناتها، فالأقربون أولى بالمعروف.

١- المعلم:

أ-مفاجأة غير سارة:

فقد الملايين من الناس وظائفهم كأحد أول نتائج الغلق والحظر الكلي والجزئي الذي اتبعته كثير من الدول، والذي يُخشى منه أن ينضم المعلم لقافلة فاقدي الوظائف خاصة مع محاولة كثير من الدول تعويض شيء من الخسائر الاقتصادية بتقليل النفقات، فتلجأ هذه الدول لخصخصة المعلمين، والاكتفاء بالعدد الذي تظن أنه يكفي لتسيير العملية التعليمية، وربما يتأكد هذا المنحى إذ ا ما أقرت الدول إكمال التعليم عن بعد عن طريق الشبكة العنكبوتية، فبعدد قليل جدا تستطيع تسجيل شرح لكافة المواد الدراسية على المواقع والمنصات التعليمية المختلفة، ويبقى تنظيم شيء من التواصل بين المدرسين والطلاب على وسائل ومواقع التواصل الاجتماعي.

أو على أقل تقدير، سبحث المدرسون عن وظائف أخرى؛ لسد الخلل في تحقيق احتياجاتهم الشخصية والعائلية، مثلما يحدث مع خريجي كليات التجارة؛ حيث يعمل كثير منهم في غير مجاله.

ب-هل سينجح؟

لو أخذنا إطلالة إلى بعض ما يحدث خلال الحصة الدراسية من أخذ الغياب، وإسكات الطلاب،

وفقد الوقت في أبجديات ما كان ينبغي أن نهدر فيها الوقت منذ أن يدخل الأستاذ قاعة الدرس فيقول: أخرجوا الكتاب المدرسي وكراسات الواجب، ثم يبدأ معاقبة من لم يأت بأي منهما، ثم معاقبة من لم يؤد الواجب، وسماع أعذار أصحاب الأعذار، وربما يطرد بعضهم خارج الفصل، كل هذا وغيره يضعف الأثر المباشر للمعلم في إنجاح العملية التعليمية، فإذا اتجه مسئولو التعليم إلى تقليص أيام الدراسة والتركيز على التعلم عن بعد، فالمتوقع أن يفتر المدرسون عن الاستزادة من العلم والتثيقف اللازم للمرحلة المقبلة من الاتجاه للتكنولوجيا الحديثة، ومحاولة التمرس فيها، والاطلاع على أساليب التدريس عن بعد، وكيف يتغلبون على مشاق هذا الطرح، وكيف يستفيدون من مزاياه؟

قلت: إن المتوقع أن يفتر المعلم، ويزداد ضعفًا على ضعف؛ لأن الواقع المشاهد والتجربة السابقة في قصة الكادر الذي ربط آفاق ومسارات الترقي بشيء من تحديث المستوى العلمي لم يرق إلى المأمول، فهذه كتلك بل أشد، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن علاقة بعض هؤلاء المدرسين بالتكنولوجيا والإنترنت لا تعدو تصفح الفيسبوك، أو توتير، أو مشاهدة بعض المقاطع على اليوتيوب، فكيف يتحمل عبء ما لم يستطع عليه صبرا؟!

ج-كليات التربية:

إذا ما صدقت تصوراتنا عن تأثر شديد لمهنة المعلم، فلربما امتد ذلك التأثر إلى كليات التربية نفسها، فيعرض أبناؤنا عن اعتبارها في رغبات التنسيق، إذ كيف يتقدمون لمهنة سيبحثون معها وإلى جوارها عن مهنة أخرى لسد احتياجاتهم الأساسية، ولا أبالغ إن زعمت امتداد هذا التأثر لأساتذة هذه الكليات أيضا، فالأمر أشبه بقطع الدومينو التي ما إن يسقط أول قطعة منها تتابع سقوط وتداعي باقي القطع، فتربة الأستاذ الجامعي التي يغرس فيها فكره ويضع فيه بذرته هي الطالب، فإن غاب هذا الطالب تعطل الزرع، ولا نستطيع إغفال التأثر المادي الذي سيصيب هيئات التدريس في هذه الكليات مع قلة أعداد المتقدمين إليها، إنها حقا أزمة اقتصادية طاحنة.

٢- المناهج:

أ-بارقة أمل:

منذ أن بدأت أنامل أساتذة التربية في تسطير الخطط ووضع المناهج لإصلاح العملية التعليمية والمضي بها قدما إلى حيث ينبغي لها، وهم ينادون بضرورة إعادة صياغة للمناهج صياغة ليست صورية بنقل مناهج المراحل المتقدمة إلى التي قبلها، دون مراعاة إمكانات الطلاب واحتياجاتهم الفعلية والبيئة التي ينخرطون فيها، وما ينفعهم في التعامل مع مكونات تلك البيئة والاستفادة منها في رحلتهم الحياتية.

أقول هذا الكلام وأنا يعتصرني ألم مكتوم لما سمعت إحدى قريباتي وهي خريجة إحدى جامعاتنا، وقد دار بيننا حديث عائلي ومما أسرت لي به أنها كانت تظن أن تحت كل محطة وقود (بنزينة) بئر بترول، ربما لا تتمالك نفسك من الضحك، لكن سرعان ما تتبدد تلك الابتسامة حينما تعلم أنها تخرجت من كلية العلوم بتقدير جيد جدا، قطعا لا أجتزء الصورة ولا أعني أن كل خريجي جامعاتنا على هذا النحو، لكن السؤال الذي يهجم عليك الآن، ما الذي تعلمته في الجامعة، ولما لم ترتق هذه المناهج بعقلية هذه الفتاة؟ حيث تصورت آبار البترول متناثرة في أرجاء البلاد شرقًا وغربا، وطولاً وعرضا.

لماذا يحتاج أبناؤنا في تخصصات عديدة إلى معادلة الشهادات الجامعية حين يسافرون للعمل في بلدان شتى من الأرض؟ فيضطرون إلى دخول امتحانات مكلفة باهظة التكاليف؛ لأجل قبولهم في مهنهم في هذه البلدان، ولا أقبل أن يقال هناك بلاد أخري يفعل معها

مثلك تماما، سامحوني فلا أريد المقارنة بمن هو دوني في هذا الباب.

لقد نكأت كورونا جرحا غائرا، وإني لأرجو أن تكون المرحلة المقبلة فرصة لوضع الأقدام على الصياغة المثلى لمناهج تليق بما نأمل ونرجو، والذي أظنه أننا مضطرون لتخفيف المناهج الدراسية، وبالتالي فهذه فرصة لوضع تصور جديد للمناهج الدراسية على نحو يراعي الفروق الفردية بين الطلاب، هذه الفروق التي أهدرها القائمون على وضع المناهج والمقررات والخطط الدراسية، فليس كل طالب متمكنا في الفيزياء والرياضيات والكيمياء، فإذا كان عندنا بعض النابهين في هذه المواد، لكنهم ليس بذلك المستوى في اللغة العربية وغيرها من المواد التي نسميها أدبية، فالمفترض أن تتلقفهم–مبكرا جدا–أياد واعية بقيمتهم، مدركة كيف تستثمرهم، وتستخرج طاقاتهم وإمكاناتهم، في أمة تعاني وسط الأمم التي لا تعترف إلا بالأقوياء.

وعلى الجانب الآخر، إذا وجدنا لساناً مستقيما، وحسا مرهفا، لكنه دون المستوى في تلك المواد التي نطلق عليها علمية، فليس من العقل أن يكون مستقره في كلية من الكليات العلمية، إن أصدق تمثيل لهذه الغوغائية في وضع المناهج وما سيئول إليه أمر هؤلاء المساكين، هو قول النبي صلى الله عليه وسلم: "**إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**"[١]، إن ذلكَ إيذَان بهلاك عام، وليسَ في زَماننا الخوارزمي (٧٨١م–٨٤٧م)، أو الفارابي (٨٧٤م– ٩٥٠م) أو ابن الهيثم (٩٦٥م– ١٠٤٠م) ممن كانوا بارعين في علوم شتى علمية وأدبية، إذاً فلا بدَّ من أن تراعي مناهجنا هذه الفروق بين طلابنا، وأن تكون أزمة كورونا بداية واعية لإزالة ما ينبغي إزالته، وتبسيط المناهج تبسيطاً ليس مخلاً.

ومن المتوقع أن يحدث مع اختصار المناهج، إعطاء الفرصة أكثر وأكثر للطالب لكي يبحث عما يدعم دراسته، في مجلات علمية أو مقاطع مرئية أو صوتية لمتخصصين، فليس الأمر مجرد تحصيل معلومات للنجاح في الامتحان، بل توسيع للمدارك والأفهام، واستخراج للمواهب والقدرات، وهنا لا بدَّ للقائمين على العملية التعليمية ألا يتركوا أولادنا فريسة سهلة المنال لبائعي الضلالات على الشبكة العنكبوتية، فلا بدَّ أن تبين لهم الغث من السمين.

وكذلك من المأمول أن يكون للنشاط البحثي وتفاعل الطلاب أثناء العملية التعليمية تأثير في التقويم العام للطلاب، وأن يقل الاعتماد على الامتحان النهائي كوسيلة أساسية في الحكم على قدرات أبنائنا.

ب–قلق وترقب:

قد أشرت سابقًا إلى شئ لافت للانتباه لما فُتحت دور العبادة وانتشرت صور المصلين في المساجد، وقد التزموا بالتعليمات والاحترازات حرفيا مما لا تجده في كثير من الأماكن الأخرى، والذي أريد أن أنبه إليه أنه لا ينبغي إغفال أثر التدين العام للناس في الاستجابة الرائعة لما ينفعهم، والبعد عما يضرهم.

والذي دعاني لهذه الإشارة هو خشيتي من حدوث إهمال غير مقصود لمادة التربية الدينية غير المضافة للمجموع ابتداء، فكثير من الطلاب لا يهتم بها أثناء العام الدراسي، لكن وجود مدرس يقرأ شيئاً من القرآن الكريم أو من السنة النبوية يرفع بعض الجهل عن بعض الطلاب، ومع الاتجاه للتعليم عن بعد وتقليص

(١) صحيح البخاري: كتاب العلم، باب من سئل علما وهو مشتغل في حديثه، فأتم الحديث، ثم أجاب السائل، ح (٥٩)، ص ١٨.

أيام الدراسة يزداد قلقي على مستقبل هذه المادة، والعجيب أن عامة الناس يذهبون بأولادهم إلى المساجد في الصيف ليحفظوا شيئا من كلام الله تعالى، لكنهم في أيام الدراسة لا يأبهون لها، ربما لأنها ليست ذات قيمة في المجموع العام. فإذّا ما عدنا لمشهد المصلين في المساجد فلا بدَّ من إعادة النظر في التربية الدينية التي نريدها لأبنائنا، كما وكيفا.

ج–استعداد واجب:

ليس من المعقول أن نترك أولادنا هملاً لا يتعلمون من هذه المحن، ولا أن نتركهم لبائعي الوهم الذين لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة.

والذي نرجوه أن تَضمن المناهج الدراسية إعدادا طيبا للنشء عن هذه النكبات، وكيف هي خبرات الدول التي سبقتنا في هذا المضمار؟ وما ينبغي أن تكون عليه أخلاقهم وتصرفاتهم أثناء المحن التي تمر بها بلادهم، وأن يكونوا على قدر المسئولية في تحمل الشدائد، وألا يكونوا فريسة للشائعات ومروجيها، وألا يكونوا لاهين في مواطن البلاء، وأن يتعودوا الإيثار والفداء والإخلاص.

لقد أدمى قلوبنا جميعا تجمهر المواطنين فى قرية شبرا البهو بمحافظة الدقهلية –يوم الحادي عشر من إبريل ٢٠٢٠م– لمنع دفن جثة طبيبة توفيت بمستشفى العزل فى الإسماعيلية بعد إصابتها بفيروس كورونا، وقد كانت على خط النار في وجه العاصفة، إن هذا مما يندى له الجبين، ويدلك على مدى العبء والثقل الملقى على أكتاف من يضعون المناهج الدراسية، كيف ننتشل أمثال هؤلاء مما هم فيه من الجهل والأنانية؟

والفرصة مواتية الآن لإصلاح ما قد فسد، فهل من مجيب؟

٣–المتعلم:

كثيرة هي الخطوب والمحن التي يتعرض لها أبناؤنا وبناتنا، فالوالدان أحدهما أو كلاهما مشغول أشد الشغل بتوفير احتياجاته الأساسية، والتي بطبيعة الحال لا يشملها توجيهه علميا وتربويا إلا فيما ندر، ولغير خبرة ودراية، إنما هكذا كيفما يتراءى لهما، أضف إلى ذلك منظومة تعليمية تتعامل معه على طريقة فئران التجارب التي تترك البعض صرعى، وتصيب البعض الآخر بعاهات مستديمة لا دواء لها، ثم مدرس مشغول هو الآخر بتهيئة الدفتر ليكون جاهزا عند أول تفتيش إداري، ويتعامل بعضهم مع الطالب وكأنه ورقة نقدية لا بدَّ أن تدخل جيبه آخر الشهر كما يتعامل سائقو السيارات الأجرة والميروباص مع المواطنين في الطرقات، فتجد صراعا على (الزبون) الذي لا يراه السائق إلا ورقة نقدية هو الآخر، ولا يعبؤون بالطريق، ولا المارة، ولا بالقوانين، ولا بأي شيء، ثم بيئة اجتماعية هي الأخرى تنخر فيما تبقى من عظام هذا المسكين، ولا تترك له شيئا يستتر به في أجواء الجهل الباردة، وصواعق الإهمال المخيفة.

هذا في الوقت الذي نأمل من هذا الكائن المطحون أ ن يكون شيئا مذكورا في هذه الظروف القاتمة. ثم جاءت أزمة كورونا على غير ميعاد، لتعطينا فرصة أرجو ألا تكون الأخيرة لمحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه. نعم، فأنا أرى في الكورونا فرصة ومنحة ربانية لوضع شيء من الأمور في نصابها.

أ–إنزال الحقيبة المدرسية:

لا تفارقني صورة ولدي صاحب العشرة أعوام، وأنا فعليا أكاد أتشاجر معه لتخفيف الحمل عن كاهله، وتقليل عدد الكتب والكراسات من حقيبته المدرسية، وهو لا يتزحزح قيد أنملة، وقد أوضح لي وجهة نظره أن

الجدول المدرسي غير منضبط، حتى مدرس المادة الواحدة ربما يحلو له تغيير المتفق عليه في الجدول فجأة، فماذا يفعل التلميذ المسكين سوى أن يحمل نفسه ما لا يطيق؟ فيحمل كتبه وكراساته جميعا في مشهد بئيس حزين.

ومع أزمة كورونا لا شك سيختفي هذا المنظر السخيف الذي لا فائدة منه سوى للطبيب أو الصيدلي؛ حيث الكشف الطبي وشراء العلاج، وتضاف هذه التكاليف إلى فاتورة عائل الأسرة في نفقات تنوء بها الجبال، فمع اتجاه الدول لتقليص أيام الدراسة وساعتها، فسيجد الأولاد فرصة لنصب ظهورهم أخيرا.

ب- فرصة ذهبية سانحة:

تتبارى المناهج التعليمية في مدارسنا وجامعاتنا في إطفاء أية بادرة نبوغ قد تبدو هنا أو هناك؛ إذ تحرص على إيصال رسالة مفادها احفظ، ثم احفظ، ثم احفظ. قد يبدو هذا عند البعض منطقيا في الكليات النظرية، لكن في الكليات العملية الأمر يصبح أكثر غرابة، فكثير من الكليات العملية تأخذ المنحى نفسه؛ إذ تحرص هي الأخرى على إيصال نفس الرسالة، فلا تعطي الطالب فرصته لكي يعمل عقله، ومن أراد التأكد من كلامي، فعليه بزيارة خاطفة للمكتبات حول كلياتنا وجامعاتنا، فسيجد الإجابة حاضرة أمام عينيه، طلاب يبحثون عن ملخصات سهلة ليحفظوها.

والذي يظهر لي أننا مضطرون في زمن كورونا -والحمد لله- إلى الاستثمار في عقول أبنائنا؛ فننمي لديهم مهارة البحث والاستنباط إلى جوار الحفظ، وريدا رويدا يتنمى لديهم حب المعرفة والبحث، ويظهر ما كان مستترا تحت عباءة الحفظ من نبوغ وسعة أُفق، فيطلب من الطالب البحث وكتابة ما وصل إليه في بحثه، والتعرض لمن تكلموا في هذا الموضوع، والاستفادة من خبراتهم، وصياغة ذلك بأسلوبه، ووضع تصوراته الشخصية مهما كانت تافهة في نظره، ثم يوضع هذا كله أمام مدرسه للمناقشة الفردية والجماعية، إنه عصف الذهن أو عصف الأفكار أو التفاكر في صورة راقية.

وغزوة أحد مثال عملي لما طرحته آنفا، فالأمة مقبلة على حرب انتقامية من ألد أعدائها، والنبي صلى الله عليه وسلم يعرض الأمر على أصحابه، ويختار الكبار لزوم المدينة، ويفضل الشباب الخروج إلى العدو خارج المدينة، وينزل النبي صلى الله عليه وسلم على رغبتهم؛ أي قدر من الإعداد والإنشاء والتوجيه ورفع الهمم وتحمل العواقب هذا الذي فعله النبي المربي، والدرس العظيم الذي يلوح في الأفق أنه ما من أحد -رغم الهزيمة- وجه اللوم للشباب في اختيار الخروج وترك لزوم المدينة.

ج- ابحث لي عن غلام نجيب أُعلمه السحر:

العقل المبدع هو البداية، وهو من أكبر استثمارات الأمم النابهة التي لا تنتظر مائدة من السماء، وإنما تبحث بين أبنائها عمن يقودها ويكمل مسيرة نهضتها ويحفظها مما يراد ويُحاك لها، وهذا الصنف من الناس ليس بالكثير، كما، لكنه بالكيف أمة وحده.

فهل ما هو متوافر الآن من وسائل ومن فعاليات يعدُّ كافيا لتوفير بيئة تربوية تعليمية تعلمية تتيح الكشف عن العناصر الطلابية المبدعة، فضلاً عن المعلمين المبدعين؟

وهل مؤسساتنا التربوية تساعد الإنسان المتعلم على الارتقاء بنفسه، وإدارة وقته، وتحرير طاقته الكامنة، وقبل ذلك تخلصه من المفاهيم الخاطئة التي تكبله، وتقعده عن الانطلاق والعمل الفذ والمبدع؟

مع الأسف لا! فكلُّ شيء لدينا هو أقل مما هو ممكن، وأقل ما يجب.

يقولون: "**الحُكْمُ على الشَّيء فَرْعٌ عن تَصَوُّره**"، فكيف يمكن لنا أن نصور هذا الغَلام النجيب -أو قَل إن شئت المتعلم النجيب- الذي أقصده وأرجوه؟

حينما نطالع قصة أصحاب الأخدود نجد الساحر حريصا أشد الحرص على توريث السحر؛ إذ به قوام الملك على حسب تصوره، فطلب غلاما نجيبا يعلمه السحر، لكن الله عز وجل أراده غلاما نجيبا ينقذ هذه الأمة، ويدلها سبيل الرشاد.

وليس هذا بدعا من التفكير والتصور، فـ "بيليه" نجم البرازيل، و"ماردونا" و "ميسي" أسطورتا الأرجنتين لا يتكررون كثيرا، بل ربما يمر الجيل تلو الجيل بلا جديد، حتى أن مدربي كرة القدم يجوبون البلاد شرقا وغربا باحثين عن هذه المواهب الدفينة؛ فهي أغلى من الذهب عندهم.

وكذلك في فروع القتال المختلفة في الجيش، تجد مندوب القوات الخاصة والصاعقة والمظلات يفتش في المتقدمين للتجنيد باحثا عن صفات معينة دقيقة تصلح بعينها فيما سيوكل إليها من مهمات.

لقد أطلت التدليل عمدًا لأؤكد أنه ليس من سبيل لنهضة أمتنا إلا البحث عن ذلكم النموذج الفريد الذي تقوم به الأمم، وأن نبذل الغالي من أجل الوصول إليه، وضمه إلى جوار أمثاله من النماذج، وصونهم ورعايتهم في برامج اجتماعية وعلمية ومادية ورياضية ونفسية وكل ما هم في حاجة إليه، هذا هو الاستثمار الحقيقي الذي ينبغي أن نضع فيه كل جهودنا وطاقاتنا، وليس هذا بالأمر اليسير على الإطلاق، بل يجعلنا في حاجة ماسة إلى تضافر قلوب وعقول تحمل هم هذه الأمة في وجدانها وكيانها.

إن رأس المال الجديد الذي أخذ في التكون عبر العقد الحالي لا يعتمد –على نحو جوهري– على سعة الأراضي، ولا على غزارة الأنهار، ولا على الثروات المادية، وإنما على ما لدى الأمة –وكذلك الفرد– من أفكار ومفاهيم ودوافع وأهداف ونظم ومؤسسات تعليمية ممتازة وهياكل تقنية[١].

ومن جانب آخر، فقد كشفت ورقة خايمي سافيدرا بعنوان: **"التعليم في زمن فيروس كورونا: التحديات والفرص"**، عن حتمية الإبقاء على حماس الأبناء للمشاركة، ولا سيما الشباب في المرحلة الثانوية، فلا تزال معدلات التسرب مرتفعة جداً في العديد من البلدان، ومن شأن انقطاعهم عن التعلُّم لمدة طويلة أن يزيدها، والطالب لا يذهب إلى المدرسة لتعلم الرياضيات والعلوم وحسب، ولكنه يذهب كذلك ليقيم علاقات اجتماعية ويتعامل مع أقرانه، ويتعلم كيف يكون مواطناً، ويطور من مهاراته الاجتماعية. ولذا من الضروري الحفاظ على التواصل مع المدرسة بأي وسيلة لازمة، وبالنسبة لجميع الطلاب يعتبر ذلك وقتا لتنمية المهارات الاجتماعية الوجدانية، وتعلُّم المزيد حول كيفية الإسهام كمواطنين في تطوير مجتمعاتهم، وإن كان دور الوالدين والأسرة، بالغ الأهمية على الدوام، فإنه أشدّ أهمية في ذلك الصدد، ولذا، يجب توجيه قدر كبير من العون الذي تقدمه وزارات التعليم عبر وسائط الإعلام الجماهيري، إلى الأهل أيضاً، فينبغي الاستفادة من الرسائل الموجهة عبر الإذاعة والتلفزيون والرسائل النصية القصيرة، في تزويدهم بالنصائح والمشورة التي تعينهم على تقديم دعم أفضل لأبنائهم[٢].

فإذا ما قررت الهيئات التعليمية الاكتفاء بيومين دراسيين، فذلك ما كنا نبغ، فليكونا هما الزاد في البحث عن بغيتنا، والوصول إلى هدفنا.

فماذا بعد؟

(١) عبد الكريم بكار: من أجل النجاح، دار السـلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ١٣.

(٢) خايمي سافيدرا: "التعليم في زمن فيروس كورونا: التحديات والفرص"، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/sQWw1

لا بدَّ من الاستعداد –من الآن– للدمج بين التعليم المباشر والتعليم الافتراضي؛ لتقديم مخرجات عالية الجودة، وفى هذا السياق فإن استراتيجيات التعليم المدمج تتطلب تطور شبكة الإنترنت وما توفره من وسائل مثل: بنك المعرفة، وخدمة الواتس، والمدونات والفيديوهات، والتسجيلات الصوتية، وكذا الاهتمام بدور الإذاعة والتليفزيون؛ لأن الإذاعة تصل إلى العدد الأكبر من الطلاب خاصة الذين يعيشون فى أطراف البلاد فى شمال وجنوب سيناء ومطروح وحلايب وشلاتين وغيرهم من المناطق النائية، وفى هذه الحالة يكون من المفروض على محطات الإذاعة والتليفزيون أن تدرك الدور المحوري المنوط بها، وتدفع باتجاه تحسين جودة برامجها الموجهة لخدمة العملية التعليمية ، وفضلاً عن ذلك، فلا بدَّ من العمل مع شركات الاتصالات لتطبيق سياسات تيسر على الطلاب تنزيل مواد التعلُّم على هواتفهم المحمولة بالمجان أو بأسعار رمزية، وتحديث البنية التحتية التكنولوجية، وتوصيل شبكة الإنترنت وشبكات المحمول إلى جميع المدن والقرى وخاصة فى جنوب البلاد وأطرافها وتمكين المعلمين من المهارات الرقمية، وندربهم على مهارات التعليم من بعد، وتنفيذ التحول الرقمي فى المناهج وأساليب التقويم [(١)].

كما أن الأزمة التي يمر بها التعليم في ظل فيروس كورونا تتطلب من كل الدول أن يكون لديها نظام تعليمي إلكتروني يتطور مع ما يشهد العالم من تطور تكنولوجي مستمر معتمدا على ما يوفره هذا التطور من إمكانات تفيد العملية التعليمية شأنها في ذلك شأن كل القطاعات الموجودة في المجتمع، هذا النظام تتم إتاحته في الأوقات العادية كأداة مساعدة، وكأداة أساسية في أوقات الأزمات والكوارث المناخية والطبيعية أو الصحية التي يصعب معها الاعتماد على التعليم النظامي التقليدي [(٢)].

*****

(١) الهلالي الشـــربيني: "التعليم قبل الجامعي في ظل جائحة كورونا: بين التحـديات والاســـتراتيجيـات"، البوابـة نيوز، ٢٠٢٠/٦/٢٢م، متـــاح عـــبر الـــرابـــط الـــتـــالي: https://cutt.us/xeb4H

(٢) جمال علي خليل الدهشـــان: "أزمة التعليم والتعلم في ظل كورونا : الأفق و التحـديات"، متـاح عبر الرابط التـالي: https://cutt.us/PhWHw



عن الخوف الذي (لا) يوحدنا!
كورونا والمجتمعات الافتراضية والحداثة

د. شريف عبد الرحمن(*)

البداية

منذ بدأت أزمة كورونا بالانتشار أواخر العام الماضي[١]، بدا واضحا أن المجتمعات الافتراضية ستكون في قلب تلك الأزمة، فقد كانت منصات التواصل الاجتماعي منابر أساسية للتعبير عن المخاوف الجماعية المتعلقة بانتشار الجائحة. وكانت حالة الهلع مما ستؤول إليه الأمور محفزة للعديد من النقاشات في الواقع الافتراضي. يطرح ما سبق العديد من التساؤلات حول العلاقة بين العالمين الواقعي والافتراضي، ودور كل منهما إزاء محاولات الأفراد تحقيق أمنهم الشخصي والجماعي، والسياقات التي نشأ فيها الافتراضي والتي عكست جانبا من هذه المحاولات، والكيفية التي تحول من خلالها الافتراضي، وخصوصا في ظل الجائحة، من بديل محتمل إلى خيار ضروري.

هذه التساؤلات وغيرها سيتم التطرق لها في هذه الورقة من خلال تتبع العلاقة بين الواقعي والافتراضي عبر محطات سريعة تعرض في قسمها الأول (١-٥) للتطور التاريخي لفكرة **المجتمعات الافتراضية**، في تقاطعها مع أفكار **الحداثة** و**السلطة** و**الثقافة المضادة** و**التقانة الرقمية**، ثم تعرض في قسمها الثاني (٦-١٠) للطريقة التي تفاعلت من خلالها الظاهرة الافتراضية مع **جائحة كورونا**، والكيفية التي ظهرت من خلالها **كبديل** للمجتمعات الواقعية **المتعثرة**، وانتهاء باستعراض صعوبات التغلب على الخوف وتحقيق الأمن من خلال الطريقة التي ترادف الأخير بمفهوم **البقاء**، وهي الطريقة التي يبدو أنها مازالت تسيطر على اتجاهات **الوعي** سواء في المجتمعات الواقعية أو الافتراضية.

(١) الحداثة

تتعدد تعريفات الحداثة ولكنها تتعلق بشكل أو بآخر بالرغبة في تعظيم القدرة على التحكم العقلاني في الواقع المادي بهدف التحرر من الضعف الإنساني. كان المشروع الحداثي قد قطع على نفسه وعودا كثيرة، من أبرزها الوعد باستئصال الخوف وإخضاعه لإرادة وإدارة عقلانيتين. فالجماعة التي ترهب الفرد وتمارس سيطرتها عليه سيواجهها بالفردية، والدين الذي يخوفه من عواقب أفعاله سيتم مواجهته بالعلمانية، أما ضربات الطبيعة والمرض والموت فسيتم مواجهتها بالعلم. وكانت أبرز أدوات المشروع الحداثي في ذلك هي التقانة والنظم القانونية والمؤسسات العقلانية، وفي مقدمتها الدولة الحديثة[٢].

ولكن في غمار مواجهتها لهذه المخاوف تسببت الحداثة في مفاقمتها بمعنى من المعاني. فهي من ناحية أفقدت الإنسان القدرة على المقاومة عندما جردته من كافة شبكات التضامن الجماعي التي كانت في الماضي تمده بوسائل الضبط الفعالة أو بالمهارات اللازمة لمواجهة المخاوف والمخاطر[٣]. ومن ناحية أخرى ساهمت عمليا في مفاقمة الخوف من الفقر والجوع والمرض.. إلخ، من

(*) مدرس بقسم الحوسبة الاجتماعية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، بجامعة القاهرة.

(١) تذهب العديد من الدراســـات إلى أن أول ظهور للمرض يعود إلى ديسمبر ٢٠١٩، انظر: بوعلام غبشي، تاريخ ظهور فيروس كورونا، *France24*، ٢٠٢٠/٠٥/٠٧، على الرابط: https://bit.ly/3lh5kx5

(٢) انظر: هبة رءوف عزت، تقديم، في زيجمونت باومان، الخوف السائل، ترجمة: حجاج أبو بكر (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٧)، ص ١١.

(٣) المرجع السابق.

خلال انتهاجها منهجا غير متوازن في مواجهة هذه المشكلات، فالانحياز لصالح الرأسمالية والتصنيع والتقانة الحديثة أدى في كثير من الأحيان إلى تهميش المضمون الأخلاقي، وتدمير البيئة، وانتشار الفقر، واستغلال النساء والأطفال، وعدم المبالاة بالتفكك الاجتماعي. كما امتدت يد الإنسان الحداثي للعبث في الطبيعة، واقترب أو تخطى الحدود التي تفصل عالمه عن الحياة البرية، وقام بالعبث غير المسؤول بالفيروسات والجراثيم، لتوفير أسلحة بيولوجية يدمر بها أقرانه من البشر(١).

كل ما سبق، وغيره الكثير، أفرز إنسانا قلقا، مغتربا، متشظيا، يحيا بنفسه ولنفسه، ويستغني أو يتظاهر بالاستغناء عن الآخرين، الذين صاروا بالنسبة له جحيما، يتعين تحاشيهم وتجنبهم، كما يتعين عدم الانشغال بمصائرهم. بعبارة أخرى تراجع نموذج "الإنسان" من حيث هو ذات اجتماعية لها إرادة أخلاقية مسئولة، واستبقي نموذج "الفرد" الذي يمكن التحكم فيه وتوجيهه باتجاه المصلحة والنفع العام، عبر قولبته وتشكيله وصناعة إدراكه ووعيه.

(٢) الرفض

فشل الحداثة في تحقيق وعودها بالأمن الكامل ثم إسهامها في مضاعفة إحساس الفرد بالعزلة والخوف، دفع البعض باتجاه التفكير في تكوين مجتمعات بديلة للمجتمعات الحداثية (بعد حداثية)، وكان من أشهر من نحا هذا المنحى، الحركات الاجتماعية التي أطلقت شرارة مظاهرات الطلبة في الستينيات من القرن الفائت، والتي عبرت عن اتجاه ناقم على المجتمع الحداثي وقيمه ونظمه ومؤسساته، وذلك في إطار من ثقافة الرفض أو الثقافة المضادة counterculture التي اعتبرت أن الحداثة هي مجرد مشروع للاضطهاد المنظم، أكثر منها إطارا لحل مشكلات الواقع(٢).

ولدت "الثقافة المضادة" كحركة معارضة، في كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وامتدت منهما إلى أرجاء العالم، على شكل موجات من الاحتجاجات المناهضة للعسكرة والأبوية وكافة أشكال السلطة(٣). وكانت هذه الحركات تتكون بشكل رئيسي من شباب الطبقة الوسطى ممن رفعوا شعارات تطالب بعالم تسوده الأخوة والمساواة والحرية، وتنبذ قيم الاستلاب والاستهلاك وسياسات الحرب والإفقار والخوف. وقاد هؤلاء تمردا على المؤسسات التي غذت قرارات الحرب، وعلى القيم المجتمعية الكامنة خلفها، والتي نظروا إليها على أنها قيم فاسدة ورجعية، معترضين لكون صوتهم لا يسمع في إطار هذه المؤسسات، ولكون أدوارهم فيها لا تتناسب مع طموحاتهم، ولكونهم لا يملكون وسائل للتأثير في عمليات صنع واتخاذ القرار التي تمس مصائرهم ومصائر الكثيرين عبر العالم. كل هذا جعلهم يتوقون إلى عالم جديد ومجتمعات بديلة يشعرون فيها بالتمكين المرادف لعدم الاستبعاد أو الخضوع لسلطة أعلى(٤).

---

(١) وائل حلاق، الدولة المستحيلة: الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، ترجمة: عمرو عثمان (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤). فخري صالح، اخفاق فلسفي في فهم ما تعنيه جائحة كورونا (كوفيد-١٩)، تكلُّس النظرية وهذيان ما بعد الحداثة، موقع قنطرة، على الرابط: https://bit.ly/33BFmOH

(2) Gina Misiroglu, *American Countercultures: An Encyclopedia of Nonconformists, Alternative Lifestyles, and Radical Ideas in U.S. History* (NY: Sharpe Reference, 2013).

(٣) وقد اشتهر من بين أطياف هذا التيار جماعات متعددة مثل الهيبي Hippies، والبانك Punk، والخطاب الحر Free Speech والحركات المناهضة للحرب Anti-War Movements

(4) Fred Turner , *From Counterculture to Cyberculture : Stewart Brand, the Whole Earth Network, and the Rise of Digital Utopianism* (Chicago: The

وقد دعا هؤلاء إلى تبني تكوينات جماعية تعكس شكل المجتمع الحر الذي يرغبون في تحقيقه. فبدلاً من المجتمعات الهرمية، التي تنحرف دائما نحو الاستبداد والأبوية، دعا هؤلاء إلى بناء كوميونات، communes لا يكون فيها ثمة مجال لممارسة السلطة، وإنما فقط تفاعل مباشر بين أنداد. فمن وجهة نظرهم إذا عاش البشر وفقًا للنظام الطبيعي، فسيحدث للمجتمع نفس الشيء الذي حدث للطبيعة؛ أي سيتوازن(١).

وقد أخذ احتجاج أنصار الثقافة المضادة على التقاليد والمؤسسات والقيم المجتمعية شكلاً صارخا تمثل في الملابس الغريبة، الجنوح الجنسي، الموسيقى الصاخبة، العقاقير المخدرة، والسلوكيات الشاذة. وكان الهدف من كل ما سبق إصابة المجتمع بنوع من الصدمة في كل ما استقر عليه، فكل ما يمثل نوعا من العادة أو التقليد، وكل ما يمثل السلطة الأبوية؛ (الحكومة، المؤسسة الدينية، الأسرة) أصبح في مرمى نيران أنصار ثقافة الرفض بوصفه تعبيرا عن أبنية اجتماعية تحمل بداخلها معنى السيطرة والتحكم في الآخرين.

(٣) التقانة

في البداية مثلت التقانة بالنسبة لأنصار الثقافة المضادة مرادفا لكل القيم السلبية التي يعادونها مثل البيروقراطية، المركزية، الهندسة الاجتماعية، الرشادة القسرية. ولهذا تعرضت التقانة بشكل عام وتقانة الحوسبة بشكل خاص لهجومهم وانتقادهم. وفي هذا الصدد أكد لويس مامفورد في كتابه "أسطورة الآلة" أن الحاسوب الرقمي ما أنشئ إلا لتحجيم الحرية الإنسانية، وندد بالتقانيين الذين يعكفون على صنع هذه الآلات الخارقة التي تقيد من حرية الفرد(٢).

ولكن خلال عقد واحد تغيرت نظرة المحتجين لهذا النوع من التقانة، وتحول موقفهم من الحوسبة من الرفض بوصفها أداة للسيطرة والتحكم، إلى الإعجاب بوصفها رمزا للتعبير عن التحرر الفردي(٣). وظهرت قناعة بأن التقانة الجديدة يمكن أن تؤدي إلى عالم أفضل، وأن التقدم التقاني ضروري لتحويل المبادئ التحررية إلى حقائق اجتماعية، وأن تلاقي منتجات التقانة مثل الحوسبة والاتصالات السلكية واللاسلكية مع وسائل التواصل والإعلام مع الإنسان الفرد هو السبيل لتحقيق يوتوبيا رقمية يصبح بمقدور الجميع فيها التعبير عن آرائهم دون خوف، وبلوغ مجتمع بديل للمجتمع الهرمي التقليدي، يتساوى جميع أفراده ويتخلصون من البيروقراطية ومن الشعور بالاغتراب(٤).

وقد مثلت التقانة بالنسبة لهذا التيار موردا لم يتم احتكاره ككل شيء آخر، ولم يتم السيطرة عليه مركزيا، فهو بطبيعته مورد حر، ومن ثم يمكن للأفراد المهمشين، والذين لا يملكون شيئا في إطار المجتمع التقليدي، الذي استنفدت جميع موارده، أو سبقهم إليها ذوو النفوذ، أن يعلنوا سيادتهم عليه، كما يمكن أن يكون أداة من أدوات التغلب على الخوف. وفي إطار هذا التصور ولد مصطلح

University of Chicago Press, *2006*), p. 29.

(1) Jason Rhode, The religious creed of Silicon Valley, *Salon*, APRIL 1, 2018, at: https://bit.ly/3iAhU8Y

(2) Lewis Mumford, *The Myth of the Machine: Technics and Human Development* (NY: Harcourt, 1967).

(3) John Markoff, *What the Dormouse Said: How the 60s Counterculture Shaped the Personal Computer* (NY: Viking Adult, 2005), p. 4.

(4) Richard Barbrook and Andy Cameron, The Californian Ideology, *Science as Culture*, vol. 6, no. 1 (1996), pp. 44-72.

الـ ecotechnics، والذي يصير الفرد بموجبه جزءا من نظام أفقي system، وليس جزءا من تراتبية هرمية Hierarchy[١].

وقد أصبح التيار الذي يتبنى الحل التقاني كوسيلة للتحرر تيارا غالبا بين أنصار ثقافة الرفض، وقد اعتبر هؤلاء أن تغيير الوعي من خلال الإمكانات التقانية مدخل مناسب للتغيير الاجتماعي، فإذا كانت ثقافة الحداثة السائدة عالميا هي ثقافة الصراع، فإن ثقافة عالمهم البديل ستكون ثقافة الوئام. وإذا نشرت الدول أنظمة التسلح الضخمة من أجل تدمير الشعوب، فسيقوم هؤلاء بتبني التقانات لجمع الناس مع بعضهم البعض والسماح لهم بممارسة إنسانيتهم المشتركة. وأخيرا، إذا اشترطت البيروقراطيات الرسمية أن يصبح الأفراد معزولين ومنقسمين، فإن تجربة العمل الجماعي المستفيدة من التقانة سوف تسمح لهم بأن يصبحوا جزءا من مجتمع واحد مرة أخرى[٢].

تحول رهان أنصار الثقافة المضادة إذن إلى التقانة، وتحديدا إلى تقانة الحوسبة، التي مثلت شبكاتها لاحقا وسيلة لاتصال أعضاء الكوميونات ببعضهم البعض، ووصلهم بالعالم في ذات الوقت، الأمر الذي ساعدهم على توفير سبل العيش المشترك فيما بينهم، من دون الخضوع للأشكال السياسية التقليدية برقابتها الشديدة على أفعال الأفراد. وهكذا مثلت التقانة بالنسبة لأنصار الثقافة المضادة مصدرا لنوع جديد من السلوك والتفكير، بل ولنوع معين من الأخلاقيات.

(٤) الافتراضي

بعد تطور تقانات الاتصالات والمعلومات (ICT)،[٣] وظهور الانترنت، أصبح الطريق ممهدا أمام أصحاب الأفكار المتشابهة للعثور على بعضهم البعض، والقفز على قيود المجتمع المادي، وتخطي الحواجز التي تضعها الأنظمة السياسية والنظم القانونية والترتيبات المؤسسية، فيما مثل نواة لما عرف لاحقا باسم المجتمعات الافتراضية[٤]، المجتمعات الافتراضية، بهذا المعنى، هي امتداد موضوعي لثقافة الرفض من حيث هي احتجاج على المنظومة الحداثية، التي ثبت بتراكم حالات الشذوذ أنها لم تنجح في القضاء على الخوف، ونجحت فقط في تكبيل الأفراد بالقواعد والنظم العقلانية التي منعت حركتهم، وقيدت إبداعهم، وخوفتهم من كل عمل يقع خارج المنظومة القانونية والمؤسسية للدولة الحديثة. ولهذا سعت هذه المجتمعات للانعتاق من القيود والتحرر من الخوف من خلال البحث عن المشابهين، والاحتماء بهم، والتضامن معهم، في محاولة لتحقيق نوع من الاستقرار الداخلي من دون الحاجة إلى قرارات مركزية أو سلطة هرمية[٥].

ولم يقتصر سعي الحركات الاجتماعية الافتراضية على محاولة الاستقلال عن فضاءات السلطة، وإنما حاولت في أحيان أخرى مقاومتها وتحدى قواعدها،

(1) John Michael Greer, The Ecotechnic Future: Envisioning a Post-Peak World (Gabriola: New Society Publishers, 2009).

(2) Fred Turner, Op. Cit., p. 4.

(3) Information and Communication Technology.

(4) Athina A. Lazakidou, ed. *Virtual Communities, Social Networks and Collaboration*, vol. 15 (New York: Springer Science & Business Media, 2012). Mia Consalvo, and Charles Ess, eds. *The handbook of internet studies*. vol. 14 (John Wiley & Sons, 2011), p. 314.

(٥) انظر: جوهر الجموسي، الافتراضي والثورة، مكانة الانترنت في نشـأة مجتمع مدني عربي (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٦)، ص. ١٣، كمال عبد اللطيف، المعرفي، الأيديولوجي، الشـبكي: تقاطعات ورهانات (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢). ص. ٥٩.

فعندما ولدت فكرة المجتمعات الافتراضية لدى أنصار ثقافة الرفض كانت تسعى لتحقيق تغييرات اجتماعية/سياسية، تضمنت تغيير علاقات القوة بين مكونات المجتمع وأجهزة السلطة [1].

(٥) السلطة

مثلت "السلطة/الدولة" الفاعل الأساسي في إطار منظومة الحداثة، والتجلي الفعلي لمقولاتها عن الرشادة والمؤسسية والتنظيم القانوني، وقد حملت في طياتها نفس الحذر الحداثي من كل ما هو خارج منظومة الضبط والتحكم، أي من كل ما لا يمكن مراقبته وتوجيهه وحمله على القبول بالإرادة الرسمية.

من هنا نشأت كراهية متبادلة بين الرسمي من جهة والافتراضي من جهة أخرى، وكان أحد دواعي هذه الكراهية أن الافتراضي يطرح مجالا عاما بديلا لذلك الذي تسمح به السلطة، يقع خارج حدود قدرتها على التأثير، فحتى لو كانت التفاعلات الافتراضية تقع أو تتم داخل حدود منظومة الرسمي، فإنها تمثل بمعنى من المعاني ظاهرة خارجة عن قدرة منظومة التحكم على الضبط والمراقبة الكاملة.

من ناحية أخرى كان الافتراضي يلعب دوما دور المنصة الجاهزة لنقد الرسمي وتوجيه الاتهامات له والتشكيك في قراراته وقدراته وإنجازاته، اتساقا مع كونه امتدادا لثقافة الرفض التي لم تكفر فقط بالرسمي، وإنما اتهمته بأنه مسؤول بشكل أو بآخر عن المآسي التي لحقت بالمجتمع بفعل قراراته السياسية والعسكرية. هذه الاعتبارات هيأت الرسمي لمعاملة المجتمع الافتراضي كعدو. ولم يقتصر التوجس الرسمي على القراصنة الرقميين، والمتسللين، ومسربي المعلومات فقط، وإنما امتد ليطال الناشطين الرقميين، والمؤثرين، وصناع المحتوى أيا ما كانت طبيعة ما يقدمونه.

بهذه الحيثيات صار الافتراضي هدفا مستمرا لمحاولات التقنين، والتنظيم، والتحكم، وبدأت محاولات دؤوبة لقولبته في الأطر التي تعمل على وفقها منصات الإعلام التقليدية، فاعتبر صناع المحتوى مثلهم مثل الصحفيين، واعتبرت صفحات التواصل الاجتماعي مثل صفحات الجرائد. ورغم ذلك، يظل الافتراضي بمثابة مشكلة مستمرة للرسمي، لأن محتواه يقبل دائما إعادة التشكيل، على نحو يتخطى المحاصرة القانونية، ويخلق لنفسه مساحات جديدة من التأثير.

(٦) الجائحة

مثلت الجائحة تحديا مزدوجا لكل من المشروع الحداثي، بوصفها خللا في منظومة الضبط والتحكم والتوقع، وكذا للمجتمع الافتراضي الذي اعتاد أن يكون له عالمه الخاص وأهدافه المغايرة للمجتمع الواقعي والرسمي، فإذا به بفعل الجائحة يصبح مقصدا للجميع، حتى أولئك الذين اعتادوا مهاجمته، أو لم يؤمنوا بأنه يصلح بديلا للواقع. وقد لجأ الكثيرون إلى الافتراضي لأنهم فقدوا تقنيات الجماعة والترابط، ولأن تقنيات الحداثة لم تغن عنهم شيئا في مواجهة الجائحة، ففي مقابل العزلة الحداثية، التي عمقتها سياسات التباعد الاجتماعي، وفر العالم الافتراضي الفرصة لتقارب اجتماعي من خلال وسيط شبكي، صحيح أنه تقارب بين أشخاص لا يعرف بعضهم بعضاً غالبا، ولكن في إطار الجوائح تصبح الرغبة في الحصول على الدعم أقوى من القلق النابع من التواصل مع مجهولين.

انعكس ذلك على صورة نشاط استثنائي للمجتمعات الافتراضية، تحولت بموجبه إلى ملاذ آمن. فبحكم طول المدّة الزمنية للحجر الصحي، وما نَجم عنه من تباعُد اجتماعيّ، تحوَّل الافتراضي إلى واقع اضطراري، وبيئة موازية وليس مجرد بيئة بديلة للمجتمعات المادية. وبعد أن كان الانخراطُ في

(1) Fred Turner, Op. Cit., p. 35.

الافتراضي قبل زمن الجائحة اختياراً، تُمليه إما ضرورة العمل أو الرغبة في التجريب، فإنّه مع الوضعية الاجتماعية المستجدّة تحوَّل إلى ضروري، وإلزامي، بحيث لم يعد للأفراد رفاهية المفاضلة بينه وبين غيره[١].

وقد خفف التواصل الافتراضي بالفعل من صعوبة العزلة الفردية. وأصبحت الكثير من الحلول التقانية التي كانت في السابق عرضة للانتقاد الشديد، ملجأ يشعر فيه الأفراد بالأمان[٢]. وفي هذه الأثناء حدثت فورة محمومة من تبادل المعلومات عبر الافتراضي، حتى اضحى استهلاك المعلومات طقسا يوميا، سواء للحصول على اليقين المفقود، أو حتى لتعزيز القلق والتوتر، فالأمر الثابت تمثل في سعي الجميع للحصول على حصة معلوماتية، تقرب الفرد مما يشبهه، وتؤكد له أن هناك آخرون يشاركونه قلقه وخوفه وأمله.

وبتحول الافتراضي إلى بديل ضروري للواقعي، انتقلت إليه نفس التركيبة البشرية والتوزيعة السلوكية الموجودة في الواقع، فالمقتنعين بنظريات المؤامرة، والمشددين على أهمية التثبت من المعلومة، والهاربين من الحقيقة، والساخرين من كل ما يجري حولهم، ومن الجائحة نفسها بطبيعة الحال، كل هؤلاء انعكسوا على الافتراضي، حتى اصطبغ بصبغتهم وعكس خصائصهم. أما أغرب النتائج التي ترتبت على الجائحة فتمثلت في أن "الرسمي" نفسه أصبح طرفا في المجتمع الافتراضي ولاعبا أساسيا من لاعبيه. فأصبحت هناك صفحات للحكومات والمسئولين، وبدأ السياسيون في ممارسة عملية إدارة الدولة ومؤسساتها عبر صفحات التواصل الاجتماعي، كما بدأ الإعلاميون تقديم موادهم الإعلامية عبر منصات طالما حذروا من الالتفاف حولها أو الثقة في محتواها، وبدأ التواصل الرسمي مع المواطنين يأخذ شكلاً نظاميا عبر المواقع التي كانت توصف من قبل بأنها أدوات لحروب الجيل الرابع أو الخامس. حتى أضحى الافتراضي بموجب الجائحة بيئة طبيعية للرسميين وليس فقط للرافضين أو الهاربين من الواقع المادي[٣].

صحيح أن الحضور الرسمي على المنصات الافتراضية سبق الجائحة إلا أنه تأكد بعدها، وكان الحضور الرسمي الأبرز في مجال العالم الافتراضي، هو الحضور الرسمي للمؤسسات التعليمية، فبعد الإغلاق الكامل أو الجزئي للعديد من المدارس والجامعات، وجدت معظم الدول نفسها مُجبرة على التعامل مع البديل التقاني في التعليم من أجل إنقاذ برامجها الدراسية، باعتماد أشكال التعليم عن بعد. وقد كان تواضع أو افتقاد البنية التقانية التي تسمح بتطبيق هذه الأشكال التعليمية في العديد من الدول، عنصر ضغط على هذه الدول من أجل مواجهة الجائحة من خلال منصّات تعليميّة مجّانية، أو باستخدام تطبيقات تسمح بمُشاركة المعلومات بين أفراد عدّة، أو، وهو الأهم في حالتنا، من خلال اللّجوء إلى مواقع التواصل الاجتماعي والواقع الافتراضي[٤].

(٧) التعثر

أظهر الرسمي حالة من التعثر في مواجهة الجائحة، على تفاوت في الدرجة – وليس المضمون – بين أنظمة الدول المتقدمة وأنظمة الدول النامية، حيث تبين ألا حلول جاهزة، وأن ثمة مفاجآت يمكن أن تخرج عن ميكانزمات عمل المنظومات الرسمية، وعن قدرتها على الرد المباشر، فلا توجد بروتوكولات للتعامل مع المرض، ولا سياسات اجتماعية بحجم التحدي المفاجئ، وكشفت الجائحة عن ثغرات في الأنظمة الصحية لمعظم الدول، وبدأت العديد من الأنظمة في تبني السردية

---

(١) انظر: زهور كرام، التكنولوجيا وسيولة كورونا، مؤسسة الفكر العربي، ٢٢ مايو ٢٠٢٠، على الرابط: https://bit.ly/2GGaDHh

(٢) التكنولوجيا في زمن كورونا، DW، ٢٠٢٠/٠٣/٠٨، على الرابط: https://bit.ly/36zjsh4

(٣) انظر: زهور إكرام، مرجع سابق.

(٤) المرجع السابق.

الأخلاقية للتغطية على عجزها البنيوي[١]. كما أصبح واضحا أ ن سياسات الحظر تعكس تخبطاً واضحاً، فمن حيث أريد تنظيم التباعد الاجتماعي، تكثفت حالات الاختلاط في الفترات التي سمح فيها باستئناف التفاعل، على نحو خرج بالتباعد في كثير من الأحيان عن معناه أو مقصوده.

من ناحية أخرى أجبرت الجائحة كثيرا من الأنظمة الحداثية على التنصل من مقولات ومفاهيم طالما ألحت عليها، مثل مفهوم الحقوق الأساسية، الذي أشاعه عصر التنوير وصادقت عليه المؤسسات الحداثية الكبرى. ففي العديد من الدول الكبرى، ترِك كبار السن يموتون دون مد يد العون لهم، بعدما شارفت الأنظمة الصحية هناك على الانهيار، وصار من الصعب توفير أجهزة مساعدة على التنفس لكل المرضى. ولكم بدا هذا مأساوياً وصادما في الوقت ذاته، فقد أظهرت الجائحة الجانب الدارويني في المجتمع الحداثي، الذي لا يبدو أنه يؤمن على وجه الحقيقة بالحق المتساوي في الحياة لكل إنسان، مهما كان عرقه أو طبقته أو ديانته، أو معتقده؛ والأهم، مهما كانت فئته العمرية[٢].

ومع الحملات التي حثت الأفراد على العزلة الاجتماعية، والتي بدت وكأنها تجسيد للحظة الحداثية النموذجية، التي يقف فيها الفرد منفردا ووحيدا إزاء العالم، لم يبد الأمر –بالنسبة لكثيرين– على أنه مما يستحق الاحتفاء، حيث تبين أن روبنسن كروزو المعاصر عاجز تماما عن أن يستمر في الحياة بمفرده، لأن المنظومة الاجتماعية التي صار عليه أن يتأقلم بداخلها، صيغت وفق منطق صارم لتقسيم العمل، ولم تصمم على نحو يحتمل أن يظل المرء وحيدا أو مستغنيا بنفسه عن غيره.

وعلى الرغم من أن البقاء في المنزل، والعمل من المنزل، والابتعاد عن المجتمع، مثلت أحلاما محرمة في إطار المجتمع الحداثي، إلا أن تحققها بالطريقة التي سادت أثناء الجائحة، لم يترجم إلى حالة الرضى المتصورة. فالسلام الفردي، تحول إلى نوع من الوحشة، وتحول البقاء في المنزل وساعات حظر التجوال الطويلة إلى نوع من الحبس الانفرادي، فاقم الإحساس بالقلق.

(٨) البديل

يذهب البعض إلى أننا محظوظون لأننا نواجه الجائحة وتوابعها، من عزلة وتباعد اجتماعيين، في عصر تساعدنا فيه التقانة على التقارب مع الآخرين افتراضيا، بعد أن انقطعت بيننا سبل التواصل ماديا. فقد نجح الافتراضي وفقا لهؤلاء فيما فشلت فيه الكوميونات قديما، أي في خلق مجتمعات متماسكة، وقادرة على الانتظام الذاتي، من دون الحاجة لتوجيه السلطة وإدارتها. ولكن الثابت أنه عندما تتباعد المسافات، فإن أنماط التواصل التقاني هذه لا يمكن أن تحل محل التواصل وجها لوجه، ولا يمكن أن تمثل آليات بديلة للتقارب الاجتماعي[٣].

صحيح أن التواصل عبر الواقع الافتراضي أفضل بكثير من عدم التواصل، إلا أنه لا يمكن أن يعوض غياب التفاعل الاجتماعي، بما ينطوي عليه من مزايا نفسية. إذ تتكون لدى الأفراد حالة من الاتزان النفسي والعاطفي في أثناء الممارسات والأنشطة الجماعية، وكما يقول ماريو سمول، عالم الاجتماع في جامعة هارفارد إن التفاعلات الجماعية تضخم الإحساس بشكل كبير بالنسبة للفرد، كما تعمل أيضا على تعزيز فكرة أن الفرد

---

(١) انظر: ساري حنفي، عالم ما بعد كورونا: بعض الرهانات الاجتماعية، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ١٢٤، خريف ٢٠٢٠ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية).

(٢) فخري صالح، اخفاق فلسفي في فهم ما تعنيه جائحة كورونا (كوفيد-١٩)، تكلُّس النظرية وهذيان ما بعد الحداثة، موقع قنطرة، على الرابط: https://bit.ly/33BFmOH

(٣) ساري حنفي، مرجع سابق، ص ٣٦.

أكبر من نفسه، مضيفًا أن مثل هذه الأحداث تساعد على بناء التماسك الاجتماعي[١].

صعوبات التواصل الافتراضي وضعف قدرته على أن يحل بشكل كامل محل التواصل الطبيعي وقت الجائحة لم تكن هي الأثر الوحيد السلبي للانغماس في العالم الافتراضي، فقد أكدت الجائحة أيضا أن الافتراضي لم يحل دون تزايد الإحساس بالخوف والقلق. وذلك لأن الانغماس في الافتراضي، ضمن أشياء عديدة، أعاد تشكيل روتين الحياة اليومي فخلط بين الالتزامات العائلية والتزامات العمل، وجمع ذوي الميول السلبية معا، وسهل نشر التوقعات والأفكار المتشائمة، وراكم من مصادر التوتر. باختصار لم تعمل اليد الخفية على النحو المرجو، ولم ينجح الافتراضي في أن يظهر كبديل مقنع للواقعي.

(٩) الوعي

بشكل عام أظهرت جائحة كورونا أن محاولة التغلب على الخوف، وتحقيق الأمن الشخصي والاجتماعي، تواجه صعوبات سواء في المجتمع الواقعي أو الافتراضي، فالواقعي/الرسمي حاول أن يثبت كفاءته العقلانية، ولكن بدت إجراءاته في هذا الصدد كما لو كانت نسخة من برنامج شمولي للهندسة الاجتماعية، أو درسا في البيروقراطية الكونية، أو محاولة لتحويل العالم الاجتماعي إلى منظومة آلية يتم التحكم فيها وفقا لاعتبارات قياسية. أما الافتراضي، فقد ظهر أنه ليس مجالا للتقارب الاجتماعي إلا بقدر ما هو مجال للانعزال عن الآخرين. وبشكل عام يظل مفهوم الافتراضي للتقارب الاجتماعي مفهوما ملتبسا لأنه في الأغلب تقارب بين مجهولين، ومن هذه الحيثية يمكن أن يصبح مصدرا لبث الخوف والذعر في نفوس أعضائه، الذين وضعتهم الأزمة في حالة من التشبث بأية معلومة، حتى لو لم يعلموا طبيعة مصدرها.

من ناحية أخرى أظهرت الأزمة أن وفرة المعلومات لا تعني زيادة الوعي، ولا تترجم مباشرة إلى زيادة الإحساس بالأمن، فتوافر منصات متعددة ورخيصة للحصول على المعلومات بكل أنواعها، لم يترجم بالضرورة إلى انخفاض في منسوب الخوف. بل إن كثرة المعلومات خلقت في بعض الأحيان حالة من الفوضى والتشوش وزادت من منسوب القلق، فآفة الأخبار هم رواتها، وبخاصة عندما لا تعلم حالتهم، وفي حالة الافتراضي ينطبق هذا الشرط بامتياز.

الإيجابية الأساسية في هذا السياق تكمن ربما في أن الكثيرين قد أصبحوا مقتنعين أنهم أضعف من أن يستغنوا بذاتهم عن الآخرين، وأبعد من أن يتحملوا عبء الخوف منهم والابتعاد عنهم. كأن الجائحة قد أعادت إلى الأفراد قدرا من الوعي بضرورة الإنسان وأهمية مجتمع البشر الواقعيين، وقدمت فرصة أدرك فيها الفرد أن الأنا ليست كافية، ولا تصلح كبديل دائم، صحيح أنه يمكن الهروب إليها والاحتماء بها بين الحين والآخر، ولكنها لا يمكن أن تمثل هوية بديلة تغني عن الانتماء إلى ذات أوسع.

(١٠) البقاء

في معرض تعليقه على الجائحة، والتفاعل الرسمي والمجتمعي معها، تساءل الفيلسوف الإيطالي جورجيو أجامبين، عن قيمة المجتمع الذي لا هم له سوى البقاء، مؤكدا أنه لا يمكن للمجتمع الذي يعيش في حالة طوارئ دائمة أن يكون مجتمعا حرا. ف"نحن في الواقع نعيش في مجتمع ضحى بالحرية لـ"أسباب تتعلق بالأمن" وبالتالي

(١) أحمد حسن بلح، الهدوء النفسي في زمن كورونا، للعلم، Scientific American، ٢٦/٠٤/٢٠٢٠، على الرابط: https://bit.ly/3d5g4LV، وانظر: Colleen Walsh, The Value of Talking to Strangers — and Nodding Acquaintances, *The Harvard Gazette*, 27/08/2020 at: https://bit.ly/33BTVC3

حكم على نفسه بالعيش في حالة دائمة من الخوف وانعدام الأمن. يقول أجامبين: "إن أول شيء تظهره بوضوح موجة الذعر التي أصابت العالم بالشلل هو أن مجتمعنا لم يعد يؤمن بأي شيء يتجاوز الحياة المجردة ... من الواضح أن الناس مستعدون للتضحية عمليا بكل شيء – ظروف الحياة الطبيعية، والعلاقات الاجتماعية، العمل، وحتى الصداقات، والعواطف، والمعتقدات الدينية والسياسية — خوفا من الإصابة بالمرض. إن الحياة المجردة — والخوف من خطر فقدانها – ليست شيئا يوحد الناس، بل يعميهم ويفرقهم. فالبشر الآخرون، صار ينظَر إليهم الآن على أنهم ناشرون محتملون للمرض ومن ثم يجب على المرء تجنبهم بأي ثمن. ولكن السؤال هو ماذا يصبح شكل العلاقات الإنسانية في مجتمع يعيش بهذه الطريقة لأجل غير معلوم؟ وكيف يكون شكل المجتمع الذي لا هم له سوى البقاء؟[١]

الخسارة المزدوجة للحرية والأمن معاً على نحو ما يشتكي أجامبين يطلق عليها البعض اسم "صفقة فاوست" ففاوست الذي ضحى بمصيره من أجل أن ينال سعادة غير مؤجلة، خسر مصيره، ولم يتحصل على السعادة العاجلة التي منى نفسه بها. ويبدو أن الأنظمة تعقد مع شعوبها بمناسبة الجائحة صفقة مماثلة، فهي تعدهم بأن توفر لهم الأمن، في مقابل تخليهم عن حرياتهم. ولكن كما في صفقة فاوست الخاسرة، قد يؤدى القبول بهذه الصيغة إلى فقدان الحرية والأمن معاً[٢].

ما يثير القلق في هذه الصيغة –وفقا لأجامبين– أنها قابلة للتوظيف السلبي في المستقبل. "فمثلما خلفت فترات الحروب لفترات السلام إرثا من التقنيات المشؤومة، من الألغام الأرضية إلى محطات الطاقة النووية، فمن المحتمل أيضا أن تترك الفترة الحالية إرثا يصعب التخلي عنه، حتى بعد انتهاء حالة الطوارئ الصحية: مثل إغلاق الجامعات والمدارس والاكتفاء بإجراء الدروس عن بعد، ووضع حد نهائي للتجمعات والاكتفاء بتبادل الرسائل الرقمية، وإحلال الآلات محل كل اتصال — يحتمل العدوى – بين البشر."[٣] ومن المفهوم أن العديد من الشركات العاملة في مجال تقانات المعلومات والاتصالات تدفع باتجاه جعل الوضع المؤقت دائما، لأنها وجدت فيه فرصة لتحقيق أرباح وفيرة عبر التسابق على إنتاج وتسويق تقنياته وادواته[٤].

وإذا كان أجامبين يشتكي من حال المجتمع الواقعي الذي فقد توازنه بعد أن انحصرت مخاوفه في بقائه المجرد، فإن المجتمعات الافتراضية ليست بعيدة عن هذا النقد بدورها، خاصة وأن المرتحلين إليها اصطحبوا الكثير من عيوب المجتمعات الواقعية معهم، فما زال اندماجهم أقرب إلى الفردية، وما زالت هويات أغلبهم محجوبة، ومازالت علاقتهم بالفردي أقوى وأهم من علاقتهم بالإنساني والمجتمعي والكوني. لقد تحول الافتراضي في أحسن الأحوال إلى عالم موازي، يكتفي رواده بالفاعلية الافتراضية، ولا يفكرون في كيفية ترجمة تفاعلاتهم إلى نوع من التأثير الذي يبتغي تحقيق مصلحة المجتمع وتحقيق مقتضيات العيش المشترك.

إن هشاشة الإنسان المعاصر أمام الجائحة قد لا تتعلق بوجوده في عالم مادي أو في عالم افتراضي، وإنما

---

(1) Giorgio Agamben, The Enemy is Not Outside, It Is Within Us, *Stanford University: The Book Haven*, at: https://stanford.io/36G8Gpo

(2) Geof Wood, Staying Secure, Staying Poor: The Faustian Bargain, *World Development,* vol. 31, no. 3 (2003), pp. 455-471.

(3) Agamben, Op.Cit.

(٤) ساري حنفي، مرجع سابق، ص ٣٦.

تتعلق أكثر بالطريقة التي يحدد من خلالها الغاية من وجوده في كلا العالمين، بعبارة أخرى لا يمثل مجرد الولوج في أي من العالمين ضمانا بالتحرر من الخوف، فالخوف الذي استولى على الأفراد في العالم الواقعي، لم يبدده -على نحو كامل- احتمائهم بالافتراضي، ما قد يوازن المعادلة على نحو أفضل ربما يكمن في إعادة تعريف الأمن بحيث يعكس طموحا أكبر من مجرد البقاء، فالبقاء المجرد لا يمنع من الخوف، والخوف بمفرده لا يحقق التماسك، لا في المجتمع الواقعي ولا في المجتمع الافتراضي.

*****

أثر الجائحة على أزمات المنطقة العربية



هل أحدثت جائحة كورونا تغييرا في الصراعات الإقليمية؟

عمر سمير(*)

مقدمة:

ضربت أزمة كورونا العالم بينما هناك صراعات قوة تقليدية وغير تقليدية على قيادة النظام الدولي وعلى مناطق النفوذ الإقليمية، وجاءت الجائحة إلى المنطقة العربية على وجه الخصوص فيما هي قابعة في آثار صراعات ممتدة بين شعوبها وأنظمة الحكم فيها وبين التيارات السياسية المختلفة منذ الموجة الأولى للربيع العربي في ٢٠١١، ثم الموجة الثورية الجديدة في بلدان السودان والجزائر ولبنان والعراق، والتي تحولت بعضها إلى صراعات إقليمية ودولية متشعبة وغير معلوم أمدها أو حلولها.

ولا شك أن الجائحة كان لها تأثيراتها على تلك المسارات الملتبسة أساسا، فقد طال تأثيرها دول عدة مستقرة وشبه مستقرة، حيث ضربت الجائحة قواعد الاستقرار فيها، سواء بما شهدته من احتجاج على الإجراءات الاحترازية أو بسبب صراعات على تحديد سلطات الأجهزة الأمنية، أفرزت الأزمة أيضا صراعا بين الحكومات والمواطنين على أولويات السياسات ومن يحددها، أهي نخب المال والأعمال التي وقفت ضد الإغلاق أم جموع المواطنين الساعين للأخذ بالاعتبار تعليمات خبراء الصحة؟

إذا كانت الأمور على هذا النحو، فما بالك على مستوى الصراعات الإقليمية في مناطق مختلفة بالعالم، فقد شهدنا مؤخرا التصعيد المصري بالتهديد بالتدخل الصريح في ليبيا، وتدهور حالة الهدنة في اليمن، وتصعيد تركيا ضد حزب العمال الكردستاني في شمال العراق، واحتمالات التصعيد المفتوحة في شرق المتوسط بين تركيا واليونان بالأساس. بالإضافة إلى صراعات إقليمية ممتدة ومتكررة بين الصين والهند أو بين السودان وإثيوبيا، أو شبه إقليمية بين الصين وهونج كونج حول حقوق وحريات المواطنين وحدود استقلال سلطات الإقليم والسلطات الصينية، كذلك التصعيد القومي اليميني المتطرف لسياسات نارندرا مودي في الهند ضد المسلمين هناك.

وعلى مستوى التنظيم الدولي نجد صراعا تقع منظمة الصحة العالمية في القلب منه، حيث الانسحاب الأمريكي منها ووقف تمويلها، والتهديد البرازيلي باتباع المسار نفسه مع المنظمة، كذلك فإن الأمين العام للأمم المتحدة أطلق نداء لوقف الصراعات مراعاة للجائحة، بينما لم تلتزم الكثير من القوى الدولية بهذا النداء، فرغم أنه في بعض بلدان الصراعات ضغطت أطراف محلية ودولية لوقف القتال مراعاةً لظروف الجائحة، كما حدث في اليمن وليبيا لكن الأمر لم يستغرق أكثر من هدن متقطعة لأيام، وتساءل البعض حول إمكانية أن يمثل تحدي أزمة كورونا دافعا لوقف أو تعليق الصراعات عبر العالم[1]. **وتضم منطقتنا العربية البؤرة الأكبر للصراعات منذ قرابة عقد من الزمن، وتحاول هذه الورقة تحليل وتتبع التطورات التي حدثت للصراعات في المنطقة في ظل الجائحة.**

ويأتي تقسيم الورقة على هذا النحو: أولا: أزمة كورونا وصراعات الموجة الأولى من الثورات في المنطقة العربية. **ثانيا:** أزمة كورونا والصراع في دول الحراك الثوري الجديد. **ثالثا:**

(*) باحث في العلوم السياسية.

(١) نادية محمود مصطفى، التحديات والصراعات التي تواجه العالم الإسلامي في ظل الاستراتيجيات العالمية منذ نهاية الحرب الباردة (١٩٩٠-٢٠٢٠)، فصلية قضايا ونظرات، العدد ١٧، مركز الحضارة للدراسات والبحوث، أبريل ٢٠٢٠، صـ١١، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/32PtO9d

مشاهد من صراعات القوى الإقليمية والدولية بالمنطقة.

وخاتمة.

أولا: أزمة كورونا وصراعات الموجة الأولى من الثورات في المنطقة العربية:

بشكل عام، وحتى بعيداً عن الصراعات، كشفت الأزمة عن سوء وتردي الخدمات العامة الصحية في بعض البلدان العربية وما يرتبط بها من نقل عام وإمدادات وتموين، كما رفعت الجائحة النقاب عن سوء إدارة فج حول الوضع؛ من تعاون تفرضه الضرورة الموضوعية للقضاء على الجائحة إلى صراع لتفكيك أي احتجاج أو اعتراض على الأوضاع الصحية المتدهورة أو على التضحية بحياة الأطقم الصحية والمواطنين في سبيل تصدير الإنجازات للمواطنين، ومنع أية أصوات تحاول توضيح الصورة أو حتى معالجة الوضع بجهود مجتمعية غير منسقة مسبقًا مع الأجهزة الحاكمة كما هو الحال في مصر.

هذا الأمر أضاف فئة العاملين بالقطاع الصحي للفاعلين في هذا الصراع الاجتماعي، صحيح أنها فئة نشطة حتى مما قبل الثورات لكن كل حراك أو تعبير قوي عن السخط قد انطفأ منذ آخر احتجاجات شهدتها مصر وهي احتجاجات ٢٠ سبتمبر ٢٠١٩. لكن تجاهل مطالبات العاملين بالقطاع الصحي وارتفاع نسبة الوفيات والإصابات بين العاملين بالقطاع الصحي في مصر إلى ١٣% من إجمالي الإصابات بكورونا في منتصف أبريل الماضي، قد أدى إلى إطلاق دعوات بالاستقالة من وزارة الصحة سرعان ما تحولت لهجوم إعلامي مكثف وحملة تخويف وتخوين وصراع مع النقابة[١]. إن الصراع بين فئة العاملين بالقطاع الصحي والدولة يدور في سياق يتوجب معه فعليا استعادتهم من الخارج لتحسين الخدمات الصحية، مع ذلك فإن السلطات تتعامل بعجرفة وعشوائية شديدة مع تدهور الخدمات الصحية.

كذلك فإن الأزمة أضافت للعديد من الدول العربية المرسلة للعمالة في الخارج أزمة جديدة تتعلق مؤقتا بعمليات إجلاء مواطنيها من الدول المضيفة، كما تتعلق على المدى المنظور بقدرة اقتصاداتها على استيعاب تلك العمالة في حالة العودة الد ائمة. خاصة أنه في إطار سياسات التعامل مع الجائحة قررت العديد من دول الخليج العربي الأكثر تأثرا بالتبعات الاقتصادية لأزمة كورونا –بسبب انهيار أسعار النفط وتفاقم العجز في ميزانياتها ومعاناتها من انكماش كبير– قررت أن تعيد النظر في السياسات المتعلقة بالوافدين بحيث يتم تخفيض نسبهم وإنهاء خدمات الملايين منهم، مع تصاعد حملات تحريضية ضدهم[٢]. هذه العودة المفاجئة تشكل تهديدًا بتفاقم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتزايد الموجات الاحتجاجية وعوامل عدم الاستقرار.

ورغم أن أزمة كورونا – وفقًا لبعض التحليلات– أوقفت عمليا أو مؤقتا، الموجة الثانية للربيع العربي، حيث جاءت حلا سحريا وهدية للدكتاتوريات العربية لم تكن تحلم بها. إذ أوقف الجزائريون تظاهرات الحراك، وكذلك فعل السودانيون، وانشغلت المجتمعات الأخرى بكورونا أكثر من انشغالها بأنظمتها الدكتاتورية، إلا أن توقف هذه الموجة الثورية الآن هو تمكين للدكتاتوريات ومفاقمة على المدى الطويل لأسباب الصراع الذي ينذر بصراعات قادمة قد تكون، بعد الانتهاء من هذه الجائحة، أكثر تدميرا مما سبقتها[٣].

(١) عمر سمير، أزمة الأطباء في مصر.. أي مستقبل ينتظرنا وأية سياسات؟، فكر أونلاين، بتاريخ ٢٠٢٠/٥/٢٦، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/30YXkcx

(٢) إبراهيم محمد، كورونا ومستقبل العمالة العائدة من دول الخليج؟، موقع قناة DW عربية، بتاريخ، ٢٠٢٠/٥/١٧، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3lrhGUI

(٣) إبراهيم فريحات، في أثر كورونا على واقع الصراعات الدولية، العربي الجديد، بتاريخ ٢٠٢٠/٣/٣٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/31CSSk7

على جانب آخر، في بعض بلدان الصراعات في المنطقة العربية ضغطت أطراف محلية ودولية لوقف القتال مراعاة لظروف الجائحة كما حدث في اليمن وليبيا لكن –كما سبقت الإشارة– الأمر لم يستغرق أكثر من هدن متقطعة لأيام، ويأتي التناول على النحو التالي:

١–الحالة اليمنية:

بينما أعلن اليمن في ١٠ أبريل ٢٠٢٠ أول إصابة بفيروس كورونا، كان الوضع الصحي يعاني من الأساس تدهورا حادا بسبب الحرب التي دخلت عامها السادس بين القوات الحكومية المدعومة سعوديا وجماعة الحوثي المدعومة إيرانيا، ووفقا لبعض التقارير فإن الجائحة أتت وقد أصاب وباء الكوليرا في اليمن ٢,٣ مليون شخص وتوفي ٤٠٠٠ يمني به، وتشير تقارير الأمم المتحدة إلى احتمالية وقوع ٤٠,٠٠٠ على الأقل من الموتى، ويمكن لـ ١٦ مليون من بين ٢٩ مليون يمني أن يصابوا بالفيروس[١].

وبينما أطلق الأمين العام للأمم المتحدة دعوة لوقف إطلاق النار في جميع أنحاء العالم والتركيز على مواجهة كورونا باعتبارها المعركة الحقيقية، في ٢٣ مارس ٢٠٢٠، ورحبت أطراف يمنية وإقليمية بهذه الدعوة، مع ذلك نجد أنه في التوقيت ذاته شهد الصراع في اليمن تطورات خطيرة سواء باستهداف أماكن متقدمة وتكثيف الضربات بطائرات مسيرة داخل الأراضي السعودية أو توسيع الحوثيين لقاعدة أهدافهم فيما يسمونها "دول العدوان"، ثم إعلان السعودية إسقاط طائرات مسيرة أطلقها الحوثيون، كل هذا عقب أيام من دعوة التهدئة[٢].

أيضا فإن المجلس الانتقالي الجنوبي الذي دعمته الإمارات بما يخدم مشروعات التقسيم في اليمن نكاية في المكون الإسلامي في الطرف الرسمي والحكومي اليمني، سرع من وتيرة عملياته العسكرية واستولى على عدة مدن ليفرض رعاته تعديلا على اتفاق الرياض الهش والمهدد بالانهيار والذي وقع في ٥ نوفمبر ٢٠١٩ وأعاد إلى المشهد الصراع بين الشمال والجنوب برعاية إماراتية[٣]. أثناء ذلك فإن الميليشيات الموالية للمجلس الانتقالي الجنوبي داهمت ميناء عدن الجنوبي وسرقت ساعدات طبية تبرعت بها منظّمة الصحة العالمية، من ضمنها تسع سيارات إسعاف مرسلة إلى وزارة الصحة. وشهد الصراع في اليمن هجمات عشوائية دمرت المنشآت الطبية وإمدادات المياه، الأمر الذي زاد مما وصفه المجتمع الدولي أسوأ أزمة بشرية من صنع الإنسان في العالم، بما فيها أسوأ تفشٍ للكوليرا في التاريخ الحديث[٤]. كذلك فإن المجلس أعلن في ٢٦ أبريل الحكم الذاتي وحالة الطوارئ في المناطق التي يسيطر عليها في جنوب البلاد، في تحد للحكومة المعترف بها دوليا، والمدعومة من السعودية، والتي اعتبرت هذا الإعلان تمردا مسلحا[٥].

وفي ظل هذه الحالة الصراعية الممتدة تواجه المؤسسات الإغاثية الدولية أزمة شديدة في القدرة على الوصول بالمساعدات لمناطق النزاع دون استهداف من قبل الأطراف المختلفة، وتتكرر دعواتها لوقف إطلاق النار وتمكينها من إيصال المساعدات الطبية العاجلة للمناطق المتضررة من الوباء

---

(١) تقرير لقناة DW عربية، بعنوان "فيروس كورونا في اليمن – بلد على حافة الهاوية"، بتاريخ ٢٠٢٠/٥/٢٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2RuQNAR

(٢) التحالف بقيادة السعودية يعلن إسقاط طائرات مسيرة أطلقها الحوثيون، قناة الحرة، بتاريخ ٢٠٢٠/٣/٢٧، متاح عبر الرابط التالي: https://arbne.ws/3mrHwbk

(٣) حذرت من انهيار اتفاق الرياض.. الحكومة اليمنية تتهم "الانتقالي" بتنفيذ انقلاب في سقطرى، الجزيرة نت، بتاريخ ٢٠٢٠/٦/٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2GdFb2Z

(٤) رانج علاء الدين، فيروس كورونا المستجدّ سيطيل الصراع في الشرق الأوسط، بروكنجز الدوحة، بتاريخ ٢٠٢٠/٤/٢٤، متاح عبر الرابط التالي: https://brook.gs/2QyPgt9

(٥) اليمن: المجلس الانتقالي الجنوبي يعلن الحكم الذاتي، بي بي سي عربي، بتاريخ ٢٠٢٠/٤/٢٦، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/3mnangC

دون جدوى؛ إذ تستمر استهدافات الحوثيين لمناطق داخل العمق السعودي ويستمر رد التحالف بقصف عشوائي داخل الأراضي اليمنية.

٢–الحالة الليبية:

تعقد الصراع أكثر في ظل الجائحة، فعقب أسابيع من إعلان الجائحة عالمية وعقب إعلان أول حالة إصابة في البلاد في ٢٤ مارس ٢٠٢٠ ، وبعد يوم واحد من نداء الأمين العام للأمم المتحدة بوقف القتال في مناطق النزاع لمواجهة فيروس كورونا، واصلت قوات شرق ليبيا بقيادة اللواء خليفة حفتر هجماتها على العاصمة طرابلس بل استهدفت مخازن للأدوية في منطقة السواني جنوبي طرابلس بـ"صواريخ جراد"، وذلك بعد يومين من استهدافها مخازن الأدوية بمستشفى الخضراء في طرابلس.

تعاني ليبيا حالة انهيار في القطاع الصحي، بفعل سنوات الاقتتال بين الحكومة المعترف بها دوليا، وقوات اللواء خليفة حفتر، وقد زاد استهداف قوات حفتر للعديد من المنشآت الطبية من تردي البنية الصحية خلال الفترة الماضية[١]. يبدو أن هذه الضربات حفزت القوات في الغرب الليبي لضرورة مواصلة القتال ضد حفتر وتحرير مدنهم من قبضة المليشيات الموالية له، ومن ثم استؤنف القتال من قبل حكومة الوفاق المعترف بها دوليا وداعميها الإقليميين وفي مقدمتهم تركيا وقطر، وقد حققت انتصارات عدة وطردت قوات حفتر من المنطقة الغربية بالكامل في أسابيع قليلة بدعم من الطرف التركي الفاعل.

لكن هذا التقدم وتزايد مساحة التوافق التركي الروسي، واستخدام الساحة الليبية سواء في تجريب الأسلحة أو للضغط على الأطراف الأوروبية، أدى لتزايد مخاوف مصر من إقامة قواعد عسكرية على حدودها الغربية وهو تخوف مشروع، لكن جاء التدخل باتجاه خاطئ لدعم الطرف الخاسر بتصعيد عسكري متمثل في عدة مناورات في البحر المتوسط وفي المنطقة الغربية العسكرية، وصولا للإعلان عن خطوط حمراء داخل ليبيا في ٢٠ يونيو ٢٠٢٠ تتمثل في عدم تجاوز مدينة سرت والجفرة واستعداد مصر لتسليح القبائل الليبية للدفاع عن أرضهم[٢]. تلى هذا التصعيد بفترة قصيرة دعوة وزارة الخارجية المصرية لرموز من بعض القبائل الليبية للقاء في القاهرة للحصول على تفويض بالتدخل العسكري المباشر في ليبيا مقابل وعود بتسليح القبائل الليبية وهو اللقاء الذي حدث في ١٥ يوليو ٢٠٢٠، وأدى لمزيد من التصريحات العدائية لحكومة الوفاق وحلفائها تجاه مصر.

كل ذلك عقد الصراع، حيث تخشى القوى الكبرى من وقوع صدام محتمل بين تركيا ومصر في ليبيا تغذيه صراعات شخصية بين أنظمة الحكم، وتدفع باتجاهه قوى إقليمية أصغر حجما وأكبر تأثيرا في القضايا العربية مثل السعودية والإمارات، واللتان تحملان مشروعا شخصيا لحكامها، مناوئا للمشروع التركي في إدارة صراعات المنطقة عبر تمدد النفوذ الاقتصادي والتجاري والعسكري، علما أنه في بداية الجائحة فإن التقارير كانت تشير إلى أن الإمارات نقلت آلاف الأطنان من الذخيرة والعتاد لخليفة حفتر لتحريضه على القتال واقتحام العاصمة في تحدي صريح للقرارات الأممية بوقف تصدير السلاح إلى ليبيا والتي باتت تخترقها الأطراف المختلفة فضلا عن تطبيق مراقبة السواحل الليبية بشكل انتقائي[٣].

(١) فيروس كورونا: كيف تأثرت بؤر الصراع في العالم العربي؟، بي بي سي عربي، بتاريخ ٢٠٢٠/٤/١٢، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/31Fi1uJ

(٢) السيسي: تجاوز سرت والجفرة "خط أحمر" لمصر.. وأي تدخل لنا في ليبيا تتوفر له شرعية دولية، سي إن إن بالعربية، بتاريخ ٢٠٢٠/٦/٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cnn.it/32yb4f6

(3) Jason Burke and Patrick Wintour, Suspected military supplies pour into Libya as UN flounders, The Guardian, 11/3/2020, https://bit.ly/2GZJ9MV

صحيح أن السلطات التابعة لحكومة الوفاق ناشدت المجتمع الدولي بفرض تسوية وتهدئة لظروف وباء كورونا، وحذرت من جلب المرتزقة من مناطق ينتشر فيها الوباء كروسيا والسودان وسوريا، لكن الاتهامات المتبادلة بجلب المرتزقة تصاعدت وتيرتها وعززت بعضها تحقيقات صحفية وتليفزيونية وتقارير دولية.

إذن فالجائحة لم تبطئ وتيرة الصراع، ولم تؤد لما كان يفترض أن تؤدي إليه من تهدئة ودفع باتجاه الحل السلمي، وما أدى لتفاقم هذا الصراع أكثر هو قيام قوات تابعة لحفتر بإغلاق موانئ النفط ووقف تصديره، ما أدى لخسائر فادحة لاقتصاد يعتمد بنسبة ٩٨% على الإيرادات النفطية، الأمر الذي عطل القطاعات الخدمية بالدولة، وجعلها أكثر عجزا في مواجهة الوباء.

يتضح من الاستعراض السابق كيف ارتبطت التطورات بانتقال مركز القيادة في المنطقة العربية نحو الخليج العربي في ظل التوسع العسكري والاقتصادي الإقليمي للإمارات، وقدرتها بما تملكه من فوائض مالية على دعم أو تقويض استقرار أنظمة سياسية في دول أكبر في المنطقة، ودعمها للصراع الصفري مع تنظيمات الإسلام السياسي، وطموحها لقيادة المنطقة على جثة الفاعلين التقليديين. فقد استغلت تحالفها مع النظام المصري واستخدمت الأراضي والمطارات المصرية وفقا لتحقيقات صحفية دولية، لضرب أهداف ليبية ولتحويل ليبيا إلى أكبر مسرح حرب طائرات دون طيار في العالم[1]. كما دفعت بكل السبل باتجاه التصعيد المصري بالتهديد المتكرر بالتدخل الصريح في ليبيا، الأمر الذي زاد الأمور تعقيدا من وجهة نظر البعض وأخل بالمصالح الاقتصادية المصرية لصالح معادلة أمنية وعسكرية مختلة[2]، لكنه أحدث توازنا مع التدخل التركي القوي لصالح حكومة الوفاق من وجهة نظر البعض الآخر.

استدعت الجائحة أيضا دورا أمريكيا أكبر للحد من النزاعات أو السيطرة عليها في ظل انشغال الولايات المتحدة بالتفشي الواسع فيها، وفي هذا الصدد يمكن قراءة الجهود الأمريكية المكثفة للتوصل لاتفاق لوقف إطلاق النار في ليبيا يتضمن طردا لكافة المقاتلين الأجانب والمرتزقة المتواجدين بشكل غير شرعي في الأراضي الليبية.

٣–الحالة السورية:

فإن الجائحة انتشرت وسط إنكار حكومي سواء لجهة انهيار النظام الصحي وانشطاره بين أجزاء مختلفة وفرقاء متصارعين وعدم استيعابه لضحايا الحرب، أو لجهة أن حليفيه الأساسيين روسيا وإيران هما أحد أسوأ بؤر تفشي الوباء عالميا، ومن ثم خشية النظام من فقد ما تبقى من مشروعيته لدى مؤيديه ومعارضيه. فالاعتراف بتفشي الفيروس قد يؤدي إلى ضغوط شعبية وسياسية ضد النظام، سواء بين المؤيدين أو أي معارضة باقية، خاصة أن هناك تواجد إيراني كثيف في سوريا وبين العسكريين بصفة خاصة، وإيران هي بؤرة التفشي الأسوأ في الشرق الأوسط ومن ثم كان هناك احتمالات كبيرة أنها مصدر انتشاره في المحور الشيعي في المنطقة إلى العراق وسوريا ولبنان، كما أن سوريا –من بين هذه الدول– الوحيدة التي لم توقف رحلاتها إلى إيران حتى منتصف مارس رغم تفشي الوباء فيها، ولاحقا اتهمت قوات حزب الله في سوريا بأنها مصدر الوباء، حيث أُصيب عشرات من عناصر حزب الله في سوريا ولبنان وتم إجلاؤهم سرًا إلى معسكرات الحجر الصحي التي يسيطر عليها حزب الله في بيروت وداخل سوريا[3].

---

(١) تحقيق: الإمارات ضالعة في ضربة قاتلة بطائرة مسيرة في ليبيا، بي بي سي عربي، بتاريخ ٢٧/٨/٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/3gEyuDA

(2) KAY WESTENBERGER, Egypt's Security Paradox in Libya, E- International relations, April 8, 2019, https://www.e-ir.info/pdf/78395

(٣) سورية حرب في زمن كورونا، جسور للدراسات، بتاريخ ٧/٤/٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3luId2T

وإذا كانت الجائحة قد خففت وتيرة العمليات العسكرية الروسية والإيرانية على الأراضي السورية نظرا لانشغال الدولتين بمواجهة الجائحة على أراضيهما، فإن تفاقم أزمات قطاع الصحة في كافة المدن السورية وسوئها الشديد في مناطق مثل إدلب التي يقطنها قرابة ٣٫٥ مليون شخص ويعيش معظمهم في مخيمات يصعب أن تخضع للإجراءات الاحترازية، كل ذلك ينذر بكارثة وبؤرة صراع محتملة جراء احتمال تفشي الوباء بشدة في هذه المناطق وانفجار موجة لجوء جديدة قد تحمل انتقالا كبيرا للفيروس إلى دول الجوار أيضا. كما أن الجائحة لم توقف الاهتمام الروسي باستغلال الأراضي والمنشئات العسكرية السورية والمرتزقة في بؤر صراع أخرى مثل ليبيا حيث تواصلت عمليات نقل المقاتلين بشكل مكثف رغم أزمة كورونا، فقد شهدا شهرا يونيو ويوليو ٢٠٢٠ حملة روسية متسارعة لتجنيد سوريين للقتال لصالح حفتر مقابل دعم تركيا لحكومة الوفاق[١]. كذلك كانت الجائحة سببا واضحا في التهدئة التركية في سوريا والتدخل المحدود من حيث عدد الخبراء والجنود في ليبيا أيضا، وفسر هذا بسبب الخوف من انتشار العدوى وسط الجنود[٢].

أيضا فإن الاتفاقات الروسية التركية للتهدئة في شمال سوريا تبدو هشة جدا ومعرضة للخرق وحدث هذا في أكثر من تصعيد في فبراير ويوليو وأغسطس ٢٠٢٠ رغم انتشار الجائحة؛ إذ تعتمد المعارك بالأساس على القصف الجوي والمدفعية الثقيلة، وهذا يهدد بموجات نزوح وبانتشار كثيف للوباء في مناطق النزوح ومخيمات اللجوء، وفي مؤشر خطير لعمليات التصعيد، وثق فريق "منسقو استجابة سوريا" في ١٨ أغسطس ٢٠٢٠ أكثر من ٢٣٨٧ خرقًا لاتفاق وقف إطلاق النار بمساهمة روسية واضحة، وذكر في بيان له أن الطائرات الحربية الروسية، استهدفت إحدى أكثر المناطق المكتظة بالمدنيين عموما والمخيمات بشكل خاص والتي يتجاوز عددها أكثر من ٧٤ مخيما[٣].

ثانيا: أزمة كورونا والصراع في دول الحراك الثوري الجديد:

عندما ضربت الجائحة العالم كانت هناك ٤ دول عربية في حالة حراك ثوري جديد التحقت بالموجة الأولى للربيع العربي التي لم تستقر بعد سواء بانتصار الأنظمة أو الشعوب، هذه الدول الأربع هي السودان والجزائر ولبنان والعراق، وسواء كان الجدل حول كونها موجة جديدة للربيع العربي أم امتداد له، إلا أنها تأثرت حتما بالجائحة؛ إذ تضرب قواعد التباعد الاجتماعي الخيار الاحتجاجي في عمقه القائم على التجمعات والمظاهر الاحتجاجية الجمعية في مواجهة الأنظمة، ولا شك أن تلك الأنظمة استغلت الجائحة للحد من الاحتجاج، لكن تعامل بعضها مع الجائحة والاحتجاج كان سببا إضافيا لتأجيج الغضب.

١–الحالتان اللبنانية والعراقية:

في هاتين الحالتين فإن ما يمكن تسميته الاقتصاد السياسي للقهر بات يحكم معادلة الاحتجاجات الممتدة منذ ٢٠١١ ضد الفساد والأنظمة الطائفية، لكن الفساد سرعان ما كان ينتصر على أية موجة احتجاجية في أيا من الدولتين، ففي **لبنان** جاءت الجائحة في أوج الاحتجاجت والصراع الممتد ضد نخب مالية فاسدة مسيطرة على الاقتصاد والسياسة اللبنانية، حيث الاحتجاجات في ١٧ أكتوبر ٢٠١٩ وهي الموجهة للسلطة أولا ثم للمصارف الركيزة الاقتصادية الأساسية لهذه النخب ثانيا. وصحيح أن أزمة

---

(١) صراع الأمم في ليبيا: حملة روسية متسارعة لتجنيد سوريين للقتال لصالح حفتر مقابل دعم تركيا لحكومة الوفاق، مونت كارلو الدولية، بتاريخ ٢٠٢٠/٦/٧، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2EDtQsn

(٢) سونر چاغاپتاي ودنيز يوكسل، لفيروس كورونا تأثيرات معاكسة على السياسة التركية في سوريا وليبيا، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، بتاريخ ٢٠٢٠/٤/١٧، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/32jQZYL

(٣) هبة محمد، تصعيد عسكري روسي جديد شمال غربي سوريا... ومعركة تلوح في أفق إدلب، القدس العربي، بتاريخ ٢٠٢٠/٨/١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/35CYfSR

كورونا أبطأت وتيرة هذه الاحتجاجات نتيجة لخوف المتظاهرين والمعتصمين على أنفسهم في ظل جائحة تفرض التباعد. لكن سوء إدارة الجائحة والاعتماد على الحلول الأمنية في مواجهة احتجاجات اقتصادية واجتماعية وتراكمات الفساد دون تقديم أيا من المسئولين عنه للعدالة، وصولا لحادث انفجار مرفأ بيروت (الشريان الأساسي للحياة في المدينة وعموم لبنان) قد أدى إلى تجدد هذه الاحتجاجات رغما عن التحذيرات من تفشي وباء كورونا، لأنه حتى معادلة التعايش مع الفساد لم تعد ممكنة ولأن من بقي في منزله لم يعد آمنا من الفساد وتبعاته.

وفي **العراق**، فإن الجدل بين تيارات تحاول التأسيس للمصلحة الوطنية العراقية بمنظور مستقل عن الرعاة الإقليميين عبر تعزيز مؤسسات الدولة، وتيارات أخرى تحاول إرضاء الرعاة الإقليميين، هذا الجدل قد حسم بشكل جيد في ظرف الجائحة لصالح المصالح الذاتية للعراق وعدم الخضوع لابتزازات بضرورة فتح المزارات، أي أن الوباء وسع الفجوة بين القوى السياسية الخاضعة للتأثير الإيراني وتلك التي تسعى إلى سياسة عراقية أكثر استقلالية[1].

وفي الحالتين فإن الجائحة مثلت فرصة لتنظيمات دون الدولة للحلول محلها ففي لبنان، فقد رسخ "حزب الله" مكانته كبديل عن الدولة اللبنانية عبر تخصيص قرابة خمسة آلاف طبيب ومسعف وممرض لمكافحة الجائحة.

أيضا بالنسبة **للعراق**، فقد كثّف ما يسمى تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" هجماته على البلدات في الشمال، في محاولة للاستفادة من أزمات بغداد المتراكمة التي تشمل التصعيد بين الولايات المتحدة وإيران وانخفاض أسعار النفط والاحتجاجات التي تغطّي البلاد بأسرها. ففي خلال أزمة صحة عامة، بإمكان تنظيم الدولة الإسلامية إعادة إحياء نفسه وتوسيع نفوذه عبر تلبية حاجات المجتمعات المحلّية بطرق لم تلبها السلطات الأخرى، على غرار الحكومة العراقية. وبحدّ أدنى، تسمح إخفاقات بغداد لتنظيم الدولة الإسلامية بوضع نفسه في موقع يجعله بديلا عملياً[2].

٢- الجزائر والسودان:

إن الجائحة أبطأت وتيرة الاحتجاجات في البداية، إذ خفت وتيرة التظاهرات في الشارع لظرف موضوعي يفرض التباعد الجسدي، والذي لا يمكن مع وضع تظاهرات أو احتجاجات واعتصامات خصوصا مع ضيق المساحات العامة في بعض الحالات، ومع انعدام الثقة في مؤسسات الدولة الصحية وقدرتها على استيعاب أعداد أكبر من المصابين حال انتشار الجائحة في أوساط المحتجين، لذا نجد أن هذه الأنظمة شددت مبكرا على فرض الإجراءات الاحترازية بصرامة وخاصة ما يتعلق منها بمنع التجمعات، ففي **الجزائر** اعتبر وزير الإعلام، المتحدث باسم الحكومة، عمار بلحيمر في تصريح له في ١٦ مارس ٢٠٢٠ "أن استمرار الاحتجاجات الشعبية، في ظل تفشي فيروس كورونا، سيكون بمثابة (انتحار)"[3].

ورغم استمرار الحراك لأكثر من عام وانتشاره في كافة المدن دون الاعتداد بالمسار الذي اتخذته النخبة الموالية لنظام بوتفليقة ولا الانتخابات التي أعقبته، فإن المسئولين عن الحراك قاموا بتعليقه وتحمل مسئوليتهم في عدم نشر الفيروس داعين السلطة لتحمل مسئولياتها، فجاءت الجمعة ٢٠ مارس ٢٠٢٠ أول جمعة دون مسيرات شعبية في شوارع المدن

(١) ستيرلينغ جينسين, وليد الراوي، جائحة كورونا في العراق: رب ضارة نافعة، مركز كارنيجي للشرق الأوسط، بتاريخ ٢٠٢٠/٧/٧، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3jnQbJp

(٢) رانج علاء الدين، مرجع سابق.

(٣) الحكومة الجزائرية: استمرار الاحتجاجات في ظل كورونا "انتحار".. المحتجون يشاركون في مسيرات يومي الثلاثاء والجمعة أسبوعيا، وكالة الأناضول للأنباء، بتاريخ ٢٠٢٠/٣/١٦، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/30YAH8n

الجزائرية[1]. لكن هذه السلطة، وفي ظل عجز هيكلي للنظام الصحي، وفي ظل انهيار أسعار النفط التي تشكل المورد الوحيد لخزينة الدولة فشلت في التعامل مع الجائحة وتزايدت وتيرة الإصابات بمتوالية هندسية.

وفي **السودان** كانت الحكومة الانتقالية بقيادة حمدوك شديدة التخبط والارتباك سواء في إدارة الأزمة أو الصراعات مع القوى السياسية والحركات المسلحة الأخرى، خاصة بتوسعها في التضييق على المؤسسات الخيرية بدعوى تفكيك نظام البشير.

في هذا السياق يشار إلى أن المساعدات الطبية التي تقدمها بعض الدول إلى دول الربيع العربي بموجتيه الأولى والثانية قد مثلت أدوات في إدارة الصراع مع الثورات والقوى المنبثقة عنها، فقد استخدمت مصر والإمارات المساعدات للسودان لتعزيز نفوذهما لدى الطرف العسكري في دوائر الحكم السودانية، والدفع باتجاه تغيير مواقف السودان في بعض القضايا مثل الصراع على المياه وسد النهضة والتطبيع، فسرعان ما تغير موقف السودان في ملف سد النهضة جراء تدفق بعض المساعدات المصرية والإماراتية من دور المساند للمطالب الإثيوبية إلى دور أقرب للوسيط المنحاز لمصالحه وللمصالح المصرية[2]. ولم تمنع الجائحة أيضا اشتباكات حدودية شبه دورية بين السودان وإثيوبيا لكن هذه المرة وقع ضحية لها بعضا من قوات الجيش ما استدعى تصعيدا إعلاميا سود انيا ضد أديس أبابا وهو ما ربطه البعض أيضا بتغير موقف السودان من مفاوضات السد.

ثالثًا: مشاهد من صراعات القوى الإقليمية والدولية بالمنطقة:

١-الصراع الكردي التركي:

لم توقف أزمة كورونا الصراع الكردي التركي بل تزايدت حدة التوترات على خلفية إعلان وزير الدفاع التركي استمرار العمليات العسكرية وإطلاق عملية جديدة في شمال العراق في ١٧ يونيو ٢٠٢٠[3]، حيث تتصرف تركيا كدولة قومية شديدة الحساسية لملفات الأقليات ولفكرة التنظيمات المسلحة ما دون الدولة والمنتشرة في دول جوارها المباشر في العراق وسوريا ولبنان، كما تتحسس لأية فكرة ما دون القومية، فيما يناصر المناهضون لتركيا وللنظام السياسي التركي التحركات الكردية في الشمال السوري وفي العراق.

وتخشى تركيا من تكرار الوضع في شمال العراق على نحو خطير في الشمال السوري، حيث يتدفق الدعم الشديد على قوات سوريا الديمقراطية في سوريا باعتبارها شريكًا للولايات المتحدة وبعض القوى الأوروبية المناهضة لتركيا في مواجهة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام "داعش"، أو قضية الحرب على الإرهاب باعتبارها القضية الأهم على أجندة السياسة الدولية في المنطقة، وما يتقاطع معها من سيطرة تلك التنظيمات المسلحة على مصادر النفط والغاز سواء في سوريا أو العراق وما أحدثته العمليات العسكرية لها أو ضدها من تغييرات ديمغرافية ضخمة في التركيبة السكانية لتلك الدول، وهو ما سينعكس على أي مستقبل سياسي لهذه المنطقة التي تحولت ثورات الربيع العربي فيها إلى حرب على الإرهاب أو حروب أهلية على أقل تقدير.

---

(١) دريس نوري، مستقبل الحراك الشعبي الجزائري في ظل تفشي وباء الكوفيد ١٩، مبادرة الإصلاح العربي، ٢٠٢٠/٤/٧، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2RqcvWV

(٢) أزمة سد النهضة: الخرطوم في صف القاهرة، موقع جريدة الأخبار اللبنانية، بتاريخ ٢٠٢٠/٦/٤، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/irwTs

(٣) سعيد عبد الرازق، تركيا تؤكد أنها ستواصل عملياتها العسكرية في كردستان العراق، موقع صحيفة الشرق الأوسط، بتاريخ ٢٠٢٠/٧/١، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3lyBhBX

٢-أزمة كورونا والصراع الأمريكي الروسي الإيراني في المنطقة:

قبل إعلان منظمة الصحة العالمية بأسابيع قليلة عن الجائحة كانت المنطقة العربية على شفى حرب بين الولايات المتحدة وإيران على الأراضي العراقية، حيث قامت الولايات المتحدة بتصفية قائد فيلق القدس وذراع إيران الأطول في المنطقة قاسم سليماني، الأمر الذي ردت عليه إيران وحلفاؤها باستهداف مقرات للقوات الأمريكية في العراق والتهديد باستهدافها في كل دول المنطقة، من هنا صعد إلى سلم أولويات السياسة الخارجية الإيرانية هدف قديم بإخراج القوات الأمريكية من المنطقة، وهو توافق مع توجهات إدارة ترامب بسحب وتقليص القوات في إطار الموازنة بين تكاليف وعائدات السياسة الخارجية الأمريكية، لكن كان تسارع وتيرة انتشار الوباء في دول الخليج وفي العراق واحدا من أسباب تسريع عملية تخارج الولايات المتحدة الأمريكية من المنطقة عسكريا، يضاف إلى ذلك توتر العلاقة بين الولايات المتحدة والحكومة العراقية جراء تصاعد نفوذ قوات الحشد الشعبي ليعلن لاحقا عن جداول زمنية لخروج القوات الأمريكية من العراق[١]. فمع تطور انتشار الجائحة بالعراق قررت الولايات المتحدة سحب ثلث قواتها المتواجدة هناك خلال الشهور الثلاثة الأخيرة من ٢٠٢٠ لتبقي فقط ٣٥٠٠ جندي من بين ٥٢٠٠ المتواجدين حاليا[٢].

أي أن الجائحة على الأقل سرعت وتيرة سحب تلك القوات، وإذا كان هذا الانسحاب دليل على تهدئة الصراع مع إيران، فإن توسع وتزايد النفوذ الإيراني في العراق يصحبه مطالبات شعبية في إطار الاحتجاجات ضد الوضع القائم بإخراج العراق من الصراع الأمريكي الإيراني ومطالبات بتفكيك الميليشيات ومحاربة الفساد، وهي المطالبات التي لا تزال عالقة وترتبط باحتجاجات ممتدة تجد لها وقودا في إخفاقات الحكومة العراقية في مواجهة الجائحة، كما أن إيران تترجم هذا الانسحاب باعتباره نصرا لرؤيتها وضغوطها وأذرعها على الإدارة الأمريكية وقواتها في المنطقة.

وإذا كان من اثر غير مقصود لهذا الانسحاب الاقتصادي والأمني والعسكري الأمريكي من المنطقة فهو بتعبير البعض تغير معالم المنافسة الدولية في المنطقة، وتعاظم الدور الروسي، وانقسام وضعف الدور الأوروبي في ظل تصاعد نفوذ الصين الاقتصادي دون الأمني والسياسي، في ظل ارتباك النظام الدولي وإعادة الولايات المتحدة للنظر في سياستها الخارجية بحسابات ضيقة تتعلق بالتكلفة والعائد المباشرين، ما يخلق معضلة عربية ممتدة من الصراعات يتقاطع فيها المحلي وتفاصيله مع الإقليمي والدولي وتحمل تناقضاتها عوامل استمرارها، هذا بما يجعل صراعات المنطقة أكثر خطورة في ظل تحلل الدول القومية العربية[٣].

على جانب آخر، سرعان ما أصبحت **إيران** التي تمتلك حدودا مباشرة مع الصين بؤرة كبيرة لفيروس كورونا ومنها انتقل لمعظم دول الخليج العربي، ومع ضعف نظامها الصحي وانهيارها ناشدت المجتمع الدولي بالضغط على الولايات المتحدة لتخفيف العقوبات بحيث تستطيع استيراد المستلزمات الطبية اللازمة لمواجهة كورونا باعتباره وباء عالميا لا يمكنها بمفردها التصدي له، وقد كا نت مطالب إيران تلقى ترحيبا وتعاطفا من بعض الدول الأوروبية التي تواجه بعض شركاتها عقوبات أو تضطر للتحايل على سلسلة العقوبات الأمريكية

(١) مسـؤول عراقي: جداول زمنية في يونيو لانسحاب القوات الأمريكية، وكالة الأناضول للأنباء، بتاريخ ٢٦/٤/٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/34EJ7nD

(٢) الولايات المتحدة ستسحب ثلث قواتها بالعراق خلال الأشهر القادمة، تي أر تي عربي، بتاريخ ٢٨/٨/٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/31DgHZI

(٣) هشام جعفر، المنطقة العربية في زمن الكورونا: تفشّي الصراعات، موقع جدلية، بتاريخ ٣/٧/٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/VP415

(والتي كانت إدارة ترامب فرضتها عقب الانسحاب من الاتفاق النووي الإيراني الذي أبرمه سلفه باراك أوباما) للتعامل مع إيران، الأ مر الذي جعل الصراع بين الطرفين مفتوحا على احتمالات تصعيد كبيرة.

وعلى إثر هذه التطورات صعدت إيران من لهجتها وتحركاتها ضد الولايات المتحدة وشهد الخليج العربي أكثر من مرة احتكاكات بين زوارق تابعة للحرس الثوري الإيراني وسفن أمريكية في مياه الخليج، وهو ما دفع الرئيس الأمريكي، دونالد ترامب، إلى إعلان توجيه أمر للبحرية الأمريكية بإطلاق النار على أي زوارق إيرانية تتحرش بسفن بلاده.

وما يجب الالتفات إليه بشأن مستقبل الدور الإيراني، أنه إذا كان صحيحا أن الجائحة أراحت النظام الإيراني الحالي من موجة احتجاجية عاتية سبقتها، فإن مؤشرات أداء الحكومة في مواجهة الجائحة ومؤشرات تدهور الاقتصاد الإيراني وتأثره الشديد بانخفاض أسعار النفط وإجراءات الإغلاق، تضيف إلى أسباب الاحتجاج ضده وتجعل الأوضاع في إيران قابلة للانفجار في أي لحظة وقد تشهد صراعا سياسيا محليا شديدا يؤثر في أدوارها في المنطقة وصراعها مع دول جوارها، وخصوصا في ظل حروب أسعار النفط التي أشعلتها السعودية مع إيران وروسيا والولايات المتحدة قبيل الجائحة وفي بداياتها وألحقت خسائر فادحة بجميع منتجي النفط بما فيهم السعودية ودول الخليج.

وبشأن **روسيا**، تشير التحليلات أنه على الرغم من الصعوبات الداخلية التي تواجهها روسيا بسبب وباء "كوفيد-١٩"، إلّا أنها دأبت بشكلٍ ثابت أثناء الجائحة على تعزيز وجودها العسكري في سوريا وليبيا وشرق البحر الأبيض المتوسط ككل، في خطوة نجمت جزئيا عن التطورات الأخيرة، لا سيما التوسع العسكري التركي، ومنذ الانسحاب الأمريكي من بعض القواعد شمال سوريا تتوسع روسيا أكثر سواء في الرقة أو إدلب وقد وسعت عملياتها في تلك المناطق، كما حولت سوريا لقاعدة لانطلاق المرتزقة إلى ليبيا، حيث ظلت "مجموعة فاجنر" لشهور في المنطقة الغربية من ليبيا تحارب لدعم خليفة حفتر والتصدي لتركيا التي تدعم "حكومة الوفاق الوطني".

وقد لجأت موسكو بانتظام إلى استعمال تكتيكات سرية في تغطيتها الجوية، ووفقًا للجيش الأمريكي، ظهرت ١٤ طائرة من نوع "ميغ-٢٩" و"سوخوي-٢٤" في تلك المنطقة وكانت جميع علاماتها التعريفية مطلية لإخفائها. وفي يناير، وبينما كانت الجائحة في طور التفشي في المنطقة نقلت روسيا جوا مئات المتعاقدين مع الشركات العسكرية الخاصة، على الأرجح على خطوط "أجنحة الشام للطيران" من دمشق إلى بنغازي[1].

خاتمة:

أحدثت جائحة كورونا آثارا متناقضة على الحروب والصراعات، ففي بعض الأحيان قادت تبعاتها للتهدئة (وإن كانت مؤقتة)، وفي قضايا أخرى قادت للتصعيد، كما أنها بشكلٍ مباشر تؤثر تبعاتها الاقتصادية في تمويل العمليات العسكرية وتصاعد مطالبات محلية بمراجعة الإنفاق العسكري وترشيده لصالح الإنفاق على قطاعات الصحة والخدمات المرتبطة بها من تعليم ونقل وتمويل برامج التأمين الصحي الشامل، في المقابل فإن توقف بعض الإيرادات وضعفها قد يقود لصراع أكبر على الموارد سواء موارد الطاقة أو الغذاء.

مثلما أوجدت الحالة المرتبطة بأزمة كورونا ارتباكا في النظام الدولي والنظم الإقليمية فإنها طرحت تساؤلات تتعلق بقدرة الاقتصادات على تحمل كلفة امتداد الصراعات القائمة، وكذلك حول مسئولية النظم السياسية عن جنودها خارج الوطن.

برغم عدم القدرة على الجزم بنطاق تأثيرات معينة للجائحة على حالة الصراعات الدولية والإقليمية، إلا أن

(١) آنا بورشفسكايا، نشاطات روسيا العسكرية في شرق المتوسط تكرر نهجها تجاه سوريا، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، بتاريخ ٢٠٢٠/٦/١٧، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3aQeaxD

نتائج تداعياتها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وكذلك على تقوية عوامل عدم الاستقرار والصراع والاستغلال السياسي للجائحة داخل العديد من النظم السياسية قد تدفع باتجاه تغيير وإحلال نظم سياسية، وقد تقود النظم الجديدة أو محاولات الإحلال تلك إلى تهدئة أو تصعيد الصراعات الإقليمية.

رغم حقيقة انتقال مركز الثقل فيما تبقى من نظام إقليمي عربي إلى مراكز المال في الخليج العربي باعتبارها قادرة على إبقاء نظم وإسقاط أخرى وتدعيم مجموعات مسلحة في مواجهة تيارات سياسية معتدلة، تظل المنطقة العربية رهينة التوافقات والصراعات الدولية التقليدية، وتظل الأطر التنسيقية سواء فيما بين نظم الربيع العربي أو النظم المحايدة أو نظم المحور المعادي للثورات هي تنسيقات أمنية وعسكرية وباتجاه هدف وحيد ومؤقت هو القضاء على تنظيمات الإسلام السياسي، بل لم تفكر تلك المحاور في تعزيز تحالفاتها في مواجهة الجائحة بل تزايد التفاخر بنماذج الخلاص الفردي لتلك الدول، وفي هذا الإطار فإن الصراع على قيادة المنطقة وقيادتها بالتطبيع مع أعدائها التقليديين واصطناع حروب مع حلفاء تقليديين يظل محل نقد شديد ومحل صراع بين الشعوب والنظم، وهو ما لا يضمن لتلك النظم استقرارا، ويجعل من العلاقة بينهما علاقة يسودها الخوف وتوازن الرعب الذي قد ينفرط في أية لحظة.

ورغم افتراض أن الكوارث العالمية تحد من النزاعات والصراعات، إلا أن الملاحظ أننا إزاء تزايد الانقسامات في المنطقة ومحيطها الإقليمي بين المحور التركي القطري والمحور الإيراني والمحور الإماراتي السعودي المصري، وتتزايد مناطق الصراع بين هذه المحاور، سواء على مناطق النفوذ الاقتصادي والعسكري أو على قاعدة تأييد النظم المستبدة في مواجهة النظم الديمقراطية أو المحاور الطائفية التي لا غضاضة فيها أن تضم إسرائيل في مواجهة إيران، وتتزايد الاستقطابات بين مؤيدي تلك المحاور بشكل ينذر بصراعات ممتدة.

وعلى المستو ى الدولي أيضا، فإن هشاشة الأطر التعاونية في مواجهة الجائحة وبالذات آثارها الاقتصادية وعدم قدرة آليات النظام الدولي السائد والنظم الإقليمية المتفرعة عنه على الاستجابة الجماعية لتلك الجائحة بشكل أفضل، ومع احتمالية استمرارها في موجات ثانية وثالثة دون أفق للتعافي الاقتصادي، هنا يبقى الجوهر الصراعي للنظام الدولي سائدا وعلى منتقديه أن يوحدوا جهودهم في أطر حضارية وإنسانية تقوض الأسس القديمة لتلك المنظومة الدولية على ما تنطوي عليه من انعدام عدالة وتكافؤ واستغلالية وصراعية.

ختاما، لا يشترط أن يكون الصراع مسلحا لكي تتابعه مراكز الفكر والرأي والقنوات الإعلامية والصحافة، فهناك صراعات حالية ومستقبلية على الاستحواذ على شركات الأدوية ومعامل إنتاج اللقاحات بالإضافة لشركات إنتاج البذور والتقاوي وسلاسل الإمدادات العالمية، وهي صراعات يمكن أن ينجم عنها وفايات أو أضرار بالاقتصادات والبشر بما يفوق الآثار التدميرية للحروب ما لم توجد أطرا تعاونية لإدارتها.

*****



ما مصير الصفقات الإسرائيلية في فلسطين والأردن؟

طارق جلال(*)

مقدمة:

في الوقت الذي اتخذ فيه العالم هدنة من الصراعات الخارجية، وركّزت كل دولة على مواجهة تداعيات جائحة فيروس كوفيد-١٩، نجد أن دولة الاحتلال الصهيوني، تعاملت مع الوضع كفرصة لمزيد من الهيمنة والسيطرة على الأراضي الفلسطينية، واختلاس ما بقي من حقوق شعبها.

تاريخيًّا ، تتميز إسرائيل دوما باستغلال الحدث، وإذا لم يكن ثمة حدث للاستغلال، فإنها تصنعه وتفتخر به، وحتى في حالة وجود حدث معارض لها، تتجاهله كأنه لم يكن، وليس هناك أدل من رؤية أوباما "لا مفاوضات إلا بوقف الاستيطان"، فماذا فعلت إسرائيل؟ أكملت استيطانها بكل هدوء، فكيف تترك حادثاً مثل تفشِّي فيروس كورونا، في حقبة كحقبة ترامب.

وفي المقابل وجدت السلطة الفلسطينية وفصائل المقاومة ومعهم المملكة الأردنية في خندق واحد، في ظل حالة من التجاهل العربي التام لهم، وهو ما دفع ملك الأردن للهجوم بقوة على سياسات الكيان الصهيوني، في وقت يعلم فيه الغرب أن الملك حسين أحد أهم دعاة السلام في المنطقة.

يبحث هذا التقرير، تداعيات فيروس كورونا على القضية الفلسطينية، وتحديدا قضايا الضم، التي تحوَّلت إلى بوابة لقوافل التطبيع العربي مع الكيان الصهيوني، حيث يبحث الكيفية التي استغلّت بها إسرائيل الجائحة، وأبعاد التطبيع العربي، ومآلاته على قضايا الضم، ومستقبل القضية وفقًا للمستجدات الأخيرة.

١- نتنياهو من صفقة القرن إلى الكورونا:

ادَّعت حملة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب أن لديه مشروعا لتسوية الصراعات في الشرق الأوسط، وفي مقدّمتها الصراع العربي الإسرائيلي، من خلال مشروع تسوية شامل ونهائي، وقد وجدت بنود الصفقة التي أعلنها ترامب لحل الصراع حالة من الرفض الفلسطيني والأردني التام، لما تمثّله من تهديد وجودي على القضية الفلسطينية من جهةَ، والأمن القومي الأردني من جهة أخرى.

حاول رئيس الوزراء الإسرائيلي استغلال الحادث في توحيد الصف الداخلي خلفه، لتحقيق حلمه بضم المزيد من الأراضي ، مستفيدا من حالة الهلع التي أصابت الجميع، للضغط على خصمه السياسي بيني غانتس، ليقبل رؤيته في الضغط للمزيد من الضم، وكان لتوقيت إعلان الصفقة دلالات واضحة تستهدف مكاسب سياسية داخلية، فترامب أعلن عن الصفقة قبل الانتخابات الإسرائيلية في محاولة لدعم صديقه الصهيوني، ورغم بنود الصفقة إلا أنها لم تحدث النتائج المتوقَّعة لها، ووجد نتنياهو نفسه في مأزق عدم قدرته على تشكيل الحكومة، واضطر للدخول في انتخابات لمرة ثالثة، خاصة بعد فشل المحاولة الأولى في دعمه بإعلان القدس عاصمة للدولة العبرية، وقراره بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، لإسدال الستار على قرار تأخَّر لعقود من وجهة نظر الصهاينة. إلا أن نتنياهو وجد في انتشار فيروس كورونا الفرصة الأفضل للتحرُّك في تنفيذ أكبر قدر من صفقة القرن، حيث "إن تطبيق بند من بنود صفقة القرن هو طريق إلى تصفية القضية الفلسطينية بقوة الاحتلال، بعزمهم ضم أراضي غور الأردن، التي تمثل الشريط الممتد بين بحيرة طبرية، والبحر الميت والذي سيصبح

(*) باحث في العلوم السياسية.

بعد الضم الحدود الشرقية الجديدة للأراضي المحتلة مع الأردن، وكذلك تريد دولة الاحتلال ضم أجزاء من مساحات الضفة الغربية المحتلة، بجانب ضم ١٣٠ مستوطنة، ما يعني أن إقامة شبه دويلة أو محمية فلسطينية، لا ترتقي بفعلها إلى مستوى بلدية في الدول الحقيقية، وأنه بموجب الصفقة الأمريكية فإن الاحتلال سيضم ٣٠-٤٠% من مساحة الضفة الغربية، بما في ذلك كامل شرقي القدس، تمهيدًا لضم الضفة كاملة للسيادة الإسرائيلية مستقبلاً"[١].

واستغل نتنياهو جائحة كورونا لفرض أمر واقع من خلال مجموعة من الآليات، التي بدأها بالتحالف مع بيني غانتس زعيم حزب أبيض وأزرق، من أجل فرض السيادة الإسرائيلية على أراضٍ فلسطينية وأردنية، لكسب المزيد من أصوات اليمين المتطرف، حيث يسعى نتنياهو لاستغلال غانتس في تطبيق رؤيته، بما يساعده في استغلال مكاسب محلية، لحملته السياسية. رغم أن موقف غانتس في السابق، كان ضرورة الاتفاق مع الفلسطينيين، وعدم شروع إسرائيل في تنفيذ الأمر بمفردها، كي لا يرفضه المجتمع الدولي، إلا أن كورونا أجبرت غانتس على القبول برؤية نتنياهو.

حاول نتنياهو استغلال جائحة كورونا في محاولة منه لحرق خصمه العنيد غانتس، الذي وجد نفسه مضطرًا لتشكيل حكومة طوارئ مع نتنياهو، كي لا يظهر أمام الشعب بصورة سيئة، فقبل الدخول مع نتنياهو في حكومة مشتركة كان ذلك أقرب للمستحيل -أن يدخل غانتس في تحالف مع نتنياهو قبل جائحة كورونا- ولذلك شهدت إسرائيل ثلاث انتخابات متتالية في فترة زمنية قصيرة جدًّا، لعجز نتنياهو عن الحصول على أغلبية تمكّنه من تشكيل الحكومة، في ظل رفض حزب أزرق أبيض. إلا أن كورونا أنقذت الأول من انتخابات رابعة، كان من الممكن أن يخسر فيها المزيد، في ظل تزايد الاتهامات الموجَّهة له[٢].

ومثَّلت حكومة الطوارئ إنقاذًا لتوجُّهات نتنياهو المتشدّدة في خطط الضم، فقد جاءت في وقت الحديث عن محاكمَته في قضايا الفساد والرشوة التي حصل عليها، فكان من المنتظر أن يمثل أمام القضاء، في وقت يسعى فيه لكسب الانتخابات، لتحصين نفسه من أي عقوبة. والمحصّلة، أن حكومة الطوارئ منحت نتنياهو الفرصة في تطبيق مزايا صفقة القرن، وحرمان الجانب الفلسطيني من أي محاولة للتفاوض، وترك السلطة والفصائل لتضرب رأسها عرض الحائط، مستغلًا انشغال العالم في أزمة كورونا.

٢- خصوصية المواطن الفلسطيني في عصر كورونا:

استغلت الحكومة الإسرائيلية حاجتها لإصدار مجموعة من الإجراءات التي ترى أنها تستهدف الحفاظ على الصحة العامة وسلامة المواطنين، فأتاحت لجهاز الأمن "الشاباك" الحق في اختراق الهواتف المحمولة لجميع المواطنين، لإرسال رسائل تحذير للمصابين، وتتبُّع المخالطين لهم، وقد استعانت الحكومة في تأكيد شرعية القرار، وفقًا لحالة الاستثناء التي سبَّبها الفيروس، وضمان التزام المصابين والمخالطين لهم بالحجر المنزلي[٣]، وقد أتاح هذا القرار الحق لجهاز الشاباك في تتبُّع تفاصيل حياة أكثر من مليوني فلسطيني، وهو أمر سيساعد الجهاز في المستقبل على تسريب بيانات الفلسطينيين، بغرض ابتزازهم والتشهير بهم أو حتى تجنيدهم، ورغم أن العالم الغربي قد هاجم قيام الصين

(١) أحمد محيسن، "ضم الضفة والأغوار.. التداعيات على فلسطين والأردن (١ من ٢)"، عربي ٢١، ٢٥ مايو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٠ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/aZS9b

(٢) زايد الدخيل، "إسرائيل تستغل انشغال العالم بفيروس الكورونا لضم أراضي الغور"، الغد، ٦ مايو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/BJko8

(٣) بيروت حمود، "إسرائيل تستغل كورونا لأهداف أمنية"، الأخبار اللبنانية، ١٨ مارس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٣ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/09loM

بهذا الأمر في البداية، بحجَّة أن ذلك انتهاك كامل لخصوصية الأفراد، إلا أنهم تجاهلوا الأمر ذاته مع دولة الاحتلال[١].

وما يضاعف مساوئ حالة الطوارئ حاليًّا في الأراضي المحتلة غياب السلطة التشريعية، المتمثلة في تجميد الكنيست الإسرائيلي، نتيجة حالة الشلل السياسي الذي ضرب النظام السياسي عقب ثلاث جولات انتخابية؛ ولذلك فالسلطة التنفيذية حاليًّا لا تعرقلها أي ضوابط رقابية. فقد تضخَّمت الصلاحيات التي تتمتَّع بها الحكومة، بحجَّة سرعة إنجاز الإجراءات الاحترازية، رغم أنها حكومة تسيير أعمال مؤقَّتة، لحين تشكيل حكومة نظامية تتمتَّع بكافَّة الحقوق الدستورية.

ويعدُّ هذا القرار أحد أهم أدوات الحكومة الإسرائيلية في المستقبل لإحكام السيطرة على أي تحرُّك لإثارة الشعب في حال تنفيذ بنود صفقة القرن، حيث سيساعدهم في سرعة احتواء أي احتمالية لاندلاع انتفاضة جديدة.

٣- تهجير المقدسيّين وإفقار الفلسطينين

قامت حكومة الاحتلال باستغلال جائحة كورونا في تشديد الخناق على التجار المقدسيِّين، وزيادة ممارسات الإفقار ضدهم، حيث راكمت الضرائب عليهم، ولم تعفهم منها، ناهيك عن اتخاذ أي إجراءات حمائية اقتصادية، لمساعدتهم على تخطِّي الأزمة[٢]. كما فعلت مع نظرائهم من التجار الإسرائيليين، في ممارسة عنصرية، تستهدف تهجير المقدسيِّين من القدس، وتفريغها من أي تواجد فلسطيني.

فمنذ بدأت جائحة كورونا والسلطات الإسرائيلية تغرق في سياسة التهويد في القدس والخليل بصفة خاصة، فقامت بالاستيلاء على قرية بيتا والقرى المحيطة بها، حتى وصلت لجبل العرمة في نابلس[٣]، وقد "شلَّت جائحة كورونا اقتصاد الضفَّة الغربيَّة، وبما ينعكس على دخل السلطة الفلسطينية، ثم ما كادت السلطة تخفِّف من قيودها على حركة السكان، حتى قرَّرت الانسحاب من الاتفاقيات الموقَّعة مع إسرائيل، وبما يشمل مجمل علاقات التنسيق بينهما، بما في ذلك استلامها أموالها الضريبية المستحقَّة لها من الاحتلال، وهو ما يعني أزمة اقتصاديَّة ثالثة عامَّة تشمل السلطة نفسها والمواطنين، وضغطًا مباشرًا على كل فرد فلسطيني"[٤].

على الجهة الأخرى، ما تزال سياسات السلطة التي تقودها حركة فتح في استنهاض الجماهير الفلسطينية شبه منعدمة، ولم توضِّح نيَّتها التوجُّه للشعب وترك التنسيق الأمني، "ولم تصارح قيادة السلطة الجماهير بخطواتها القادمة، بالرغم من أنَّها حمَّلت الجماهير عبئًا اقتصاديًّا ضخما بعجزها عن دفع فاتورة الرواتب... أمَّا الإدارة والممارسة، فلا تشجِّع الجماهير على المسارعة إلى تقديم التضحيات، وهي ترى أن السلطة صارت مكسبا محتكرا لطبقة معيَّنة، كما يتَّضح في القوانين المستجدَّة والتعيينات والترقيات، دون مراعاة للتحدِّي السياسي الخطير"[٥].

٤- التطبيع العربي: محاولة جديدة

(١) المرجع السابق.

(٢) "إسرائيل تستغل كورونا في إفقار المقدسيِّين"، رام الله الإخباري، ٢٥ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع ٢٧ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/EaPbw

(٣) صحف عربية: هل يستغل نتنياهو وباء كورونا من أجل أهداف سياسية"، بي بي سي عربي، ١٤ مارس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٢ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/8hq8w

(٤) ساري عرابي، الرد على ضم الضفة.. المعاناة لا تكون من طرف واحد!، عربي ٢١، ٩ يونيو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٠ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/HirVf

(٥) ساري عرابي، هل تريد السلطة استنهاض الجماهير لمواجهة تحدِّي الضم؟!، عربي ٢١، ٢٣ يونيو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٣ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/I7qcv

في ظل انشغال العالم بغلق حدوده ووقف حركة الطيران لمنع انتشار الفيروس، قامت الإمارات بإرسال طائرتين للمساعدات الطبية إلى فلسطين، لمساعدة السلطات في أزمة نقص الدواء والأدوات الطبية اللازمة، ورغم الترحيب والفخر الذي أعلنه أنصار سياسات محمد بن زايد، إلا أنه غاب عنهم مجموعة من الاعتبارات، أولًا: أن تنسيق إرسال المساعدات تمَّ بين حكومة الإمارات والحكومة الإسرائيلية، ودون أي تنسيق مع السلطة الفلسطينية، أو حتى إعلامها بأنه ثمة طائرات مساعدات في الطريق إليهم، بل إن السفير الفلسطيني في أبوظبي لم يكن يعرف بأمر المساعدات، وهو الأمر الذي دفع مسؤولي السلطة الفلسطينية لرفض تلك المساعدات، لأنها ألغت وجودهم، وأكدت على رؤية الكيان الصهيوني بعدم وجود دولة فلسطينية، و أن الفلسطينيين ضمنيًا جزء من الدولة اليهودية الكبرى، وهو ما دفع حركة فتح لوصف الحادث بالمشبوه، كما أن إرسال مساعدات إلى الضفة الغربية بالتنسيق مع المسؤول الإسرائيلي حاكم الضفة الغربية فحسب، هو بمثابة إعلان وقبول بسياسات الضم التي تقوم بها إسرائيل[1].

بعد تلك الحادثة، وفي وقت انشغال العالم العربي والإسلامي بمدى جدية وإصرار إسرائيل على قرارات الضم، خرجت بيانات رسمية تعلن عن اتفاق أمريكي – إسرائيلي – إماراتي، مفاده تطبيع العلاقات بين تل أبيب وأبوظبي، برعاية أمريكية، مقابل توقف خطة ضم الأراضي الفلسطينية إلى إسرائيل، بحسب ما صرح وزير الدولة للشؤون الخارجية أنور قرقاش، معتبرا إياه إنجازا دبلوماسيًا تاريخيًا للأمير محمد بن زايد[2]. في حين رد نتنياهو وسفير واشنطن في إسرائيل، أن الاتفاق يؤجل خطط الضم بصورة مؤقتة دون أن يلغيها تماما[3].

يرى أنصار الإمارات أن القرار تاريخي وداعم للقضية الفلسطينية بوقف إجراءات الضم، بينما ترى حماس وأنصار المقاومة، أن التطبيع طعنة في ظهر مشروع الدولة الفلسطينية المستقلة. فقد دعت مبادرة السلام العربية التي طرحتها السعودية في عام ٢٠٠٢ إلى إنهاء الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وحل الدولتين وفقًا لحدود ١٩٦٧، واعتبار القدس عاصمة للدولة الفلسطينية، قبل تطبيع العلاقات مع إسرائيل، ولكن غيرت الإمارات والبحرين النهج، وتحكتا نحو التطبيع دون اعتبار للقضية الفلسطينية.

ومع ذلك، أعلن المتحدث باسم السلطة الفلسطينية أن تقييمه للقرار يتوقف على الكيفية التي ستتعامل بها حكومة إسرائيل، فإذا قبلت بقرارات الشرعية الدولية والمبادرة العربية للسلام، التي تعطي لفلسطين الحق في تأسيس دولتها على حدود ١٩٦٧، أما أنها ستخالف كعادتها تلك البنود، وستأخذ من الاتفاق مع الإمارات ما يحقق لها مصالحها وحسب[4].

تدرك الإمارات أن تطبيع العلاقات بينها وبين دولة الاحتلال الإسرائيلي دون سبب منطقي، سيجعلها تاريخيًا في مكانة الخائن للقضية، ولذلك حاولت أن تكسب موقفا تدلل عليه في تاريخها، بأنها أوقفت سياسات الضم، من

(١) كيف استغلت الإمارات جائحة كورونا لتعزيز التطبيع مع إسرائيل؟ (تقرير)، وكالة الأناضول، ١٢يونيو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١١ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/PmAR5

(٢) قرقاش: قرار وقف ضم الأراضي الفلسطينية إنجاز دبلوماسي تاريخي، سكاي نيوز عربية، ١٣ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٣٠ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/259Da

(٣) عبدالجبار أبو راس، أنور قرقاش يصدق على تصريحات نتنياهو بشأن "خطة الضم"، وكالة الأناضول، ١٥ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٠ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/gwbfr

(٤) الإمارات وإسرائيل: اتفاق على التطبيع واختلاف على الضم، الغد، ١٤ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٠ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/qaM25

خلال تنازلها وقبولها التطبيع مع إسرائيل مقابل إنقاذ أراضي فلسطين، وذلك لأنه غير مفهوم أن تدخل دولة لم تحارب من الأساس في اتفاق سلام بينها وبين دولة عدائية، فما السبب للسلام، إذا لم يكن هناك حرب، ولكنها استخدمت قضية الضم، كبوابة لفتح التطبيع على مصراعيه.

وهناك سبب آخر قد يفسّر الاتفاق الأخير، وهو أن أبوظبي أرادت أن تمنح دونالد ترامب إنجازا سياسيًّا كبيرا يمكن أن يستخدمه للترويج في أوساط اليمين اليهودي، لكسب المزيد من أصواته في الانتخابات الرئاسية المقبلة، لاسيما أن الاتفاق جاء قبل شهرين فقط من الانتخابات، وفي ظل تراجع إحصاءات دعم ترامب، تبدو الحاجة لحدث كبير، يمكن الترويج له، وفي حال نجاح ترامب، سيكون من الواجب عليه رد الجميل للإماراتيين، وما يدعم هذا التصور، أن الإمارات منخرطة في تحالف استراتيجي حقيقي مع الكيان الصهيوني، سواء أعلنت أم أخفت، كما أن موقفها من صفقة القرن واضحا، عندما حضرت مؤتمر الإعلان الرسمي عن الصفقة.

وداخليًّا، يعد حدوث اتفاق سلام تاريخي بين إسرائيل ودولتين عربيتين هما الإمارات والبحرين، أعظم ما يمكن أن يحقّقه مسؤول إسرائيلي، وإنجاز كبير في مجال السياسة الخارجية لنتنياهو، وهو إنجاز لم يتمكن سوى زعيمين إسرائيليين آخرين من تحقيقه، عندما وقع مناحم بيجن على معاهدة سلام مع مصر في عام ١٩٧٩. ووقّع إسحاق رابين على معاهدة سلام مع الأردن في عام ١٩٩٤[١]. ففي الوقت الذي يعاني فيه نتنياهو محليًّا، وجد ضالّته في تحقيق نجاح أوسع من بوابة الخليج، وهو ما أهدته له دولة الإمارات العربية المتحدة.

كان من اللافت أن تهبط طائرة إماراتية للمرة الأولى بعلمها على مطار صهيوني وبتنسيق كامل مع حكومة الاحتلال علنا، ولكن ثمة أمور وجب ذكرها هنا، أن الموقف الإماراتي ليس جديدا ولا وحيدا، فثمة حادث كاشف يتمثّل في ورشة البحرين الاقتصادية، التي عقدت لتسويق صفقة القرن اقتصاديًّا، وهي الورشة التي شاركت أبوظبي والبحرين ومسقط فيها رسميًّا، كما أن القاهرة والدوحة والكويت وغيرها من العواصم العربية، أشادت بالجهود الأمريكية، ما يعني تأييدا لما حدث، أو عجزا عن مواجهته، والمحصلة، أن ما تقوم به الإمارات اليوم سيكون بداية حقيقية لتصفية القضية الفلسطينية بصورة كاملة، وذلك في ظل تزايد وجهة النظر التي ترى أن جزءا رئيسيًّا من تخلُّف المنطقة وانهيارها وعدم تقدُّمها، يعود بسبب القضية الفلسطينية، والصراع العربي الإسرائيلي، الذي سيحل بمجرد تصفية الصراع[٢]. ولذلك لا يمكن النظر إلى موقف الإمارات من الضم، بأنها بادرت بالتطبيع مع تل أبيب لانقاذ أرض فلسطين، بل هو إعلان تصفية حقيقي ونهائي للقضية الفلسطينية، بالدخول في حالة سلام دائم مع إسرائيل، وبالتالي أي دعوة للمقاومة، هي إضرار بالإقليم العربي برمَّته، وإزعاج لحالة الاستقرار المنشودة.

خاتمة: ردود الفعل بين فلسطين والأردن

إن الأحداث الكبيرة تنتج تجليات عظيمة عادة، ولذلك لا يتوقع أن يمرَّ قيام إسرائيل بضم مساحات شاسعة من أراضي فلسطين والأردن مرور الكرام، وهو الأمر الذي يفهم بجلاء من تصريح الملك حسين، "بأن إقدام إسرائيل على الضم، سيحدث عواقب وخيمة لا يمكن تحملها"، وهو يدرك ما يقول بناء على التقارير التي يحصل عليها من أجهزته الأمنية والاستخباراتية، خاصة مع وجود الملايين من

(١) أورين ليبرمان، تحليل.. من يستفيد من اتفاق الإمارات والبحرين مع إسرائيل وكيف حدث؟، سي إن إن العربية، ١٥ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع ١٨ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/d1J2f

(٢) ساري عرابي، "صفقة القرن" والتردي العربي.. سياقات ودلالات، الجزيرة نت، ١ فبراير ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٧ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/H5EnN

الفلسطينيين على أرض الأردن. فضم مساحات أراضي غور الأردن يعني إطباق الطوق على ما تبقّى من الأراضي الفلسطينية المحتلّة وعزلها عن التواصل الحدودي مع الأردن. وهذا يعني استحالة قيام دولة فلسطينية حسب رؤية حل الدولتين. مما يعني انتهاء رؤية حل الدولتين. ويعني انهيار وحل السلطة الفلسطينية وانتهاء دورها الوظيفي. والذهاب لخيار الدولة الواحدة والمقصود بها هي يهودية دولة الاحتلال أحادية القومية. والانقلاب على كل ما تمّ توقيعه مؤخرا من اتفاقيات ومعاهدات بين دولة الاحتلال وقيادة السلطة الفلسطينية. ويعني الضم أيضا ممارسة الهمز واللمز بالتوطين وإحياء طرح ساسة دولة الاحتلال للوطن البديل. وهو ما يعني تشكيل خطر حقيقي على الهوية الأردنية. وعلى أمنها الوطني ويستهدف مصلحة الأردن العليا، حيث من الممكن أن تقدم قوات الاحتلال على تهجير موجة جديدة من الفلسطينيين للأردن بقوة السلاح وبقوة المحاصرة والتضييق والتطفيش[١].

وللمفارقة، تشابه تصريح الملك حسين مع تصريحات الاتحاد الأوروبي، بتحذيره إسرائيل من خطورة الضم على استقرار المنطقة[٢]، ويخشى الاتحاد الأوروبي من التهديدات الدبلوماسية والسياسية؛ التي أعلنتها السلطات الأردنية بسحب السفير الأردني وإبلاغ السفير الإسرائيلي بأنه شخص غير مرغوب به، وهو ما قد يهدّد معاهدة السلام التي عقدت في تسعينيات القرن الماضي ولو أن هذا المسار مستبعد في الوقت الحالي، حيث قد تستبدله الحكومة، بالنظر إلى اتفاقية الغاز، وكذلك التنسيق الأمني والاستخباراتي الذي سيتأثر بقوة، في حال تم تنفيذ الضم، وقد سعت الأردن لرفع تكلفة الضم، لتهديد إسرائيل، وهو ما كان سببا من أسباب التأجيل الذي حدث، مهما حاولت دولة الاحتلال التقليل من الضغوط الأردنية[٣].

إذ يرى الرافضون للضم، أنه قد يعيد الصراع الفلسطيني الإسرائيلي للمربع صفر، في حال اندلعت مظاهرات عارمة، وأدّت إلى سقوط ضحايا من الجانبين، وسيزداد الأمر سوءا، إذا عادت المقاومة بالتفجيرات، من خلال تفجير المطاعم والكافيهات والأتوبيسات، حينها لن يكون هناك حديث حول حل الدولتين، بل سيعود التفاوض حول ضرورة تجنُّب الأعمال العنيفة الدموية، وهو السيناريو الذي يخشى منه الاتحاد الأوروبي، لأنه سيلغي مكتسبات اتفاق أوسلو، الذي يرى أن سياسات الضم تؤدّي إليه، لأنها لن تترك خيارا أخر أمام الفلسطينيين[٤].

أما بالنسبة للسلطة الفلسطينية فقد حاولت تهديد الكيان الصهيوني بإعلان الانسحاب من الاتفاقيات الموقعة بينهما، ثم تلته برفض الحصول على أموال المحاصصة الضريبية، للتأكيد على جدّيّتها في هذا الموقف، إلا أنها لم توضّح استراتيجية متكاملة للمقاومة ومواجهة إسرائيل، فقد وجدَت السلطة الفلسطينية نفسها في موقف لا تحسد عليه، بعدما وجدت أن طريق المفاوضات قد أثبت فشلًا ذريعا في تحقيق أي مطالب ولو هامشية.

ومن جانب آخر، وفي ظل حالة الغليان الشعبي من ضياع حلم دولة فلسطينية، وفقا للبنود التعجيزية التي اشترطتها وثيقة ترامب للسلام، فأخذت دعوات المصالحة تتزايد، لتنسيق الجهود الوطنية، والتحرُّك في خطوات مواجهة

(١) أحمد محيسن، مرجع سابق.

(٢) إيكونوميست: ضم الضفة الغربية يكلف إسرائيل ثمنًا باهظًا، الجزيرة نت، ٢٨ يونيو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٢٠ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/oD0VA

(٣) جواد العناني، الأردن وسيناريوهات الضم، العربي الجديد، ٢٨ مايو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٣٠ أغسطس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/pnQWv

(٤) خطط ضم الضفة الغربية: هل تدفع إسرائيل الفلسطينيين إلى "خيار الجنون الثوري"؟، بي بي سي عربي، ١٧ يونيو ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ٤ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/cXIY4

السياسات الصهيونية، ثم جاءت مبادرة أنقرة، وجلست فتح وحماس ووعدت كلا الحركتين بحل الأزمات بينهما، من خلال تشكيل لجنة لإنهاء الانقسام، وبالتوازي تشكيل لجنة وطنية من شتى الفصائل الفلسطينية، لتنسيق الجهود في تطوير مقاومة شعبية شاملة في شتى المساحات، استغلالاً لحالة الزخم التي حقَّقتها المظاهرات التي انطلقت في الشهور الماضية للتأكيد على الحقوق الفلسطينية، والتي أظهرت أنه ثمة تحول استراتيجي في رؤية فصائل المقاومة المسلحة لكيفية النضال، بحيث اقتربت المسافة بينها وبين بعض توجُّهات السلطة وحركة فتح[1].

إلا أن السؤال الجاري، ما الذي سيجعل اتفاق المصالحة هذه المرة أقدر على الصمود؟ فالسلطة لا ترى أي مشكل في المسار التفاوضي ونتائجه الوخيمة التي تحقَّقت حتى يومنا هذا، حيث تربط بين الفشل وبين المحايد غير النزيه القابع في البيت الأبيض، وهو ما يوضِّح حجم الهوة بين فتح وحماس، حيث ترى الأخيرة أن مسَار أوسلو أهدر حقوق الفلسطينيين.

ربما الأمر أخطر ما يكون نظرا لدخول إسرائيل في علاقات طبيعية مع عدد من الدول العربية، ما يعني تفريغ القضية الفلسطينية من حاضنتها الإقليمية، كما أن عوامل نجاح المصالحة ما زالت غائبة، وما تزال في مرحلة البيانات والشعارات التي تسعى لاحتواء الغضب الفلسطيني ليس إلا، وهو ما دفع إسرائيل للتجرُّؤ واتخاذ خطوات تصعيد مستمرَّة.

إن القول بفشل السلطة الفلسطينية اليوم، لا يعني القبول بانسحابها وإلغائها بدون ترتيب مسبق، لا سيما وأن حياة مئات الآلاف من الأسر الفلسطينية، قد أصبحت جزءا لا يتجزأ منها، وبالتالي فانسحاب السلطة، وتركها الجماهير في مواجهة ديونها والتزاماتها الاقتصادية، قد يحدث نتائج سلبية أكبر، وبالتالي ربما هناك طريقة أخرى للتعامل مع السلطة، تبدأ من ترسيخ عقيدة تقديم مواجهة الكيان الصهيوني على تصفية الحسابات الداخلية، فقد أهدرت فلسطين سنوات من نضالها في صراعات أبنائها بعضهم مع بعض.

فأول الحلول أن تصبح قضية السلطة الأولى، هي كيفية مواجهة العدو، وسيترتب على هذا الأمر إعادة تشكيل هوية السلطة ورؤيتها، بحيث تصبح نموذجا حيًّا لمكونات الشعب الفلسطيني وممثلاً عنهم، وحينها يجب أن تستعد لمواجهة شاملة من حكومة الاحتلال، ولكنها يجب أن تستعد لهذا الأمر وتدرك سيناريوهات الخروج منه، من تلك النقاط يمكن بناء رؤية استراتيجية حقيقية موحَّدة للفصائل الفلسطينية وبتنسيق لجهودها وتوزيع للمهام بينها بدلًا من الصراع بينهما، وحينها لن يكون هناك خوف على من سيمثل السلطة.

وأخيرا، هناك خط رفيع بين العجز والانفجار، فإسرائيل تدرك أن السلطة عاجزة عن التحرُّك، وبالتالي فهي تمضي في سياساتها، وتقرر القيام بفعل أو تأجيله وفقا لأهدافها التكتيكية، إلا أن انهيار السلطة الفلسطينية، سيعني لا محالة العودة للمربع السابق لمرحلة ما قبل اتفاق أوسلو، حيث المقاومة في كل مكان، وحينها لن تتمكن إسرائيل من مواجهة الغضب الشعبي، حيث كان واضحا أن خطط الضم تواجه تحديات كبيرة، وأن التحذيرات التي خرجت من قلب الأجهزة الإسرائيلية، تحذّر من مغبَّة حدوث فوضى غير مأمونة العواقب، تستغلها فصائل المقاومة في تهديد أمن إسرائيل.

كما أن تطبيق الضم كان سيزيد من حالة الكراهية ضد إسرائيل في الغرب والعالم أجمع، ولذلك كان ضريبة الأمر أكبر من المتوقع، ولذلك فربما كان أحد أسباب التصعيد الخطابي الإسرائيلي في إصراره على الضم، يعود إلى تهيئة الطريق أمام دخول الدول العربية في موائد التطبيع الصهيوني، حيث استغلّته الإمارات –وتلتها البحرين– بأنها

(١) ساري عرابي، اجتماع الأمناء العامّين للفصائل الفلسطينية.. مسافات مملوءة بالخطابة!، عربي ٢١، ٨ سبتمبر ٢٠٢٠، تاريخ الاطلاع: ١٠ سبتمبر ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/TUG4U

ظهرت وكأنها كانت تدافع عن أراضــي فلســطين، في حين صمتت باقي الدول، لأنها مجبرة على الأمر، أو مستفيدة من المزايا التي ستحصل عليها من واشنطن بفضل التطبيع، سواء كانت شرعية دولية، أو صفقات تسليح عسكرية، أو دعما في قضايا معينة.

*****



مكافحة الإرهاب والتطرف ومواجهة الوباء: كيف أثر كلاهما في الآخر في رؤى غربية؟

محمد الديب(*)

مقدمة:

في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ صار الإرهاب ومكافحته على رأس قضايا الأمن العالمي، وأصبح أولوية لعديد من الدول، وصار التهديد الأبرز والأكثر احتمالية لأمنها القومي، واستخدمته عديد من الأنظمة الحاكمة ذريعة للاستبداد الداخلي، وأخرى للتدخلات الخارجية، وخصصت له الأنصبة الأكبر في الميزانيات، ودربت الجيوش وقوات الأمن لمكافحته بكافة طرقه وأشكاله، غير أنه -وفي مطلع هذا العام ٢٠٢٠- ومع تفشي وباء كورونا المستجد COVID-19 في غالب دول العالم وتحوله لجائحة عالمية ظهر أنه ثمة تهديدات أكثر خطورة من مصادر لم تكن في الحسبان.

تسبب الفيروس -الذي لا يرى بالعين المجردة- في أن يمكث ملايين من البشر في بيوتهم هربا من الوباء سريع الانتشار، تطبيقًا لسياسات التباعد الاجتماعي التي طبقتها الحكومات طوعا وكرها، وتأثرت كافة أنشطة البشر بالتغيرات التي أحدثها الفيروس، وفوجئت الحكومات أن ثمة مؤسسات وهيئات كان ينبغي الالتفات إليها كما التفتت إلى الإرهاب واستراتيجيات مكافحته والميزانيات المخصصة لذلك.

في الورقة التالية نسعى لفحص علاقة التأثير والتأثر بين كل من الإرهاب وطرق مكافحته من جهة، وجائحة كورونا وآليات مكافحتها من جهة أخرى، لاسيما في الرؤى الغربية، وسوف نتعرض لرؤية الأمم المتحدة، ثم نتعرض لحالة بريطانيا كنموذج لفحص التأثير المتبادل بين الظاهرتين (مكافحة الإرهاب ومكافحة الوباء)، وعلى هذا سيكون ترتيب الورقة كالتالي: المحور الأول: كورونا والإرهاب: التداعيات الفعلية والمآلات المحتملة، المحور الثاني : تأثير الجائحة على مكافحة الإرهاب وفق رؤية الأمم المتحدة، المحور الثالث: بريطانيا.. توظيف استراتيجية مكافحة الإرهاب لمواجهة تفشي الوباء، قبل أن نصل إلى مجموعة استنتاجات.

المحور الأول- كورونا والإرهاب: تداعيات فعلية ومآلات محتملة:

في هذا المحور نستعرض أهم الرؤى النظرية للتغيرات التي يمكن أن تطرأ على ما يسمى بالإرهاب نفسه وما في حكمه من جرائم العنف والكراهية، على مستويي الأفكار والعمليات؛ مع عدد من النماذج والأمثلة الواقعية الدالة على وقوع ذلك فعلا، لإبراز كيف تؤثر جائحة كورونا وما صاحبها من تحولات في الدول والمجتمعات على العمليات الإرهابية والأفكار المتطرفة وحامليها(1):

١- تصاعد المواقف المناهضة للحكومات وكشف الستار عن أفكار متطرفة

أدت السياسات التي اتخذت لمواجهة تفشي جائحة كورونا والمتمثلة في إغلاق مواقع التجمع وفرض تباعد اجتماعي إلى تصاعد حدة المواقف المناهضة للحكومات وتراجع ثقة المواطنين فيها وازدياد مستويات الإحباط في كافة أنحاء العالم، وقد وتوفر هذه العوامل بيئة خصبة لانتشار الأفكار المتطرفة وتتيح فرصا قد يستغلها المتطرفون.

(*) باحث في العلوم السياسية.

(1) Gary Ackerman and Hayley Peterson, Terrorism and COVID-19: Actual and Potential Impacts, PERSPECTIVES ON TERRORISM, Volume 14, Issue 3, P60, available at: https://cutt.us/V7tMe

بالعودة إلى التاريخ، فقبل قرابة مائة عام في أعقاب الحرب العالمية الأولى، كانت المناطق الأكثر تضررا بالأنفلونزا الأسبانية هي الأكثر ميلا إلى الأفكار المتطرفة؛ ففي ألمانيا مثلا ارتفع دعم سكانها للحزب النازي في الانتخابات اللاحقة في أوائل الثلاثينات. كذلك فالظرف الحالي يسمح بترويج الشائعات والأفكار المضللة ونظريات المؤامرة؛ ومنها مثلا من انتشر من ادعاءات بأن أبراج شبكات الجيل الخامس للاتصالات 5G تتسبب في نقل الفيروس، وأن الفيروس ظهر في مدينة ووهان الصينية أول الأمر لأنها بدأت في استخدام تلك التكنولوجيا؛ وهو ما دفع بعض المواطنين للهجوم على عدد من أبراج الاتصالات في أبريل المنصرم وصل إلى ٧٧ برجا[١]؛ مما دفع الشركات الأربع الكبرى في مجال الاتصالات لإصدار بيان يطلب المساعدة لحماية تلك الأبراج من أصحاب نظرية المؤامرة، وتكرر الهجوم على الأبراج في هولندا أيضا، وكانت منظمة الصحة العالمية قد نفت تلك المزاعم؛ مصرحة بأن: "الفيروسات لا تستطيع الانتقال عبر موجات الراديو أو شبكات الهواتف المحمولة. ينتشر مرض كوفيد-١٩ في العديد من البلدان التي لا توجد فيها شبكات الجيل الخامس للهواتف المحمولة"[٢].

كذلك ارتفعت أصوات بعض الأفكار اليمينية المتطرفة، كما فعلت **حركة قانون** QAnon[٣] في الولايات المتحدة حين ادعت أن هناك من يقف خلف انتشار الفيروس ربما الصين أو بل جيتس ومؤسساته، ومن خلفه "الدولة العميقة" التي تعمل على إعاقة ترامب وإفشاله، وعلى الجانب الآخر لاحت الفرصة لحركات يمينة متطرفة مثل **حركة بوجالو** التي شجعت على العنف[٤]؛ للرد على المظاهرات التي وقعت في الولايات المتحدة عقب مقتل الأمريكي الأفريقي جورج فلويد على يد شرطي في مينيسوتا.

٢- تحفيز حركات متطرفة تعتنق نبوءات دينية بنهاية العالم:

إن كانت هناك حركات متطرفة تستغل الوباء لممارسة نشاطاتها أو ترويج أفكارها، فثمة حركات أخرى تعاملت مع الوباء بشكل سلبي؛ لأنها تتبنى معتقدات تزعم بأن العالم بشكله الحالي لابد أن ينتهي، فعمل الوباء في القضاء على البشر هو هدف مرغوب بالنسبة إليها أو قدر محتوم، إلا أن الجماعات والحركات الأكثر خطورة هي التي ترى أنه لا بد من التدخل للإسراع من عملية نهاية العالم بصورته الحالية، وتبشِّر بألفية سعيدة تنتظر البشرية بعد نهاية العالم الحالي، ومن أمثلة تلك الحركات طائفة **أوم شينريكيو** اليابانية، و**جماعة العهد والسيف وذراع الرب** CSA في الولايات المتحدة الأمريكية[٥] التي تحمل معتقداتها تنبؤات بأن المجتمع الأمريكي سينهار قريبا على إثر اضطرابات ضخمة، وأن الولايات المتحدة ستعاني من انهيار اقتصادي أو ربما تتعرض لحرب نووية.

٣- النشاط المتطرف صار متاحا من البيت:

طالت القيود التي اتخذت لمواجهة الوباء كل البشر، ولم يستثن من هذا المتطرفون، لكن أتاح البقاء في المنزل فرصا وأوقاتا للمتطرفين لتحسين مهاراتهم التقنية؛ كالسعي لأخذ دورات لتعلم كيفية صناعة القنابل على سبيل المثال، والازدياد في نشر وإنتاج المواد الدعائية لترويج أفكار تلك الكيانات،

---

(١) الشيخ اليوسي، "QAnon".. هكذا تنشر حركة أمريكية نظريات مؤامرة حول ترامب، موقع هيسبريس، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/DLkJQ

(٢) أحمد عواد، بعد إحراق بعضها في بريطانيا وهولندا.. هل تنشر أبراج الـ G٥ فيروس «كورونا»؟، موقع جريدة المال، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/x1z8b

(٣) أفكار انتشرت في الولايات المتحدة عبر الشبكة العنكبوتية تتبنى نظرية المؤامرة، وأن هناك محاولات لإفشال ترامب تقودها الدولة العميقة في الولايات المتحدة، وتتخذ هذه الأفكار من زعماء الحزب الديمقراطي أعداء لها .

(٤) "فيسبوك تحظر حسابات مرتبطة بحركة بوجالو الأمريكية المناهضة للحكومة"، خبر منشور على موقع جريدة الشروق، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/dWeYr

(٥) لمزيد من التفاصيل حول هذه الحركة انظر التعريف بها على موقع ويكيبديا باللغة الانجليزية على الرابط: https://cutt.us/hMxTW

وإذا كانت الجائحة قد حالت دون إقامة معسكرات للتدريب فقد ظهرت بدائل افتراضية على برامج المحادثات المسموعة والمرئية التي أعيد اكتشافها وأقبل عليها الملايين حول العالم مثل برنامج زووم Zoom. ومن ناحية أخرى، فهناك فرص لشن هجمات سيبرانية لإصابة بنى تحتية وأهداف حيوية، منها المستشفيات والمراكز الطبية بما يساعد في تفاقم الوباء وإعاقة سبل مواجهته(١).

٤- إمكانية تحول الفيروس لسلاح إرهاب بيولوجي:

كشفت جائحة كورونا عن نقاط ضعف عديدة في الأنظمة الصحية للدول سواء في دول الشمال المتقدمة أو الدول الفقيرة والنامية، وظهر ذلك في ضعف القدرة على مواجهة انتشار الفيروس مما أدى إلى إصابة الملايين في مختلف دول العالم، وقد دفع هذا إلى تفكير بعض المتطرفين في استخدام الفيروس كسلاح بيولوجي، وإن كانت هذه الفكرة لم تلاق قبولًا إلا عند فئة محدودة. وكانت **حركة النازيين الجدد** قد شجعت أتباعهم على "تعمد نقل العدوى" بفيروس كورونا إلى اليهود والمسلمين(٢).

وفي حالة استخدام الفيروس سلاحا بيولوجيا يستهدف به البشر فإن أضراره لن تقتصر على الأضرار البدنية لمن يصاب بالفيروس، بل ثمة أضرار نفسية واجتماعية ستلحق بغير المصابين نتيجة الذعر والخوف من استخدام الفيروس سلاحا ضدهم.

٥- انخراط المتطرفين في نشاطات مفيدة للمجتمعات؟!

اتصفت ردود أفعال الحكومات تجاه انتشار الجائحة بالقصور، وتفاوتت درجات القصور بين مختلف الدول، ولم تنج دول الشمال المتقدمة من هذا، فتضاربت القرارات والسياسات الخاصة بإدارة الأزمة، ولما كان انتشار الفيروس قد طال مناطق متعددة في كافة الدول التي انتشر فيها الفيروس فقد واجهت بعض الحكومات صعوبات في التعامل مع المناطق النائية والفقيرة والتي تفتقر إلى الحدود الدنيا من الرعاية الصحية؛ وهو ما أتاح فرصة لتنظيمات غير قانونية بالتدخل كبديل للحكومة المحلية لمساعدة المتضررين من الفيروس؛ وهو ما يعد فرصة للترويج والدعاية لأفكار تلك التنظيمات، وربما لتجنيد أفراد جدد والحصول على تمويل فيما بعد. وفي الولايات المتحدة قامت **بعض الجماعات الفوضوية** بتوزيع مجاني للغذاء وقدمت جهودا كبيرة للمساعدة في معالجة الاضطراب الاجتماعي الناجم عن الوباء(٣).

٦- ازدياد فرص التعرض والتأثر بالدعايات المروجة للتطرف

تبنت معظم دول العالم سياسات الإغلاق لضمان التباعد الاجتماعي التي شملت المؤسسات الحكومية والخاصة، والمدارس والجامعات، وظهرت أدوات وبرامج للعمل عن بعد وللتعليم عن بعد لمواصلة الأعمال بأقل خسائر ممكنة ولإكمال المسارات الدراسية؛ وهو ما أدى إلى المكوث على الانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي لفترات أطول من المعدلات المعتادة، ومن ناحية أخرى فقد سادت عدة مشاعر سلبية لدى الكثيرين كالخوف من الإصابة بالمرض، أو الإحباط واليأس نتيجة فقدان الوظيفة، والقلق بشأن المستقبل المبهم نتيجة تغير الأحداث بشكل جذري على نحو مفاجئ، وربما يتطور الحال لدى البعض إلى انتهاج سلوكيات مدمرة للذات أو إدمان المخدرات، وكل ما سبق من عوامل اجتماعية ونفسية أدت إلى ازدياد فرص التعرض للدعاية التي

(1) Gary Ackerman and Hayley Peterson, Op.Cit, P 63 .

(٢) ليزي ديردن، النازيون الجدد يوصون أنصارهم بنقل عدوى كورونا إلى اليهود والمسلمين، موقع independentarabia، على الرابط: https://cutt.us/SK3Jf

(3) Gary Ackerman and Hayley Peterson, Op.Cit, P 61.

يقوم بها أصحاب الأفكار المتطرفة، لاسيما أن الأخيرين قد استغلوا الظروف الراهنة ونشطوا في الدعوة لأفكارهم.

ففي الولايات المتحدة شهدت القنوات المشفرة على تلجرام Telegram المرتبطة بعدد من المجموعات اليمينية المتطرفة نموا كبيرا في المشتركين الجدد بعد إنفاذ سياسات الإغلاق، وبعد عشرة أيام من إجراءات الغلق زاد المحتوى الخاص باليمين المتطرف والمعروض بنسبة ١٣%، وزاد انتشاره ومشاركته بنسبة ٢٠% على شبكة الإنترنت[١].

٧- استهداف مواقع غير تقليدية أو مؤمنة أثناء الوباء

نظرا لسياسات الإغلاق فإن الأهداف التقليدية للعمليات التخريبية مثل المطارات ومحطات مترو الأنفاق وأماكن الترفيه لم تعد ذات أهمية لانخفاض معدلات التواجد البشري فيها وربما انعدامه، لكن من ناحية أخرى ازداد الإقبال على المستشفيات والمراكز الطبية، ومن ثم صارت تلك الأماكن أهدافا محتملة للمخربين، فاستهداف مستشفى في ظل الجائحة سيكون ذا تأثير إعلامي ضخم. وفي مارس قتل مواطن أمريكي يدعى تيموثي ويلسون -له صلة بالنازيين الجدد- على يد قوات التحقيق الفيدرالي، بعدما فشلت الأخيرة في القبض عليه عندما لتفجير مستشفى يعالج فيه مرضى مصابون بفيروس كورونا[٢].

ومن ناحية أخرى، أدت سياسات التباعد إلى خفض مستوى التأمين على بعض المنشآت الحيوية، وقد يكون لهذا الوضع ثلاث عواقب على الأقل بالنسبة للإرهاب: أولها- إتاحة الفرصة لاستهداف أماكن ومنشآت حيوية، حتى لو كانت غير مأهولة بالمواطنين لكنها ذات دلالة رمزية مثل الأماكن المقدسة، وثانيها- إتاحة الفرصة لاستهداف منشآت ذات أهمية استراتيجية مثل مخازن السلاح، وثالثها- تفكير بعض المتطرفين في مهاجمة السجون وأماكن الاحتجاز لتحرير ذويهم[٣].

ويخلص هذا المحور غلى أن ثمة ارتباطا عالي الاحتمال وله شواهد واقعية غلى أن بيئة الكوارث مثل جائحة كورونا هي بيئة موائمة لأفكار التطرف والعنف وممارساتهما في الغرب، ولكن ذلك لا يخلو من متغيرات وسيطة تؤازر ذلك التأثير أو تثبط من قوته وعلى رأسها الأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة. ومن ثم ننتقل إلى رؤية أكثر تدقيقا في الإطار ذاته.

المحور الثاني- تأثير الجائحة على مكافحة الإرهاب وفق رؤية الأمم المتحدة

في يوليو الماضي عقدت الأمم المتحدة سلسلة من الحلقات الدراسية الشبكية والنقاشات التفاعلية حول "**التحديات الاستراتيجية والعملية لمكافحة الإرهاب في بيئة وبائية عالمية** " في أسبوع سُمي بأسبوع مكافحة الإرهاب، وصرح الأمين العام في الجلسة الافتتاحية رفيعة المستوى والتي جاءت بعنوان: "**عالم ما بعد كوفيد-١٩: ملامح ونقاط محورية ومزايا التعاون متعدد الأطراف**" أنه برغم تسبب كوفيد-١٩ في إحداث اضطرابات شديدة في النظم الصحية والاقتصادات والمجتمعات المحلية حول العالم، إلا أنه من السابق لأوانه إجراء تقييم كامل لآثار هذه الجائحة على المشهد الإرهابي، وسلط الأمين العام للأمم المتحدة الضوء على خمسة مجالات لتوجيه الأعمال المستقبلية في مجال مكافحة الإرهاب؛ وهي[٤]:

- التأكيد على الاستمرار في مكافحة الإرهاب رغم صعوبته في ظل الجائحة.

---

(1) Ibid, P 62.
(2) Ibid, P 66.
(3) Ibid, P 66.

(٤) مكافحة الإرهاب في ظل كوفيد-١٩: الأمين العام يسلط الضوء على خمسة مجالات بشأن مستقبل مكافحة الإرهاب، موقع أخبار الأمم المتحدة، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/YneUe

- مراقبة التهديدات والاتجاهات الإرهابية المستحدثة.
- الاستجابات لمكافحة الإرهاب مع الحفاظ على حقوق الإنسان.
- معالجة انتشار السرديات الإرهابية والأفكار المتطرفة.
- تبادل المعلومات الاستخباراتية بين كافة الدول

أعقب ذلك في أغسطس الماضي –وعبر جلسة افتراضية لمجلس الأمن عبر الشبكة العنكبوتية– صرح فلاديمير فورونكوف مدير مكتب الأمم المتحدة لمكافحة الإرهاب أن "أزمة جائحة كورونا قد أبرزت التحديات التي ينطوي عليها القضاء على الإرهاب، وأن هذه البيئة الوبائية تثير العديد من التحديات الاستراتيجية والعملية لمكافحة الإرهاب[١].

في السطور الآتية نعرض لتأثيرات فيروس كورونا على التطرف والإرهاب حسب ما طرحه معهد التدريب والبحث التابع للأمم المتحدة UNITAR وأبرز فيه أهم الاتجاهات الإيجابية، والاتجاهات السلبية والسبل المقترحة لمواجهتها، والتحديات المستجدة التي أفرزتها الجائحة، وهي كما يلي[٢]:

- **الاتجاهات الإيجابية:**

١- تراجع عمليات التجنيد والتوظيف للجماعات المتطرفة : نظرا لسياسات الإغلاق والتباعد الاجتماعي، ففرص جذب أفراد جدد للتنظيمات المتطرفة انحسرت بشكل كبير نتيجة التزام عدد كبير من المواطنين بالمكوث في البيت.

٢- تراجع الاهتمام الإعلامي بالجماعات المتطرفة بسبب التركيز على الجائحة: فلا شك أن أحد أهداف الحركات المتطرفة بث الخوف والرعب في نفوس الجمهور، وما هو سينحسر أيضا بسبب تسليط وسائل الإعلام المحلية والعالمية على الجائحة وتداعياتها.

٣- السخط المحتمل من أعضاء التنظيمات المتطرفة تجاه قادتهم: فإن كانت الحكومات ستنال نصيبها من المعارضة والانتقادات اللاذعة من شعوبها، فعلى الجانب الآخر يدين أعضاء التنظيمات المتطرفة بالولاء لقادتهم، وفي حال فشل هؤلاء القادة في حماية قواعدها من الوباء فربما يؤدي هذا إلى حالة من السخط تجاههم يؤول إلى انصراف الأتباع عن القادة والتنظيم بالكلية بحثا عن الأمان.

- **الاتجاهات السلبية والآليات المقترحة لمواجهتها:**

١- زيادة انتشار المعلومات المضللة ونظريات المؤامرة والدعاية السلبية: وقد سبقت الإشارة لهذه النقطة، ويقترح التقرير أن تواجه ببناء وتطوير استراتيجيات للاتصال الفعال لمنع ومكافحة انتشار المعلومات المضللة ونظريات المؤامرة المتعلقة بالوباء، وتحسين قدرات الجهات الفاعلة الرئيسية، مثل قادة المجتمع ومنظمات المجتمع المدني المحلية؛ لمواجهة الرسائل والروايات المتطرفة وخطاب الكراهية وانتشار المعلومات الكاذبة، مع الحفاظ على حرية التعبير.

٢- زيادة عمليات التوظيف والتجنيد عبر الإنترنت: وتواجه من خلال تطوير الحلول والأدوات الرقمية للوصول إلى الأفراد المعرضين للخطر، وتشجيع قادة الرأي ورجال الدين لمواجهة التجنيد عبر الإنترنت.

٣- وقوع نتائج عكسية لسياسات الإغلاق والتباعد الاجتماعي من احتجاجات وفوضى: وتواجه عبر

---

(١) مجلس الأمن: تعزيز التعاون العالمي بشأن مكافحة الإرهاب ينبغي أن يظل أولوية أثناء وبعد كوفيد-١٩، موقع أخبار الأمم المتحدة، متاح عبر الرابط التالي: https://news.un.org/ar/story/2020/08/1060292

(2) IMPACT OF COVID-19 for Peace ON VIOLENT EXTREMISMAND TERRORISM, UNITAT,available at: https://cutt.us/aALca

تطوير قدرات قوات الأمن والسلطات المحلية لضمان احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية أثناء تطبيق تدابير الإغلاق، بناء وتطوير قدرات قوات الأمن لتحسين التواصل والتفاهم مع المواطنين.

- **التحديات المستجدة لعمليات مكافحة الإرهاب:**

أشار التقرير إلى عدد من التحديات التي تواجه عمليات مكافحة التطرف والإرهاب منها:

١- الاستراتيجيات المعدلة لشن هجمات عنيفة مثل استهداف المستشفيات بدلًا من الأماكن العامة، وتعمد نشر العدوى بين المواطنين لبث الذعر، وأبرز آليات المواجهة تكمن في تحسين إمكانيات قوات الأمن وزيادة تأمين المستشفيات والمراكز الطبية وتطوير أدوات لمنع انتشار العدوى.

٢- أدى انتشار الجائحة إلى تقليص أعداد قوات الأمن الدولي المنتشرة في عدة دول لمساعدة القوات المحلية لمواجهة التطرف وتقديم الدعم والتدريب اللازم مما أضعف قدرات القوات المحلية على مواجهة الإرهاب، وأبرز آليات المواجهة هي؛ البحث عن بدائل للتدريب عبر الشبكة العنكبوتية، والاستمرار في دعم البلدان الأكثر عرضة للعمليات الإرهابية، والسعي لتطوير القوات المحلية لكي تتمكن من تطوير قدراتها ذاتيا دون الحاجة إلى مساعدة القوات الدولية قدر المستطاع.

٣- أسهمت الجائحة في توقف مبادرات السلام وعمليات التنمية التي تسهم بشكل كبير في دعم الحكومات المحلية وتقويض النشاطات الإرهابية؛ وهو ما قد يتسبب في إحياء دور الحركات المتطرفة حينما تعرض نفسها مقدمة خدمات وتشارك في توفير الغذاء والسلع الأساسية للسكان "المعرضين للخطر"؛ ومن ثم اكتساب الثقة والتقدير لزيادة قاعدة الدعم والتجنيد، وأبرز الحلول المقترحة لمواجهة توقف عمليات التنمية وبناء السلام هي: زيادة دعم وتعزيز قدرات الفواعل المحلية مثل منظمات المجتمع المدني لبناء وتنفيذ مبادرات بقيادة محلية، والسعي لإقامة مباردات عبر الإنترنت من أجل دعم جهود التنمية حيثما أمكن ذلك، وتطوير حلول تكنولوجية مبدعة عبر الإنترنت لدعم جهود بناء السلام أثناء الوباء.

٤- ظهور طرق جديدة لتمويل الإرهاب؛ منها: الحصول على تبرعات خفية ظاهرها مساعدات إنسانية لإغاثة المتضررين من الجائحة لكنها توظف في تمويل العمليات الإرهابية، وتواجه عبر استحداث آليات للرقابة المالية لمنع المتطرفين من جمع الأموال ونقلها، وزيادة التوعية المجتمعية بما تقوم به تلك التنظيمات.

تركز ما سبق على تأثير الجائحة القادمة (المتغير الجديد) وسياسات التعامل معها على المشكلة القائمة (التطرف والإرهاب: المتغير القديم)، وتبين أن آثارها المحتملة وتداعياتها الفعلية تتراواح بين سلبيات كبيرة وإيجابيات ممكنة، لكن ثمة وجها آخر للعملة يتعلق بنماذج من استراتيجيات التعامل مع الوباء من أرضية التعامل مع الخطر الإرهابي، على النحو الذي أبرزته التجربة البريطانية ونستعرضه فيما يلي.

المحور الثالث– توظيف استراتيجية مكافحة الإرهاب لمواجهة تفشي الوباء: بريطانيا نموذجا

خلافًا لغالبية دول العالم قامت الاستجابة الأولى في بريطانيا لتفشي الفيروس على سياسة مناعة القطيع، وتعتمد هذه الطريقة على أنه يمكن الحد من تفشي الفيروس بعدما يصيب عددا كافيا من الناس ثم يتوقف انتشاره نتيجة تكون أجسام مضادة تحول دون انتقال العدوى بنفس القوة، إلا أن هذا النهج لم يستمر، وكانت المفارقة أن رئيس الوزراء البريطاني الذي أعلن عن مناعة القطيع أصيب بكورونا ونَقل إلى المستشفى قبل أن يتماثل للشفاء، ومع ارتفاع معدلات الإصابة بالفيروس، تأكدت دوائر صنع القرار أنه يمثل تهديدًا حقيقًا لبريطانيا.

ومن ثم فقد عملت –فيما قامت به– على استثمار استراتيجياتها لمكافحة الإرهاب في مكافحة تفشي الفيروس، وسنتناول فيما يلي توضيح استراتيجية مكافحة الإرهاب في بريطانيا، وكيف أسهمت في إيجاد آليات لمواجهة انتشار الوباء.

○ **استراتيجية مكافحة الإرهاب الخاصة بالمملكة المتحدة** CONTEST Strategy:

وضعت بريطانيا استراتيجية لمكافحة الإرهاب تسمى CONTEST Strategy وتهدف إلى تقليل المخاطر التي قد تتعرض لها أراضي بريطانيا أو رعاياها أو مصالحها بالخارج(١)، حتى يمارس مواطنوها حياتهم بحرية وثقة، ويرمز إلى هذه الاستراتيجية بـ4P اختصاراً للأحرف الأول من الأفعال الأربعة: Prevent, Pursue, Protect, Prepare، إشارة إلى الركائز الأربع لهذه الاستراتيجية، ويمكن توضيحها كما يلي(٢):

أ) المنع (Prevent): لمنع الأفراد أن يتحولوا لإرهابيين أو داعمين للإرهاب، وذلك عبر عدة آليات، منها:

- التركيز على تأمين الأهداف التي لها أولوية عند التنظيمات الإرهابية.
- عقد برامج تأهيلية للأفراد الأكثر عرضة للتوظيف والتجنيد من قبل الإرهابيين.
- مراقبة الشبكة العنكبوتية لمنع نشر المواد الدعائية المروجة للتطرف.
- بناء شراكات أقوى مع المجتمع المحلي ومنظمات المجتمع المدني ومؤسسات القطاع العام والقطاع الخاص.

ب) التعقب (Pursue): لوقف الهجمات الإرهابية التي قد تحدث في بريطانيا وتعرقل المصالح الخارجية البريطانية، عبر بما يلي:

- سن تشريعات جديدة لمكافحة الإرهاب بغرض إعاقة التهديدات الإرهابية في بريطانيا في مرحلة مبكرة.
- تقديم المقاتلين الأجانب للعدالة وفقا للإجراءات القانونية اللازمة إذا كانت هناك أدلة على ارتكاب جرائم، بغض النظر عن جنسياتهم.
- توظيف أكثر من ١٩٠٠ موظف إضافي في جميع أجهزة الأمن والاستخبارات، كما ورد في استراتيجية الأمن القومي عام ٢٠١٥.

ج) الحماية (Protect): لتعزيز الوقاية من أي هجوم إرهابي، من خلال:

- تجميع وتحليل أكبر قدر من البيانات عالية الدقة لتعزيز القدرة على استهداف الأشخاص المشتبه انتماؤهم للتنظيمات الإرهابية.
- رفع مستوى التأمين في الأماكن المزدحمة، والتعاون مع أكبر قدر ممكن من الجهات الحكومية وغير الحكومية لتحقيق ذلك.
- عقد شراكات مع قطاع الطيران والشركاء الدوليين لتوفير قاعدة أمنية قوية ومستدامة للطيران في بريطانيا وخارجها.

د) الاستعداد (Prepare): للتخفيف من تأثيرات أي هجوم إرهابي، والسعي لتلافي آثاره بشكل سريع، من خلال الآليات الآتية:

(1) Raffaello Pantucci, Key Questions for Counter-TerrorismPost-COVID-19, counterterrorist Trends and Analysis, vol12, No 3, April2020, P 1, available at: https://cutt.us/W5o1v

(2) "CONTEST: the United Kingdom's Strategy for Countering Terrorism," Home Office (UK), June2018, P P 10, available at: https://cutt.us/KwTKI

- استمرار تقديم الدعم والتمويل للأجهزة المعنية بمعالجة حالات الطوارئ والظروف الاستثنائية.
- ضمان أن تظل الحكومة البريطانية قادرة على التصدي لكافة التهديدات الكيميائية والبيولوجية والإشعاعية والنووية والمتفجرة.
- العمل على إحداث توافق وتجانس بين المستويات والأجهزة المنوط بها التعامل مع حالات الطوارئ.
- إجراء تدريبات مستمرة واختبارات متكررة لكل الجهات التي تتصدى لحالات الطوارئ، لمواجهة للتهديدات المحتملة ابتداء، وسرعة الإفاقة والتعافي حال وقوع تهديدات فعلية، وتقليل الخسائر الناجمة عنها.

○ استثمار هياكل مكافحة الإرهاب وآليات مواجهة الجائحة:

ارتأت الحكومة البريطانية أن ثمة تداخلا بين طرق مكافحة الإرهاب التقليدية وطرق مكافحة انتشار الوباء؛ ومن ثم سعت لتطويع واستثمار استراتيجتها تلك لمواجهة الوباء الذي بدأ في الانتشار في أراضيها، وفيما يلي أهم مظاهر التداخل بينهما:

١- استعارة حالة التأهب القصوى خماسية المستويات:

أعلن رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون عن تصميم وإعلان حالة تأهب قصوى من مستويات خمس متدرجة ومختلفة الألوان بحيث يعبر عن درجة انتشار المرض وعدد الحالات المصابة في شتى أنحاء البلاد، وبالتالي تحديد الإجراءات الواجب اتخاذها، والمستويات الخمس للإنذار وهي[1]:

- المستوى الأول– أخضر فاتح (منخفض): ويعني أن الوباء لم يعد موجودا داخل البلاد؛ ومن ثم لا تتخذ أية إجراءات، ويعمل كل من القطاع العام والخاص وفقا للظروف المعتادة.
- المستوى الثاني – أخضر غامق (محدود المدى): ويعبر عن انتشار محدود للوباء، وبناء عليه تعمل المؤسسات الصحية الوطنية بشكل طبيعي، وتفتح المدارس والشركات وفق إجراءات احترازية.
- المستوى الثالث – أصفر (ضرر كبير): ويعبر عن انتشار الوباء في الحياة العامة، وعليه تعمل المؤسسات الصحية الوطنية بتعبئة إضافية، وتستمر القيود المفروضة على القطاع العام والخاص وسائر أعمال الحياة اليومية.
- المستوى الرابع – برتقالي (خطر محقق): ويعبر عن أن الوباء أصبح ينتقل بسهولة عبر الهواء والرذاذ، ويواجه بالإغلاق الجزئي، وتبذل المؤسسات الصحية الوطنية قصارى جهدها لمواجهة تفشي الوباء.
- المستوى الخامس – أحمر (أقصى درجات الخطر): ويعني تفشي الوباء بصورة سريعة وعلى نطاق واسع، ويواجه بكل من الإغلاق الكامل لكافة المؤسسات، ودعم المؤسسات الصحية الوطنية للحيلولة دون انهيارها مع زيادة الأعداد.

يقلد[2] هذا النظام المستخدم لحالة التأهب لمواجهة الجائحة النظام المتبع في حالة إعلان الطوارئ حالة وقوع تهديدات إرهابية، والذي ابتكره المركز المشترك لمكافحة الإرهاب The Joint Terrorism Analysis

(1) Dan Sabbagh, Boris Johnson announces five-tier coronavirus alert system, The Guardian Website, available at: https://cutt.us/4IikW

(2) Nikita Malik, Pandemic Preparedness: A U.K. Perspective on Overlaps with Countering Terrorism, CTC SENTINEL, Vol 13, No 6, June 2020, P 50, available at: https://cutt.us/4lQSd

Center (JTAC)[(١)] ، وكان المركز قد حدد مستويات خمسة للتهديدات الإرهابية، وهي[(٢)]:

- منخفض: ويعني استبعاد وجود تهديدات.
- متوسط: ويعني إمكان وقوع تهديدات لكنها لا يرجح وقوعها في الأمد القريب.
- حقيقي: ويعني احتمالية غير مؤكدة وقوع تهديدات .
- خطير: ويعني وجود احتمالية مؤكدة لوقوع تهديدات .
- حرج : ويعني وجود احتمالية مؤكدة لوقوع تهديدات.

٢- تعيين مسئول أمني ليرأس المركز المستحدث لمواجهة الأوبئة:

أنشأت الحكومة البريطانية جهازا جديدا وسمته مركز الأمن الحيوي Joint Biosecurity (JBC) Centre، وللمركز وظيفتان أساسيتان؛ الأولى وظيفة تحليل البيانات الخاصة بتفشي الأوبئة (كورونا وما بعده) لفهم وتقييم معدلات الإصابة داخل البلاد، والثاني تقديم الاستشارات للحكومة بشأن الطرق المثلى لمواجهة الوباء، وتحديد درجة الفتح والإغلاق للمؤسسات الحكومية والخاصة.

الجدير بالذكر أنه تم تعيين توم هارد Tom Hurd ليصبح أول مدير لمركز الأمن الحيوي، ويتمتع هارد بخبرة واسعة في العمل في مجال مكافحة الإرهاب والشئون الأمنية؛ وهو أيضا خبير في شئون الشرق الأوسط وسبق له العمل دبلوماسيا في المنطقة، وقد سبق أن تولى منصب المدير العام لمركز الشئون الأمنية ومكافحة الإرهاب التابع للحكومة البريطانية[٣].

٣- مواجهة تفشي الوباء عبر مسار مشابه لاستراتيجية مكافحة الإرهاب CONTEST

اتبعت الحكومة البريطانية مسارا مشابها لإستراتيجيتها لمكافحة الإرهاب CONTEST، والتي تعتمد على الركائز الأربع السابق ذكرها أعلاه (الحماية والوقاية والمتابعة والاستعداد)؛ وتستند هذه الاستراتيجية إلى حالة المرونة والانسجام بين مختلف الهيئات، مع التأكيد على حماية المنشآت الحيوية، وكافة وسائل المواصلات، ويظهر هذا التشابه في الأطوار الأربعة لمكافحة الوباء والتي أعلنتها الحكومة البريطانية، وهي:

الطور الأول (الاحتواء containment): وتتضمن مرحلة الاحتواء محاولة اكتشاف الحالات مبكرا وتتبع جميع المخالطين لتجنب انتشار المرض.

الطور الثاني (التعطيل Delay): في حال إخفاق مرحلة الاحتواء وبدأ المرض في الانتشار، وارتفعت الحالات بشكل كبير، يتم الانتقال إلى مرحلة التعطيل، حيث تُكثف الجهود لتأخير انتشار المرض عبر سياسات "التباعد الاجتماعي" وهي سياسات قابلة للتطبيق لمحاولة منع تفشي الوباء حتى يتم اكتشاف لقاح.

الطور الثالث (البحث العلمي Research): في حالة الإخفاق في تأخير الانتشار (المرحلة الثانية)، تتجه الحكومة لتكثيف الجهود لمعرفة المزيد حول كيفية انتشار الفيروس وكيف يمكن علاج المصابين به بشكل أكثر فعالية.

---

(١) جهاز أنشأه المكتب الخامس البريطاني (المخابرات الحربية) عام ٢٠٠٣ بغرض تحليل وتقييم كافة المعلومات الاستخباراتية المتعلقة بالإرهاب الدولي، داخل بريطانيا وخارجها، ويحدد الجهاز مستويات التهديد، ويصدر الإنذارات، ويتابع كافة القضايا المتعلقة بالإرهاب مع عدد كبير من الأجهزة والإدارات الحكومية، ويصدر تقارير لمتابعة اتجاهات وقدرات وتحولات التنظيمات الإرهابية، لمزيد من التفاصيل انظر الموقع الرسمي للجهاز على الرابط: https://cutt.us/OCGDP

(2) Threat Levels of Security Service M5, available at: https://cutt.us/uT3Ty

(3) Nikita Malik, Op. Cit.

المرحلة الرابعة (التخفيف Migitate): وهو السيناريو الأسوأ حين تبدأ تزيد الضغوط على الخدمات العامة بشكل واضح، ويصير الفيروس في هذه المرحلة متفشيا على نطاق واسع ، ويتم تحجيم دور الشرطة فلا تتعامل إلا مع الحالات شديدة الخطورة، وتغلق المستشفيات فلا تستقبل إلا حالات شديدة الخطورة، ويمكن استدعاء المتقاعدين من العمل في المجال الطبي، مع تأمين كل من يعمل في القطاع الطبي ويتعامل مع حاملي الفيروس.

٤- تشابه الخطاب الإعلامي:

في الأول من نوفمبر عام ٢٠١٦ أطلقت حملة إعلامية في بريطانيا من قبل وزير السكك الحديدية بول ماينارد، من أجل تشجيع ركاب القطار على الإبلاغ عن أي عناصر أو أنشطة غير عادية[١]، وعلقت ملصقات على الحافلات ووسائل النقل العامة تحمل عبارة (See it, Say it, Sorted)، ومعنى الأفعال الثلاثة؛ دقق النظر[٢]: أي كن يقظاً لأي شيء يبدو في غير محله أو غير معتاد في القطارات أو في المحطات، وانطق بما رأيت: أي إذا شاهدت شيئا مريبا فأخبرنا به، وسنعتني بما تدلو به من معلومات ونضعها في مكانها المناسب.

استخدمت الحكومة البريطانية الآلية السابقة لمواجهة الجائحة؛ فعلقت ملصقات على وسائل المواصلات والقطارات لنشر التوعية بما يجب على المواطنين فعله[٣]، بالتنبيه على أهمية المكوث في المنزل والامتناع عن الخروج إلى الشوارع والأماكن العامة إلا للضرورة، والمواظبة على غسل اليدين، والإبقاء على مسافة كافية من الآخرين، وهو ما يرسخ في أذهان المواطنين خطورة الفيروس، وأهمية الالتزام بالاحتياطات عندما يقارن بين تلك الملصقات ونظائرها الخاصة بدوره في مكافحة الإرهاب والتي سبق أن رآها من قبل، وقد وصف وزير الصحة البريطاني مات هانكوك مواجهة فيروس كورونا بأنها "حرب ضد قاتل غير مرئي" !

٥- استدعاء حالة "الاستثناء التشريعي"

حين تواجه دول ما تهديدات إرهابية، فإحدى آليات المواجهة هي استحداث تشريعات جديدة و"استثنائية"؛ وهو ما تم استدعاؤه في مواجهة الجائحة، ففي مارس الفائت كشف صحيفة ديلي تلجراف عن تشريعات عاجلة تمنح حكومة جونسون سلطات كاسحة لمواجهة انتشار الجائحة في بريطانيا، وكانت أبرز هذه التشريعات المقترحة[٤]:

- للشرطة حق إنهاء التجمعات وإجبار الناس على العودة إلى منازلهم للحد من انتشار المرض.
- للحكومة الحق في الأمر بإحراق جثث الموتى بدلا من دفنها، والحق في نقل الجثث والتخلص منها بالطرق التي تراها مناسبة.
- فيما يتعلق بالصحة النفسية والعقلية، فإنه وفقا لمشروع القانون يصبح من الممكن إيداع شخص مصحة عقلية أو نفسية وفقا لرأي طبيب واحد، بدلا من طبيبين كما هو متبع وفقا لقانون الصحة النفسية لعام ١٩٨٣.
- لدى مسئولي الصحة العامة والهجرة السلطة الكاملة "لتنفيذ معايير الصحة العامة، بما في ذلك إعادة الأشخاص إلى الأماكن التي طُلب منهم البقاء فيها".

---

(1) New National Rail security campaign starts today: “See It. Say It. Sorted”, British Transport Police Website, available at: https://cutt.us/GFxEf

(2) ‘See It. Say It. Sorted.’ How you can help keep the railway safe, British Transport Police Website, available at: https://cutt.us/svYNp

(3) Nikita Malik, Op Cit, P 50

(٤) الديلي تلغراف: "سلطات غير مسبوقة" لحكومة بريطانيا لمواجهة وباء كورونا،موقع بي بي سي عربي، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/e1yg1

- إقامة جلسات المحاكمات عبر خدمة الفيديو، لتفادي الاحتكاك بين عدد كبير من حاضري المحاكمات[1].
- إمكانية استدعاء الأطباء والممرضين والمختصين الذين تقاعدوا خلال السنوات الماضية، لمواكبة الضغط المتزايد المتوقع على المستشفيات في حال تفشي المرض على نطاق واسع.

مما سبق يتضح أن الحكومة البريطانية وظّفت ما سبق وأن طرحته من استراتيجيات وآليات لمكافحة الإرهاب لتواجه به الجائحة التي تفشت في البلاد، وإلى الآن فالرأي العام في بريطانيا بين مؤيد لهذا التوظيف أملاً في نجاحه في مهمته المستحدثة، ومعارض لها لكونها تمنح الحكومة صلاحيات واسعة يُخشى أن تستغل في تقييد الحريات مستقبلاً، فضلاً عن الفروقات بين كلا التهديدين والتي تشكك من جدوى نقل آليات مكافحة الإرهاب للتصدي لكورونا!

استنتاجات:

تساءل التقرير عما عسى أن يكون من تأثير متبادل بين الجائحة الصحية والتهديد الأمني، وقد توصل البحث إلى هذه الخلاصات والنتائج:

١- عند الحديث عن تأثيرات وتداعيات جائحة كورونا على الإرهاب ومكافحته فلابد من التأكيد على أننا نتحدث عن أزمات لا زالت قيد التشكل ولم تتبلور بعد بصورة كاملة، وعلى هذا يصعب الجزم بتداعيات الجائحة على الإرهاب في المستقبل القريب أو البعيد، وفي الوقت نفسه فالأزمة التي تمر بها دول العالم ربما تكون الحدث الأبرز التي يمر بها النظام العالمي بعد حادثة الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وتداعياتها، والتي أسهمت في إعادة تشكيل العلاقات الدولية على نحو مختلف.

٢- تعددت تأثيرات الجائحة على الأنشطة الإرهابية، فمن ناحية عطلت بعض النشاطات كالأعمال التقليدية، وسرعت وحدثت من نشاطات أخرى كالدعايات الإلكترونية، وربما تُحدث أنواعا أخرى من التهديدات كإمكانية استخدام الفيروس سلاحا بيولوجيا.

٣- استغلت الجائحة سياسا من قبل الأنظمة الحكومية ومعارضيها، فالأولى وسعت من صلاحياتها ونفوذها واتخذت مواجهة الوباء تبريرا لذلك، والثانية استغلت الإخفاق الحكومي في التعامل الأمثل مع الوباء لاجتذاب معارضين في صفها وشن هجوم على الأنظمة الحاكمة.

٤- تسبب الجائحة في تعديل الأولويات الأمنية للدول، فبعدما كان الأرهاب يمثل التهديد الأكبر، استعدت له الدولة بتحسين قدراتها العسكرية والأمنية والاستراتيجية، صارت قضية "الأمن الصحي" على رأس الأولويات، وبعدما كانت الدول الكبرى تنظر للأمن الصحي كوسيلة لمساعدة الدول الفقيرة التي تعاني من أوبئة؛ أي التعامل على نطاق دولي، فوجئت الدول الكبرى أنها تعاني من فجوات ضخمة وخلل واضح في منظوماتها الصحية، لم يكن في الحسبان في مواجهة عدو لا يرى بالعين.

٥- إحدى أهم القضايا التي ستظهر على السطح فيما يتعلق بمكافحة الإرهاب بعد انقضاء جائحة هو الموازنة في تخصيص الميزانية المناسبة للأخطار والتهديدات المتوقعة، فبعدما كانت الأولوية في الميزانية لمكافحة الإرهاب التقليدي، لاعتقاد الدول أن الإرهاب هو الخطر الأقرب والأكثر وقوعا، فوجئت الدول بتهديد من نوع آخر، تسبب في

(١) بريطانيا .. قانون طارئ للتعامل مع تفشي فيروس كورونا، موقع عرب لندن، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/i43Ox

خسائر بشرية أكثر مما يفعله الإرهاب، ومن ثم ستسعى الدول الكبرى مستقبلاً في تدعيم منظوماتها الصحية وتخصيص ميزانية أكبر مما اعتيد عليه في السابق، وهو ما قد ينعكس سلبا على ميزانية مكافحة الإرهاب.

٦- ربما تتفاوت ردود أفعال الأنظمة الحاكمة بعدما تنقضي الأزمة، فبعضها سيسعى إلى تجديد وتطوير دوائر الأمن القومي الخاصة بها، وإدماج الأمن الصحي وقضاياه داخل تصوراتها وآلياتها للحفاظ على أمنها وسلامة مواطنيها، وإيجاد مؤسسات تتسم بالمرونة والقدرة على التعامل مع التهديدات المختلفة، والبعض الأخر سيستغل الظروف الاستثنائية من تقييد للحرياتٍ وتعد على الخصوصيات، ويقلب الاستثناء أصلاً لفرض مزيد من السيطرة والاستبداد.

٧- انعكست السياسات والمواقف المتباينة التي اتخذتها الحكومات حول العالم، وردود أفعال شعوبها لمواجهة الجائحة على السجالات الفكرية التي يهتم بها دارسو العلاقات الدولية والدراسات الأمنية من مختلف المدارس النظرية، ومن أهم هذه السجالات ما يدور حول مفهوم "الأمن" بين الأمن القومي والأمن العالمي والأمن الإنساني، وما يسمى بعملية "الأمننة" لقضايا كانت تبتعد عن الأمن التقليدي، وعلى رأسها قضايا الصحة، فتحولات وتغيرات عالم ما بعد كورنا لن تقتصر على السياسات العملية بل ستمتد حتما لعالم الأفكار والتنظيرات!

*****



كورونا ومآل الجيل الثاني من الانتفاضات العربية

مدحت ماهر الليثي(*)

مقدمة:

أثبت ما يمكن وصفه بالموجة الثانية من الانتفاضات الشعبية العربية (أو الثورات على خلاف في الوصف) أنَّ العالم العربيَّ أضحى "منطقة بركانية سياسيًّا"، وعرضةً للتفجُّر في أي موضع وأي وقت؛ تفجُّرا من أدنى لأعلى وعلى الأجناب. يمكن أن تقاس أشكال وسمات الحراك الشعبي على ما للبراكين من أنواع وخصائص يتحدَّث عنها حقل الفولكانولوجي volcanology ضمن جيولوجيا السياسة العربية. فمعظم تفاعلات البركان تتم قبل تفجُّره في باطن الأرض في جزء منه يسمى "الحوض البركاني"؛ حيث تتلاقى "عوامل الإلهاب والتفجر" غير المرئي، ثم تتحرك "الصهارة" الغاضبة ضمن "عنق" أو مدخنة؛ باحثة عن جزء ضعيف من "القشرة الأرضية" لتنقب فيه "فوهة" تندفع منها "الحمم" السائلة والصخور الصلبة الملتهبة إلى ما فوق، محدثةً "غبارا" أو دخاناً كثيفاً؛ ما "ينتج" عنه -بعد استقرار البركان- تغيير في "تكوين سطح المنطقة" وشكله: بشكل هرمي أو هضبي جديد أو غيره بحسب تفاعلات الاندفاع من باطن الأرض مع البيئة والتكوينات على السطح، ثم في نهاية الحدث البركاني إما أن "تؤول" الأمور إلى تخصيب تربة المكان جيداً ويستأنف الإنسان عيشه فيها (أثرا حسنا)، أو يتعذر المقام والعيش في هذه المنطقة حال عدم استقرارها ومناسبتها (أثرا سيئا). ومعلوم أن من طبائع المناطق البركانية صعوبة توقع مكان أو زمان انفجارها، وأن نوعية الثَّوران ومساره ونتائج الانفجار غالبا ما تختلف من حالة إلى أخرى لعوامل تتميَّز بها كل حالة، وإن كانت الأسباب العامة لاحتدام البراكين معروفة ومكرَّرة(١).

من هذا النموذج يمكن أن نراجع الموجة الثانية موصولة بمآلات الموجة الأولى من الانتفاضات العربية التي يكتمل عقدها الأول هذه الأيام(٢). فعقب نحو خمس سنوات من تراجع البركان الأول الذي تفجَّر بين ديسمبر ٢٠١٠-مارس ٢٠١١، بدت معالم موجة ثانية منه تتوالى في عدد آخر من الدول غير الأولى؛ في: الأردن، ثم السودان فالجزائر، ثم العراق ولبنان، (فضلاً عن رجَّات زلزالية متنوعة في تونس ومصر وسوريا وفلسطين وغيرها، وهي من خصائص الحالة البركانية نموذجيًّا)، وذلك من أواخر العام ٢٠١٨ ف٢٠١٩ متمدِّدة في العام الحالي ٢٠٢٠، وذلك في صورة حراكات شارع متنوعة الأحداث والممارسات، والأسباب والمطالب، والمسارات والتفاعلات، والنتائج والمآلات، وقد هدأ بعضها بينما لا تزال الأخرى تفور وتمور، لكن الفاعلين الرئيسيين في كل منها ظلُّوا كما هم: شعوب عزلاء، أمام أنظمتها العتيقة وجيوشها أو بالأدق ما يسمى بالدولة العربية العميقة(٣)،

(*) المدير التنفيذي لمركز الحضارة للدراسات والبحوث.

(١) راجع في فكرة النماذج التفسيرية المركبة: عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الثاني، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢)، ص ص ٤٤٤-٤٤٦. وسيف عبد الفتاح، مدخل القيم: نحو إطار مرجعي لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام؛ في نادية محمود مصطفى (إشراف)، مشروع العلاقات الدولية في الإسلام، الجزء الثاني، (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦).

(٢) في تحليل نموذج الثورات العربية في القرن الجديد، انظر: نادية مصطفى، الثورة المصرية نموذجا حضارياً، ج ١، ج ٢، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، دار البشر للثقافة والعلوم، ٢٠١١، ٢٠١٣)، وانظر: نادية مصطفى وسيف الدين عبد الفتاح وآخرون، أمتي في العالم، العدد الحادي عشر: الثورة المصرية والتغيير السياسي والاجتماعي، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٣).

(٣) في مفهوم الدولة العربية العميقة، انظر: طارق البشري، حوارات مع طارق البشري، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث، دار البشير للثقافة والعلوم، ٢٠١٩)، ص ص ٣٨٦-٣٨٨.

بالإضافة إلى الفاعل الخارجي متنوع الأدوار والتأثيرات[١]. ولا تزال هذه الموجة تحتاج إلى مزيد من المراجعة للوقوف على عبرتها بالنسبة لواقع ومستقبل الأمة العربية القريب.

هذا، وقد دخلت جائحة كورونا العالمية[٢] على أتون هذه الحراكات وأثّرت في مساراتها وأثرت في سياسات الحكومات لمواجهة الأزمة السياسية والعامة؛ ما أفرز أثرين متقابلين متزامنين: ضغطاً على المدّ الانتفاضي نفسه مكّن الأنظمة من تهدئته وامتصاصه من جَهة، ومن الجهة الأخرى مضاعفة مبررات السُّخط الشعبي نظرا للإجراءات المثقلة على الأحوال المَعيشية على نحو ما سيتبيّن؛ الأمر الذي يطرح التساؤل حول **أثر مثل هذه الأزمات المتجددة على وضع منطقة بركانية سياسيًّا كعالمنا العربي وخاصة بالنسبة للمستقبل القريب!**

وإذا كان النموذج البركاني بعناصره المتكاملة (الحوض البركاني، الصهارة، العنق/المدخنة، الفوهة، الحِمم، الغبار/الدخان البركاني، الشكل البركاني الناتج، الآثار والمآلات السلبية والإيجابية) يمكن أن يساعد في تحليل وتفسير ظاهر هذه الموجة، فإن التقييم الكلي للمشهد العربي الراهن من هذه الزاوية يستدعي تفعيل فقه حضاري يكشف عن القيم والمقاصد الكامنة في التفاعلات، والسُّنن المحركة لها والمنتجة لمآلاتها. وهذا ما تحاول هذه الورقة فعله[٣]. **فما الجديد في هذه الانتفاضات بين ٢٠١٨–٢٠٢٠ قياسا على الموجة الأولى؟ وما دلالاتها بالنسبة للمستقبل السياسي العربي في تدافع الشعوب المرهقة والأنظمة المعتّقة؟ وما دلالة تأثرها بأزمات من قبيل جائحة كورونا التي اجتاحت العالم من بدايات العام ٢٠٢٠ بأثريها المتقابلين المشار إليهما؟**

في هذا الإطار ولدواعي الإيجاز والإجمال الذي تفرضه المساحة المحددة، تنقسم الورقة إلى عنصرين وخاتمة: يحاول أولهما تصوير المسار الذي اتخذته حراكات الموجة الثانية وعناصرها الرئيسية، ويتابع الثاني آثار جائحة كورونا وسياسات مواجهتها صحيًّا واقتصادياًّ واجتماعيًّا وسياسيًّا على هذه الموجة، ثم الخاتمة عن الدلالات الحضارية لعموم هذه الموجة بين مقاصدها ووسائلها وقيمها الحاكمة في سياق تحولات إقليمية وعالمية جارية.

أولًا– مسار الموجة الثانية وجديدها

في أعطاف الثورات العربية الخمس الكبيرة (الموجة الأولى) ٢٠١٠–٢٠١١، تزلزلت الأرض في عدد آخر من الدول: كالبحرين، الكويت، المغرب، العراق، الأردن، موريتانيا، وغيرها في الفترة ٢٠١١–٢٠١٧. ويمكن القول إنه لم تفلت دولة عربية من أثر هذه الزلزلة وتوابعها، لكنها بدت في أغلبها ذات آثار محدودة وتم احتواؤها عن قريب ولم يترتب عليها في الظاهر لنا تغييرات فارقة.

ولقد ساعدت موجة الثورة المضادة في تسكين هذه الرجّات والتراجع عنها بصورة ملحوظة، لكن الأمر لم يلبث إلا يسيرا حتى ضربت المنطقة موجة ثانية من الانتفاضات منذ العام ٢٠١٨؛ جاءت الساحة الأردنية في مطلعها استكمالاً

---

(١) حول علاقة الخارج بالثورات العربية خاصة في موجتها الأولى، انظر: نادية محمود مصطفى، الثورات العربية في النظام الدولي، (القاهرة: دار البشير للثقافة والعلوم، ٢٠١٤).

(٢) في مراجعة تطورات الأزمة والمواقف منها، انظر: العدد ١٨ من فصلية "قضايا ونظرات"، على الموقع الإلكتروني لمركز الحضارة للدراسات والبحوث، يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/o2J0o

– وانظر أيضا: د.نادية مصطفى ومدحت ماهر، أزمة كورونا وحالة العالم: إدارة الأزمة ومستقبل النظام العالمي: ماذا؟ وكيف؟ ولماذا؟، ٥ مايو ٢٠٢٠، موقع مركز الحضارة للدراسات والبحوث، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/wCFO5

(٣) انظر: سيف الدين عبد الفتاح، مدخل القيم، مرجع سابق. ومنى أبو الفضل، نحو منهجية علمية لتدريس النظم السياسية العربية، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦)، ص ص ١٦–٢٠. وحامد ربيع، مقدمة تحقيق سلوك المالك في تدبير الممالك لابن أبي الربيع، (القاهرة: مطابع دار الشعب، ١٩٨٠).

لقلاقل سابقة لكن على منوال الهبَّات المحدودة التي سرعان ما كانت تخبو ، ثم تتابعت بعدها تفجُّرات البركان واحدة تلو الأخرى في: السودان فالجزائر، فالعراق ولبنان.

ويمكن تتبع مسارات هذه التفجرات وخطوطها الرئيسية توثيقا ورسما للصورة العامة على النحو الآتي:

- **الأردن**

في أواخر مايو ٢٠١٨ اضطربت الساحة الأردنية حين بدأت احتجاجات في عمَّان وعدد من المدن الأردنية ضد مشروع قانون لرفع ضريبة الدخل، مع استمرار ارتفاع الأسعار خاصة أسعار الوقود والكهرباء، لتذكّر باحتجاجات أكتوبر ٢٠١٢ القوية التي قادتها عدة نقاباتَ لنفس السبب المعيشي (العنق) ولكن على أصداء الموجة الثورية العربية الأولى، وأيضا هذه المرة قادتها نقابات عديدة مع تصعيد الهتافات والمطالب: الشعب يريد إسقاط الحكومة، لن نركع، لم نخلق لنعيش بذلّ... إلخ؛ في إشارة إلى ما سُمّي بسياسة التركيع بالتجويع، وأدَّى اشتداد واتساع الاحتجاجات إلى استقالة رئيس الوزراء هاني الملقي ٤ يونيو وتجميد العاهل الأردني عبد الله الثاني للقرارات الضريبية[١]، لكن الأحداث كشفت عن بعض ممَّا يعتمل في باطن الأحداث[٢].

فالمملكة التي تَعدُّ من الشريحة العليا في البلدان العربية متوسِّطة الدخل وتعاني شحًّا كبيرا في الموارد الطبيعية، تشكو عجزًا كبيرا في الميزانية، وضغطًا من تراكم الدين العام البالغ ٩٤% من الناتج القومي، مضطرَّة على الأقل منذ ٢٠١٥ إلى اتباع سياسة تقشُّف وفق توجيهات صندوق النقد الدولي الذي طالب المملكة بإصلاحات اقتصادية تمكّنها من الحصول على قروض جديدة لسداد ديونها المتفاقمة التي تجاوزت الـ٣٥ مليار دولار. وقد ذكرت الإحصاءات الرسمية منذ ٢٠١٨ أن ٢٠% من الأردنيّين صاروا تحت خطّ الفقر[٣]. هذه الحالة هي وقود الضجر الشعبي في أغلب البقاع العربية وصهارة الغضب الراهن.

والنتيجة أنه تم تغيير الحكومة وكلف الملك عبد الله أحد وزرائها عمر الرزاز بتشكيل حكومة جديدة من ٥ يونيو ٢٠١٨، ومما ذكر عاهل الأردن في كتاب تكليف الرزاز: "**إن التحدي الرئيس الذي يقف في وجه تحقيق أحلام وطموحات الشباب الأردني هو تباطؤ النمو الاقتصادي، وما نجم عنه من تراجع في فرص العمل خاصة لدى الشباب. وعليه، فإن أولوية حكومتكم يجب أن تكون إطلاق طاقات الاقتصاد الأردني وتحفيزه ليستعيد إمكانيته على النمو والمنافسة وتوفير فرص العمل... وعليه، فإن على الحكومة أن تقوم بمراجعة شاملة للمنظومة الضريبية والعبء الضريبي بشكل متكامل، ينأى عن الاستمرار بفرض ضرائب استهلاكية غير مباشرة وغير عادلة لا تحقّق العدالة والتوازن بين دخل الفقير والغني، ويرسم شكل العلاقة بين المواطن ودولته في عقد اجتماعي واضح المعالم من حيث الحقوق والواجبات**"[٤]. فهل تحقَّق هذا التكليف بصيغته الفضفاضة هذه؟

إذا علمنا أن هذه الاحتجاجات بدأت تنفث أبخرتها منذ يناير ٢٠١٨ وأنها سبقت بمثيلات لها وأشد منها منذ ٢٠١١/٢٠١٢ عرفنا أن أسباب الانفجار راسخة وقابلة للتنشُّط الذاتي كل حين أمام أي منشّط، وأن دور الحكومة

(١) كيف اندلعت موجة الاحتجاجات في الأردن؟، بي بي سي عربي، ٤ يونيو ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/2DGtWPz

(٢) ١٠ أيام من الاحتجاجات كانت كفيلة بتحقيق مطالب الشعب.. والحياة تعود إلى طبيعتها بعد ترقب عالمي لما يحصل في الأردن بسبب قرارات الملقي، موقع قناة نور الأردن، ٨ يونيو ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://noorjonews.com/16002

(٣) رسالة تكليف ملك الأردن للرزاز.. حوار شامل بشأن الضريبة، سكاي نيوز عربية، ٥ يونيو ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/meWeB

(٤) العاهل الأردني يكلف رسميا الرزاز بتشكيل حكومة "رشيقة"، موقع العرب، ٦ يونيو ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Gs2fT

في كل مرة لا يعدو محاولة التبريد المؤقت إما بتراجعات شكلية أو تحايلات على المحتجّين الغاضبين.

والأنظمة العتيقة تعرف جيدًا أن الأزمة مستحكمة ولكنها تديرها وتدير بها فيما يبدو. فخلال لقاء التكليف ذاته حذر الملك عبد الله من أن الأردن (وقس عليها معظم بلداننا) يقف أمام مفترق طرق؛ فإما "الخروجَ من الأزمة" وإما "الدخول في المجهول"، وقال إن "**الأردن يواجه ظرفًا غير متوقع(!)، ولا توجد أي خطة قادرة على التعامل بفعالية وسرعة مع هذا التحدي(!)**". وفي ملمح خطير يشير العاهل الأردني إلى أن "**المساعدات الدولية للأردن انخفضت رغم تحمل المملكة عبء استضافة اللاجئين السوريين**"! (فوق ٦٠٠ ألف وفق المفوضية العليا لشئون اللاجئين و١,٤ مليون وفق التصريحات الأردنية)[١].

و يعتمد الأردن على المساعدات الخارجية خصوصا الأمريكية والخليجية، كما شهد في السنوات الأخيرة ضغوطًا اقتصادية ثقيلة نتيجة الأوضاع الإقليمية؛ حيث أغلق المعابر الحدودية مع كل من العراق وسوريا؛ ما أفضى إلى شلل في الحركة التجارية، هذا مع انقطاع الغاز المصري الذي كلّف المملكة –وفق تصريحات عاهلها نفسه– أكثر من أربعة مليارات دينار (٥,٦ مليار دولار)، والكلفة الإضافية والكبيرة لتأمين حدودها[٢].

وللحقيقة لم يقتصر العاهل الأردني على مساءلة الخارج لكنه اكتفى بإدانة الحكومة (القابلة وحدها للتغيير) "بالتقصير في التواصل" مع الأردنيين بخصوص سياساتها؛ ومنها الزيادة الضريبية. ومن الجدير بالذكر أن الخارج لم يتدخل في هذه الاحتجاجات اللهم إلا بالدعوة للتهدئة والاستجابة لنداء الجماهير بغير ضغوط، وإن كانت الولايات المتحدة أبدت حرصها على طمأنة النظام الأردني بأنها تسانده وتدعوه للحوار مع المحتجّين؛ لأنه من محور الاعتدال[٣].

وبناء على أن الحوض البركاني لم يبرد تماما، فإن سنة تقريبا فصلت الوزارة الجديدة عن هبّة أخرى أفرزتها الفوهة الاقتصادية المتردّية ذاتها؛ وتمحورت حول حقوق المعلمين وحول نقابتهم التي ستصبح عبر عام كامل الضاغط الأبرز على الحكومة الأردنية وبمثابة العنق الانتفاضي. ففي الثالث من سبتمبر ٢٠١٩ دعت نقابة المعلمين إلى اعتصام قرب مقر رئاسة الوزراء للمطالبة بعلاوة ٥٠% على أجورهم بعد رفض الحكومة ومماطلتها رغم المهلة التي منحها إياها نقيب المعلمين ناصر النواصرة، ونتيجة مصادمات الشرطة بالمعلمين ومنعهم من الاعتصام أعلنت النقابة بدء إضراب مفتوح في المدارس الحكومية (نحو ٣٠٠٠ مدرسة) بدءا من ٥ سبتمبر ٢٠١٩، ونفذ نحو ٨٠ ألف مدرس الإضراب حتى تعتذر الحكومة وتعطيهم حقوقهم. ورغم محاولات الحل الوديّة والوساطات، ولجوء الحكومة بعد أسبوعين إلى التهديد بالعقوبات استنادا إلى قرار قضائي فقد تحايلت النقابة على القرار حتى اضطر الرزاز في النهاية إلى تقديم اعتذار علني للمعلمين في يوم المعلم الخامس من أكتوبر، ليتم الاتفاق مع النقابة على شرائح العلاوات للمعلمين بحسب درجاتهم، ومن ثم إنهاء الإضراب[٤]. لكن هذه القلاقل لم تتوقف حتى اليوم، ولذا يركّز النظام الأردني على تفكيك ذلك العنق البركاني المتمثل في النقابات وخاصة نقابة المعلمين.

على هذا المنوال العام مع اختلافات مهمّة، تدفّقت موجة ثورات في المنطقة أدّت إلى إسقاط وتغيير رئيسي دولتين وعدد من رؤساء حكومات، مع استمرار فوهات البركان في إصدار نفثات مخيفة كل حين، وفي بقاع عدّة.

- **السودان**

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) كيف اندلعت موجة الاحتجاجات في الأردن؟، مرجع سابق.

(٤) الأردن.. أجراس المدارس تدق بعد إنهاء أطول إضراب للمعلمين باتفاق مع الحكومة، سي إن إن بالعربية، ٦ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cnn.it/3m0Tbxt

فقبل نهاية العام نفسه بدأت احتجاجات السودانيين في التاسع عشر من ديسمبر ٢٠١٨ في بعض المدن في الشمال والوسط ثم تركيزا في العاصمة، تطالب بتوفير الخبز. دعا إليها تجمع المهنيين (جمعية تضمُّ ١٧ نقابة سودانية مختلفة)[١] والذي صار المنسّق الأول لها حتى قفزت قوى سياسية أخرى محلها.

ومن المهم تأمُّل مسار البركان السوداني؛ فقد بدأت الاحتجاجات معيشية رويدا قبل أن تتحوَّل بمرور أيام قليلة إلى ثورة سياسية تطالب بإسقاط نظام عمر البشير وتهاجم مقرات حزب المؤتمر الوطني الحاكم وتحرق عددا منها. وقد واجهتها الحكومة أولاً بمحاولة القمع وبقرارات تقييدية ما أسفر عن أعداد محدودة من القتلى والجرحى ثم المعتقلين (وبعضهم رموز حزبية)، مصحوبة بخطاب نظرية المؤامرة على ألسنة بعض كبار المسئولين (نسبة الحراك إلى إسرائيل وقوى أخرى)، وبحديث عن المندسّين والمخربين من الداخل. كما تفعل سائر الأنظمة منذ ثورةَ تونس ومصر، حاول عمر البشير تهدئة الأوضاع بالإحالة إلى انتخابات ٢٠٢٠ الرئاسية والبرلمانية، لتتراجع التظاهرات أياما قليلة ثم لا تلبث أن تتصاعد وتشتد أكثر بفعل عنق بركاني جديد سينقل الاحتجاج من المعيشي إلى السياسي ويؤجج مزيدا من التفجُّر. ففي يناير ٢٠١٩ برزت قيادة للحراك فيما عرف **بقوى إعلان الحرية والتغيير** "قحت" (تجمع سياسي من عدد من الأحزاب المعارضة وتجمع المهنيين)[٢].

وبخلاف حالة الأردن السابقة وحالة الجزائر التالية، أسرعت الدول الغربية بإدانة العنف الحكومي وتأييد الحراك السوداني بصوت واضح ومحرض؛ حيث حذّرت الولايات المتحدة -على سبيل المثال- من أن العنف المفرط لقمع الاحتجاجات يمكن أن يهدد محادثات شطب الخرطوم من قائمة واشنطن للدول الراعية للإرهاب[٣].

وبعد ثلاثة أشهر بلا جدوى من الحراك في ظل تصدُّر البشير -وحده تقريبا- للردّ عليه، تخيَّرت قوى التغيير يوم السادس من أبريل (ذكرىَ إسقاط حكومة جعفر نميري ١٩٨٥) للدعوة إلى تظاهرات حول قصر الضيافة (الرئاسي)، تلك التظاهرات التي سرعان ما احتضنها الجيش عقب رسوها فيما عرف بـ"**اعتصام القيادة العامة**" في محيط قيادة الجيش نفسه بالخرطوم، ووفَّر لها الجيش الحماية حتى من قوات الأمن نفسها (حيث قتل خمسة جنود من الجيش ونسب قتلهم إلى الشرطة). وفي غضون أيام خمسة من هذا الاعتصام، أعلنت قيادة الجيش عزل ثم اعتقال الرئيس السوداني عمر البشير في ١١ أبريل ٢٠١٩ (بعد ١١٤ يوما من بدء الاحتجاجات)، وتعليق العمل بالدستور، وتشكيل مجلس عسكري لإدارة انتقالية للبلاد لمدة سنتين بقيادة الفريق أحمد عوض بن عوف (نائب البشير ووزير دفاعه)، وحلَّ مجلس الوزراء والبرلمان وحكومات ومجالس الولايات، والإعداد لانتخابات "حرة ونزيهة". وفي اليوم التالي ١٢ أبريل وأمام استمرار الاحتجاج المنظم وتحدّي حظر التجول تنحَّى بن عوف وحلَّ محله المفتش العام للجيشَ الفريق عبد الفتاح عبد الرحمن البرهان، وتم تعيين

---

(١) تأسَّست في أكتوبر ٢٠١٢ ، لكنَّها لم تُسجَّل رسميًّا حينها بسبب الإجراءات الحكومية الصارمة ضدَّ النقابات قبل أن تصبح رسميَّة في أكتوبر من عام ٢٠١٦ بعد تحالف بين لجنة أطباء السودان المركزية وشبكة الصحفيين السودانيين وتحالف المحامين الديمقراطيين. في ديسمبر ٢٠١٨ ؛ دعا تجمُّع المهنيين الحكومة السودانية إلى الرفع من الحد الأدنى للأجور وتحسين الوضعيَّة الاقتصادية للشعب ثمَّ تطوَّرت الأمور بعدما شاركَ التجمع في الاحتجاجات في مدينة عطبرة؛ حتى إسقاط البشير.

(٢) قوى إعلان الحرية والتغيير هي مكونا ت سياسيَّة سودانية تتشكل من تجمُّع المهنيّين والجبهة الثورية وتحالف قوى الإجماع الوطني وكذا التجمع الاتحادي المعارض. تأسَّست قوى الحرية في يناير ٢٠١٩ خلال الاحتجاجات، وصاغت "إعلان وميثاق الحرية والتغيير" الذي دعا إلى إقالة الرئيس عمر البشير.

(٣) واشنطن تحاصر البشير بين القائمة السوداء وقمع المتظاهرين، ميدل إيست أون لاين، ٢٠ فبراير ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/RPwG7

اللواء محمد حمدان دقلو–حميدتي (قائد قوات التدخُّل السريع) نائبا له[(١)].

لم توقف هذه الإجراءات الحراك الذي تقوده "قحت" بقدر ما نقلته إلى التدافع مع بقية نظام البشير حول طبيعة النظام القادم وموقع المدنيين والعسكريين فيه، وبدأ مسار تفاوض بين الطرفين بوساطة إثيوبيا ورعاية الاتحاد الأفريقي منذ مايو ٢٠١٩، مع استمرار اعتصام القيادة العامة غير معترف بالمجلس العسكري وتصاعد المطالب بإسقاطه ونقل السلطة لحكومة مدنية أو ذات أغلبية مدنية. وعقب زيارتين من رئيس المجلس العسكري البرهان إلى مصر فالإمارات، وزيارة من نائبه حميدتي إلى السعودية، أقدمت قوات الجيش على الفض العنيف للاعتصام في ٣ يونيو ٢٠١٩، ما أسفر عن مقتل العشرات[(٢)] وإصابة المئات من المعتصمين؛ وعرفت بمجزرة اعتصام القيادة العامة.

ومن ثم استمرَّ ت التظاهرات في مدن عديدة وصولًا إلى ما عرف **بمليونية ٣٠ يونيو ٢٠١٩** التي أثبتت قدرة (قحت) على الحشد والضغط على المجلس العسكري[(٣)]؛ ما حثَّ السير في التفاوض بين الطرفين وأسفر عن **اتفاق اقتسام السلطة** (٢٢ بندًا) في ١٧ يوليو وتمَّ التوقيع عليه في ٤ أغسطس ٢٠١٩. وتناول الاتفاق التناوب على رئاسة «مجلس سيادي» يحكم البلاد لفترة انتقالية تستمر ثلاثة أعوام؛ ويتشكل من ١١ عضوا؛ هم خمسة عسكريِّين يختارهم المجلس العسكري وخمسة مدنيين من اختيار قوى الحرية والتغيير وشخصية مدنية تُختار بالتوافق. ويترأس مجلس السيادة عسكريٌّ لمدة ٢١ شهرا ثم مدنيٌّ لمدة ١٨ شهرا وتجرى بعدها انتخابات عامة. وجاء في ستة فصول: «المبادئ المرشدة»، «الترتيبات الانتقالية»، «المجلس التشريعي»، «لجنة التحقيق»، «مهام المرحلة الانتقالية»، و«المساندة الإقليمية والدولية»[(٤)].

وبعد مفاوضات لنحو شهر تشكلت يوم ٨ سبتمبر ٢٠١٩ أول حكومة بعد الثورة والانقلاب برئاسة الاقتصادي عبد الله حمدوك وعضوية ١٨ وزيرا. وعبر عام كامل من هذا التوقيت توالت إجراءات اعتقال قيادات النظام السابق وتفكيك مؤسساته، والأهم: العمل على تغيير الأيديولوجية الحاكمة بالانتقال من الإسلامية إلى بدائل علمانية في التعليم والإعلام والثقافة وبعض القوانين[(٥)]، في ظل انحياز صريح إلى معسكر مصر–الخليج، وتفاهم واضح مع القوى الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة.

ومن قبل اقتسام السلطة في يوليو، استقبل المجلس العسكري ثلاثة مليارات دفعة أولى من السعودية والإمارات أعقبتها دفعات أخرى لتعزيز حالة الاقتصاد السوداني، في الوقت الذي جرت فيه مقاطعة قطر وقناة الجزيرة منذ البداية وتسريب أخبار غير مؤكَّدة عن إنهاء المجلس العسكري لاتفاق سواكن مع تركيا الأمر الذي نفته الخارجية التركية[(٦)]، ومن

(١) مجدي الجزلي، سقوط البشير: رسم خريطة قوى الاحتجاجات في السودان، موقع المبادرة العربية للإصلاح، ١٢ أبريل ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/NAJpy

(٢) وصلت تقديرات القتلى إلى ١٢٨ في يوم واحد مقابل عدد لم يزد عن ٥٢ في أعلى التقديرات من المعارضة في ١١٤ يوما حتى عزل البشير. انظر: الثورة السودانية بالأرقام: الضحايا ومبادرات التكافل الاجتماعي، موقع صحيفة العربي الجديد، ١٩ ديسمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/s7kNx

(٣) أزمة السودان: هل تغير مظاهرات ٣٠ يونيو من موازين القوى؟، بي بي سي عربي، ٣٠ يونيو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/3hjwtx7

(٤) "لحظة تاريخية وحاسمة".. ما هي بنود اتفاق تقاسم السلطة في السودان؟، مصراوي، ١٧ يوليو ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/wiGOT

(٥) السودان: غضب واسع بعد إقرار تعديلات قانونية تمس الشريعة، موقع الجزيرة مباشر، ١٢ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/8Podk

(٦) صفاء عزب، مصير جزيرة سواكن السودانية بعد انتهاء عصر البشير، موقع الصومال الجديد، ١٥ أغسطس ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/hO0ZY

ناحيتها أعلنت الولايات المتحدة استعدادها لشطب السودان من الدول الراعية للإرهاب، وفي المقابل أعلنت وزيرة الخارجية الجديدة أسماء محمد عبد الله (استقالت مؤخرا) استعداد السودان لتطوير العلاقات مع إسرائيل في المستقبل إذا حلّ الصراع مع الفلسطينيّين: "**بالطبع من حيث المبدأ... لمعظم الدول العربية علاقات بطريقة أو بأخرى. السودان هو أحد الدول العربية، ولكن الآن ليس هو الوقت المناسب". جاءت تصريحات أسماء عبد الله بعد أيام من دعوة وزير الشؤون "الدينية" السودانية، نصر الدين مفرح، لليهود بالعودة إلى السودان: "قد يكونوا غادروا البلاد، ولكننا ندعوهم من هنا إلى أخذ حقهم في أن يصبحوا مواطنين ونحضهم على العودة إلى هذا البلد"**[١]. وفي أغسطس ٢٠٢٠ تتكرَّر ذات المواقف خاصة على وقع إعلان الاتفاق الإماراتي–الصهيوني من أجل التطبيع الشامل برعاية ترامب.

وعقب أقل من عام بدأت أمارات التململ في الشارع السوداني جرَّاء استمرار تدهور الأوضاع الاقتصادية لاسيما مع هجمة وباء كورونا وإجراءاته التقييديَّة، وتعطُّل تحقيق كثير من مطالب الثورة، وبالأخص محاسبة الذين باشروا وتسبَّبوا في مقتل المتظاهرين وفي مقدّمتهم معتصمو القيادة العامة ٣ يونيو ٢٠١٩. ولذا خرجت جموع كبيرة في ٣٠ يونيو ٢٠٢٠ للتذكير بذلك والتنديد بأداء الحكومة الانتقالية؛ ما حدا بالأخيرة إلى إحداث تغيير جزئي بتغيير ستة من الوزراء في ٨ يوليو ٢٠٢٠.

لقد تيبَّست القشرة الأرضية الضعيفة التي يقف عليها نظام عمر البشير، فلم تعد تأبه لما يجري في باطن الأرض، وهي لا تملك له تبريدا ولا استيعابا؛ ومن ثمَّ واجه البشير الاحتجاجات بحشود رمزية مقابلة وخطابات رنانة واتهامات ووعود، وطبول ورقصات.. انتهت به إلى سجن كوبر الشهير بالخرطوم. إن إحراق المعايش بنيران التدهور الاقتصادي لا يتوقَّف عند حدود الحوض الاجتماعي الاقتصادي حتى يصهر ويحرق المسافات مع السياسي ويتحوَّل من المطالبة بالخبز وخفض الضرائب وتوفير الأشغال إلى إسقاط المسئولين عن ذلك بدءا بالموظفين فالرئيس فالنظام برمَّته، والدعوة لشكل سياسي جديد.

ولقد كان ذلك في السودان، غير أن مدخلات داخلية وخارجية استبقت حراك البركان واستطاعت توجيه فوهته إلى ضرب القوى السياسية الإسلامية السودانية، وإعادة توجيه التوجُّه الخارجي للسودان لينضمَّ إلى معسكر الثورة المضادة الإقليمي والدولي وصولًا إلى خطوات التقارب مع الكيان الصهيوني الذي كان السودان من أبعد الأقطار العربية عنه. وهكذا بدأت الأمور صغيرة ولكن عبر الوقت المهدر آلت إلى منظومة بديلة تقودها نخبة مدنية علمانية في كنف المؤسسة العسكرية وعلى تواصل حميم مع الخارج المضاد للموجة الأولى من الثورات.

- **الجزائر**

وفي غضون التطورات السودانية وقبل إسقاط البشير، **تحرَّكت الحمم العربية غربا باتجاه الجزائر**، وتسابقت الحالتان حتى سقط الرئيسان البشير وبوتفليقة في شهر واحد أبريل ٢٠١٩ ، ولكن حراك الجزائر بدا سياسيًّا محضا، خاصة مع تعزيز الصادر والعائد النفطي للحالة الاقتصادية الجزائرية نوعا.

فمع إعلان أحزاب الموالاة وحزب جبهة التحرير الوطني (الحاكم) ترشيحهم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة لولاية (عهدة) خامسة بعد عشرين عاما في الحكم (أربع ولايات وكل ولاية خمس سنوات منذ ١٩٩٩)، وفي ظل إعاقته الصحية الخطيرة والمتزايدة[٢]، اندلعت التظاهرات الكبيرة في

(١) بعد تصريحات نتنياهو... حكومة السودان الجديدة تعلن موقفها من التطبيع مع إسرائيل، موقع سبوتنيك، ١٠سبتمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/BvZlz

(٢) بدأ تدهور صحته مع بدايات ولايته الثانية ٢٠٠٥، ثم اشتدَّ وتحوَّل إلى جلطة دماغية في ولايته الثالثة البادئة ٢٠١٠، حتى أقعدته العلل على كرسي متحرك منذ يوليو ٢٠١٣، فدخل انتخابات ولاية رابعة

أنحاء عدَّة من الجزائر وأخذت نمط "الجمع/الأسبوعيات" الذي عرفته ثورات الموجة الأولى في مصر وسوريا واليمن، مع الحرص على السلمية التامَّة وعلى البقاء في الشارع الأسبوع كاملا، بحيث تبدأ الفعالية من الأحد وتتعاظم إلى يوم الجمعة حين تتحوَّل إلى مليونيات منتشرة في مدن عديدة بأنحاء الجزائر.

وفي البداية ومثل البشير –ومن قبلهما بن علي وحسني مبارك– حاول بوتفليقة احتواء الحراك قبل أن ينفجر بإعلانه تأجيل الانتخابات الرئاسية عن أبريل ٢٠٢٠، ثم تعهده بعدم الترشُّح فيها، ثم استعداده لتعيين حكومة جديدة من التكنوقراط، ما نقل المطالب من إسقاطه هو إلى الشعار الأشهر (**الشعب يريد إسقاط النظام**)؛ أي حل نظام جبهة التحرير الوطني الحاكم لأكثر من نصف قرن، ومحاسبة الفاسدين في هذا النظام ومقرَّبيه. ويمكن اعتبار التجميد السياسي الذي أحدثه نظام جبهة التحرير عقب العشرية السوداء بمثابة الحوض البركاني الذي جثم على صدور الجزائريِّين، وأن الترشُّح للعهدة الخامسة كان الفوهة التي انطلق منها الاحتجاج الشعبي الغاضب والواسع؛ ومن ثم تبقى لهذا الحراك الكبير العنق الموجِّه له (القوى القائدة للحراك)، ولم يكن متوفرا!

وأمام غياب تلك القوى، تصدر –وحده– رئيس أركان "الجيش" نائب وزير الدفاع الفريق أحمد قائد صالح لمواجهة الموقف وتوجيهه، وفي أواخر مارس وعقب شهر من اندلاع التظاهرات والدعوة لإضراب عام، أعلن صالح أن المخرج يكمن في تطبيق المادة ١٠٢ من الدستور والتي تنصُّ على ضرورة اجتماع المجلس الدستوري وجوبا في حالة ما استحال على رئيس الجمهورية أن يمارس مهامه (بسبب مرض خطير ومزمن مثلا) واختيار رئيس مجلس الأمَّة للقيام بمهام رئيس الدولة لمدة أقصاها تسعون يوما؛ تنظَّم خلالها انتخابات رئاسية ولا يحق لرئيس الدولة المعيَّن بهذه الطريقة أن يترشَّح لرئاسة الجمهورية[١]. ورغم رفض الشارع ونخب سياسية غير منظمة ولا مجمعة لهذا الطرح، إلا أن قايد صالح أصرَّ ومضى في هذا السبيل وبغير مقاومة مؤثِّرة.

ومن ثم –وعقب جمعة (يتناحاو قاع: أي ليتنحوا جميعا) السادسة– أعلن الرئيس بوتفليقة استقالته في الثاني من أبريل ٢٠١٩، وقدم اعتذارا للشعب في اليوم التالي، وفي ٩ أبريل أعلن البرلمان الجزائري رئيسه عبد القادر صالح رئيسا للدولة لمدة ٩٠ يوما وفقا للمادة ١٠٢[٢].

هذا التقدُّم الظاهري فتح المجال أمام الحراك لمطلب أعلى؛ وهو: إسقاط كل رموز النظام وبدءا بالباءات الثلاثة بعد بوتفليقة: عبد العزيز بلعيز رئيس المجلس الدستوري (الذي سارع بإعلان الاستقالة)، وعبد القادر بن صالح رئيس مجلس النواب (الذي أصبح الرئيس المؤقَّت!)، ونور الدين بدوي رئيس الحكومة التي عيَّنها بوتفليقة بعد اندلاع الحراك مباشرة، وعلت المطالب برحيل جميع الزمرة الحاكمة ومحاسبة فاسديها[٣].

وفي هدوء متَّصل أدار قايد صالح بقية المشهد؛ بين استجابة محدودة للشارع من جهة وتسيير لعملية الانتقال

وهو في أزمة صحية خطيرة ليظهر بعدها في أواخر أبريل ٢٠١٤ يؤدي اليمين الدستورية لعهدة رابعة وهو على كرسي متحرك وقد قضى معظم الولاية الرابعة بين مستشفيات فرنسية حتى بلغت حالته الصحية أسوأ أحوالها في النصف الثاني من العام ٢٠١٨، ومع هذا أعلن عزمه الترشح لعهدة خامسة في انتخابات أبريل ٢٠١٩؛ الأمر الذي فجر الحراك ضد العهدة الخامسة. انظر: عبد القادر بن مسعود، القصة الكاملة لمرض الرئيس الجزائري بوتفليقة، على موقع: ساسة بوست، ٢٠ سبتمبر ٢٠١٨، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/337EGz7

(١) رئيس أركان الجيش الجزائري: المادة ١٠٢ المخرج الوحيد لأزمة البلاد، سي إن إن بالعربية، ٢٦ مارس ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cnn.it/35hG8BN

(٢) الجزائر: استقالة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة بعد عشرين عاما في الحكم، فرنسا ٢٤، ٤ أبريل ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/4Q30o

(٣) الجزائر.. بعد استقالة "الباء الأولى" هل يبدأ تأثير الدومينو؟، سكاي نيوز، ١٦ أبريل ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/H95b8

الرئاسي داخل نطاق الدولة من الجهة الأخرى؛ فتوالت عمليات الاعتقال لبعض قيادات النظام ورموزه من عسكريِّين وسياسيِّين ورجال أعمال. ففي ٤ مايو على سبيل المثال تم اعتقال الجنرالين السابقين في المخابرات بشير طرطاق ومحمد مدين بالإضافة إلى سعيد بوتفليقة أخي الرئيس المستقيل لتتمَّ محاكمتهم بتهمة التآمر ضد الدولة؛ حيث كان قايد صالح قد أعلن عن "اجتماع مشبوه" حضره مدين وسعيد ودعي إليه الأمين زروال الرئيس الجزائري الأسبق، وفي ٩ مايو استدعيت لويزة حنون رئيسة حزب العمال الجزائري لمحكمة البليدة وتم احتجازها في نفس قضية السعيد بوتفليقة؛ حتى صدرت الأحكام على عدد كبير؛ منهم رئيسا وزراء سابقان (أحمد أويحي وعبد المالك سلال)[١].

تدافع قايد صالح مع الحراك لسدّ فوهته أو تبريد حممه، وبعد تحديد يوليو موعدا لانتخابات الرئاسة تراجع أمام الرفض الشعبي لكن لا لتلغى الانتخابات ولكن لتؤجَّل إلى ديسمبر؛ حيث انعقدت فعلا في ١٢ ديسمبر رغم معارضة الشارع "غير المنظم وغير المقود بقيادة تعبر عنه"، وأُعلن رسميًّا عبد المجيد تبون رئيسا للبلاد في ١٦ ديسمبر، ثم لم يلبث بعدها بأسبوع أن أُعلنت وفاة رئيس الأركان ومدير المرحلة الانتقالية أحمد قايد صالح في ٢٣ ديسمبر ٢٠١٩ في صمت مريب!

يبدو أن الدولة العميقة في الجزائر استلهمت التجربة المصرية والطريقة التي وظّف بها الجيش هناك الاحتقان الشعبي لتعزيز سلطاته. فالرئيس الجديد عبد المجيد تبون لا يكف عن الثناء على الحراك الشعبي، ويؤكّد أنه "لولاه (الحراك) لانهارت الدولة الوطنية وأن الشعب أوقف المؤامرة التي حيكت ضد البلاد في وقتها"، ويضيف في لقاء بثه التلفزيون الرسمي: "**من يواصلون الحراك للاحتجاج يمارسون حقهم في التعبير عن رأيهم بحرية لأن هذا أساس الديمقراطية، وهي ظاهرة صحية**". بل إن تبون دأب على تبني العديد من شعارات الحراك، وهو ما يرى فيه كثير من المراقبين التفافًا على مطالب التغيير الجوهري والعميق الذي يطالب به المحتجُّون، فبعد عام من الحراك عادت الواجهة المدنية للمرادية (قصر الرئاسة) وعاد معها المشهد السياسي إلى مربعه الأول، بينما يقبع الجيش هادئًا في الخلفية بلا تغيير جوهري في موقعه[٢].

اتَّسم الحراك الجزائري بالسلمية والصمود والتدرُّج في المطالب، لكنه من ناحية أخرى افتقد التنظيم والقيادة والقدرة على تقديم البدائل السياسية، فأفرز النظام نفسه تعديلًا ذاتيًّا على النحو الذي ذكرناه؛ ومن ثم يعمل الآن تبون على استعادة الأمن ويجري اعتقال بعض النشطاء الأشبه بتوابع البركان؛ ما يعيد بعضا من موجات الحراك الضعيفة للمطالبة بالإفراج عن المعتقلين، ولكن الأكثرين يرون أن النتيجة لم تكن بقدر الصمود السلمي الذي قدَّمه الجزائريون لنحو من عام كامل أو لعدد ٥٢ جمعة متتالية، وأن الهرم السياسي الجزائري عاد كما كان بل بشرعية مجدَّدة[٣].

وإذا كان الخارج قد قفز في سفينة السودان مبكرا، فقد بدا حذرا مع حالة الجزائر وبصورة خاصة لافتة وتحتاج إلى تفسير؛ فقد حرصت القوى المختلفة –حتى فرنسا والاتحاد الأوروبي– على اعتبار الحراك وتداعياته شأنًا داخليًّا لا يتدخَّلون فيه؛ ولعل السبب في ذلك أن اتجاه المباراة لم يكن واضحا، وأن ميزان القوى بدا متعادلًا بين الشعبي والعسكري، كما يبدو أن قايد صالح لم يكن يظهر ميلًا للتداخل مع أي

(١) أحكام بالسجن على مسؤولين سابقين في الجزائر من بينهم رئيسا وزراء، بي بي سي عربي، ١٠ ديسمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/2GxDq0z

(٢) حسن زنيند، حيرة واستغراب. هكذا ينظر خبراء ألمان لحصيلة الحراك الجزائري، موقع دويتشه فيلله، ٢١ فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/xjndL

(٣) بعد عام من انطلاقه، هل نجح الحراك الجزائري في تحقيق أهدافه؟، بي بي سي عربي، ٢٢ فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/3hjwLnH

من قوى الخارج بل ربما أغلق الباب في وجوه الجميع، حتى الجامعة العربية أشبهت الاتحاد الأوروبي وفرنسا والولايات المتحدة في التصريح بأن ما يجري في الجزائر "شأن داخلي" وأنه ينبغي للأطراف أن تتحاور وتحل الإشكال سلميًّا وحسب[١].

● **العراق**

وفي قلب أتون الشأن الجزائري وقبل تهدئته، وفي الأول من أكتوبر ٢٠١٩، **يتفجر بركان العراق الأعنف بين انتفاضات العرب في الموجة الثانية** (مظاهرات، مسيرات، وقفات احتجاجية، اعتصامات، إضرابات، عصيان مدني، اقتحامات، مصادمات، إحراقات، مئات القتلى، آلاف الجرحى والمعتقلين). بدأ الأمر -كما في الأردن والسودان- من الحوض الاقتصادي الذي اجتمعت فيه سوء الأحوال المعيشية والبطالة مع تدهور الخدمات الأساسية بما فيها مياه الشرب (المالحة) والكهرباء إلى جانب شيوع الفساد المالي والمحسوبية في الإدارة الحكومية بصورة طافحة، وفي ظل أفق مغلق -بعد حراكات عديدة في ا لشمال والجنوب لم تجد شيئا منذ ٢٠١١- ومع استحكام التشرذم الحزبي المعزز بميليشيات عديدة تفرض نوعا من التقسيم العقيم للقوة السياسية والاجتماعية لا يعالج سياسات ولا يأبه بغير تقسيم العراق جهويًّا وطائفيًّا.. غالبا، لهذه الحزمة من العوامل جاءت الانتفاضة العراقية شديدة وعنيفة بدءا من محافظات الجنوب فالوسط ومدنها الرئيسية (البصرة، الناصرة، السماوة، العمارة، الديوانية، الكوت، الحلة، النجف، كربلاء، بغداد).

ولم تبدَ الانتفاضة العراقية طائفية مطلقًا، ويكاد لا يعرف للانفجار فوهة محدَّدة من قرارات اقتصادية أو أحداث معينة، فقد اندلع الحراك في المناطق التي تقطنها أغلبية شيعية ضد الحكومة ذات الأغلبية والقيادة الشيعية وهاجمت الجموع مقرات الأحزاب والحركات الشيعية، بل تصاعدت أهداف الحراك مبكرا ضدَّ إيران الشيعية وقام المتظاهرون بمهاجمة وإحراق أكثر من قنصلية لها في الناصرة والبصرة والنجف، فضلًا عن إحراق مقرات كثيرة للتيارات والأحزاب المتعددة (حزب الدعوة، حركة بشائر الخير، عصائب الحق، ائتلاف النصر، سرايا الخراساني، منظمة بدر، حزب الفضيلة، تيار الحكمة، كتائب حزب الله العراقي، كتائب سيد الشهداء، ...) التي حملها المحتجون مسئولية كبيرة في تدوير عجلة الفساد والاستئثار بالسلطة والأموال[٢].

حكومة عادل عبد المهدي التي كان قد مضى عليها في أول أكتوبر ٢٠١٩ سنة تامة (توليت ٢ أكتوبر ٢٠١٨) واجهت ذلك الحراك بعنف شديد ومتصاعد حتى سقط يوميًّا عشرات القتلى ووصل عددهم في نحو شهرين إلى نحو ٧٠٠ قتيل ونحو من ٢٢٠٠٠ جريح، مع آلاف من المعتقلين وعشرات من المختطفين، لكن الحكومة ظلت تعلن أن مجهولين ومندسين يقومون بمواجهة المتظاهرين ويتسببون في إصاباتهم وإصابة رجال الأمن، كما أعلنت أكثر من مرة عن تحويل عدد من الضباط والجنود إلى التحقيق القضائي لتسببهم في مقتل أو إصابة متظاهرين، وكذلك عزل بعض ولاة الأقاليم الذين اتهموا بالعنف المفرط[٣].

وفي بغداد حاول المتظاهرون الوصول إلى المنطقة الخضراء (الحي الحكومي والدولي المحصن في بغداد)، وفي البصرة اقتحموا موانئ ومصافي البترول، وفي المدن المختلفة خرج أعضاء النقابات العديدة (العمال والفلاحين والمحامين

(١) لماذا فضَّل العالم الصمت أو الحياد حتى الآن تجاه ما يحدث في الجزائر؟، عربي بوست، بتحديث ٣٠ مارس ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/fs8Ee

(٢) ٨ أيام من التحركات الاحتجاجية في العراق.. ماذا حدث؟، موقع الجزيرة نت، بتحديث ٩ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/6tATZ

(٣) ندوة المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، احتجاجات العراق: مطالب الشارع وعنف السلطة، الدوحة: ٢٧ أكتوبر ٢٠١٩، على موقع المركز بتاريخ ٢٧ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2FmaRT9

والصحافيين...) وطلاب الجامعات والمدارس كحالة الأردن والسودان، وتم قطع الإنترنت وحجب وسائل التواصل الاجتماعي وهاجمت قوات الأمن مقرات قنوات سعودية وإماراتية كالعربية والحدث في بغداد.

ولتبريد البركان، انطلقت وعود الحلبوسي (رئيس البرلمان) وعبد المهدي بإجراءات لمكافحة الفساد وتحسين الأحوال المعيشية وتوزيع أراض للسكن ورواتب للأسر فاقدة العائل، وحل مجالس الأقضية والنواحي والمحافظات، وإلغاء امتيازات الرئاسيات الثلاث والنواب والوزراء وكبار الموظفين، وتشكيل لجنة لتعديل الدستور خلال أربعة أشهر، واستجواب وزراء النفط والصناعة والزراعة خلال شهر، ورفع الحصانة عن أي نائب يتهم بالفساد، بل تقدَّمت أربع كتل برلمانية بمذكرة لاستجواب عبد المهدي نفسه، وبالفعل صدرت عشرات القرارات باستقدام وتوقيف نواب ومسئولين محليين متهمين بالفساد وهدر المال العام، لكن هذا لم يكن كافيا؛ فتصاعدت المطالب إلى إقالة الحكومة وحل البرلمان[(١)].

وبالفعل استقال عبد المهدي في ٣٠ نوفمبر ٢٠١٩ بعد شهرين من بداية الحراك الذي لم يتوقَّف؛ ومن ثم اتجه الحراك إلى المطالبة بتغيير الدستور لإلغاء المحاصصة الطائفية والعرقية والتعجيل بانتخابات شاملة، وإكمال قانون الانتخابات وجدول الدوائر العادل بحسب أحجامها، وأن يكون رئيس الحكومة القادم مستقلًا مؤقَّتا وخارج المحاصصة[(٢)].

وبالرغم من التغيير الحكومي وإعلان حكومة مصطفى الكاظمي -بعد خلاف واسع- في ٢٠ مايو ٢٠٢٠، وتوالي إجراءات عقابية ضدَّ بعض الشخصيات المتَّهمة بالفساد ووقوع أحداث خطيرة مثل مقتل الإيراني قاسم سليماني وانفتاح العراق للصراع الأمريكي والإيراني، وبالرغم من هجوم وباء كورونا فإنه حتى ساعة كتابة هذه الورقة، لم تتوقف الاحتجاجات بالعراق وتزايدت معها عمليات القتل والاغتيال حتى اليوم ولم يقترب أحد من محاولة تحجيم الميليشيات المتناثرة في أنحاء البلاد والتي تهاجم التظاهرات وتختطف أعدادًا من المحتجين.

والحاصل أنه على منوال الحراك العربي العام، تحركت المطالب من الحوض الاقتصادي إلى السياسي بالمطالبة برحيل حكومة عبد المهدي والطبقة السياسية الحاكمة، وحضر الخارج فيها باستدعاء الداخل له اعتراضا على حضوره في الحياة السياسية والوطنية العراقية لا سيما إيران والأمريكان وصراعهما في (وعلى) العراق، كما تداخل الديني والسياسي والعرقي، أكثر من الطائفي، في هذا الشأن. ولكن مرة أخرى افتقد الحراك إلى تناسق وتنسيق وخبرة القوى المنضمَّة إليه، فكان عنق البركان يعمل للتسيير والتفجُّر أكثر من التوجيه والقيادة إلى مكاسب سياسية حقيقية؛ ومن ثم أعاد النظام تدوير ذاته وترتيب ملفاته بلا تغيير حقيقي!

- **لبنان**

وفي وقت التفجُّر العراقي ذاته أو بعده بأسبوعين **انفتحت فوهة أخرى في لبنان** في السابع عشر من أكتوبر ٢٠١٩ إثر الإعلان عن خطط حكومية لفرض المزيد من الضرائب على البنزين والتبغ، إضافة إلى استحداث ضريبة على استخدام تطبيقات المكالمات الهاتفية عبر الإنترنت مثل واتساب، والتي قُرر التصديق عليها في ٢٢ أكتوبر ٢٠١٩، ثم توسَّعت الاحتجاجات حيث بدأ المتظاهرون بالمطالبة بإسقاط الرئاسات الثلاث في لبنان.

اعتمل في الحوض البركاني سياسات فاشلة وفشل سياسي وإداري متراكم (المعترف به من الجميع بغير أفق للخروج منه) وتكثفت الأزمات المتراكمة خلال أسابيع قبل

(١) العراق: رئيس الوزراء يدعو لعودة الحياة لطبيعتها وسط استمرار الاحتجاجات، فرنسا ٢٤، آخر تحديث: ٤ نوفمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Ve0tz

(٢) بعد استقالة عادل عبد المهدي: إلى أين يمضي العراق؟، بي بي سي عربي، ١ ديسمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/2Rd6VXv

الانفجار؛ بدءا من أزمة العملة إلى محطات الوقود وحرائق الغابات التي سببها هو سوء إدارة الحياة البرية، وفرض ضريبة على البنزين والقمح ثم على المكالمات الهاتفية عبر الإنترنت، فارتفاع غير مسبوق في الأسعار مع طفح الفساد السياسي والمحاصصة الطائفية.

تداعت الأحداث وبدأ مسلسل التراجعات والتنازلات الحكومية على النمط المعروف، فأعلن وزير الاتصالات محمد شقير منذ اليوم الأول إلغاء الضريبة على الواتساب، وفي اليوم التالي ١٨ أكتوبر هاجم متظاهرون في النبطية وطرابلس مكاتب حزب الله وحركة أمل والأحزاب السياسية التابعة للتيار الوطني الحر وخربوها وحاول آخرون اقتحام مبنى البرلمان، لكن قوات الأمن أوقفتهم باستخدام الغاز المسيل للدموع، وأقام متظاهرون حواجز على الطرق الرئيسية مستخدمين إطارات محترقة وصناديق قمامة. وأعلن موظفو الخدمة المدنية عن إضراب فوري من خلال رابطة موظفي القطاع العام، وكان من المقرر عقد اجتماع لمجلس الوزراء في فترة ما بعد الظهر، لكن وزراء حزب القوات اللبنانية أعلنوا أنهم لن يحضروا، ودعا زعيم القوات، سمير جعجع، إلى استقالة رئيس الوزراء؛ بسبب "الفشل الذريع في وقف تدهور الوضع الاقتصادي للبلد"، ثم انسحب بعد ذلك من الحكومة بمقاعده الأربعة. ودعا زعيم الحزب التقدمي الاشتراكي، وليد جنبلاط، إلى تحرك "هادئ وسلمي" ضد ولاية الرئيس ميشال عون، كما أعرب بيير عيسى من الكتلة الوطنية عن رأي مشابه(١).

في مساء اليوم نفسه، ألقى سعد الحريري خطابا للأمة، حيث أعطى "شركاءه في الحكومة" ٧٢ ساعة لدعم الإصلاحات؛ محذرا أنه إذا لم يتوصّلوا إلى اتفاق فسيتخذ "نهجا مختلفا". وأعلن الحريري عن تدابير اقتصادية تهدف إلى: خفض العجز، وخفض أجور السياسيين إلى النصف، وتقديم مساعدة مالية لأولئك الذين يعانون من الفقر، وأنه سيستقيل إذا لم يتم إقرار الإجراءات. رفض المتظاهرون إصلاحات الحريري ووصفوا أعضاء حكومته بـ"اللصوص". وفي الليل، حاول العديد من راكبي الدراجات النارية ممن يرفعون أعلام حزب الله وحركة أمل التسلل إلى الاحتجاجات في بيروت، لكن الجيش اللبناني تمكّن من إحباط محاولتهم. بعد بضع دقائق، نفى حزب الله وحركة أمل تورُّطهما في هذا الحادث. ثم أصبح هذا الحادث متكررا كل يوم تقريبا(٢).

وإذا كان الخارج تدخَّل في الحالة السودانية وتنازع الساحة العراقية وأظهر الحياد في حالة الجزائر فإنه بجميع قواه متمدد في الساحة اللبنانية وكأن لبنان ملك مشاع بين الجميع، وهكذا بدا تعامل القوى اللبنانية مع الخارج باعتباره من الداخل!! ففي يوم ٢٢ أكتوبر التقى الحريري بسفراء الولايات المتحدة، روسيا، فرنسا، بريطانيا، ألمانيا، إيطاليا والاتحاد الأوروبي، إلى جانب ممثلين عن الصين والأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، وناقشهم الإصلاحات المخطط لها وشدَّد على أهمية التعبير السلمي عن المحتجين. وأعرب ممثلو فريق الدعم الدولي للبنان عن دعمهم للإصلاحات الاقتصادية وحماية المتظاهرين، وحثُّوا قادة لبنان على الدخول في حوار مفتوح مع مواطني البلاد(٣).

توالت دعوات الحريري والرئيس اللبناني ميشيل عون للحوار مع المتظاهرين والمراجعة من خلال مؤسسات الدولة مع سيل من الوعود في محاولة لتبريد الحالة البركانية المتصاعدة، ولكن المتظاهرين واجهوا ذلك كله بالتصعيد والمطالبة باستقالة الحكومة ثم الرئاسات الثلاث، وتغيير النخبة الحاكمة على غرار مطالب السودانيين والعراقيين والجزائريين في الآونة نفسها.. وقد ضاعف من اشتعال الموقف استمرار تردّي

(١) مظاهرات لبنان: سمير جعجع يعلن استقالة وزراء حزب القوات اللبنانية من الحكومة، بي بي سي عربي، ١٩ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/3jW7Lo3

(٢) المرجع السابق.

(٣) رئيس الوزراء اللبناني يلتقي سفراء مجموعة الدعم الدولية للبنان، موقع وكالة الأنباء السعودية، ٢٢ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3ia5dCo

المؤشرات والأوضاع والسياسات الاقتصادية. ففي الأسبوع الأخير من أكتوبر ٢٠١٩ صنف تقرير صادر عن شركة الخدمات المالية ستاندرد آند بورز، لبنان في الفئة السلبية والضعيفة بسبب تدنّي الجدارة الائتمانية، وقد استمرّ إغلاق بنوك البلاد بسبب المَخاوف من الاحتجاجات ما زاد الطين بلة[١].

وفيما كانت قوى تنفخ في النار وفي مقدّمتها حزب القوات اللبنانية ورئيسه سمير جعجع محملا الحكوَمة مسئولية عدم الاستجابة لمطالب المحتجّين، كانت مجموعات من حزب الله اللبناني تصطدم بالمتظاهرَين ودعا أمين عام الحزب حسن نصر الله أنصاره وغيرهم لترك الشوارع والحذر من استغلالهم من قبل العملاء المحليّين والأجانب لبدء حرب أهلية داخل البلاد[٢].

وقبل انتهاء الأسبوع الثاني للحراك وفي ٢٩ أكتوبر ٢٠١٩ أعلن سعد الحريري استقالة حكومته، بينما دخلت الرئاستان الباقيتان في سجال مع المحتجين الذين كثّفوا حراكهم ونوَّعوا فعالياته وأغلقوا معظم شوارع بيروت ومدن أخرى مثل صور وطرابلس وأغلقوا الجسور والطرق بين المدن وأشعلوا كمًّا هائلًا من الإطارات الجلدية، وحاصروا مبنى البرلمان لمنع انعقاد جلسة التصويت على قانون عفو عام يمكن أن يمنح الأعضاء الحاليّين والسابقين الحماية من المقاضاة على جرائم مثل الفساد وإسَاءة استخدام الأموال العامة[٣]!

هذا بينما واصل ميشيل عون في خطابات موجهة وحوارات متلفزة الهجوم على المتظاهرين والتسفيه من سلوكياتهم ومطالبهم؛ فاتهمهم "بطعن الشعب بخنجر"، وأن الذين أغلقوا الطرق قد قاموا "بانتهاك القانون الدولي"! ودعا إلى وضع حدّ فوري للاحتجاجات لمنع حدوث "كارثة"، وأنه "**يمكن لأي شخص لا يجد ثقته في الحكومة اللبنانية الحالية أن يغادر لبنان ويعيش في مكان آخر**". هذا بينما حرص الشيخ حسن نصر الله على أن يمسك العصا من منتصفها ما بين مطالب الإصلاح ومطالب التهدئة[٤].

ومع حضور الجيش اللبناني في الشوارع في محاولة صدّ تحركات المحتجّين ومنعهم من إغلاق الطرق ومحاصرة أوَ مهاجمة المنشآت العامة.. أقام المحتجون في ذكرى يوم الاستقلال ٢٢ نوفمبر ما سمي بـ"**عرض مدني**" في مقابل العرض العسكري المعتاد من الدولة، وتكوَّن من فئات المهن المختلفة من الأطباء والمهندسين والمعلمين والموظفين العسكريين المتقاعدين والصيادلة وناشطات حقوق المرأة والمصرفيين والرياضيّين وفناني الأداء، وتوالت العروض الفنية الغنائيةَ والراقصة التَي سلطت وسائل الإعلام الضوء عليها. وفي ٢٤ نوفمبر أحرق أنصار حزب الله وحركة أمل خيام أنصار المجتمع المدني وحطموا سياراتهم مما دفع الجيش اللبناني للتدخل بالغاز المسيل للدموع وقنابل الدخان اليدوية بعد ساعات، لتفريق واحدة من أكثر الأُمسيات عنفاَ منذ بداية الاحتجاجات[٥].

(١) اقتصاد لبنان في ورطة.. "ستاندرد آند بورز" تخفض التصنيف، العربية.نت، تاريخ النشر: ١٦ نوفمبر ٢٠١٩، آخر تحديث: ٢٠ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/8Zfwt

(٢) لبنان: حسن نصر الله يطالب أنصاره بترك ساحات الاحتجاج ويحذر من "افتعال حرب أهلية"، فرنسا ٢٤، نشرت وآخر تحديث في ٢٥ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/dp3ep

(٣) استقالة سعد الحريري: ترحيب بين المحتجين في لبنان ومخاوف من "فراغ سياسي" محتمل، بي بي سي عربي، ٣٠ أكتوبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/3ibeKcj

(٤) مظاهرات لبنان: هل حان وقت رحيل الرئيس اللبناني ميشال عون بعد خطابه الذي أغضب المتظاهرين؟، بي بي سي عربي، ١٤ نوفمبر ٢٠١٩، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/2R8owzS

(٥) استقلال لبنان.. عرض مدني للحراك واحتفال محدود للسلطة، العربية.نت، تاريخ النشر: ٢٢ نوفمبر ٢٠١٩، آخر تحديث: ٢٠

في ٢٥ نوفمبر أصدر يان كوبيتش، منسق الأمم المتحدة الخاص للبنان، تصريحات متعددة على موقع تويتر يحذر فيها من المواجهة المتصاعدة بين المحتجين وأنصار حزب الله/حركة أمل؛ في وقت بدأ فيه أنصار حزب الله وحركة أمل الموالين للحكومة بالتجول في جميع أنحاء بيروت وصور ومدن أخرى، على الدراجات البخارية وهم يهتفون بالاستهزاء بالمتظاهرين؛ ما أدى إلى اشتباكات جسدية ومواجهات استمرت بشكل متقطع. ومن هنا بدأ الحديث عن عنف طائفي في الحراك اللبناني!

ولكن الحقيقة أن الحراك من بدايته كان متجاوزا للطائفية وحصصها ورفع الجميع علم لبنان تاركين الأعلام الفرعية التي لا حد لها. ورغم مواجهة حزب الله وحركة أمل الشيعيَّين بالأساس للحراك إلا أن ذلك لم يفرض المنطق الطائفي! وعلى غرار العراق كانت لبنان مجالا للتراشق الخطابي بين الخارجية الأمريكية والأوروبيين من جهة وإيران وحزب الله من الجهة الأخرى[١].

وهكذا، تتبَّعنا مسارات الموجة الثانية من البركان العربي من بداياتها إلى نتائجها الأولية؛ من أحواضها الاقتصادية إلى فوهاتها السياسية التي قد تظهر لأهون الأسباب أو لأحداث غير متوقعة، لكن أعناقها بدت تفتقد إلى قوى سياسية قادرة على ترشيد الجهد الشعبي الكبير وحصاد ثمار التضحيات الثورية؛ ومن ثم جاءت نتائجها إما بالحفاظ على الشكل الهرمي أو الهضبي للنظام السياسي بغير تغيير حقيقي وجوهري، وإما بإعلان أن المنطقة دخلت حزام الزلازل والبراكين ومعرضة للانفجار في أي وقت ولأهون الأسباب. ولكن الأمر لا يزال بحاجة إلى مزيد من تأمل الدلالات السياسية والقيمية.

ثانيا– سياسات مواجهة أزمة كورونا وآثارها على دول الموجة

بحلول جائحة كورونا في البلاد العربية امتزجت معضلة السياسة –كما في الانتفاضات– بإشكاليات السياسات العامة المتعلقة بالصحة والتعليم والاقتصاد وغيرها في حوض واحد؛ ووقفت الشعوب والأنظمة أمام اختبار مركب من ثنائية: الإصلاح السياسي أم الإنقاذ الإنساني والمجتمعي؟

فلقد شهدت فترة أزمة كورونا ضغوطا شديدة على الشعوب والحكومات العربية معا، لا سيما من الناحية الحياتية والاقتصادية مع استمرار وتراكم التحديات الأمنية والسياسية التي تحيط بالمنطقة وتتخلَّل أقطارها. ومن ثم توقَّعت بعض التقارير وقوع قلاقل في عدد من الدول التي كشفت كورونا عن ضعفها أو تضرَّر مواطنوها تضرُّرات بالغة، بل توقَّعت بعض التقارير موجة ثالثة من الثورات العربية[٢].

وانتقل وباء كورونا إلى الدول العربية منذ منتصف فبراير ٢٠٢٠ بداية من الإمارات فمصر ولبنان، ثم بقية دول الخليج: الكويت وسلطنة عمان والبحرين والعراق والسعودية، حتى انتشر في كل الدول العربية بدرجات مختلفة[٣]. وتفاوتت طرق تعامل الحكومات العربية مع الوباء نظرا لاختلاف ظروفها وأساليبها في الموازنة بين عناصر عدة: متطلبات الوقاية

مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/fRcHD

(١) وحدة الدراسات السياسية، انتفاضة لبنان: أسبابها وتداعياتها، تقدير موقف، ٢٣ أكتوبر ٢٠١٩، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الموقع الإلكتروني للمركز، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3jQxy0W

(٢) عبد الحليم قنديل، ثورات الموجة الثالثة، القدس العربي، ١ مايو ٢٠٢٠، على متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/zUAUb

(٣) جوناثان ماركوس، فيروس كورونا "قنبلة موقوتة" للشرق الأوسط، بي بي سي عربي، ١ أبريل ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/338NMM5

– وانظر: استجابة البلدان العربية إلى كوفيد-١٩، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الدول العربية، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2R6XEjP

الصحية، وضغوط المطالب الاقتصادية، وقدرات كل دولة، والمخاوف الأمنية، والأوضاع السياسية، وتوقع مراقبون أن يكون الوضع أخطر في دول الموجة الثانية من الانتفاضات (السودان، الجزائر، العراق، لبنان)، ولكن المؤشرات لم تؤكِّد ذلك حتى اليوم.

ويمكن ملاحظة آثار هذه الأزمة على دول الموجة الثانية على مستويين: مباشر يتعلق بالسياسات الصحية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وغير مباشر يتعلق بالتغيير السياسي العام ومآلات الحراك الشعبي في كل منها. ومن ثم تعتمد الدراسة **على مراجعة السياسات أكثر من متابعة المؤشّرات**؛ سواء المؤشّرات العددية أو النسبية لأن الكثير منها يضلل أو لا يدل على شيء مؤكّد إلا قليلا، مع استمرار الدراسة في محاولةاستجلاء أثر الجائحة على العلاقة بين السلطة والمجتمع وحالة الثوران السياسي العربي الفائر أو المكبوت.

أ) السياسات الصحية في مواجهة الأزمة

ظهر وباء كورونا في دول الموجة الثانية بين ١٧ فبراير (الجزائر) و١٣ مارس ٢٠٢٠ (السودان)، مرورا بلبنان (٢١ فبراير)، فالعراق (٢٤ فبراير)، فالأردن (٢ مارس)، وتشابهت ظاهرياً سياسات الدول الوقائية والعلاجية والرعائية في التعامل معها؛ الأمر الذي كان له أثره على حجم الأزمة وتأثُّر المواطنين بها، ولكن بعض الأنظمة تميز بأداءات إيجابية في الوقت الذي توجهت فيه انتقادات لسياسات أنظمة أخرى.

وقد اتخذت دول الموجة الثانية كلها تلك الإجراءات العامة الوقائية والعلاجية التي قامت بها جميع الحكومات تدريجيا؛ بداية من الحجر الصحي للقادمين من الخارج إلى تعطيل حركة الطيران الخارجي فالتنقلات الداخلية بين الولايات، ففرض إجراءات وقائية على المواطنين، وتخصيص مستشفيات ومراكز للحجر، ووسائل للكشف عن الإصابات، فإغلاق الكثير من المؤسسات وأماكن التجمع على التوالي، وصولًا إلى العزل المنزلي للمواطنين فحظر التجول لساعات وتوقيتات معينة، لكن بعضها تميز عن بعض في فعالية وكفاءة السياسات وسرعة الحركة والاستعداد لتحمل الأعباء المالية والاقتصادية لهذه الإجراءات.

ولعل تأخُّر ظهور الوباء في الأردن ولبنان وتضاؤل الإصابات والوفيات فيهما لشهور تالية يعزى إلى جودة وجدية بعض السياسات الاحترازية والعلاجية.

فقد اتخذت **الأردن** سياسات شديدة الصرامة من قبل ظهور أول حالة (ثاني حالة بعد الأولى بـ١٣ يوما يوم ١٥ مارس)، وتلقَّت إشادات من تقارير منظمة الصحة العالمية وغيرها، وقام العاهل الأردني بدور مباشر في عمليات التوعية والطمأنة والتوجيه والمشاركة في إدارة الأزمة وتنفيذ السياسات؛ خطابا وحركة[1]. واقترب من ذلك الأداء اللبناني لا سيما في اجتهاد حكومة حسان دياب التي أفرزها الحراك (١٩ ديسمبر ٢٠١٩ وحتى ١٠ أغسطس ٢٠٢٠) في التواصل مع الشعب واعتماد خطاب توجيه حضاري، مع إجراءات عملية تقدَّمت حينًا وتأخَّرت حينًا.

فعلى سبيل المثال، اتخذت الأردن إجراءات حجر المسافرين منذ ٢٣ فبراير ما قبل أول إصابة بثمانية أيام، ثم شرعت في إغلاق المطارات والموانئ ومعابر الحدود السورية فالمدارس والتجمعات المختلفة مبكرا، ثم مع توالي اكتشاف إصابات تم تصعيد الإجراءات حتى شملت تفعيل **قانون الدفاع** الصادر سنة ١٩٩٢ (ولم يكن مفعَّلًا منذ صدر) والذي تم بموجبه تعطيل جميع المؤسسات والإدارات الرسمية والقطاع الخاص باستثناء القطاعات الحيوية والقطاع الصحي،

(١) رحاب الزيادي، كيف واجه الأردن أزمة كورونا، المرصد المصري، التابع للمركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية، ١٢ أبريل ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://marsad.ecsstudies.com/27048/

ومنع المواطنين من مغادرة المنازل إلا في حالات الضرورة القصوى.. إلى غيرها من الإجراءات المتكاملة والسريعة[(١)].

وأظهرت الحكومة الأردنية كفاءة في إيجاد البدائل المتعلّقة بالبيع والشراء بالدفع الإلكتروني وتوصيل احتياجات الناس إلى منازلهم خاصة في مدن أكثر خطورة، وخصصت الدولة ميزانية مخصوصة لمواجهة الأزمة ومنعت تصدير المعدات والأدوات الطبية التي تحتاجها مخزونا استراتيجيًّا، حتى بلغت درجة من التحكّم بحركة الوباء؛ فشرعت تقدم المعونات للدول الشقيقة والصديقة[(٢)].

وفي ٢٣ مارس ٢٠٢٠ كان الملك عبد الله الثاني قد ألقى خطابا مسجَّلًا عبر التلفزيون الأردني مرتديا الزي العسكري من أجل تشجيع المواطنين على تحمُّل الأزمة والتعامل معها بجدية؛ ومما قاله في الخطاب: ".. **أطلب منكم بصوت الأب لأبنائه، عدم التنقل والالتزام بالتعليمات الرسمية.. فلنرتقي بمسؤولية حماية الوطن الذي نحب، ولنتفانَ في التضحية والعطاء،.. كا ن الأردني دائما لأخيه الأردني سندًا، وسيظل لوطنه درعًا**"[(٣)].

شكلت الحكومة الأردنية أيضًا "**خلية أزمة**" تعمل على مدار الساعة، لمتابعة التطورات المتعلّقة بانتشار كورونا في الأردن، ولم توكل المواجهة إلى وزارة الصحة وحدها بل كلّفت وزارات مثل السياحة والآثار بالتعاون معها، وخططت الحكومة –من خلال المركز الوطني للأمن وإدارة الأزمات– من البداية لتفعيل التباعد الاجتماعي والتحول للمنصات الرقمية بحيث لا تتعطل حياة المواطنين خلال فترة الحظر أو الحجر الصحي ، وتمّت الاستعانة بالقطاع الخاص ووزارة الاقتصاد الرقمي لهذا الغرض. تعدَّدت المنصات الرقمية التي أطلقتها الحكومة لتشمل المجالات الصحية والتعليمية وتوصيل المواد الغذائية وطلب تصاريح الخروج والتعليم عن بعد وحتى طلب الأدوية من الصيدليات أو وسائط نقل للحالات الطارئة وغيرها، وفي ٦ أبريل، أطلقت الحكومة الأردنية موقع (www.stayhome.jo) على شبكة الإنترنت للسماح للمواطنين بطلب تصاريح لمغادرة منازلهم لأسباب طارئة. وبعد شهرين ونصف من النتائج الجيدة، شهدت البلاد ارتفاعا ملحوظًا في عدد الإصابات فأعلنت الحكومة الأردنية في ٢٢ مايو عن فرض حظر تجول شامل ولمدة ثلاثة أيام، وسرعان ما جرى احتواء الأمر[(٤)].

قبل ذلك وفي ٢٦ أبريل وصلت أول طائرة عسكرية أردنية تحمل معدات وطاقما طبيًّا إلى الكويت! حيث ذكر الملك عبد الله الثاني في مقابله له على شبكة «سي بي أس» الأمريكية "إنه يأمل أن **تكون المملكة في الأسابيع المقبلة قادرة على تصدير المعدات الطبية للدول المتضررة من الأزمة وأن يتمكن الأردن من إرسال الأطباء والممرضين للدول التي هي بحاجة إلى الدعم الطبي في المنطقة أو حول العالم**"[(٥)].

وفي لبنان في ١٨ مارس ٢٠٢٠ نشرت منظمة الصحة العالمية تقريرا على حسابها على "تويتر" مرفقًا بصور وبيانات توضح كيف أسهم لبنان –بفضل الإجراءات الوقائية مثل البقاء في المنزل– بتأخير انتشار الفيروس محليًّا منذ اكتشاف أول إصابة، وكشفت المنظمة أن عدد الإصابات بالفيروس يقدَّر بـ١٣٣ حتى ١٨ آذار (أصبحت

(١) المرجع السابق.

(٢) الملك للأردنيين: أطلب منكم بصوت الأب عدم التنقل، موقع رؤيا الإخباري، نشر بتاريخ: ٢٣ مارس ٢٠٢٠، وآخر تحديث: ١٦ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://royanews.tv/news/209412

(٣) بإجراءات استباقية وخطة صارمة.. هكذا تمكن الأردن من وقف كورونا، سكاي نيوز، ٦ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/r6L4j

(٤) المرجع السابق.

(٥) العاهل الأردني يأمل أن تتمكن بلاده من تصدير معدَّات طبية خلال الأسابيع المقبلة، القدس العربي، ١٩ أبريل ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ZRWhV

١٤٩ إصابة في ١٩ مارس بحسب وزارة الصحة اللبنانية). أعلن المجلس الأعلى للدفاع التعبئة العامة من ١٥ مارس، وحذرت وزارة الصحة اللبنانية في بيان صادر في ٢١ مارس ٢٠٢٠ من أن بلوغ عدد الإصابات ٢٠٦، يشير إلى بدء مرحلة الانتشار، وعليه شددت الوزارة على تطبيق جميع الإجراءات الوقائية خاصة الالتزام بالحجر المنزلي التام[١].

بدأ المدخل الأساسي لسياسة الحكومة اللبنانية تفاهميًا إقناعيًا باعتبار الالتزام بالتعليمات مسؤولية أخلاقية فردية ومجتمعية واجبة على كل مواطن، ولكن مع تبيُّن تهاون كثير من المواطنين واستمرارهم بالاختلاط الاجتماعي تزايدت إجراءات الملاحقة القانونية والجزائية، وتعالت لهجة قوى الأمن الداخلي بالتحذير والتهديد بتطبيق العقوبات واستصدرت قرارات بتشديد عقوبات المخالفة أو التهاون، ثم تدخَّل الجيش مع وزارة الداخلية والبلديات بأعمال المراقبة على المؤسسات والأفراد وغلق الطرق ومخاطبة المواطنين بضرورة التزام التعلميات، ووصل الأمر إلى أن تحلّق مروحيات تابعة للجيش فوق مناطق لبنانية عدَّة، داعية المواطنين إلى التزام منازلهم وعدم الخروج منها إلا للحالة القصوى[٢].

ومع التردّي الذي يعانيه الاقتصاد اللبناني من قبل الجائحة لم يسهلَ الحكم على قدر الإمكانيات التي وفرتها الحكومة لمواجهة الأزمة طبيًّا واقتصاديًّا، غير أن بدايات أغسطس الجاري شهدت **الانفجار المدمّر لمرفأ بيروت** وكسر الشارع اللبناني لما تبقّى من الإجراءاتَ الاحترازية ضدَّ كورونا ليتجدَّد بركان الرفض السياسي وتعاد مرة أخرى أحاديث الأزمة الاقتصادية والعامة في لبنان، وسط تدخُّل خارجي كبير من أطراف عدَّة ومتنافسة بذريعة المساعدة على تجاوز الأزمة، وهو ما يحتاج إلى موضع مخصوص.

وقد اشتدَّ أثر كورونا في الدول الثلاث الباقية، **ففي العراق** المتاخم لإيران (وظلت إيران ثاني أكثر البلاد انتشارا للفيروس في بدايته بعد الصين) بلغ مجموع الحالات المؤكَّدة ٢١١٩٤٧ حالة من بينها ٦٥٩٦ وفيات حتى ٢٥ أغسطس الجاري، حيث تدرجت بنوع من التردد إجراءات التباعد الاجتماعي في بلد يعج بالحوزات والحسينيات والمزارات الشيعية والمساجد السنية، وقد تمَّ حظر التجمُّعات الدينية في ١٣ مارس في حكومة إقليم كردستان ولكن لم يتم فرضها بشكل صارم حتى ٤ أبريل حيث تم اكتشاف أن تجمع جنازتين في ٢١ و٢٣ مارس كان مسؤولا عن ثلث جميع الحالات في مدينة أربيل.

ومن ثم انزلقت معدلات الإصابة والوفاة من آحاد فعشرات حتى أواخر مايو، إلى مئات آلاف الإصابات اليومية وأعداد كبيرة من الوفيات يوميًّا في يونيو فيوليو على التوالي. ومن ثم يمكن القول إن الإدارة الصحية للجاحة في العراق كانت سيئة.

ورغم تشكيل الحكومة العراقية "خلية الأزمة" لمتابعة الجائحة ومواجهتها بشتى السبل الممكنة، فقد لوحظ ضعف التنسيق بين الولايات والحكومة المركزية في بغداد: تمويلا، وخطة زمنية وإجراءات. وتميز تعامل السنة مع قضية المساجد وصلوات الجماعة والجمعة والأعياد عن اختلافات المراجع الشيعية واستجابة المصلين في الطائفتين للتعليمات الوقائية، مما كان له أثر أفضل في ولايات الشمال عن الوسط والجنوب، وخاصة مع كثرة الاختلاط بالإيرانيين في الأخيرة[٣].

(١) ممثلة منظمة الصحة في لبنان: بيروت من أكثر المدن التي ينتشر فيها فيروس كورونا والإمكانيات حتى الآن متوفرة لاستيعاب الحالات، أخبار الأمم المتحدة، ٢٥ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2R45dIb

(٢) الجيش اللبناني يستخدم المروحيات العسكرية لحث السكان على الالتزام بمنازلهم وتجنب التجمعات، موقع جريدة الشروق، نشر وآخر تحديث في: ٢٢ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3m5ek9y

(٣) أسبوعان آخران من حظر التجوال في العراق، موقع ارفع صوتك، ٢٦ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/hfh1F

ويرى هيثم عميرة أنه لا يمكن للإخفاقات المتعددة للعراق ولبنان "إلا أن تسوء مع وصول الجائحة الجديدة، في غياب القادة السياسيين ذوي الشرعية والقدرة على حل المشاكل الهائلة التي تواجه هاتين الدولتين المتآكلتين بسبب الطائفية. من ناحية، يعاني العراق من انخفاض حاد في عائدات النفط بسبب حرب الأسعار التي شنتها السعودية مؤخراً. ومن ناحية أخرى، يواجه لبنان العديد من الأزمات المتزامنة والعميقة، بدءا بالأزمة المصرفية التي دفعت البلاد إلى الإعلان عن أول تخلف عن سداد الديون في تاريخها في ٧ مارس. وقد أدَّى الانخفاض الحاد في قيمة الليرة اللبنانية (فقدت أكثر من ٤٠٪ من قيمتها منذ أكتوبر الماضي) ونقص العملة الأجنبية إلى إغلاق شركات وفقدان وظائف وتضخم الأسعار وصعوبات كبيرة في استيراد السلع الأساسية بما في ذلك المواد الطبية والصحية. وحتى قبل اندلاع أزمة كوفيد-١٩ كان الوضع في لبنان على حافة الكارثة"[(١)].

وظهرت جائحة كورونا في الجزائر ابتداء من ١٧ فبراير ٢٠٢٠، وقد بلغ مجموع الحالات المؤكدة حتى ٢٢ أغسطس ٢٠٢٠، ٤١٠٦٨ حالة من بينها ١٤٢٤ حالة وفاة و٢٨٨٧٤ حالة تعاف فيما سجلت ١٠٧٧٠ حالة نشطة. وقد أخذت حكومة عبد العزيز جراد وبإشراف الرئيس الجديد عبد المجيد تبون نحو شهر حتى بدأت إجراءات التعامل الجادة، ففي ٢١ مارس، عيَّن الوزير جراد **لجنة متابعة ورصد وباء كورونا** برئاسة عبد الرحمن بن بوزيد وزير الصحة والسكان وإصلاح المستشفيات، وأصدر جراد مرسوما تنفيذياً يحدّد كيفيات تطبيق الإجراءات التي أقرّها رئيس الجمهورية للوقاية من انتشار الوباء ومكافحته، وفي ٢٣ مارس عقد رئيس الجمهورية اجتماع **المجلس الأعلى للأمن** لاتخاذ قرارات جديدة وتوالت هذه الآلية عبر الأشهر التالية؛ في تعامل تدريجي بدا متوانيا أو متردّداً نظراً للأزمة الاقتصادية التي تعيشها الجزائر.

ولكن بخلاف حالة العراق خضعت الولايات والمستويات المحلية ومجالسها الشعبية في الجزائر لتوجيه مباشر من الرئيس وحكومته على الأقل في تنفيذ السياسة العامة الإغلاقية والوقائية وإجراءاتها، ومنها تشكيل لجان على مستوى الولايات لتنسيق نشاط القطاعات المختلفة في مواجهة الوباء[(٢)].

ومن ناحية أخرى وكما في العراق اهتمَّت الحكومة الجزائرية بالشأن الديني والفتوى بخصوص صلاة الجماعة ودفن موتى كورونا. ففي ١٧ مارس، صرح يوسف بلمهدي وزير الشؤون الدينية والأوقاف في الجزائر بأن لجنة الفتوى قررت تعليق صلاة الجمعة والجماعة، وغلق المساجد في جميع أنحاء البلاد. وفي ٢٥ مارس أكدت لجنة الفتوى لدى الوزارة في بيان لها، «**بما أن وزارة الصحة، أخذت على عاتقها التكفل بغسل الموتى المصابين بكورونا، وتكفينهم ودفنهم، ووضعت جملة من الإجراءات الوقائية الصارمة، فإنه يجب شرعا احترام هذه الإجراءات والالتزام بها حفاظاً على الأنفس**»، وقالت اللجنة إن جمهور العلماء اتفقوا على أن غسل الميت من فروض الكفاية التي إذا قام بها البعض سقطت عن الآخرين؛ لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك. ومن ثم وضعت اللجنة ضوابط لذلك مفصلة، جمعت فيها بين الديني الصحي جمعا متكاملاً. وفي ١٣ مايو، أفتت اللجنة الوزارية للفتوى بأداء صلاة عيد الفطر المبارك في

(١) هيثم عميرة فرناندث، فيروس كورونا في الدول العربية: عاصفة عابرة، فرصة للتغيير أم كارثة إقليمية؟، موقع معهد إلكانو الملكي للدراسات الدولية والاستراتيجية في مدريد، ٧ أبريل ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/2HH9w

(٢) وزير الصحة: قرار الحجر الصحي العام من صلاحيات رئيس الجمهورية، موقع النهار، ٢٢ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2DFDw5g

البيوت جماعة بين أفراد الأسرة الواحدة أو فرادى، شارحة كيفيتها وتوقيتها وشروطها(١).

وقد تمَّ تعليق هذه المظاهرات في الجزائر منذ ٢٠ مارس بسبب الزيادة في حالات الكوفيد-١٩ ولتجنُّب خطر العدوى في بلد يعاني من بنية تحتية صحية سيئة، كما يشير هيثم عميرة فرنانديث، فقد أظهر الحراك في الجزائر أن هناك "شعورا واسع الانتشار بأن النظام السياسي متصلّب وأنه يتطلب إصلاحات عميقة لبناء دولة مدنية ترتكز على الفصل بين السلطات والحكم الرشيد. عندما كان في استطاعة حكام الجزائر الحصول على عائدات عالية من بيع المحروقات، فقد تمكنوا وقتها من شراء السلام الاجتماعي من خلال دعم السلع التموينية وإعطاء المنح المالية. ولكن مع الانخفاض الحاد المتوقع في الإيرادات هذا العام، إلى جانب الانخفاض المقلق في احتياطيات النقد الأجنبي، فإن التوقعات بالنسبة للجزائر خلال السنوات القليلة المقبلة لا تبعث على الطمأنينة. كل هذا مع رئيس جديد للجمهورية (عبد المجيد تبون) الذي فاز في انتخابات مشكوك فيها أجريت في ١٢ ديسمبر. في الوقت الحالي لا يبدو أن شرعيته ورأس ماله السياسي سيكونان كافيين للمرحلة القادمة، والتي يمكن أن تشهد صعوبات متزايدة بسبب الاضطرابات الناتجة عن جائحة فيروس كورونا"(٢).

أما بالنسبة للسودان، فقد تراجعت الأحوال المعيشية والاقتصادية العامة فيه قبل التغيير الأخير ولم تحقّق السياسات الاقتصادية الحكومية أي نوعٍ من التحسين، رغم دعوات حوار مجتمعي أو سياسي غير مجدية ولا جادة، واتسمت إدارة البشير بالتهاون والتهوين، الأمر الذي ينسحب على معالجة المشكلات الأمنية مع الجماعات المسلحة ومع شكاوى المناطق من التمييز العرقي والمناطقي.

وابتداء من ١٣ مارس ٢٠٢٠، بدأ فيروس كوفيد-١٩ يظهر في مدينة الخرطوم، وحتى الأول من أغسطس ٢٠٢٠ بلغ مجموع الحالات المؤكدة في السودان ١١٧٣٨ من بينها ٧٥٢ وفاة (بنحو ٦,٤%) و٦١٣٧ حالة شفاء. وقد اتخذت الحكومة السودانية عددا من تدابير الاحتراز والمواجهة لكورونا للحدّ من انتشاره حتى يونيو ٢٠٢٠، حتى أعلنت لجنة الطوارئ الصَحية عن تخفيف الإجراءات الصحية بالبلاد اعتبارا من ٨ يوليو ٢٠٢٠ وتقليل ساعات حظر التجوال؛ وتهيئة بيئة العمل بما يتوافق وحالة الطوارئ الصحية، ووضع البرتوكولات وتوفير المعينات الطبية لضمان الحد من انتقال المرض وانتشاره(٣).

لكن الأمر الذي شغل الرأي العام في السودان وخارجه في غضون هذه الجائحة تمثل في تصريحات وزير الصحة السوداني أكرم علي التوم الذي اختلفت حوله الآراء بين تأييد لما وصف بالشفافية أو معارضة لما وصف بالاستخفاف بمعاناة المواطنين. وكان كلام الوزير قد جاء في أحد إيجازاته اليومية، حين حذّر المواطنين من انتشار فيروس «كوفيد - ١٩»؛ إذ قال: **"هذا مرض لا علاج له، كل ما نفعله هو أن نصرف لك محاليلِ وريدية (دربات) ومسكّن للألم (بنادول)، وإذا اختنقت نعطيك أكسجين، وإن ضاقت عليك فستموت"**(٤).

---

(١) أسماء بهلولي، تعليق صلاة الجمعة والجماعة بمساجد الجزائر بسبب كورونا، موقع جريدة الشروق الجزائرية، ١٧ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/h2FHi

(٢) انظر: هيثم عميرة، فيروس كورونا في الدول العربية: عاصفة عابرة، فرصة للتغيير أم كارثة إقليمية؟، مرجع سابق.

(٣) السودان يرفع «إغلاق كورونا» اعتبارا من ٨ يوليو، الشرق الأوسط، ٢٨ يونيو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/QDa8c

(٤) أكرم التوم يقود معركة السودان ضد «كورونا» بنظام صحي منهار، الشرق الأوسط، ٢٣ مايو ٢٠٢٠، العدد (١٥١٥٢)، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/pbstI

- وانظر: فيروس كورونا: صراحة وزير الصحة السوداني أكرم علي التوم تثير موجة من الانتقادات، بي بي سي عربي، ١ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/3bDHg3E

ونظرا لإشكالية المواقف من الوضع السوداني الجديد ما بين التأييد والرفض في الداخل والخارج فقد تبارت الأنظار إلى السياسة الحكومية في مواجهة جائحة كورونا؛ بين وسائل إعلام وكتاب يرون أن "فيروس كورونا فضح القادة الجدد للسودان"، مع الإشارة إلى تصدُّر السودان في أواخر مايو ٢٠٢٠ قائمة دول شرق أفريقيا من حيث عدد حالات الإصابة (أكثر من ٢٠٠٠ حالة) والوفيات (حوالي ١٠٠ حالة)، وتصريحات الوزير التوم الإشكالية مثل قوله في مارس: " إذا كنا قد استطعنا التخلُّص من عمر البشير، فكيف لا يمكننا السيطرة على هذا الفيروس الصغير"؟ وقوله: "فيروس كورونا صار يركض أمامنا".

ففي ٢٣ مايو ٢٠٢٠ قال الوزير دكتور أكرم التوم إن بعض التقصير شاب تطبيق القوات النظامية والولايات والسلطات المحلية للإجراءات الاحترازية التي تهدف إلى مواجهة فيروس كورونا في البلاد، وإنه يتفق مع من يرى أنَّ عدد المصابين في السودان بكورونا أكبر من العدد المعلن عنه حاليًّا. واستهجن الوزير حوادث الاعتداء التي تعرَّضت لها بعض الكوادر الطبية بالخرطوم، مشيرا إلى سعيه لاكتمال حزمة من الإجراءات الرامية لتوفير الحماية للطواقم الصحية وتحسين ظروفهم المعيشية والمهنية، أوضح أن ضعف تطبيق الإجراءات الاحترازية دفع بالبلاد لأن تكون "**خلف الفيروس الذي صار يركض أمامنا**".

وإذا كان من شيء اجتمعت على الاضطراب أمامه سياسات معظم حالات الموجة الثانية للانتفاضات العربية؛ فهو ما يتعلق بمواعيد رفع أو تخفيف الحجر الصحي المفروض على المواطنين وعلى الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية وحركة النقل والمدارس والمساجد وما شابه، فقد تعجَّلت معظم الحالات ثم تراجعت كما في الجزائر والعراق، وضغط المواطنون باتجاه الخروج من الحجر كما في السودان ولبنان، بينما بدت الأردن أكثر حذرا وتريُّثا وحسما. وقد أدَّى التردُّد والاضطراب في هذا الأمر إلى خسائر صحية ومن الإصابات بالفيروس والوفاة بأعداد أكبر مما قبلها.

ب) الآثار الاقتصادية والاجتماعية للوباء

من ناحية الدول فرادى، توقع تقرير للبنك الدولي أن يبلغ الدين العام في **الأردن** مستوى يزيد عن ١٠٧% من الناتج المحلي الإجمالي المقدر للعام الحالي؛ بسبب تأثيرات أزمة جائحة كورونا. وتوقع التقرير أيضا أن يستمر نمو الدين كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي وصولا إلى ١٠٨,٥% خلال العام المقبل. أدَّت الجائحة أيضا إلى ارتفاع الرقم القياسي لأسعار المستهلك (التضخم) خلال الثلث الأول من العام الحالي بنسبة ١,٥٥% مقارنة مع ذات الفترة من ٢٠١٩. كما وصلت خسائر القطاع العقاري إلى ٢٠٠ مليون دينار بسبب الإغلاقات التي طالت المؤسسات الحكومية. وبلغت قيمة تراجع إيرادات دائرة الأراضي والمساحة ما يقارب ٤٠ مليون دينار منذ بداية الجائحة. كما انخفض الدخل السياحي بنسبة ١٠,٧% خلال الربع الأول من العام الحالي مقارنة بالفترة ذاتها من العام الماضي[(١)].

اقترضت الحكومة الأردنية أيضا ما يقارب ١,٢ مليار دولار لتلبية احتياجاتها التمويلية بسبب تأثير أزمة كورونا على الاقتصاد الأردني وماليته العامة، وأظهرت بيانات صندوق استثمار أموال الضمان عن ارتفاع في حجم اقتراض الحكومة من الصندوق لتصل إلى ٦,٣٧٧ مليار دينار، وبنسبة ٥٩,٤% من إجمالي موجودات الصندوق الاستثماري التي تبلغ ١١ مليار دينار، كما أعلنت وزارة العمل عن أن ٤٦٥٢ عامل وعاملة فقدوا وظائفهم خلال الجائحة. وكشفت معطيات إحصائية عن تراجع قيمة الصادرات إلى نحو ٢٣٥

(١) البنك الدولي يتوقع ارتفاع مديونية الأردن إلى ١٠٧% من الناتج المحلي الإجمالي، العربي الجديد، ١١ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3m1tUD7

مليون دينار مقابل ٣٤٢ مليون دينار للفترة نفسها من العام الماضي.

توقَّع وزير المالية محمد العسعس انكماش اقتصاد الأردن بنسبة ٣,٤% حيث انخفضت الإيرادات المحلِّية بقيمة ٦٠٢ مليون دينار واصفا جائحة فيروس كورونا بأنها أكبر تهديد لاقتصادات العالم منذ أزمة الكساد الكبير عام ١٩٢٩. وصرَّح وزير المالية أيضا بأن مرحلة الإغلاق التام التي شهدها الأردن كلَّفت الاقتصاد المحلي ١٠٠ مليون دينار (١٤١ مليون دولار) عن كل يوم لا عمل فيه(١).

قدَّم الاتحاد الأوروبي ٢٠٠ مليون يورو مساعدات إضافية للأردن للمساعدة في معالجة الأزمة والتخفيف من أثرها الاجتماعي والاقتصادي، كما قدَّمت اليابان دعما ماليًّا بقيمة ٢,٢ مليون دولار أميركي لدعم أعمال منظمة الأمم المتحدة للطفولة (يونيسيف) في الأردن، وقدَّمت أيضا الوكالة الدولية للطاقة الذرية دعما لوزارة الصحة الأردنية عن طريق تزويدها بأجهزة تشخيص مبكّر لفيروس كورونا، وتلقَّى الأردن دعما ماليًّا من صندوق النقد العربي بقيمة ٣٨ مليون دولار لتنفيذ الإصلاحات الاقتصادية والمالية والهيكلية التي تضرَّرت بسبب الجائحة، و٣٩٦ مليون دولار كتمويل فوري من صندوق النقد الدولي لتلبية الاحتياجات لميزان المدفوعات الناشئة عن الجائحة(٢).

وقد كان لهذه المآلات تأثيرات اجتماعية ونفسية على المواطنين كما أوضح استطلاع "مركز الدراسات الاستراتيجية" منذ مارس ٢٠٢٠(٣).

وكانت الآثار الاقتصادية في العراق وخيمة مثل الحالة الصحية حيث ارتفعت الأسعار بصورة جنونية، وكان الأسوأ ما يتعلق باللوازم الوقائية للمواطنين. فبعد الإعلان عن أول حالة إصابة مؤكدة في العراق ارتفع سعر رزمة الكمامات الطبية من ٢٠٠٠ دينار إلى أكثر من ١٢٠٠٠ دينار، بينما ارتفع سعر الكمامة N95 من ١٥٠٠ دينار إلى ١٠٠٠٠ دينار، وكذلك نفدت الكميات وعانى السوق من قلة المعروض وارتفاع الطلب، وارتفع سعر القفازات الطبية من ٥٠٠٠ دينار إلى أكثر من ٧٥٠٠ دينار، وارتفع سعر علبة الكحول الطبي (إيثانول، إيزوبروبانول) من ٢٠٠٠ دينار إلى أكثر من ٤٠٠٠ دينار، وارتفع سعر أنابيب الأوكسجين من ٨٠٠٠٠ إلى أكثر من ١٥٠٠٠٠ دينار، ومنظم أنبوبة من ١٥٠٠٠ إلى أكثر من ٥٥٠٠٠ دينار(٤).

ومن ثم طلبت الحكومة المركزية وحكومات الولايات تقديم تبرعات للإسهام في التعامل مع الأزمة؛ الأمر الذي لقي استجابات نسبية. فبعد طلب وزير الصحة والبيئة التبرع، فتح البنك المركزي العراقي حسابات بالدينار والدولار واليورو لغرض إيداع تبرعات الأفراد والمؤسسات الخاصة والعامة داخل وخارج العراق. وفي يوم ٢٤ مارس أعلن البنك المركزي عن وصول مجموع التبرعات (٤٤ مليار دينار عراقي) لمكافحة

(١) لمراجعة رؤية الوزير، انظر: في قلب معركة الأردن لمكافحة كوفيد-١٩، صندوق النقد الدولي، ٢١ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3icL0eW

- وانظر رأيا أشد لنائب رئيس الوزراء الأسبق محمد الحلايقة: كيف يؤثر الإغلاق بسبب كورونا سلبا على اقتصاد الأردن؟، موقع الأسواق العربية، ٨ أبريل ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/ZOAtN

- وانظر حوارا مهمًّا للعسس مع موقع صندوق النقد الدولي، ٢١ يوليو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3icL0eW

(٢) في قلب معركة الأردن لمكافحة كوفيد-١٩، مرجع سابق.

(٣) الأردن والآثار الاقتصادية والاجتماعية والنفسية لأزمة كورونا، موقع مركز الدراسات الاستراتيجية (أردني)، ٣٠ مارس ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3330mMI

(٤) تفشي الذعر والغضب في العراق بعد رفع أسعار مستلزمات الوقاية من فيروس كورونا، موقع قناة الحرة، ٢٤ فبراير ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/09iIw

فيروس كورونا تبرَّعت بها عدد من المصارف والشركات العراقية. وأعلنت بعثة الولايات المتحدة الأمريكية في العراق عن تقديمها ٣٠ جهاز اختبار لكشف فيروس كورونا إلى الحكومة العراقية سلمت إلى أربعة من مختبرات الصحة العامة العراقية في أربيل وبغداد والنجف والبصرة، لتمكن الحكومة من إجراء اختبارات على ٢٧٢٤ عينة، و٨٠٠ مقياس حرارة ومواد مطهرة وعبوات خاصة لنقل العينات إلى صحة نينوى. وأعلنت حكومة إقليم كردستان العراق عن وصول مجموع التبرعات أكثر من ١٤ مليون دولار لمكافحة كورونا في الإقليم، تبرَّع بها عدد من الشركات والأغنياء[١].

وتوقع الخبراء انخفاضاً في نمو الاقتصاد الجزائري بأكثر من ٥٪ في ٢٠٢٠ تأثرا بهذه الجائحة؛ حيث انخفضت عائدات المحروقات حتى نهاية فبراير (وكانت متوقعة بستة مليارات دولار) بواحد مليار دولار لتستقر عند خمسة مليارات؛ وحيث تمثل عائدات المحروقات ٩٠٪ من إيرادات الدولة الجزائرية، ووفقا لأحدث التقديرات من أوبك والوكالة الدولية للطاقة من المرجح أن تنخفض دخول الدول المصدرة للنفط والغاز الطبيعي بنسبة ٥٠٪-٨٥٪ إذا استمرت الأزمة الاقتصادية العالمية في سياق انتشار هذه الجائحة.

من الجهة التجارية ومنذ بداية الوباء في الصين، تكبدت شركات الاستيراد والتصدير والتوزيع الجزائرية خسائر فادحة بسبب اعتمادها على الواردات من الصين بـ٢٥٪ من إجمالي واردات الجزائر (أي ثمانية مليارات دولار). وكانت القطاعات الأكثر تضررا كانت البناء والأشغال العامة. كما ارتفعت أسعار الخضر والفواكه بشكل حادّ وسجَّلت المحال التجارية عبر الجزائر نقصا في القمح والدقيّق بسبب التوافد الكبير للمواطنين.

ونظرا للأثر الاقتصادي أعلنت المديرية العامة للضرائب مبكرا في ١٧ مارس عن تأجيل تقديم الإقرارات ودفع الرسوم والضرائب، مضيفة أن هذا الإجراء استثنائي ولن تترتَّب عليه أيُّ عقوبة تأخير.

ولا يعاني السودان من أزمة في القطاع الصحي فحسب ، بل في القطاع الاقتصادي أيضا. وتتضارب الآراء في هذا الصدد. فيشير الخبير الاقتصادي محمد شيخون، إلى أن أزمة كورونا استنزفت الكثير من الجهود وأعاقت التقدُّم في القضايا الأساسية، التي حدَّدها رئيس الوزراء عبد الله حمدوك في أول مؤتمر صحفي بعد أداء القسم في سبتمبر ٢٠١٩، والتي كان أهمها ملفا السلام والمشكلة الاقتصادية؛ فالوضع الموروث من النظام السابق معقَّد ولا يمكن إصلاحه بعصا سحرية، وربما تأخُّر استكمال بناء مؤسسات المرحلة الانتقالية أثَّر كثيرا في عدم حصول الإنجاز بمعدَّلات كبيرة **لأن السلطة التشريعية لم تستكمل واستعيض عنها طوال الفترة الماضية بآلية تقوم على اتخاذ القرارات عبر اللقاءات المشتركة بين مجلسي السيادة والوزراء**[٢].

ويلخص عادل خلف الله، القيادي في قوى الحرية والتغيير، نجاحات الحكومة الانتقالية خلال فترة الأشهر (سبتمبر-أبريل) في: الكشف عن فساد النظام السابق وقرارات "لجنة إزالة التمكين" التي شملت استرداد أعداد ضخمة من العقارات والأصول المنهوبة إضافة إلى إلغاء بيع وتمليك العديد من المؤسسات والفنادق المهمة، لكنه يعود ليكرر ما يدافع به مؤيدو النظام الراهن من أن الأزمة الموروثة وحجم الخراب والفساد لا يمكن علاجه بضربة قاضية وإنما بالصبر وقدرة الشعب على حماية ثورته وضمان استمرار حيويتها لمواجهة مخططات قوى الثورة المضادة! أما بالنسبة للعقبات فوفقا لخلف الله فقد أدَّى عدم استكمال هياكل الحكم الانتقالي، لاسيما تعيين الولاة وتشكيل المؤسسة

(١) جائحة ڤيروس كورونا في العراق ٢٠٢٠، موقع معرفة، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/3m05Bpf

(٢) حكومة الثورة السودانية.. كشف حساب لـ٢٥٠ يوما، سكاي نيوز عربية، ١١ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/jyHzY

التشريعية، إلى تفاقم الأوضاع المعيشية والسيولة الإدارية والأمنية، التي ساعدت قوى الثورة المضادة في إيجاد الأزمات والنُّدرة وتعطيل انسياب السلع وارتفاع أسعارها(١).

وتشير الإعلامية، درة قمبو، إلى العقبات المرتبطة بملفي الاقتصاد والأمن. وتقول قمبو إن المشكلة الاقتصادية ستظل هي حجر العثرة ومفتاح الحل في آن واحد، وكذا محور النجاح أو الفشل للحكومة الانتقالية برئاسة عبد الله حمدوك، لكن قمبو لا تستبعد إيجاد حلول بالنظر لتحسن علاقات البلد الخارجية وأيضا الخطط التنموية والاقتصادية المعلنة للحكومة في ظل حماسة الشارع للتغيير الجذري(٢).

وتتزايد الوفيات في العاصمة الخرطوم، وخاصة كبار السن، بسبب أمراض مختلفة؛ لأن عشرات المراكز الصحية –بما فيها المستشفيات– أغلقت أبوابها بعد تفشّي فيروس كورونا في مارس، ورفض العديد من الأطباء العملَ، واشتكوا من نقص معدات الحماية الشخصية، وتجاهل البعض قواعد التباعد الاجتماعي.

وتجاوز معدل التضخُّم مئة في المئة، مما جعل حياة الملايين من الناس في غاية الصعوبة. وقد تفاقمت محنتهم بسبب الإغلاق الذي تركهم بدون مصدر دخل، وتنقل تحقيقات صحفية شعور كثيرين بخيبة أمل بسبب عدم ظهور رئيس الوزراء ووزير المالية علانية –ولو لمرة واحدة– للإعراب عن تعاطفهما مع محنة الناس، فما بالك بتقديم العون المالي لهم. ويرى البعض ذلك دليلا على فشل القيادة الحالية؛ وهو شيء لم يتوقعوه من الأشخاص الذين حملوا على عاتقهم آمال الحركة الثورية في الحكم بعد الإطاحة بالبشير في أبريل ٢٠١٩(٣).

أما في **لبنان** فتقول لمياء المبيض بساط: "جاءت هذه الأزمة لتفاقم الوضع مع الصعوبات والتحديات القائمة بالفعل التي تواجهها الحكومة اللبنانية والشعب اللبناني".

فالانكماش الحاصل في الناتج المحلي الإجمالي بنسبة ١٢ ٪ بحسب تقديرات وزارة المالية من المتوقَّع –كما تشير المبيض– **"أن يتواصل في السنوات الثلاث القادمة ليصل إلى نسبة تراكمية قد تتخطى ٣٠٪. ارتفاع الأسعار سوف يفتّت القدرة المعيشيَّة للمقيمين ويوسّع بشكل متسارع نسَب وجغرافية الفقر التي تصيب نَصف إجمالي عدد السكان فيما نسبة من يعيشون تحت خط الفقر المُدقع تتوسَّع بوتيرة متسارعة (٢٢ في المئة من الإجمالي نفسه). عدد كبير من المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والتي تشكّل أكثر من ٩٠ في المئة من المؤسسات والتي كانت أساسا تواجه صعوبة في الصمود وتتكل على مبيعاتها في السوق للحصول على السيولة المفقودة في المصارف، مهدَّد بالإفلاس أو بالإقفال. الزيادة القياسية في نسبة البطالة التي تعدَّت نسبة الـ ٣٦ في المئة (للعمالة النظاميَّة) تُنذر بالارتفاع مع إقفال المرافق التجارية والسياحية وبعض الصناعات. ومن المتوقع أن تعاني الطبقة الوسطى بشكل كبير من هذه الأزمة وانعكاساتها"**(٤).

بقي أن نجمع هذه البيانات العامة المتفرقة، وأن نتوقَّف عند دلالاتها بالنسبة للواقع والمستقبل العربيَّين، وبالأخص فيما يتعلّق بالمسافة بين الشعوب المنخنقة اقتصادياً والموقوذة فكرياً والمتردية نفسيًّا جرَّاء سياسات وطنية وقومية عامة ممتدة عبر عقود تربو على نصف القرن، وبين أنظمة حاكمة تضم قوى متعدّدة المستويات، ونظم عمل قوامها الاستبداد المغلق

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) فيروس كورونا فضح القادة الجدد للسودان، بي بي سي عربي، ٢٦ مايو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://bbc.in/35hIyjR

(٤) لمياء المبيِّض بساط، قراءة في تداعيات فيروس كورونا على لبنان، موقع معهد باسل فليحان المالي والاقتصادي، ٤ يونيو ٢٠٢٠، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Xocjz

متزايد الغلق، والتبعية للخارج متزايدة الانبطاح والاستسلام إلى صورة "التصهين العربي الأخير" التي نعيشها بكل أسف.

وجماع ما سبق أن السياسات الرسمية والأيادي الخارجية –بقصد مختلف– تشعل أوار البركان العربي الأعمى فاقد البوصلة. فالإفقار، وكبت الحريات، وتسليط الأضواء على المشوشات الفكرية، وتشجيع تفكيك الأسر والمجتمعات، مع الإهمال المتعمد للتعليم وللمستوى العام للصحة العامة، وإهدار الموارد والثروات في تجارب تنموية أو تسييرية طويلة العمر لم تؤدّ إلّا إلى مزيد من الضعف.

إن مَقاصد العمران العربي الأصيلة صارت رهينة استبداد الحكومات ووهن الشعوب؛ فأين هي المشكلة التي تقع وراء هذه الحالة؟ وأين تلك القنوات التي تنقل التردّي بين السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، والدّاخلي والخارجي؛ وما طبيعة ذلك التفاعل الذي لا يزيد الضعف إلا ضعفًا ولا التجزئة إلا تقسيما وتفتيتا، ولا صراع المصالح والرؤى إلا صراع وجود وحياة أو موت؟!! ومن ثم أين يمكن أن يكون "الأمل" ولو بصيصا؟

ج) الآثار السياسية والمستقبلية للموجة الثانية والوباء

يستدعي الاستعراض السابق لديناميات الانتفاض العربي المتكرر وما فيه من تنوُّع وسياسات مواجهته ثم هجمة جائحة كورونا وقفة تأمُّلية في العديد من عناصره؛ سواء من زاوية النموذج البركاني ودلالاته السياسية أو من المنظور الحضاري وعناصره القيمية والمقاصدية، خاصة مع إلحاح السؤال عن نجاح أو فشل هذه الحراكات والمآلات التي أفضت إليها، وأثر الأزمات على العلاقة بين المجتمع والدولة في العالم العربي.

وعلى الرغم من تضاؤل أعداد الإصابات والوفيات في العالم العربي قياسا على مناطق أخرى في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية؛ حيث سجّلت الدول العربية الـ ٢٢ مجتمعة –حتى يوم ٣١ أغسطس ٢٠٢٠– ١,٢٨ مليون حالة إصابة، و٢٣٢٠٠ حالة وفاة ناجمة عن فيروس كورونا. يبلغ معدل الوفيات ١,٨٪ مقابل متوسط عالمي يبلغ ٣,٣٦٪[1]، فإن المنطقة هي أكثر الأقاليم عرضة للاضطراب السياسي والمزيد من التدهور العام وفق تقارير شتَّى.

ويدعونا ذلك إلى مراجعة دلالات المؤشرات العريضة للأحوال العامة للدول العربية وفي قلبها؛ دول الموجة الثانية: مؤشرات مستوى المعيشة التي يعبر عنها معدل الدخل القومي، مؤشرات الأمان والسلام العام والاستقرار السياسي، مؤشرات الشفافية ومكافحة الفساد، مؤشرات الاتصال السياسي والحريات والحقوق، ومؤشرات التماسك والاستقرار الاجتماعي. فهذه المؤشرات تدلُّ على حال الحوض البركاني من جهة ومن ثم إمكانيات اضطراب القشرة السياسية، كما توضّح السياق الذي تتجلّى فيه قيم المجتمع العربي ومقاصده الراهنَة.

بين أيدينا عدد ضخم من التقارير عن المنطقة العربية وأحوالها الراهنة من جوانب عديدة؛ وبالأخص ما يتعلّق باحتمالات تطور حالة عدم الاستقرار السياسي بأشكالها المختلفة وأسبابها المتعددة والمتباينة بين أقطارها. وللأسف الشديد أغلب وأدق هذه التقارير غير عربي المصدر، إنما تصدره حكومات خارجية، ومنظمات ومؤسسات سياسية واقتصادية دولية، أو مراكز أبحاث.

فيستقصي تقرير اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (الإسكوا) التابعة للأمم المتحدة "كيفية وضع إطار لتقييم المخاطر في البلدان العربية" عددا كبيرا من محركات المخاطر التي يعتقد أنها هامة في المنطقة العربية؛ وعلى رأسها: التصورات والمشاعر المتعلقة بعدم المساواة والمظالم، والعجز عن الحوكمة، فضلًا عن عوامل اقتصادية وديمغرافية وأمنية.

---

(1) Bruna Garcia Fonseca, Arab countries see below-average deaths from Covid-19, Brazil-Arab News Agency, 31 August 2020, available at: https://bit.ly/3jQzoim

وفي هذا الإطار يشير التقرير إلى أن الشعوب العربية تواجه صعوبة في الوصول إلى الموارد الحكومية، والتعبير عن الرأي بحرية، ومحاسبة السلطات عن تجاوزاتها أو تقاعسها، والقدرة على التأثير في عملية صنع القرار الحكومي. وتشير البيانات التابعة للبنك الدولي إلى أن المؤسسات في المنطقة العربية تتَّسم بعدم قدرتها على التأثير والمساءلة، مع تباين واضح بين البلدان العربية في هذا الصدد. ومن ناحية أخرى فإن ضآلة القدرة على تنفيذ السياسات العامة يجعل من تجاوز فترات عدم الاستقرار السياسي أمرا بالغ الصعوبة. ويمكن لصنَّاع السلام وبناة الاستقرار صياغة اتفاقيات من هذا القبيل ووضع خطط سياسية متقنة ومحبوكة ببراعة، إلا أن عجز الدولة عن تنفيذها سيفرغ هذه الأطر السياسية من مضمونها الحقيقي. إن ضعف الدولة يجعل من الصعب على الحكومات في مرحلة ما بعد الحرب تقديم جد التزامات موثوق بها للمتمردين أو المتمردين المحتملين بتنفيذ برامج إصلاحية أو اتفاقيات سلام[١].

ومن ناحية ثالثة، فإنه خلال مناقشتهم للعوامل المسببة للانتفاضات العربية، عزا كاميت وآخرون الأسباب الجذرية لتلك الانتفاضات إلى: "نقص فرص العمل، وضغوط سوق العمل التي تفاقمت بفعل طفرة الشباب، وابتعاد أهداف النظم التعليمية عن احتياجات سوق العمل، وتضاؤل كميات المياه، والاعتماد بشكل متزايد على استيراد المواد الغذائية، والتقهقر المستمر للقطاع العام، والتفاوت في سجل التحرير الاقتصادي، وأزمة الإسكان المتنامية في المناطق الحضرية، وصعود الإسلام السياسي في جميع أنحاء المنطقة". فقد أدَّى استشراء الفساد والمحسوبية، وانحسار أنظمة الرعاية الاجتماعية، وعدم تكافؤ الفرص، وتصورات انعدام الأمن، إلى تفاقم المظالم الشعبية، التي حركت الاحتجاجات الشعبية عام ٢٠١١ أو إلى تحركات شعبية اجتماعية في عدد من البلدان العربية.

وفي مفارقة الأمن والسياسة –لفظًا ومعنى ووسيلة ومقصدًا في الحالة العربية– يحاجج بيلين بأن الحكم الاستبدادي في المنطقة العربية يتَّسم بالمتانة؛ وذلك تحديدًا بسبب قدرة قطاع الأمن وتصميمه على "قمع المبادرات الديمقراطية" التي تنشأ في المجتمع. فمن جهة، تستند قدرة بعض قطاعات الأمن العربية على قمع الانشقاقات إلى عاملين؛ وهما: الموارد المالية الهامَّة التي تتاح للأجهزة القمعية، والتي تستمد من عائدات النفط والغاز والريوع الاستراتيجية الهائلة والتحالفات القائمة مع القوى الغربية، والعامل الآخر هو الروح المؤسساتية والمهنية الضعيفة لديها، والدعم الوثيق الذي تقدمه الأنظمة الحاكمة إلى القطاعات الأمنية؛ وضعف التعبئة الجماهيرية الذي يمنعها من تحدي سطوة الأجهزة الأمنية[٢].

وأمام هذه التحليلات تأتي مبادرة من الأمم المتحدة في يوليو الماضي قدَّم فيها الأمين العام للمنظمة غوتيريش رؤية مهمة وجديرة بالتأمل في هذا الصدد؛ حيث دعا فيها إلى اعتبار الوباء فرصة لحل النزاعات طويلة الأمد ومعالجة نقاط الضعف الهيكلية في جميع أنحاء المنطقة. وقال غوتيريش: **"لقد كشفت جائحة COVID-19 عن خطوط التصدع والانقسامات والهشاشة في المجتمعات والاقتصادات في جميع أنحاء العالم؛ والمنطقة العربية ليست استثناء"**[٣].

(١) الاتجاهات السائدة أثناء النزاعات وتداعياتها، العدد ٦: كيفية وضع إطار لتقييم المخاطر في المنطقة العربية، ٢٠٢٠، موقع الإسكوا، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/QwC8R
- وانظر الوثيقة عبر الرابط التالي: https://bit.ly/2GId2RS

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر موقع منظمة الأمم المتحدة على الإنترنت، وكلمة الأمين العام:
- COVID-19 provides opportunity to resolve conflicts, address weaknesses across Arab region: UN chief, 23 July 2020, available at: https://bit.ly/3bBvTJN

(تأثير COVID-19 على المنطقة العربية: فرصة لإعادة البناء بشكل أفضل) هي أحدث مبادرة لسياسات الأمم المتحدة لمساعدة البلدان على التعامل مع الوباء، حيث تقدّم أفكارا للحكومات حول كيفية معالجة عواقب الأزمة. وترى الأمم المتحدة أن الدول العربية –التي يزيد عدد سكانها عن ٤٣٠ مليون نسمة– تشهد انخفاضا حادًّا في عائدات النفط والتحويلات والسياحة، في ظل توقُّع أن ينكمش الاقتصاد الإقليمي بنسبة تزيد عن خمسة في المئة، بما يعادل خسارة إجمالية قدرها ١٥٢ مليار دولار، وأنه نتيجة لذلك قد ينتهي الأمر بربع السكان إلى الفقر. ومن ثم حذر الأمين العام للأمم المتحدة من أنه في منطقة مليئة بالفعل بالتوترات وعدم المساواة كالمنطقة العربية، "**سيكون لذلك عواقب وخيمة على الاستقرار السياسي والاجتماعي**"[١].

وتحت شعار "**اغتنم لحظة** COVID-19" وعلى الرغم من هذه التحديات، اعتبر غوتيريش أن أزمة كورونا فرصة لإحداث تغيير في المنطقة العربية، قائلًا إنه "يمكن أن يكون أيضا لحظة لحل النزاعات طويلة الأمد ومعالجة نقاط الضعف الهيكلية". وقد اقترح أربع مجموعات من الأولويات لتوجيه الاستجابات، مع التركيز الفوري على إبطاء انتشار المرض، وإنهاء الصراع، ودعم الأشخاص والفئات الأكثر ضعفًا. وهذا يعني إعطاء الأولوية للرعاية الصحية المنقذة للحياة لضحايا COVID-19، واتخاذ خطوات لتخفيف الديون وتعزيز التجارة وتوسيع الإغاثة، ودعا الأمين العام للأمم المتحدة إلى زيادة الاستثمار في الصحة العامة والتعليم والحماية الاجتماعية والتكنولوجيا. قال السيد غوتيريش: "حان الوقت الآن لإعطاء الأولوية لحقوق الإنسان ، وضمان مجتمع مدني حيوي ووسائل إعلام حرة وإنشاء مؤسسات أكثر خضوعا للمساءلة من شأنها زيادة ثقة المواطنين وتقوية العقد الاجتماعي"[٢].

إن مراجعة التقارير العديدة عن مجمل ومفصَّل الحالة العربية الاقتصادية والسياسية والثقافية والصحية، وفي ضوء النموذج البركاني والمنظور الحضاري، فإن ثمّة عنصرين مهمَّين: أولهما– ليست كل البراكين شراًّ، لا سيما من زاوية مآلاتها وموازين المصالح والمفاسد، بل قد تكون عامل تغيير للأفضل ولإعادة تخصيب أرض تعرَّضت لتجريف شديد؛ الأمر الذي لا يبدو مقبولًا في تقارير تسمّي عمليات التغيير الشعبية اليائسة اضطرابات وأعمال عنَف وعدم استقرار؛ متبنّية التوصيفات الشكلية المعتادة. النقطة الثانية– أهمية ترتيبَ مقاصد الحراك ومقاصد الشعوب والأنظمة –قبل وسائل كل منها– ضمن رؤية تميّز بين الضروري من وجهة نظر ثقافة المنطقة العربية والحاجي والتكميلي، فالتقارير الغربية لا تميّز وتقدّم قضايا مثل المساواة الجندرية مثلًا في مقام قضايا مثل الفقَر وتراجع المعايش أو تقدُّم حرية الرأي على الأمان الشخصي وما إليه.

وبناء عليه، فإن المستقبل السياسي العربي القريب رهين قائمة من القوى والعلاقات والتفاعلات، وتعبر عنه جملة من القضايا والتصوُّرات والمشاعر التي تتراوح بين الأنظمة التي جعلت مقصدها الأعظم الاستمرار في السلطة، والشعوب التي تقصد إلى الانعتاق من القلق المعيشي أولًا ثم الحرية والعدالة ثانيا. وقد أظهر وباء كورونا وسياسات التعامل معه أن الحكومات تنشط في مواجهته بالقدر الذي لا يجعل منه خطرًا على بقائها، وتقدّم من التنازلات والوعود ما يفعل ذلك، ثم تتجه إلى العنفَ والقمع كلما اقتربت أقدام المحتجين من كراسيها. وفي المقابل تنفجر الشعوب حين تتأزَّم معايشها أولًا ثم حين تتحيَّن فرصة لنيل قدرٍ أكبر من الحرية أو للتخلُّص من قيدٍ من قيود الأنظمة.

إن واقع قيم النظام العربي العليا تتضارب ليس فقط فيما بين الحكومات (الاستقرار السلطوي الاستبدادي)

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع نفسه، وانظر:

- Bruna Garcia Fonseca, Arab countries see below-average deaths from Covid-19, Op. cit.

والشعوب (الأمان المعيشي فالتحرُّر وامتلاك الحق في توجيه السياسات ومساءلة المؤسسات والمراقبة عليها، والعدالة)، ما يجعل الحراكات أمرا مشروعا ومفهوما من جهة، ولكن تتضارب هذه القيم مرتين مع كل من الخطابات والسياسات القادمة من الخارج: فالخارج يتحدَّث بألسنة الشعوب التائقة للتحرُّر ويتبنَّى هتافاتها، لكنه في الممارسة يضبط مصالحه مع الاستبداد ويقدّم المساعدات المالية وغيرها لكي تتجاوز محنها.

وأمام هذه المعادلة وبناءً على المؤشّرات العديدة السابقة، فيبدو أن المستقبل العربي القريب ليس بالهادئ الساكن، بل إن زلازل وبراكين في انتظار بقاع عديدة منه.

خاتمة:

صفوة القول فيما سبق؛ أن الشعوب العربية لا تزال تبحث عن مخرج من باطن تاريخها الحديث الذي تعتمل فيه عوامل الاستبداد والفساد والإفساد والإفقار والإضعاف والتمييز والتجزئة والتبعية في المجالات كافة، مع عجز القشرة الحاكمة عن إحداث أية نقلة حقيقية في الاقتصاد والإنتاج والمعايش أو في القدرات الدفاعية والأمنية أو في الحريات السياسية؛ ما أحال الأقطار العربية إلى مشروعات براكين قابلة للتفجر في أي حين، وقد دلت المتوالية الانتفاضية العربية على أن التغيير الذي تخرجه فوهة البركان هنا أو هناك لا يعدو إعادة إنتاج القشرة الحاكمة في أشخاص وأثواب جديدة.

وفي هذا الإطار، يمكن أن نقف على بعض الملاحظات عن مجمل تلك المسارات الانتفاضية المشار إليها أعلاه من زاويتي الموجة الانتفاضية الثانية والموجة الوبائية القاتلة:

١- بدا "البركان" نموذجا تفسيريا ذا كفاءة ولياقة منهجية في قراءة المشهد السياسي العربي الراهن بعناصره المتعددة. فالعلاقة بين المجتمع والدولة تمر بمرحلة حرجة أشبه بحال القشرة الأرضية الضعيفة، بينما تعتمل في المسافة بين الطرفين إشكاليات عدّة على رأسها الأزمات الاقتصادية المعقدة التي تتسم بديناميكية سلبية خطيرة؛ حيث يزداد طلب المجتمع والدولة كل منهما على ما يملكه الآخر من سياسات عامة أو صفو عام، بينما تتراجع قدرة كل منهما على الوفاء بهذا الطلب. فالمجتمع يئن تحت نير الضرائب والأسعار والتراجع في قيمة العملة؛ ومن ثم تدني الأجور الحقيقية والقدرة على الوفاء بالتزاماته المعيشية فضلا عن دوره في الادخار والاستثمار ودفع الضرائب وفق المؤشرات الكثيرة، بينما تقف الدولة مدينة للداخل والخارج ومدفوعة إلى مزيد من الاستدانة وعاجزة عن الوفاء بالالتزامات الخدمية والاستهلاكية فضلا عن الاستثمار العام. وبناء عليه تتوفر المنطقة العربية على عنصرين أساسيين من عناصر إحداث الانفجار الشعبي أو الانهيار الحكومي: الضجر الشعبي والعجز الحكومي.

لكنَّ -من ناحية أخرى- من المهم ملاحظة أنه في مقابل حوض الصهارة المجتمعي المشار إليه والمنذر بالانفجار في أي وقت وأي حالة، فإن الدولة العميقة لا تزال تمتلك حوض جليد أو قوة نيران مقابلة، قادرا على التعامل مع البركان: تبريدا، أو توجيها، أو صداما.

٢- عنصر أساسيٌّ مفتقدٌ في الحراك السياسي العربي يتعلق بقنوات توصيله وتوجيهه إلى غايته؛ ما أسميناه بالعنق البركاني؛ وفي الحالة العربية فإن هذا العنصر يسهم في توقف البركان عند حد احتدامه في باطن المجتمع أو يوصله إلى نتائج أولية لا أكثر. ونظرا لخطورته عليها تعمل الأنظمة على تقييده أو تحييده أو الإطاحة به كيما تتفادى الانفجار المجتمعي السياسي. ووهذه هي أزمة النخبة والكيانات الوسيطة وأزمة تمكين المجتمع في الواقع العربي والتي تحتاج إلى تأمل وتدبر مستمرين بغير انقطاع.

٣- ثمة أربعة نماذج مهمة في دور الكيانات الوسيطة: ففي حالة السودان تم تكوين كيان وسيط

تحالف مع الجيش والخارج لبناء نظام جديد ضد الحركة السياسية الإسلامية، وفي العراق آثر الإسلاميون عدم الظهور حتى لا تستغل الدعاية ضدهم لضرب الحراك وتجاهل الحراك الكيانات الحزبية فيما بدا أنه افتقاد للثقة فيها، وفي العراق ولبنان مال التوجه إلى تجاوز بل مهاجمة الكيانات الوسيطة من الأحزاب والكيانات الجهوية والطائفية، أما في الأردن فقد أظهر النموذج النقابي فعالية تربو على النموذج الحزبي.

هذا الميل العام لتفادي تلك القوى السياسية أو تحميلها مسئولية مشتركة عما وصلت إليه السياسة العربية يعني أن المنطقة البركانية ستجد لها أكثر من موضع آخر في القشرة السياسية لكي تنفجر غير الموضع السياسي السلطوي المباشر، ولعل التفجر المجتمعي الراهن المتعلق بالدين –الإسلامي على وجه الخصوص– يشي بحنق شعبي وشبابي تجاه علماء الإسلام ودعاته، يؤازره انصراف عن الانتليجينسيا العلمانية التي لم تقدم جديدا دنيويا بقد ر ما تلوك نقدا دينيا غير مجدٍ، وكذلك التفكك الأسري الذي يعبر عن صراع أجيال وصدام مع الإطار الاجتماعي والقيمي والفكري المعهود. ومن ثم فإن الانتفاض العربي محتمل التجدد في أي بقعة وفي أي لحظة وضد قوى متعددة في الفضاءين السياسي الخاص والاجتماعي العام.

ومع ضرب القوى السياسية ذات المرجعية الدينية في أقطار عربية عديدة وإعلان الحرب العامة عليها قطريا وإقليميا ودوليا، وضم السلمي منها إلى المسلح، فقد اختفت هذه القوى عن الموجة الثانية بل كانت في الحالة السودانية في مرمى الحراك والقشرة التي أطاح بها البركان. وقد حرصت معظم الجماهير على الدخول إلى السياسي بالاقتصادي أولا، جمعا بين حفظ النفوس وحفظ الفلوس (المال)، ومطالبة بحفظ الكرامة الإنسانية للمواطنين (حفظ العرض/النسل..)، لكن غياب العناية بحفظ الدين/المرجعية وحفظ العقل/الوعي، قد فوت الكثير من فرص النجاح.

٤- بدت مقاصد الحراكات متطورة؛ تشعلها أزمة اقتصادية في الغالب الأعم، أو سياسية (في حالة الجزائر خاصة على غرار الموجة العربية الأولى ٢٠١٠/٢٠١١)، ثم تذهب بها استجابات الحكومات إلى الإداري والسياسي الداخلي، فالخارجي، فالبحث عن تغيير شامل وجذري وعاجل، مع انعدام الثقة في وعود الأنظمة بالإصلاح والتغيير على نطاق واسع. وفي النهاية تتراجع الحكومات خطوة للوراء تتعلق باللحظة والقشرة السياسية وتقدم مسكنات اقتصادية وسياسية ثم لا تلبث أن تبحث عن سدادة لغلق فوهة البركان وضمان عدم تجدده. وتبدو قدرة الحراكات على الصمود والتأثير الحقيقي غير كبيرة، فيما تبدو الأنظمة أكثر قدرة على امتصاص الصدمة وإعادة ترتيب الأوضاع بما يحافظ على جوهرها المتمثل في "الدولة العميقة". إن تفجر البركان العربي لا يغير حتى الآن سوى القشرة، ولعل الموجة الأولى التي استهدفت هذا العمق أضحت عبرة لمن ولما يأتي بعدها. **ولكن بركنة الواقع العربي تومئ أيضا باحتمالات كبيرة لانتفاضات غير منتهية.**

٥- مقاصد الأنظمة معروفة: الحفاظ على الأوضاع الاستبدادية وضمان عدم التعرض للمحاسبة الشعبية وذلك كله باسم الاستقرار والأمن القومي. وقد حققت الأنظمة العميقة هذا المقصد حتى الآن. فالموجة الثانية من الثورات العربية لم تأت على حين غفلة تامة من الأنظمة الحاكمة بعد تنبيه الموجة الأولى لها؛ ومن ثم استطاعت الأنظمة مواجهتها وامتصاصها وإعادة توجيهها باتجاهات جزئية لا تنال من جوهر الأنظمة الحاكمة وباستخدام قدر متحكم به من العنف؛ ومن ثم يبدو أن نتائجها العامة محبطة بالنسبة للشعوب، ولكن –من منظور جدلي– فإن هذا الإحباط نفسه يبدو

عاملا مساعدا على الاشتعال مع تجدد الأزمات؛ لا سيما في الجانب المعيشي على نحو ما غلب على هذه الموجة (الأردن، السودان، العراق، لبنان بخلاف حالة مثل الجزائر التي ينبغي تقريبها –مع الفارق- من النموذج الخليجي الخالي من الزلازل تقريبا).

٦- ومن ثم تتحول الحالة البركانية إلى حالة تنفيس وتنفيث أكثر منها تغييرا حقيقيا. وقد حار المراقبون في مآلات الحراك الجزائري –مثلا- بعد سنة من الصمود في الشارع لهذا السبب، وكذلك ما قدمه العراقيون من تضحيات لم تزد عن تغيير رئيس الوزراء وبداية محاسبة بعض العناصر المنتقاة من المتهمين بالفساد ووعود لا تتحقق لاحتياجها إلى مدى زمني لا تطيقه الطاقة الاحتجاجية.

أما الحالة السودانية فتعد نموذجا مختلفا عن غيره وأشبه بالثورة المضادة منه بالثورة الحقيقية، فالحراك برز له عاجلا من يقوده ويتحدث باسمه باسم قوى الحرية والتغيير التي ضمت عددا من الأحزاب الصغيرة غير ذات الشعبية الكبيرة، وسرعان ما دخل هذا الكيان في مفاوضات مع قلب النظام السابق: المؤسسة العسكرية، واتفق المدني العلماني مع العسكري الاستبدادي (الذي ظل ثلاثين عاما تحت عباءة مرجعية دينية)، اتفقا على عدو مشترك (النظام السابق)، وهدف مشترك (اقتسام السلطة)، وشغل حيز دولي مشترك (الثورة المضادة على الموجة الأولى من الثورات).. فهل اختار الشعب السوداني والأغلبية المحتجة ذلك؟ وهل أُعطي الحراكُ فرصة الاختيار عبر الوسائل الديمقراطية؟ هنا تبرز أهمية التجربة المصرية باعتبارها مقياسا لإعادة إظهار وتمثيل الإرادة الشعبية عبر تحالف عسكري مدني يواجه عدوا مشيطن وهي التجربة التي تمت في الحالة السودانية بصورة أكثر يسرا وذكاء. ومن ثم يترجح أن الحالة السودانية كانت مخططة وجرى فيها استغلال الغضب الشعبي الحقيقي والحراك المتفائل ثم الالتفاف عليه لتأسيس نظام مدني عسكري لا ديمقراطية ولا إرادة شعبية واضحة فيه.

٧- الموقف الشعبي من الخارج والموقف الخارجي من الشعوب: كما سبق توضيحه في نهاية الدراسة فإن العلاقة بالخارج ممزقة بين خطاب يغازل الشعوب والنخب العلمانية المستقلة، وممارسات ترسخ من الاستبداد وأنظمته. ومن ثم يرتبط التحرر السياسي من نير التدخل الخارجي غير الصديق بشرط التحرر الفكري حضاري الأفق من ربقة الثقافة الغربية التي تصر على أن تتحكم بثقافتنا وتقتحم مفاهيمنا وتصوراتنا بل مشاعرنا وإحساسنا بأحوالنا الخاصة بنا.

لم تأت جائحةُ كورونا إلى العالم العربي إلا وهو واقع في جائحة أشدَ وأدهى وأطول عمرا؛ فإن جائحة الاستبداد العربي المتوحشة –كما تؤكد مسارات الموجة الثانية من الانتفاضات العربية- لا تزال هي الإطار الأبرز للانتكاس العربي الشامل ولأزماته المتتالية، وهي التي تعمق الصدْع بين الحكومات والشعوب وبين مطلب الاستقلال وواقع التبعية للخارج؛ ومن ثم فقد انضمت أزمة كورونا وامتزجت بسياق وواقع بركاني وأشبهت واحدة من حممه التي اعتادت الشعوب عليها في السنوات الأخيرة، ونظر الأكثرون إليها كأزمة كاشفة لمزيد من سوءات الواقع العربي أكثر منها منشئة لواقع جديد، أو مقدمة لمستقبل مختلف!

*****

ورقة استشرافية



التغير في أمتنا – أمام أزمة كورونا
هل من مؤشرات أولية لمستقبل مختلف؟

نبيل شبيب(*)

مقدمة:

"لن يكون العالم بعد وباء كورونا / كوفيد – ١٩ كما كان قبله"!

هذه عبارة تتردد في كل مكان من العالم منذ رصد الأبعاد الكبرى للجائحة، ويجري طرح العبارة وتعليل مدلولاتها بأكثر من منظور تبعا لتعدد زوايا النظر والاهتمام في ميادين الصحة والاجتماع والاقتصاد والسياسة والقيم والسلوك وغيرها. وهو طرح عابر للحدود المعروفة جغرافيا وسياسيا وعرقيا ودينيا، إنما تتفاوت التوقعات وتختلف، تبعا لتفاوت درجات الموضوعية في أساليب من يطرحها، وتسلل تمنيات عاطفية –وإن كانت مشروعة– عبر بوابة أهداف منهجية، وكذلك تبعا لاختلاف المنطلقات الذاتية ثقافيا وسياسيا وماديا.. هذا مع ملاحظة ما يوجد من تفاوت أيضا في القدرات الفعلية للتأكد من صحة المعلومات الأساسية حول التعامل مع الوباء ونتائجه، ولرؤية مؤشرات التغيرات المحتملة محليا ومناطقيا وعالميا، وذلك بين الجهات المتابعة، التخصصية والبحثية وحتى الإعلامية، وما بين دولة أو منظومة دولية وأخرى، وحتى شعوب الأسرة البشرية.

يسري هذا عالميا، فتظهر الثغرات ونقاط الضعف في المنظومة الدولية بأسرها، لا سيما فيما يتبع للدائرة الحضارية "الغربية" الحالية مع امتدادات هيمنتها المتعددة الوجوه في واقعنا العالمي المعاصر..

ويعني ذلك –فيما يعنيه– وجود قوى تملك إمكانات كبيرة، لا تريد "التغير" بل تبذل جهودا ضخمة لاستبقاء ما كان من تلك الهيمنة، كما هو قبل ما أضافه الوباء من "معطيات" جديدة، بل تريد مضاعفة تحصين مواقعها لمواجهة مفعول المتغيرات.

ويسري هذا الإطار العام بطبيعة الحال أيضا على دوائر حضارية أخرى، لا سيما دائرتنا الحضارية، وعمادها أمتنا العربية والإسلامية، المتميزة بذاتها وتنوعها وفق منظومة الانتماءات المتكاملة فيها، العرقية والعقدية والثقافية معا.. وهنا توجد قوى ذات إمكانات محدودة وطاقات معطلة، تسعى في اتجاه حضاري مستقبلي مختلف، يمكن أن ينطوي على الاستفادة من تلك المعطيات الجديدة وسواها، أو يوجد عى الأقل تطلع مشروع لإيجاد تلك القوى ودعم إمكاناتها وتفعيل طاقاتها.

من المبكر إذن بين هذه العوامل المتضادة والمتداخلة الاعتقاد بقابلية الوصول في ورقة استشرافية إلى أركان بنية هيكلية مستقرة ومتكاملة لرؤية منهجية مستقبلية لتغيرات مرجحة، وإن كان هذا هو ما يراد الإسهام في نثر بذوره تحت عنوان استشراف أولي لحقبة ما بعد الوباء. ويعني تعبير "الإسهام" هنا أن الاستشراف الشامل المطلوب يتحقق بتعدد الرؤى من زوايا متعددة وتكاملها، وتقتصر مهمة الكاتب على طرح بعض المؤشرات الأولية للتغير، كما يقول العنوان، إضافة إلى التنويه ببعض المحاذير التي تواجه الرؤى الاستشرافية عموما بما في ذلك ما يشمل الموضوع المطروح.

هذا.. ولم تجد الشهور الأولى لانتشار الجائحة، وعلى وجه التحديد في دائرتنا الحضارية موضع البحث هنا، سوى مقالات تحليلية أو تعميمية أو حوارات إعلامية عامة مع بعض ذوي الاختصاص والخبرة، وهذا ما يمكن الاستشهاد ببعضه في هذا التقرير، مقابل غياب دراسات منهجية يمكن اعتمادها في استشراف المستقبل، فتبقى المؤشرات الأولية

(*) كاتب ومفكر.

الواردة في الفقرات التالية، في حدود ما تعطيه الانطباعات الذاتية من المتابعة العامة لانتشار الجائحة، ولما ظهر للعيان أو وصل لوسائل التعبير، من صيغ التعامل معها، والتفاعل مع تداعياتها، وبالتالي ما يمكن استخلاصه من ذلك كخطوط عامة يرجى أن تفيد في دراسات متعمقة حول رؤى استشرافية منهجية، مع مراعاة محذورات يرجى تجنبها لتلافي الوقوع في شطط محتمل يؤثر سلبا على سلامة تلك الرؤى ويحدّ من مفعولها.

أولًا– مؤشرات سلبية: أوضاع سلبية تأبى التغير والتغيير

١)على الصعيد الرسمي

إذا اعتبرنا محور المقصود بالتغير المستقبلي المرجو بعد جائحة كورونا / كوفيد – ١٩ الخطيرة، هو نوعية التعامل مع قضايا أساسية، مثل التقدم والعدالة والأمن والبحث العلمي والتطوير وغير ذلك على مختلف الأصعدة، أو التعامل مع قضايا ساخنة، مثل قضية فلسطين المصيرية إقليميا، أو قضية التفرقة الحافلة بالأزمات البينية على صعيد الدول والمناطق الإقليمية، فلا بد من التأكيد أن الجائحة لم تغير على الصعيد الرسمي شيئا يذكر في اتجاه إيجابي، إن لم نقل نقيض ذلك.

ولهذا عندما نرصد من يتنبأ لفترة ما بعد الجائحة بحدوث تغير ما في المنطقة العربية مثلا لا يستغرب عدم انطلاقه من مبادرات تغيير ذاتية بل لا يتوقع ظهورها، إنما ينطلق بتنبؤاته "لدينا" من توقع حدوث تغير في السياسات والعلاقات الدولية، حتى إذا تحدث عن ضرورة الاستفادة من فرص التغير، تحدث بصيغة الدعوة إلى التحرك أو صيغة التمنيات، كما يعبر عن ذلك د.طارق فهمي في مطلع مقالة بعنوان **"خيارات العرب المستقبلية بعد أزمة كورونا"** فيقول: (*واهم من يتصور أن العلاقات العربية الدولية ستبقى على وضعها الراهن بعد انتهاء أزمة كورونا طالت أو قصرت، وهو ما يجب الاستعداد له جيدا من الآن سواء على مستوى الجامعة العربية أو على مستوى العلاقات العربية–العربية من جانب، والعربية–الدولية من جانب آخر خاصة أن شبكة التحالفات العربية الكبرى والتقليدية على المستوى العربي ستتغير بفعل التوقع بحرص الدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي والصين وروسيا على مراجعة مجمل سياستها بصرف النظر عن استمرار بعض هذه الدول في اتباع سياسات مكررة في الدعم والتواصل وتقديم المساعدات والمنح، لمواجهة تداعيات أزمة كورونا*)[١].

إن هدف التقدم الشامل لسواه من الأهداف مرتبط ارتباطا وثيقا بأن يكون هو جوهر الرؤى السياسية الرسمية والمخططات الاقتصادية والمالية والاجتماعية وغيرها، ولا يتحقق هذا كما ينبغي في عالمنا المعاصر دون درجة عالية من استقلالية القرار الذاتي، المتفاعل من موقع "النديّة" كما يقال مع تطور العلاقات الإقليمية والدولية، وهنا نجد في المنطقة المعنية في هذا التقرير –باستثناءات محدودة– أن **المؤشرات المستقبلية سلبية للغاية**، ومحورها استمرار التشبث باهتمامات سابقة لظهور الجائحة، لم تحقق من قبل هدفا كبيرا في ميادين التقدم والرقي ولا سواها، ولا يوجد ما يشير إلى أن تداعيات الجائحة ستدفع إلى تعديل حقيقي يطال تلك الاهتمامات من الجذور أو يطال على الأقل سلّم الأولويات فيما بينها، وفق ما يقتضيه السعي لتحقيق تقدم حضاري غائب منذ عقود.

وإلى جانب استقلالية القرار يبقى من شروط التغيير على صعيد التقدم أيضا شرط الوصول إلى استقرار حقيقي، عبر إفساح المجال لتخفيف مفعول ما يحول دون العمل لأهداف مشتركة، من أزمات داخلية بين الاتجاهات المتعددة، وبين الأنظمة والشعوب، وفي إطار العلاقات البينية

(١) د. طارق فهمي، "خيارات العرب المستقبلية بعد أزمة كورونا"، ٧ / ٥ / ٢٠٢٠م في موقع "العين الإخبارية"، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/vYRyw

بين الدول؛ وبالتالي غياب بيئة حاضنة للتنسيق والتعاون؛ وهو مما توجبه المتطلبات العملية لمواجهة تحديات كبيرة مثل الجائحة، كما يتطلبه التخطيط لما بعدها بصورة جادة.

يسري شبيه ذلك على صعيد تحقيق أهداف مشروعة في "قضايا محورية" مثل قضية فلسطين؛ فهنا أيضا نشهد أن من يتوقع تغيُّرا ما، لا يرى بذوره الضرورية الأولى في مبادرات ذاتية، بل في أن تسنح فرصة ما مع تصور حدوث معطيات دولية خارجية جديدة، يحتمل أن تقتصر على تخفيف درجة الضغوط مع استمرار الاتجاه السلبي للتطورات، ومثال ذلك قول د.طلال أبوغزالة في مقابلة إعلامية معه في برنامج "الحياة اليوم"، عبر شاشة "قناة الحياة": (*لا يمكن أن يحل موضوع فلسطين مع وجود دولة مهيمنة هي أمريكا حليف لإسرائيل، وعندما يدير أكثر من قطب الحياة الدولية، يمكن أن تحل*)[١].

وكما أننا في خضم مسارات الجائحة لا نرصد مبادرات ذاتية إيجابية في التعامل مع قضية "التقدم" كذلك لا نشهدها في قضية مصيرية ساخنة كقضية فلسطين بل نجد تفاقم ما يجري تحت عنوان ما يسمى "التطبيع" وازدياد حدة حصار أهل فلسطين، هذا إلى جانب ما نرصد من استمرار الغياب الرسمي عن مسارح الأحداث في قضايانا الأخرى كقضية كشمير مثلا رغم ما تشهد من تطورات سلبية، وكذلك كمثل آخر استمرار التناكف بين دول عربية وإسلامية بدلا من التنسيق والتعاون في ميادين مشتركة كالاستفادة من الثروات البحرية في شرق البحر الأبيض المتوسط أو المشاريع التطويرية للاستفادة من مياه حوض النيل، وهكذا.

والخلاصة: **إذا كان من تغير بعد الوباء في نطاق بلادنا فلا يعول في الاستفادة منه على أنظمة لا تتغير جذريا.**

٢) على صعيد النخب التخصصية

من أهم ما تطرحه جائحة الوباء عالميا قابلية تطوير العلاقات المباشرة بين النخب التخصصية، في المجال الصحي وسواه، وهو إن حدث فعلا قد يتجاوز تدريجيا مناكفات خطيرة مرتبطة بغايات الهيمنة السياسية والمادية، وقد حفل بها مسار انحرافات التعامل مع هذه الجائحة، ومن قبل في ميادين أخرى.

نعلم بوجود بعض الصيغ التنظيمية في نطاق هيئات عالمية واتحادات ومؤتمرات عابرة للحدود، للتواصل والتعاون التخصصي على مستوى عالمي، ومن ذلك ما هو بمشاركة عربية وإسلامية، ولكن لم يمنع التعاون العالمي من أن نجد في الوقت نفسه صيغ التعاون على مستويات إقليمية كما في أوروبا وسواها، وبالمقابل نفتقد في دائرتنا الحضارية، العربية والإسلامية، التعاون التخصصي، المنظم والمتكامل بدرجات ناشطة وفعالة.

ومن المفروض أن تدفع تداعيات جائحة الوباء إلى إيجاد مثل هذا التواصل والتعاون ومضاعفته حيث لا يوجد بشكل فعال حتى الآن، لا سيما وأن تعامل ما يوصف بالمجتمع الدولي أو ما يشبه "النظام" الدولي الحالي مع جائحة الوباء قد طرح بقوة قابلية تفاقم أخطار عديدة كانت موجودة من قبل، منها مثلا الخطر الكامن في تصعيد مرجح للتنافس المادي على صعيد صناعة اللقاحات والأدوية وتوزيعها.

والمقصود بالتعاون التخصصي أبعد مدى من مجرد وجود متخصصين متميزين، وقد ظهرت في الشهور الأولى من انتشار الوباء أسماء عديدة لمتخصصين من أصول عربية وإسلامية يعملون على مستوى علمي عالمي متقدم، مثل

---

(١) نقلا عن شريف سليمان، في مقالة بعنوان "طلال أبو غزالة: هجمات كورونا لن تنتهي قبل عام"، في موقع "الوطن" يوم ١٣ / ٤ / ٢٠٢٠م، متاح عبر الرابط التالي:
https://cutt.us/yuD09

منصف السلاوي المغربي الأصل في الولايات المتحدة الأمريكية[(١)]، كما ظهرت كذلك أسماء أطباء في مقدمة ضحايا مواجهة الوباء مثل أمجد الحوراني وعادل الطيار وحبيب زيدي من أصول سودانية وعراقية في بريطانيا[(٢)]، وعلى صعيد الدول صدرت عن تركيا خاصة تحركات معروفة لتصدير أدوات مكافحة الوباء إلى دول عديدة، بالإضافة إلى عدة إعلانات عن التقدم في مواجهة الوباء طبيا وعلى صعيد صناعة لقاح مضاد[(٣)]، إنما لم تظهر أية أخبار أو أنشطة أو حتى فعاليات إعلامية على مستوى تواصل الأجهزة العلمية والطبية ذات العلاقة ما بين البلدان العربية والإسلامية بغرض التعاون فيما بينها، ولا يزال الانطباع العام السائد أن العلاقات التخصصية بما فيها البحثية الهادفة، لاتزال في بلادنا أشبه بمرايا عاكسة لاتجاهات متعددة متفرقة من الارتباطات النوعية المتقلبة بين الأنظمة والقوى الدولية.

يعني هذا بمنظور متطلبات إحداث تغيير إيجابي وحسب معاييره أن ميادين التواصل بين المتخصصين لدينا تفتقر إلى عناصر كثيرة في مقدمتها الاستمرارية والقدرة على التخطيط للمدى المتوسط والبعيد، لا سيما وأن الارتباطات الخارجية المشار إليها سريعة التقلب لأسباب سياسية ومادية على حساب المصالح القطرية وعلى حساب الإنجازات المرجوة من التعاون التخصصي الإقليمي، ناهيك عن تعزيز التأثير السلبي لمعادلة الهيمنة والتبعية بدلا من تخفيفه.

إن غياب التغير بعد الجائحة على صعيد الأنظمة يضاعف أهمية تغير واقع المتخصصين في اتجاه التعاون الهادف.

٣) على صعيد النخب التوجيهية

يعطي "تغير" المعطيات والظروف العامة بفعل جائحة كورونا وتداعياتها فرصا سانحة لعملية "تغيير" هادفة، ولكن تفعيل هذه العملية يتطلب جهودا خاصة من جانب النخب التوجيهية، العلمية والفكرية والدعوية والأدبية والإعلامية وما شابهها.

ومع التنويه بما يبذله مركز الحضارة للدراسات والبحوث من جهود بحثية توجيهية رائدة ومتميزة، ففيما عدا ذلك لم يظهر على صعيد التعامل مع جائحة الوباء أي جهد توجيهي يلفت الأنظار ويتجاوز حدود بعض الدعوات العامة بصيغ إعلامية، ولا يستهان بأهمية ذلك، ولكن نعلم أنه لا يكفي للربط بين آليات التواصل والتشبيك والتعاون، وبين معطيات جديدة عموما بعد الجائحة، وأخرى يمكن صنعها ويجب صنعها.

لقد غلب على أقلام النخبة في المنطقة العربية والإسلامية الحديث عن الواقع دون استشراف مستقبلي غالبا، وربما استسهلت تعليل الإجراءات المتخذة لمكافحة الوباء أو نقدها دون التطرق لما ينبغي أن يترتب عليها وكيف يستفاد من حالات النجاح والإخفاق، في اتجاه "التغيير"، ولئن تعددت زوايا النظر في التعامل مع الجائحة إنما قليلا ما تضمن ذلك نظرة استشرافية، ويسري ذلك

(١) انظر (مثلا) "فيروس كورونا: منصف السلاوي العالم المغربي الذي عينه ترامب للعثور على لقاح"، موقع بي بي سي - عربي، ١٦ / ٥ / ٢٠٢٠م، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/sTAb9

(٢) انظر (مثلا) "ثلاثة أطباء مسلمون أول وفيات الصف الأمامي لمواجهة كورونا في بريطانيا"، موقع شبكة الجزيرة، ٣١ / ٣ / ٢٠٢٠م، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/NvmkB

(٣) انظر (مثلا) "تركيا تتوصل لأولى لقاحات كورونا وتعزل الفيروس، موقع العربي ٢١، ٥ / ٤ / ٢٠٢٠م، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/QNwnZ

- وانظر أيضا ياسين أقطاي، "هكذا أثبتت حرب كورونا نجاعة نظام الرعاية الصحية في تركيا"، شبكة الجزيرة، ٢٦ / ٣ / ٢٠٢٠م، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Ky7Gk

على كتابات متميزة مثل "كورونا وأخلاقيات الأوبئة" لبيان العامل الأخلاقي وتأثيره، بقلم معتز الخطيب[١]. وحتى إذا مست هذه الأقلام الجانب الاستشرافي، فغالبا ما يقتصر ذلك على خطاب الدعوة العامة إلى استخلاص الدروس كما يظهر حتى فيما ينشره موقع يطلق على نفسه اسم "النخبة"[٢].

لقد أثارت الجائحة الكثير على مستوى عموم سكان المنطقة العربية والإسلامية، وهذا ما يشمل الجوانب العقدية والأخلاقية والسلوكية وغيرها، ولعل التحرك العام عبر المشاعر والعواطف وتبادل الأفكار في مواجهة أزمة الوباء، يمكن أن يوجد تربة "شعبية" خصبة للإحساس بالحاجة إلى التغيير، ولكن نبتة التغيير في هذه التربة تحتاج بدورها للرعاية، لا سيما بعد معاناة سنوات ربيع الثورات العربية، والمقصود برعايتها أن تجد طرحا نخبويا توجيهيا يكشف عن مواطن التغير التي صنعتها الجائحة، وبالتالي عن وجود ثغرات جديدة فيما يبدو من متاريس "واقع مادي قائم". وإن ظهور هذه الثغرات للعيان ضروري لصناعة دوافع جديدة نحو العمل للتغيير، وهذا بالذات هو واجب النخب العلمية والأدبية والفكرية وما شابهها أكثر من سواها، إلا أننا نفتقده طوال الشهور التي مضت على انتشار الجائحة وظهور أبعادها التغييرية عالميا ومحليا.

هنا يمكن تكرار ما سبق ذكره بشأن النخب التخصصية: إن غياب التغير بعد الجائحة على صعيد الأنظمة يضاعف أهمية تغير واقع النخب التوجيهية نحو ممارسة تعاون هادف.

ثانيا– مؤشرات إيجابية :وعي شبابي ومفعوله في غيب المستقبل

- **ولادة إنسان التغيير**

١– لئن غلبت المؤشرات السلبية للوهلة الأولى في استشراف ما بعد كورونا في المنطقة العربية والإسلامية فمن أسباب ذلك اعتيادنا منهجيا على الانطلاق تحليلا وبحثا واستشرافا من محاور تقليدية ثابتة، وهذا صحيح بحكم دراستها من قبل والتأكد من النتائج بوضعها على المحك عبر الخبرة والتجربة.

ليس في هذا خطأ من حيث الأساس، ولكن لا يوصل وحده إلى الصواب فمن المعيقات مفعول الضغوط النفسية مما نعايش حقبة بعد حقبة على منحدر التخلف حضاريا والتراجع واقعا، فمن آثار ذلك ضعف الثقة بالذات الحضارية، الفردية والجماعية، ووجودها هو المنطلق لأي تغيير. هذا علاوة على عوائق ضغوط المآسي "المصنوعة" صنعا في غالب الحالات، والمتعاقبة في موقع بعد آخر، فالمآسي تضعف محاولات التحرك الهادف والفاعل للتغيير.

وما دمنا نبحث عن مؤشرات مستقبلية دون تجاوز آفاق هذا الواقع السلبي، فسينقصنا في استشراف منهجي لاحتمالات التغيير على وجه التخصيص ما يمكن وصفه بالقاعدة البحثية الغائبة (انظر لاحقا تحت عنوان محذورات الرؤية الاستشرافية).

٢– إن المحاور البحثية التقليدية وليدة الخبرات الماضية تتحرك ضمن إطار المعروف سابقا ولا تضع في حسابها وجود "عناصر" جديدة لم تظهر بعد، وهي بالذات التي تعتمد عليها أي حركة للتغيير.. ولهذا ينبغي التركيز عليها "تصورا وتقديرا" في أي رؤية استشرافية إلى جانب التركيز "بحثا واستنتاجا" على رؤية المعطيات الجديدة المضافة، كعوامل إيجابية مساعدة، أو سلبية معيقة، لعملية التغير أو التغيير.

(١) انظر مثلا معتز الخطيب، "كورونا وأخلاقيات الأوبئة"، شبكة الجزيرة، ١ / ٤ / ٢٠٢٠م، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/rKURh

(٢) انظر مثلا هند الشومر، "دروس ما بعد جائحة كورونا، موقع النخبة، ١٢ / ٦ / ٢٠٢٠م، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/WCHdX

٣- هنا وبالعودة إلى "ما بعد جائحة الوباء" ينبغي التأكيد أيضا أن ما سيقع في مستقبل دائرتنا الحضارية سلبا أو إيجابا، لا تصنعه ما أحدثته وتحدثه مباشرة من معطيات جديدة في مختلف الميادين، بل سيصنعه التعامل معها مع مراعاة ما يوجد إلى جانبها من معطيات مشابهة ومغايرة من صنع أحداث أخرى (مثل الأزمات المالية والتبدلات المناخية). إن للمعطيات المستجدة من حدث بحجم جائحة الوباء مفعولا كبيرا ولكنه لا يلغي بالضرورة استمرارية مفعول ظروف ومعطيات سابقة، سلبية وإيجابية، فكريا وثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا.

٤- ولكن حتى بعد تعداد جميع المعطيات والظروف القديمة والمستجدة لا نغفل عن أنها ليست هي المحرك "الفاعل" في التغير/ التغيير المقبل، بل هي إضافات متجددة على محتويات وعاء ظروف ومعطيات دائمة التجدد والتطور. أما عملية التغير والتغيير فتتضمن وجود الطاقة البشرية القادرة على "استخدام" تلك المعطيات، فهي المحرك الذي يجمع الاستعدادات الذاتية النوعية، الحالية والمحتمل تطويرها، الفردية والجماعية، العامة والتخصصية، الرسمية والشعبية، وذلك للتعامل مع ذلك الوعاء الظرفي بمجموعه، منذ الآن أثناء الجائحة ومن قبلها وفي قادم الأيام.

٥- إن التغيير المحتمل بعد الوباء، على صعيد أمتنا وقضايانا الكبرى، لا تصنعه جائحة الوباء بحد ذاتها، بل يصنعه الإنسان بالمعنى الواسع للكلمة (الكفاءة.. التخصص.. التخطيط.. الإدارة.. هرم الفئات العمرية.. إلى آخره) عبر تعامله مع المعطيات السابقة ومفعولها باق ومستمر، ومع ما طرأ ويطرأ من مستجدات ذات المفعول الإضافي، والحصيلة هي حصيلة تبادلية بين الخصائص والقدرات الذاتية من جهة، وبين المعطيات والظروف ومسار تطورها من جهة أخرى، وهذه معادلة لا تنحصر في إطار حدث بعينه، بل تشمل ما انعكس منها على أرض الواقع قبل ظهور حدث جائحة الوباء، مثل موجة الثورات الشعبية، مثلما تشمل ما يتتابع ظهوره وانتشار تأثيره ابتداء من "منعطف" ما بدأ يصنعه الوباء.

- **جوهر التغيير النهضوي**

الجواب بنعم يقتضي التنويه بالمقصود بعملية "التغيير"، فيقتبس كاتب هذه السطور فقرة حول جوهر التغيير النهضوي المطلوب من موجز محاضرة ألقاها في "ملتقى الحضارات" في الرباط يوم ١٤ / ١١ / ٢٠١٩م قبل ظهور الجائحة[1].

١- القسط الجوهري المشترك بين سائر الحضارات المتعاقبة أو ما يقال إنه مشترك في الأساس، هو خير الإنسان وهو البوصلة لضوابط المسار الحضاري لكل منها.

٢- الحضارات كالإنسان، تولد وتنمو، ويشتد عودها، وتفسد فتضعف، ثم تورث ما أنجزت ماديا وتقنيا وعلميا لسواها طوعا أو كرها.

٣- الحضارة تحفظ في جوهرها دوما قسطا من الإيجابيات الثابتة على مر العصور حول محور خير الإنسان، وهذا بعض المقصود بكلمة **الأصالة**، فهي مستمدة من القديم والجديد معا.

كما تتجلى الحضارة أيضا في عمرانها ليس انفراديا بل كحلقة من حلقات مسلسل الإنجاز البشري من تطورات تقنية وعلمية، وهنا تكون اللحظة الآنية لما يصل إليه مسار الإنجاز الحضاري تقنيا وعلميا هو المقصود بكلمة **المعاصرة**.

٤- ليس التغيير النهضوي إذن مجرد عملية هدم مطلق وبناء من نقطة الصفر بل هو متابعة الطريق عبر تجديد الأسس والمبادئ وتقويم الانحرافات وتحسين الأداء.

٥- كل تغيير نهضوي قويم ينبثق عن مسار تغييري بوسيلة مناسبة، فيحيي الجوهر الحضاري الإنساني الأصيل المشترك نظريا، أي **يستعيد أولوية محور خير الإنسان**، ويعتمد في

---

(١) انظر للكاتب "محاضرة – من مقومات الأصالة والمعاصرة في صناعة التغيير، ١٤ / ١١ / ٢٠١٩م، ونشر النص في موقع مداد القلم يوم ١ / ١٢ / ٢٠١٩م، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/Adp4n

الوقت نفسه على الصحيح المفيد من آليات الواقع المتطور المعاصر).

بهذا المعنى للتغيير الحضاري النهضوي يمكن القول إن ما يمكن استشرافه من ثنايا التفاعل مع جائحة وباء كورونا هو جزء من عملية ولادة إنسان التغيير وهي عملية جارية قبل الوباء، ولا يمكن تحديد تاريخ البداية بدقة، إنما لا شك أن من أهم مظاهرها في بلادنا العربية والإسلامية موجة الثورات الشعبية العربية، ويمكن أن نشهد استئناف المسار بعد الجائحة، مع ملاحظة أن كل حقبة من هذا المسار نحو بناء حضاري تتخذ معالم وأدوات ووسائل جديدة تختلف عما سبقها، ولا نستطيع عبر البحث العلمي أو التقديرات العامة أن نتكهن بنوعيتها مسبقا.

قد تمنع ضغوط معايشة سلبيات الواقع القائم من رؤية شواهد قطعية على تلك الولادة، ولكن يمكن عبر المتابعة العامة للتعامل مع الأحداث.. (الثورات.. الجائحة..) أن نرى معالم لمؤشر وعي حضاري جديد على مستوى الشبيبة، ذكورا وإناثا، على امتداد المنطقة العربية والإسلامية وإن تباينت أشكال التعبير.

- **معالم مؤشر الوعي**

ما هو المقصود بتعبير الوعي بالواقع الحضاري وأدوات النهوض؟

قبل الجائحة وفي غياب قاعدة بحثية لرؤية المستقبل، يمكن مثلا أن نرى وعيا جديدا في إقبال جيل الشبيبة المشرد عن سورية تخصيصا على دورات تأهيل في ميادين عديدة (مثل إدارة الأزمات.. التنمية البشرية..) وهي ميادين لم تكن موضع الاهتمام الفردي والجماعي من قبل، ولكن ظهر للعيان أن النقص على هذا الصعيد ساهم في الانحراف بالمسار الثوري عن منطلقاته الأولى.

ويمكن مثلا آخر أن نرى وعيا متجددا في أساليب التحرك الشبابي الثوري في الجزائر والسودان ولبنان بعد نكسات ما سمي ربيع الثورات الشعبية العربية، ومن تلك الأساليب (وهي هنا مثال دون تفصيل..) عدم الوقوع في فخ ردود الأفعال المتسرعة على استفزازات عمليات القمع والعنف.

وهنا يتكرر تأكيد استحالة النظر في قضية بحجم تداعيات جائحة كورونا مجردة عن سواها، وكذلك ما ينتظر من مؤشرات التغيير الناجمة عنها، فإنما يظهر موقعها من المسار التاريخي عبر وضعها ضمن حزمة مؤشرات التغيير الصادرة عن أحداث أخرى كالثورات.

لقد كانت الثورات وما سبقها من انتفاضات وليدة انكشاف ما يعنيه الاستبداد والفساد محليا ودوليا، بعد الاحتلال والاستعمار قديما. وعلى غرار ذلك يمكن أن نشهد مسارا تغييريا جديدا بعد الجائحة فيكون وليد ما كشفه التعامل المحلي والدولي مع جائحة وباء كورونا، ومن ذلك:

١- تغييب عنصر الإنسان وكرامته وحقوقه تحت وطأة هيمنة المنفعة المادية وتغليبها على ما سواها إلى درجة الاستهتار بحياة الإنسان نفسه وصحته وسلامته، وهذا في واقع كثير من الدول المتقدمة علميا وتقنيا وصناعيا، وفي الواقع العالمي عموما.

٢- مدى انكشاف ثغرات الضعف الداخلية في البنية الهيكلية لقوى مهيمنة عالميا، وهي التي تملي مسارات الانحراف عن جوهر الحضارة الإنساني.

٣- ظهور نماذج ذات تأثير كبير على استعداد الإنسان الفرد إلى المخاطرة بنفسه لأداء واجبه الإنساني والحضاري تجاه سواه.

لا يمكن وصف ذلك بمؤشرات واضحة المعالم من مسار جائحة كورونا ولكن يمكن طرح السؤال عن قابلية أن يؤدي انكشاف هذه المعالم العامة لواقع مرفوض إلى رؤية قويمة وجهد مفروض على مستوى جيل الشبيبة في دائرتنا الحضارية للعمل على تحقيق تغيير حضاري إيجابي.

و(تبدو الإشكالية المستعصية في الوضع الحضاري البشري الراهن أنه يجمع في وقت واحد:

- بين استفحال مخاطر الانهيار: وهذا عبر ضياع بوصلة جوهر الحضارة، أي تحقيق الخير لجنس الإنسان دون تمييز
- وبين معضلة أن استمرارية الانهيار تتضخم وتتسارع كنتيجة غير مطلوبة لتوظيف أدوات الحضارة المهيمنة وتقنياتها في محاولات "منع تصحيح مسارها" خشية الانهيار بمعنى خشية خسارة الهيمنة حضاريا)(١).

إن المعالم العامة لولادة إنسان التغيير هي المؤشر الأهم من سواه لقابلية أن يصبح ما بعد جائحة كورونا أفضل حضاريا وإنسانيا مما ساد قبلها، ولا يتحقق ذلك إلا بعملية تغيير يطلقها جيل الشبيبة عبر استخدام أساليب ووسائل جديدة، قد يكون في مقدمتها آليات التخصص والتكامل والتشبيك بدلا من آليات حقبة سابقة اعتمدت على الزعامات الكبرى والمسارات المحلية والتنظيمات الجامعة.

ثالثا- محذورات الرؤى الاستشرافية: رؤية ما وراء الأفق فكرا وتطبيقًا

المقصود بالمحذورات هنا بعض المعطيات أو الممارسات التي قد تساهم في انزلاق الباحث عن رؤية مستقبلية، إلى ارتكاب أخطاء غير مقصودة تهبط بقيمة النتائج التي يتوصل إليها، وفي الفقرات التالية محاولة تحديد بعض تلك المحظورات كأمثلة على خلفية ما سبق تأكيده من الحاجة إلى رؤى استشرافية عديدة تتكامل مع بعضها لترجيح ما ستشهده حقبة ما بعد الجائحة من فرص وعقبات للتعامل الهادف مع ما صنعته وتصنعه من معطيات، على أمل تحقيق تغيير حضاري انطلاقا من الدائرة الحضارية العربية والإسلامية.

قاعدة بحثية غائبة!

سبقت الإشارة إلى أن البحث عن رؤية استشرافية يواجه غالبا مستجدات لم يسبق وضع قواعد بحثية مجربة لها فلا يمكن ضمان النتيجة تماما، والمعتاد أن يعتمد استشراف التوقعات المستقبلية في العلوم الإنسانية، لا سيما في علم الاجتماع، على الانطلاق من رصد التشابه بين عناصر مسار حدث جديد يراد استشراف نتائجه مع عناصر مسارات أحداث سابقة، سبقت دراستها واستنبط الباحثون فيها قواعد منهجية فاكتسبت مع مرور الزمن صبغة ديمومة صلاحيتها، فيطبقها الباحثون في دراسة الحدث الجديد لترجيح رؤية على سواها بالنسبة إلى تداعيات الحدث المستقبلية.

هنا تزيد احتمالات الخطأ عندما يشمل موضوع البحث المستجد عناصر لم يسبق أن واجهها الباحثون سابقا، وبالتالي لا توجد بشأنها ما يمكن الاعتماد عليه من قواعد أو فرضيات خضعت للتجربة بدرجة كافية.

على سبيل المثال ظهرت منذ مطلع القرن الميلادي العشرين وتتابعت حتى الآن كتابات ودراسات رصينة حول مآلات ما يشبه الامبراطوريات من كيانات سياسية وحضارية في العالم المعاصر. وقد اعتمدت في ذلك حصيلة دراسات سابقة حول أسباب نشأة امبراطوريات قديمة وسقوطها، ولكن دخلت حديثا عوامل جديدة تماما وذات تأثير كبير على البنية الهيكلية للكيانات المعاصرة وآليات عملها وميادين نجاحاتها وإخفاقاتها، فلا يصح هنا تطبيق كثير من القواعد السابقة، ولهذا كانت نتائج تلك الدراسات على امتداد أكثر من قرن، تنطوي على النقص أو الضعف أو التناقض أو جميع ذلك معا، من حيث تنبؤاتها الاستشرافية، حول سقوط قريب أو زعامة انفرادية أو بسط السيطرة المطلقة.. تارة حول الولايات المتحدة الأمريكية، وأخرى حول منظومة العالم الغربي، وثالثة حول النظام المادي الرأسمالي، وهكذا.

بغض النظر عن استحالة أبدية وضع بعينه وعن حتمية السقوط بحد ذاته، فإن الخطأ المحتمل في التنبؤات

(١) المصدر السابق

الاستشرافية بشأن الموعد والكيفية والنتائج، يتناسب طردا مع مدى جدّة حجم العناصر الطارئة وحجم مفعولها في نطاق الموضوع المعني في كل منها.

لا بد إذن من الحذر في البحوث المواكبة من منظور معرفي واجتماعي وحضاري لاتجاه الريح -كما يقال- في متابعة مسارات حدث جائحة كورونا عام ٢٠٢٠م، بما في ذلك استشراف نتائجه المستقبلية، لا سيما عند استقرائها بالمقارنة مع نتائج ما اشتهر من أوبئة تاريخية منذ الطاعون في مصر قبل الميلاد بألف وخمسمائة سنة، أو طاعون "الموت الأسود" في القارتين الأوروبية والآسيوية في القرن الميلادي الرابع عشر، وحتى وباء "الإيدز / نقص المناعة الذاتية" الذي ظهر سنة ١٩٨١م ولا يزال منتشرا.

وإذا كانت مراعاة الحذر مطلوبة عموما في استشراف حقبة "ما بعد الجائحة" فهي مطلوبة أكثر عند النظر في جانب بعينه من جوانب البحث المتعلقة بذلك، مثل التركيز على مؤشرات التغير المحتملة في مستقبل الأمة وقضاياها في الدائرة الحضارية العربية والإسلامية، فهذا بطبيعة الحال جزء من المشهد ضمن إطار أوسع للدراسات والبحوث المعنية في عالم معاصر تتداخل فيه أجزاء المشهد الواحد وتتفاعل مع بعضها بعضا أكثر من أي وقت مضى.

إن القاعدة الاستنباطية لربط منهجي بين واقع الحدث المرئي حاليا ومستقبل تداعياته المحتملة، قاعدة غائبة حتى الآن، ولا ينتظر أن تثبت منهجيا بمعايير علم الاجتماع وعلم التأريخ، إلا بعد دراسة نتائج الحدث على أرض الواقع.. **أي مستقبلا**، وأقصى ما يمكن صنعه مسبقا – أي الآن – هو "نحت" أو تصور مثل تلك القاعدة فكريا لتكون لدى الباحث في منزلة فرضية استباقية تكتسب قيمتها الفعلية بقدر ما قد يظهر – **مستقبلا أيضا** – من شواهد داعمة لصحتها.

يعني ما سبق على سبيل المثال أن ما نرصده في أن بعض الدول من دائرتنا الحضارية مثل تركيا، قد لعب أثناء انتشار الجائحة دورا ظاهرا للعيان على صعيد تصنيع ما تحتاجه الأسرة البشرية لمكافحة انتشار الوباء، هذا "العنصر الجديد" نسبيا لا يكتسب بجدارة وصف "**مؤشر أول لتغير مستقبلي**" إلا بشروط، منها:

(١) أن يكون الإنجاز من البداية جزءا من منظومة متكاملة في ميادين الإنتاج والتصدير والعلاقات الدولية.

(٢) أن يكون بأثر مستدام بأن تنقضي فترة زمنية كافية لرصد استقرار ذلك الإنجاز ومفعوله.

(٣) أن ينجح توظيفه سياسيا واقتصاديا وثقافيا في اتجاه إحداث تغيير في نوعية العلاقات البشرية.

(٤) أن يتجاوز هذا الإنجاز عراقيل المحاولات المضادة "التنافسية.. النزيهة وغير النزيهة" من جانب قوى مستفيدة ماديا من هيمنتها عالميا، وحريصة على عدم وقوع ثغرة في ذلك.

سبق فكري وبحثي؟

أصبحت نتائج أي حدث في عالمنا المعاصر تتجاوز في كثير من الأحيان آفاق التنبؤات، نتيجة تسارع حركة التطورات غير المسبوق، وتأثير التقنيات الحديثة الواسع النطاق، والتفاعلات من وراء الحدود وقد غدت بالغة التعقيد.

بالمقابل لا يخفى أن تسارع نشر الأخبار ومتابعتها بلغ درجة غير مسبوقة أيضا، علاوة على انفتاح المجال لذلك أمام الحرفيين والعامة، إنتاجا واستهلاكا، وهو ما ضاعف بالمقابل نسبة تمرير تحريفات مقصودة وأخطاء غير مقصودة، لا سيما من خلال ما يعرف بظاهرة السبق الصحفي، وكما أن التخلف عن المواكبة الفكرية والبحثية للحدث تخلف خطير فمن الخطورة بمكان أيضا أن تنتقل حمى السبق الصحفي إلى الجانب الفكري والبحثي في كتابات متسرعة، مع إعطائها صبغة منهجية دون استيفاء شروطها.

بعض التوقعات "السريعة" أشبه بالبدهيات مثل الحديث عن استمرار قصور الأنظمة، ورغم ذلك قد يحتاج

إلى بيان الدليل، ومنها كتوقع مزيد من التمسك بالدين والقيم، قد يحتاج إلى بيان، وممن ساهم في ذلك المفكر المغربي محمد يتيم، إذ ورد في مقالة له: (*غير أن هذه العودة تحمل في طياتها بعض الانزلاقات والمخاطر، في ظل غياب وعي ديني مستنير بحقيقة الدين والعلم في نفس الوقت؛ فالشعور الديني غير المؤطر بفهم روح الدين ومقاصده قد يكون كارثة*)(١).

ونجد بالمقابل أصواتا عديدة ترى أن الشعوب بعيدة عن استيعاب حجم الخطر والوعي به، ناهيك عن إمكانية التوظيف الإيجابي لنتائج المحنة، كما يؤخذ من استطلاع أجراه موقع رصد، ونشرته وسائل إعلامية عديدة تحت عنوان "استطلاع آراء بعض الباحثين"(٢).

وتوجد أيضا تنبؤات رصينة تشير إلى اضطرابات ما بعد الصدمة، كما نسب إلى الباحث في علم الاجتماع حميد الهاشمي في إطار مقالة بعنوان "ما بعد كورونا.. ما الذي سيتغير"، ولكن التغير القيمي والسلوكي وما شابه ذلك هو من قبيل تغير العادات والتقاليد وهو ما يحتاج إلى زمن أطول(٣).

وهذا ما يشير إلى "العامل النفسي" الذي يراه الخبير في الصحة النفسية أحمد السمري من زاوية أخرى فيقول "إن ظهور وانتشار فيروس كورونا لن يؤثر على الحالة النفسية لغالبية العرب بنفس حجم تأثيره على شعوب العالم الغربي، حيث شهد العرب كوارث أخرى كثيرة"، كما ورد في مقالة بقلم دينا البسنلي، بعنوان "هل نحن مستعدون نفسيا للتعامل مع ما يثيره كورونا من مخاوف؟"(٤).

محرك التغير المستقبلي

لا ينبغي لرؤية مستقبلية أن تقيد نفسها بمعطيات الحاضر لا سيما وأن "التغير والتغيير" عنوان واقع مستقبلي، لا يمكن أن يصنعه جيل معاصر ضمن معطيات معاصرة، فينبغي لمن يساهم في طرح الرؤى الاستشرافية أن يحرص على نظرة تتجاوز الآفاق الحالية نحو المستقبل ومعطياته المرجحة، ونحو جيل المستقبل ومواصفاته المرجوة.

وبغض النظر عن الواجبات المفروضة أو المرجوة انطلاقا من ضرورة "المبادرة" للتحرك حضاريا في دائرتنا الحضارية وفي مستقبل قضايا أمتنا، فإن الحديث عن التغير بعد جائحة كورونا تحديدا هو **جزء من فرضية تنطلق ذهنيا** من أن الخلل الطارئ بسبب جائحة كورونا، على مكونات عالمية، سياسيا واقتصاديا وقيميا واجتماعيا، سيصبح خللا دائما ويصنع ثغرات متفاقمة في معادلة الهيمنة والتبعية، ولكن:

هل سينفسح المجال الظرفي أمام الدائرة الحضارية العربية والإسلامية لتتجاوز المواقع الدونية الحالية على كل صعيد، وربما لتعمل من أجل ملء الثغرات الناشئة في واقع الأسرة البشرية حضاريا؟ إذا صح ذلك فما هي المحركات الأساسية الدافعة لتحقيق المطلوب؟

كل عملية تغير تقوم على عناصر بنيوية أساسية، أهمها:

أولا: البيئة العامة.. ظروف ومعطيات قائمة ومتبدلة في بداية انطلاق حركية التغير

(١) محمد يتيم، "أزمة كورونا وانعكاساتها على منظومة القيم"، ١٠ / ٤ / ٢٠٢٠م، شبكة الجزيرة، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/5pyy7

(٢) استطلاع آراء بعض الباحثين، ٢١ / ٣ / ٢٠٢٠م، موقع رصد، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/IPzAd

(٣) "ما بعد كورونا.. ما الذي سيتغير، ١٥ / ٤ / ٢٠٢٠م، موقع تلفزة سكاي نيوز العربي، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/rBwkY

(٤) دينا البسنلي، "هل نحن مستعدون نفسيا للتعامل مع ما يثيره كورونا من مخاوف؟"، موقع دويتشه فيلي، ٢١ / ٣ / ٢٠٢٠م، متاح عبر الرابط التالي: https://cutt.us/f2m71

ثانيا: الهدف النخبوي.. رؤية استشرافية للمعالم الكبرى لمسار التغير ما بين المحتمل والمطلوب والممكن

ثالثا: الطريق التخصصي.. تخطيط حرفي متجدد مع المستجدات يراعي المراحل المتتابعة لعملية التغيير

رابعا: الوسيلة المتطورة.. جهود متكاملة مستدامة باتجاه التغير المتوقع أو التغيير المطلوب

هنا ينبغي التأكيد أن التغيير المحتمل بعد الوباء، إنما يصنعه الإنسان بالمعنى الواسع للكلمة (الكفاءة.. التخصص.. التخطيط.. الإدارة.. هرم الفئات العمرية.. إلى آخره) عبر تعامله مع المعطيات السابقة المستمرة ومع ما طرأ ويطرأ من مستجدات ذات العلاقة، والحصيلة هي حصيلة تبادلية بين الخصائص والقدرات الذاتية من جهة، وبين المعطيات والظروف ومسار تطورها من جهة أخرى، وهذه معادلة لا تنحصر في إطار حدث بعينه، بل تشمل ما انعكس منها على أرض الواقع قبل ظهور حدث جائحة الوباء، مثل موجة الثورات الشعبية، مثلما تشمل ما يتتابع ظهوره وانتشار تأثيره ابتداء من "منعطف" ما بدأ يصنعه الوباء.. وهذا ما تعنيه كلمة "استشراف" في هذه الورقة.

خاتمة:

يفيد التوقف في الختام عند ما تقول به إيرينه فايبرت- فينّر، الباحثة الألمانية في العلوم السياسية والمتخصصة في شؤون غرب آسيا وشمال إفريقية - والمقصود هو المنطقة الإسلامية - ومن أهم ما ورد على لسانها في حوار بعنوان: "ما هي نتائج أزمة كورونا على الجنوب عموما؟" ما يتلخص في النقاط التالية:

- على المدى القصير.. إذا استطاعت الأنظمة الحاكمة إدارة الأزمة بنجاح كان ذلك من عوامل استقرارها

- على المدى المتوسط والبعيد.. أشك في ذلك كثيرا، فقد كشفت الجائحة عن اهتراء الأنظمة على كل صعيد، بدءا بالإعلام، مرورا بتردي قيمة النقد وتدهور أسعار النفط، وصولا إلى ازدياد حدة الأزمات الاجتماعية والاقتصادية.. ويبقى التعويل على النخب ودورها وعلى الحركات الاحتجاجية، وليس انحسارها إلا مؤقتا وستتجدد في المستقبل المنظور(1).

وخلاصة هذا التقرير:

إن السؤال عن تغير مستقبلي في بلادنا في التعامل مع قضايانا لا يجد جوابا دون الإشارة إلى مؤشرات سلبية تكشف عنها جائحة وباء كورونا / كوفيد - ١٩، في مقدمتها..

١- لم يطرأ ما يشير إلى تغير محتمل في الأوضاع المهترئة على الصعيد الرسمي، فلا يتوقع أن تصدر مبادرات رسمية مدروسة هادفة وفاعلة ي اتجاه التغيير.

٢- أعطت جائحة الوباء ما يكفي من الأسباب الإنسانية والعلمية والواقعية من أجل صدور مبادرات جادة عن النخب التخصصية والتوجيهية من أجل التواصل والتشبيك والتعاون ولم تسجل الشهور الأولى من انتشار الجائحة ما يسمح بتوقع ذلك في المستقبل المنظور.

٣- الرؤية الاستشرافية رؤية منهجية لا تنطلق من التمنيات ولا تغفل عن تقدير المعيقات لإثبات صحتها كتقدير العوامل الإيجابية المؤيدة لها، وهنا لا ينبغي الانزلاق إلى التسرع في استقراء الحدث، ولا الاقتصار على ما ثبت من قواعد تقليدية للبحث دون مراعاة العناصر الجديدة في حدث الجائحة كمثال على حقبة من حقب النقلة الحضارية المتوقعة، مع ما تلقيه من واجبات على جيل المستقبل للانطلاق من المعطيات الجديدة على طريق صناعة التغيير.

(1) Corona-Krise: Welche Folgen hat die Pandemie für Länder des Globalen Südens,٢٠٢٠ / ٦ / ٩ ?, Available at: https://cutt.us/bM04E

٤- وعلى خلفية ظاهرة إقبال جيل الشبيبة على التأهيل الذاتي في ميادين تساعد على سلوك طريق التغيير، يبقى لدينا التساؤل دون جواب جازم ما إذا كان جيل المستقبل سيتمكن من الاستفادة مما كشفته الجائحة محليا وعالميا من ثغرات خطيرة في الجسد السياسي / الحضاري المادي القائم، فآنذاك يحق لنا أن نستشرف من وراء آفاق الواقع السلبي ولادة إنسان التغيير بالمواصفات المطلوبة.

*****



قائمة معرِفة بأهم الكتب والدراسات المنشورة بالإنجليزية عن أزمة كورونا

يارا عبد الجواد(*)

لقد أجريت العديد من الدراسات في الشهور القليلة الماضية حول جائحة كورونا نظرا لمدى عمق الأزمة واختلاف أبعادها وتعدُّد آثارها، وفي هذا السياق جاء ت هذه القائمة معرفة بأهم الدراسات التي نشرت باللغة الإنجليزية في الفترة الماضية حول أزمة كورونا، ومن خلال الاستقراء العام لهذه الدراسات يمكن تقسيمها إلى دراسات عامة تقدم رؤى كلية شاملة للجائحة حيث تتناول الآثار المتعددة لها، وهذا يتضمن الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتقاطعاتهم معا وكذلك القضايا والإشكاليات المرتبطة بها، ودراسات أخرى نوعية بعضها يرصد وقائع وآثار والبعض الآخر يقدم تحليلات فكرية وأيديولوجية في ضوء الجائحة.

أولًا– الدراسات الكلية العامة:

1) Covid-19 shakes the world

يقوم هذا الكتاب بعرض واقع العالم في ظل وباء كورونا، وكيف أن الوباء وسياسات التعامل معه أدَّت إلى زعزعة ثوابت اجتماعية واقتصادية وأحدثت تغييرات سياسية، فهو يناقش هذه التغيرات ويحاول التنبؤ بما قد يحدث في المستقبل من تغيرات على مستويات متعددة تتضمن تغيرات أيديولوجية قوية بما قد يؤدى إلى تغيير ما هو متعارف عليه لدى العالم من أنماط وتصورات وممارسات للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، حيث يتناول الكتاب فكرة أننا جميعا في سفينة واحدة أمام هذه الجائحة، ثم ينتقل ليقف على الفوارق في الآثار الصحية والاقتصادية والسياسية والأيديولوجية بين إقليم وإقليم، فيسلط الضوء على التغيرات التي تشهدها القارة الأوروبية على وجه الخصوص ويفتح عدة ملفات هامة في هذا السياق تتضمن قضية اللاجئين والدولة القومية والهوية ثم ينتقل إلى الشرق ليقف على مستقبل الشيوعية في الصين في ظل الوباء، ثم يناقش الكتاب المراحل المختلفة التي تمر بها الدول في التعامل مع مثل هذه الأوبئة التي تهدّد الإنسانية وفى هذا السياق يعرض مجموعة من الأمثلة الواقعية(١).

2) The World Before And After Covid-19

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الإسهامات من مجموعة كبيرة من العلماء من تخصصات مختلفة، كل منهم يتناول زاوية وبعدا من أبعاد أزمة كورونا وآثارها، وذلك بهدف تشكيل نظرة كلية شاملة، حيث يقوم الكتاب بالوصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، ويكشف انعكاس كل منهم على الآ خر في ضوء هذه الأزمة، مما يؤدّي إلى تعميق الفهم للمجتمعات وسلوكها وتنظيمها قبل الأزمة وبعدها، وفي هذا السياق يركّز الكتاب على تحليل آثار الأزمة، وذلك من خلال التركيز بشَكل أساسي على الأبعاد السياسية –وبخاصة العلاقات الدولية– والاقتصادية والدبلوماسية والأنثروبولوجية، هذا بالإضافة إلى تناول الكتاب التحليل في سياقات جغرافية مختلفة وذلك للوقوف على التباين في آثار الأزمة، كما يتناول بالتفصيل الدور الذي لعبته الدبلوماسية العامة والقوة الناعمة في بداية الجائحة ويناقش هنا مسألة رقمنة الدبلوماسية في ظل الوباء، ثم ينتقل لمناقشة السياسات المختلفة التي اتبعتها الدول في التعامل مع الجائحة، وذلك بمنظار كلي شمولي حتى

(*) باحثة في العلوم السياسية.

(1) SLAVOJ ŽIŽEK, pandemic! Covid-19 shakes the world, page no. 126, (New York: OR Books, 2020).

إنه لا يقتصر على مناقشة دور الدول بل يتناول أيضا دور المنظمات الدولية، ثم الوقوف على النظام الدولي وتوازنات القوة ودور القانون الدولى في ظل الأزمة، وفى هذا السياق أيضا يلقي نظرة كلية على السياسة العالمية وما يعتريها من تغيرات في ظل أزمة كورونا، وفي الجزء الثاني من الكتاب يتم التركيز على البعد الاقتصادي بشكل أكثر عمقا، ثم يأخذ الكتاب جولة سريعة بين الدول للوقوف على تفاصيل السياسات المتبعة في نظم الحكم المختلفة، وأخيرا ينتهي الكتاب بالإشارة إلى تهديد الفيروس للإنسانية، وبأهمية إعادة التفكير بشكل إنسانى في ضوء وباء مستجد يهدّد البشرية[١].

3) The COVID-19 Pandemic in the Middle East and North Africa

يتناول هذا الكتاب بالتحليل جائحة كورونا في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وكيف تم التعامل مع الأزمة. يناقش الكتاب الأبعاد المختلفة لها في الشرق الأوسط حيث يتطرّق إلى الصراعات القائمة في الشرق الأوسط وأثرها، ويقف على تباين مقدَّرات الدول وطاقاتها ومسألة الأمن القومي في سياقات الشرق الأوسط وأثرها على التعامل مع الأزمة وكذلك أثر المنافسة بين هذه الدول وبعضها البعض على سياسات التعامل مع الوباء، ويناقش أيضا مسألة الهجرة واللاجئين في ظل الأزمة كما يسلط الضوء على مسألة القومية، ونظم الحكم السلطوية وبالأخص الخليجية واستغلالها للأزمة وفي هذا السياق يطرح أيضا تساؤلًا حول مدى تحقق الوحدة بين دول الخليج العربي في مثل هذا الوباء، وكذلك يناقش الأثر الاجتماعي للأزمة ويعرض هنا حالة دولة إيران. وعلى صعيد آخر يتناول ما أطلق عليها "الردود الإسلامية" للتعامل مع الوباء حيث يعرض في هذا السياق أثر الوباء على الشعائر الإسلامية وكيف تمَّ التعامل مع الوباء في ضوئها، ويتطرَّق الكتاب أيضا إلى الآثار السياسية للوباء المستجد على إسرائيل وكذلك أثره على الهوية الإسرائيلية[٢].

ثانيا– دراسات نوعية تتناول قضايا تطبيقية وفكرية

أ– قضايا ذات بعد سياسي:

4) Pandemics Meet Democracy. Experimental Evidence from the COVID-19 Crisis in Spain

تتناول هذه الدراسة أثر جائحة كورونا على مستقبل الديمقراطية في العالم، حيث تناولت الدراسة قضيتان، الأولى تتمثل في مسألة التحيز القومي ورغبة الشعوب في توسيع نطاق الدور الذي تلعبه الدولة القومية من وضع سياسات وإجراءات التعامل مع الجائحة ولو على حساب الحريات المدنية ومن ثم دعم الحكم التكنوقراطي، والقضية الثانية تدور حول أثر الوباء على التعاون بين الدول الديمقراطية حيث إن الخوف من انتشار الوباء أدَّى إلى حالة من الانغلاق القومى فأصبحت كل دولة تسعى لتحقيق الاكتفاء الذاتي، وبالتالي فإن هذا قد يؤثّر سلبا على مستقبل الديمقراطية في العالم، حيث إ ن هذا الوضع قد يفتح الباب أمام السلطويين الذين قد يجدون في مثله تربة خصبة للحكم الديكتاتوري[٣].

(1) Gian Luca Gardini (ed.), The World Before And After Covid-19, page no. 153, (Stockholm: European Institute of International Studies, 2020).

(2) Marc Lynch, The COVID-19 Pandemic in the Middle East and North Africa, page no. 85, (Washington: Institute for Middle East Studies, April 2020).

(3) Francesc Amat, Andreu Arenas, Albert Falcó-Gimeno, and Jordi Muñoz, Pandemics Meet Democracy. Experimental Evidence from the COVID-19 Crisis in Spain, page no. 33, 5 April 2020, Available at: https://cutt.us/IKnT9

5) Democracy, Culture, and Contagion: Political Regimes and Countries Responsiveness to Covid-19

تقوم هذه الدراسة بعقد مقارنة بين كل من النظم الديمقراطية والنظم الا ستبدادية وذلك من أجل دحض حجة من يدَّعي أن النظم الاستبدادية كانت أكثر فاعلية في التعامل مع جائحة كورونا، حيث تحاول الدراسة أن تثبت بالإحصائيات أن مستوى التنقل الجغرافي في الدول الديمقراطية كان أقل من النظم السلطوية، وتحيل الدراسة تفسير هذه النتيجة لأسباب مؤسسية تتعلَّق بالعلاقة الطردية بين قدرة الدولة على المحافظة على الحقوق والحريات المدنية وبين استجابة الشعوب للسياسات والإجراءات التي تتَّخذها الدولة للحدّ من تفشّي الفيروس وأسباب أخرى ثقافية ترتبط بطبيعة المجتمع والثقافة السائدة فيه لتصل إلى استنتاج أولي بأن الدول الديمقراطية التي تتمتَّع بثقافة جماعية ويستثني من ذلك كل الدول التي تعلي من قيمة الفردية هي الأكثر فاعلية في التعامل مع الجائحة(١).

6) COVID-19, nationalism, and the politics of crisis: A scholarly exchange

تقوم هذه الدراسة على دراسة العلاقة بين فيروس كورونا (Covid-19) والقومية، حيث إنها تسلّط الضوء على أثر الجائحة في تأجيج القومية والصراع العرقي واضطهاد الأقليات، مشيرة إلى مجيء الفيروس في وقت كانت تشهد فيه الدولة القومية حالة من التجدُّد والانتعاش، وعلى الصعيد الآخر تحاول الدراسة أن تنظر في أثر الجائحة على مستقبل الدولة القومية وما إذا كانت ستسهم في تعزيزها أم ستقضي عليها في المستقبل(٢).

7) The impact of Covid-19 on global politics: 'It is all in the (response)

تتناول هذه الدراسة أثر جائحة كورونا على السياسة العالمية وشكل النظام الدولي، حيث إنها تقوم بتسليط الضوء على الساحة الدولية وما يطرأ عليها من تغيرات، وذلك فيما يتعلق بتوازنات القوة خاصة العلاقات الأمريكية-الصينية، ومن ناحية أخرى تتعرَّض الدراسة إلى أثر الجائحة على العولمة السياسية والتعاون الدولى في مقابل الانغلاق وبروز القومية، هذا بالإضافة إلى أثر الجائحة على القضايا والصراعات المعاصرة خاصة ما يتعلّق بالإرهاب وقضايا الأمن القومى والهجرة وغيرها من المسائل البارزة على الساحة الدولية(٣).

8) Pandemic or pandemonium?: Covid-19 and conflict in the Middle East

تتناول هذه الدراسة أثر جائحة كورنا على الصراعات القائمة في الشرق الأوسط وكذلك أثر هذه الصراعات على السياسات التي تبنَّتها الدول في التعامل مع الجائحة، هذا مع

(1) Carl B. Frey, Chinchih Chen, and Giorgio Presidente, Democracy, Culture, and Contagion: Political Regimes and Countries Responsiveness to Covid-19, Oxford University, page no. 20, (13 May 2020).

(2) Eric T. Wood, Robert Schertzer, Liah Greenfeld, Chris Hughes, Cynthia M. Idriss, COVID-19, nationalism, and the politics of crisis: A scholarly exchange, Journal of Association for the Study of Ethnicity and Nationalism, page no. 19 (12 July 2020), Available at: https://cutt.us/Fvwt9

(3) Nath Aldalala'a, The impact of Covid-19 on global politics: 'It is all in the response' , Trends Research Organization, page no. 10, 23 April 2020, available at: https://cutt.us/5kDgt

مراعاة التفاوت في حدَّة الصراع وسعته والتفاوت أيضا في القوة السياسية والاقتصادية للدول، وهنا نجد تفاوتاً كبيرا بين سوريا ودول الخليج على سبيل المثال، وتشير الدراسة أنه على كلا الصعيدين كانت هناك نتائج متباينة بين الدول باختلاف كل حالة(١).

9) The comparative politics of COVID-19: The need to understand government responses

إن موضوع هذه الدراسة يتمحور حول الوقوف على السياسات المختلفة التي تبنَّتها الدول للتعامل مع جائحة كورونا، وما مدى فاعلية كل منها، وذلك بهدف الاستفادة من هذه التجربة في حقل النظم المقارنة وسياسات الصحة العالمية، وتسلّط الدراسة الضوء على عدَّة اعتبارات تتضمَّن ثقافة المجتمع وطبيعة النظام السياسي لكل دولة ومؤسساتها، بالإضافة إلى قدرة الدولة وطاقتها ومدى تحكُّمها في سياسات الصحة العامة وتأثير هذا في سياساتها المتَّبعة لمواجهة الجائحة(٢).

10) Racism and the Political Economy of COVID-19: Will We Continue Racism and the Political Economy of COVID-19: Will We Continue to Resurrect the Past?

تتناول هذه الدراسة تجلّي العنصرية واللامساواة في السياسة الأمريكية المتبعة للتعامل مع جائحة كورونا، حيث تشير الدراسة إلى كون العنصرية متأصلة في التاريخ الأمريكي، وأنها جزء لا يتجزَّأ من السياسة العامة الأمريكية، ويتَّضح هذا الآن من كون الأفارقة الأمريكيّين هم الأكثر إصابة بالفيروس نظرا لكونهم يشغلون النسبة الأكبر من العمال الأساسيّين الذين لم تتح لهم الفرصة أن يتمتعوا بالحجر الصحي، الذي اعتبرته الدراسة رفاهية في المجتمع الأمريكي، ومن ثمَّ لم يتمتَّع به إلا ذوو الثروة فيما عرَّفته الدراسة ب"عنصرية الرأسمالية" وتقوم الدراسة بتحميل الدولة وسياستها مسؤولية تفشّي الفيروس، مما يستدعي إعادة النظر في جذور المشكلة وتاريخها(٣).

11)Political orientation and support for social distancing) during the COVID-19 pandemic: evidence from Brazil

تتناول هذه الدراسة العلاقة بين الاتجاه والأيديولوجية السياسية وبين دعم التباعد الاجتماعي كجزء من السياسة العامة للدول في التعامل مع الجائحة، ونظرا لأن هذا الإجراء ينطوي على خسائر اقتصادية فإن الدراسة تقوم بالنظر في توجُّه كل أيديولوجية سياسية نحو إجراء التباعد الاجتماعي

---

(1) Engin Yüksel, Nancy Ezzeddine, Rena Netjes, Beatrice Noun, Hasim Tekines , Erwin van Veen, Pandemic or pandemonium?: Covid-19 and conflict in the Middle East, Clingendael Institute Of International Relations, page no. 12, accessed: 29 September 2020, available at: www.jstor.org/stable/resrep24648

(2) Scott L. Greer, Elizabeth J. King, Elize Massard da Fonseca, Andre PeraltaSantos, The comparative politics of COVID-19: The need to understand government responses, An International Journal for Research, Policy and Practice, Vol. 15, No. 9, page no. 5, (20 June 2020).

(3) Zinzi D. Bailey, J. Robin Moon, Racism and the Political Economy of COVID-19: Will We Continue Racism and the Political Economy of COVID-19: Will We Continue to Resurrect the Past? To Resurrect the Past?, Journal of Health Politics, Policy and Law, page no. 18, (May 2020), available at: https://cutt.us/2P0QT

بحسب قيمة النشاط الاقتصادى لديها ومدى تأثُّرها بتوقُّفه سلبا أو إيجابا، وتقوم الدراسة باختبار هذه الظاهرة ومدى صلابتها بدراسة حالة دولة البرازيل في هذا الإطار(١).

12) Psychological, Political, and Situational Factors Combine to Boost COVID-19 Conspiracy Theory Beliefs

تقوم هذه الدراسة بتحليل السياق الذي تبرز فيه نظرية المؤامرة في تفسير الأحداث مسقطة ذلك على جائحة كورونا، وتستند الدراسة في تحليلها إلى ثلاثة عوامل: تشمل العامل النفسى والسياسي اللذان يتفاعلان بدورهما مع العامل الظرفي، وتشير الدراسة إلى أن هناك علاقة إيجابية بين التفكير التآمري والشك، وعلى أساس هذه الفرضية تقوم الدراسة باختبار كل من موقف الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري في الولايات المتحدة الأمريكية لترى أيهما أقرب للتفكير التآمري، وتصل إلى استنتاج أن الجمهوريين أقرب للتفكير التآمري، وذلك لما تتعرَّض له رؤيتهم السياسية من تهديد نتيجة للانتقادات الموجَّهة إلى الرئيس ترامب وأسلوبه في التعامل مع الوباء(٢).

13) Impact of Covid-19 on religious freedom: state-religion relations in the time of pandemic

تتناول هذه الدراسة علاقة الدولة بالدين والمؤسسات العلمانية بالمؤسسة الدينية في ظل أزمة كورونا، حيث تركِّز الدراسة على أثر الإجراءات التي اتخذتها الدول في ظل وباء كورونا على حرية ممارسة الشعائر وأثرها أيضا على الهوية الدينية، نظرا لتوقُّف كل الشعائر التي تقام في جماعة وأصبح كل شيء يؤدَّى بشكل فردي، بالإضافة إلى ذلك أشارت الدراسة إلى ا ستغلال بعض الدول للجائحة لتكون مظلَّة ومبررا لزيادة القيود على الحرية الدينية(٣).

14) Why do people believe COVID-19 conspiracy theories? The Harvard Kennedy School (HKS) Misinformation Review

تقوم هذه الدراسة بمحاولة الإجابة عن سؤال لماذا يعتقد الناس في نظرية المؤامرة؟ وتفسِّر الدراسة ذلك بوجود أسباب سياسية تتعلَّق بالدوافع الحزبية لمتبني الفكر التآمري –كما أشار ترامب إلى أن كوفيد ١٩ هو خدعة من الديمقراطيين– بالإضافة إلى وجود مزيج من الدوافع المعرفية والوجودية التي تتعلَّق بالرغبة في السيطرة على الوضع القائم، والدوافع الاجتماعية التي ترتبط بالرغبة في تحسين صورة الحزب الحاكم أو من يؤيدونه من جماعات وأفراد، وهذا يجعل معتنقي الفكر التآمري ينكرون كل ما يقدِّمه العلماء والخبراء من معلومات، ثم تقوم الدراسة بتقديم توصيات من أجل الحدِّ من هذا

---

(1) Yan Vieites, Jorge Jacob, Eduardo B. Andrade, Political orientation and support for social distancing during the COVID-19 pandemic: evidence from Brazil, Brazilian Journal of public administration, Vol. 54, No. 2, page no. 17, (August 2020).

(2) Joanne M. Miller, Psychological, Political, and Situational Factors Combine to Boost COVID-19 Conspiracy Theory Beliefs, Canadian Journal of Political Science, Vol. 53, No. 2, page no. 8, (11 June 2020).

(3) Yosra Elgendi, Impact of Covid-19 on religious freedom: state-religion relations in the time of pandemic, Dialogue Institute, page no. 18, 2020, available at: https://cutt.us/p0XLp

التفكير التآمري والذي يتجلّى في أوقات الكوارث والحروب لما له من عواقب وخيمة قد تهدِّد العالم وليس فقط متبنّيه(١).

15)Imperial Pandemicide, Southern Social Science Association

إن هذه الدراسة تنطلق من كون جائحة كورونا أحد المنعطفات التاريخية التي يجب الوقوف عندها والنظر إلى التاريخ من خلالها باعتبارها تملك قوة تفسيرية لمسألة الاستعمار وما يقوم به وعليه، حيث تحاول الدراسة تقديم تفسير يجيب على سؤال لماذا كانت الدول ذات التاريخ الاستعماري هي الأكثر تضرُّرا من الموجة الأولى من الجائحة، وتفسِّر الدراسة ذلك بأن الدول الاستعمارية تعتمد أولوية الثروة على حياة الأفراد ومن ثم كانت قاعدة السلطة المحلية في هذه الدول تقوم أيضا على هذا المبدأ ومن خلال عقد مقارنة بين هذه الدول وغيرها يتبين ذلك(٢).

16)Coronavirus Misinformation and the Political Scenario: The Science Cannot Be 'another' Barrier

يتناول هذا البحث فكرة الصراع بين العلم والسياسة، ويقصد بالعلم هنا العلم التجريبي، وتسلِّط الدراسة الضوء على هذا الصراع في ظل وباء كورونا مشيرة إلى أن الثقة التامَّة في العلم قد تضرُّ بالسياسة، وذلك لأن العلم التجريبي لا يخلو من أخطاء ومن ثم فالاعتماد الكلي عليه وصنع السياسات العامة واتخاذ الإجراءات وفقا له قد يسبب أضرارا كبيرة تمس الدول والمجتمعات ومن ثم فلا بدَّ من الوعي بقصور العلم والأخذ في الاعتبار أن هناك اختلافات بين السياسة والعلم في خصوصياتهما(٣).

ب- قضايا ذات بعد اقتصادي

17)Globalization in the time of COVID-19: repositioning Africa to meet the immediate and remote challenges

تتناول هذه الدراسة أثر الجائحة على العولمة والتعاون الاقتصادي العالمي الذي كان يمر بأزمة قبل كورونا، وجاءت الجائحة لتبرز أن العولمة في مراحل سقوطها في مقابل القومية التي برزت وفي اتجاهها نحو الصعود، وفي هذا السياق تذكر الدراسة معاناة القارة الأفريقية التي يعتمد اقتصاد أغلب دولها على المساعدات الخارجية، ومن ثم كانت عواقب إغلاق الحدود وحركة التجارة وخيم عليها وعلى شعوبها(٤).

(1) Uscinski, Joseph E.Enders, Adam M. Klofstad, Casey A. Seelig, Michelle I. Funchion, John, R. Everett, Caleb Wuchty, Stephan Premaratne, Kamal Murthi, Manohar, N, Why do people believe COVID-19 conspiracy theories?, The Harvard Kennedy School (HKS) Misinformation Review, Vol. 1, page no. 12 (28 April, 2020).

(2) Douglas A. Van Belle, Thomas Jamieson, Imperial Pandemicide, Southern Social Science Association, page no .6, (17 August 2020), available at: https://cutt.us/mwWtc

(3) Mendes Marcelo, Coronavirus Misinformation and the Political Scenario: The Science Cannot Be 'another' Barrier, page no. 7, 30 July 2020, available at: https://psyarxiv.com/vhkwc

(4) Sanni Yaya, Akaninyene Otu, and Ronald Labonté, Globalization in the time of COVID-19: repositioning Africa to meet the immediate and remote challenges, Global Health Vol. 16, No. 51, page no. 7, (24 July 2020).

18) The New Consumer Behavior Paradigm amid COVID-19 Permanent or Transient

تناقش هذه الدراسة مجموعة من التغيرات التي أصابت نمط الاستهلاك لدى الشعوب في ظل جائحة كورونا، مشيرة لأبعاده الاجتماعية والاقتصادية، ومن ناحية أخرى تناقش أسباب هذا التغير ودوافعه في ظل الكوارث بشكل عام وأشكال هذا التغير في ظل وباء كورونا بشكل خاص، وفي هذا السياق تسلّط الضوء على النقلة النوعية التي أحدثتها الجائحة في الاستهلاك المادّي الذي تحوَّل إلى ما أسمته الدراسة بالاستهلاكَ الروحي أو "spiritual consumption" مشيرة إلى ضرورة إعادة النظر في تعريف الاستهلاك والوقوف على دوافعه وما سيطرأ عليه من تغيرات في المستقبل(١).

19) Life versus capital: COVID-19 and the politics of life

تقوم هذه الدراسة بتسليط الضوء على الصراع بين حياة الأفراد وبين الرأسمالية في ظل جائحة كورونا فهي ترّكز على الصراع الناشئ من كون الأفراد الذين هم –بلغة الاقتَصاد– رأس المال البشري "human capital" ومن ثم فالمحافظة على حياتهم أمر ضروري لدوران عملية الإنتاج وفي نفس الوقت فإن تكلفة الحفاظ على حياتهم ستكون باهظة الثمن لأن هذا يتطلّب تعطيل الكثير من الأنشطة الاقتصادية ممَّا سيسبب تدهورا كبيرا في دينامية الاقتصاد العالمي(٢).

20) COVID-19: Capitalist and post capitalist perspectives

تقوم هذه الدراسة على رصد نقاط الضعف والخلل الذي تنطوي عليه الرأسمالية، وهو ما بيَّنته وأجّلته جائحة كورونا بوضوح، حيث تشير الدراسة إلى كون الرأسمالية تسبَّبت وما زالت تتسبَّب في تدمير الكرة الأرضية بشتَّى الطرق، وفي هذا السياق تدَّعي الدراسة أن وباء كورونا كان إحدى هذه الكوارث التي سبَّبتها الرأسمالية من خلال الزراعة الصناعية واسعة النطاق، وأنها ساهمت في انتشار الفيروس وتعميق آثاره نتيجة لإعلائها لقيمة المادة. على الصعيد الآخر فإن إجراءات التعامل مع الجائحة وما صاحبها من إغلاق لكثير من الأنشطة الاقتصادية انطوى بداخله على أسباب سقوط الرأسمالية التي لا يناسب عملها مثل هذا الإغلاق لأنها نظام متكامل لا بدَّ أن يعمل بكل آلياته حتى يستمر؛ ومن ثم تقول الدراسة إن الجائحة ترسم بداية لعصر ما بعد الرأسمالية وهو ما سيتم فيه تدارك جوانب الخلل المختلفة في النظام الرأسمالي(٣).

ج- قضايا معاصرة ذات أبعاد اجتماعية وثقافية وبيئية

21) Migrants and the COVID-19 pandemic: An initial analysis

تناقش هذه الدراسة قضية الهجرة واللاجئين وكيف تأثرت سلبا في ظل جائحة كورونا، وتتناول في هذا السياق مجموعة من القضايا، حيث تتناول مسألة غلق الحدود وأثر ذلك على المهاجرين واللاجئين اللذين حرموا من حق اللجوء السياسي والحماية الدولية، وتنتقل الدراسة إلى مناقشة كل أشكال العناء التي تعرَّض لها المهاجرون، سواء من قبل حكومات بلادهم أو الدول المستقبلة لهم، خاصة هؤلاء الذين يعتبرون أقلية في البلاد التي هاجروا إليها، مشيرة إلى أن جائحة كورونا

---

(1) Seema Mehta, Tanjul Saxena, Neetu Purohit, The New Consumer Behavior Paradigm amid COVID-19: Permanent or Transient?, Journal of Health Management, Vol. 22, No. 2, page no. 11, (30 July 2020).

(2) Nicholas De Genova, Life versus capital: COVID-19 and the politics of life, European Association of Social Anthropologists, Vol. 28, No. 2, page no. 2, (May 2020).

(3) Anitra Nelson, COVID-19: Capitalist and post capitalist perspectives, Human Geography, page no. 5, 21 July 2020, available at: https://cutt.us/GxPXE

أسفرت عن عمق العنصرية واللامساواة المتأصلة في الكثير من البلاد شعوبا وحكومات، وفي هذا السياق أشارت الدراسة إلى ما تعرَّض له سكان شرق آسيا من إيذاء باعتبارهم أول من ظهر لديهم الفيروس، وكذلك العنصرية التي تعرَّض لها المهاجرون حتى في بلادهم الأصلية لمجرد ظن أنهم قد يكونون مصابين بالمرض، هذا بالإضافة إلى ما لاقاه المهاجرون من عناء جرَّاء إغلاق الكثير من القطاعات الصناعية والخدمية مما أدَّى إلى ارتفاع نسبة البطالة بينهم. وتنتهي الدراسة بتقديم مجموعة من التوصيات لوضع سياسات وطنية واضحة للتعامل مع المهاجرين في مثل هذه الكوارث مما يحفظ لهم كرامتهم ولا يعرضهم للظلم(١).

22) Hospitality, tourism, human rights and the impact of COVID-19

تقوم هذه الدراسة بتسليط الضوء على أثر جائحة كورونا على حركة الأفراد والسياحة العالمية وتناقش هذا في إطار طرح تساؤل حول مستقبل السياحة وحقوق الأفراد في التنقُّل، حيث تبدأ الدراسة بنقد فرضية أن الحدود بين الدول والمسافات أصبحت لا تشكِّل عائقا لحركة الأفراد وذلك في ظل العولمة، ولكن أثبتت جائحة كورونا أن الحدود ما زالت تحد من حركة الأفراد خاصة بعد الإجراءات التي اتخذتها الحكومات لتقييد حركة السياحة بل ومنعها تماما، وتناقش الدراسة في هذا السياق مجموعة من الآثار الاقتصادية المترتِّبة على هذه الإجراءات، خاصَّة ما يتعلَّق بحركة التجارة العالميَة، لتنتهي بأسئلة مفتوحة حول مستقبل السياحة في عالم ما بعد كورونا وعن إمكانية العودة إلى ما كانت عليه السياحة قبل الجائحة(٢).

23) The end of over-tourism? Opportunities in a post-Covid-19 world

تتناول هذه الدراسة موضوع السياحة الزائدة أو ما يعرف بال(over tourism) وما التغيرات التي طرأت على هذا النوع من السياحة في ظل جائحة كورونا والذى كان يتسبَّب في ضجر كثير من شعوب هذه المدن خاصة في أوروبا بسبب الازدحام وتتضرَّر البنية التحتية والبيئة الطبيعية لبلادهم هذا فضلا عن خطر انتشار الأمراض، ولذا أشارت الدراسة إلى أن جائحة كورونا وما يرتبط بها من آثار سياسية تتمثَّل في توسيع نطاق الدور الحكومي في جميع الدول بغض النظر عن الأيديولوجية المتبنَّاة سوف يمكِّن الحكومات في المستقبل من اتخاذ إجراءات تسهم في ضبط حركة السياحة الزائدة وتحسين وضعها، وعلى الصعيد الآخر أشارت الدراسة إلى مجموعة من الآثار الاجتماعية المرتبطة بمسألة التباعد الاجتماعي حيث تتضمَّن وجود عادات اجتماعية جديدة وزيادة في الاعتماد على العالم الرقمي للتواصل ولجميع أشكال المعاملات مما ينبئ عن ظهور أنماط حياتية جديدة مما سيؤثر بالطبع على حركة السياحة وأشكالها(٣).

24)Light in the Midst of Chaos: COVID-19 and Female Political Representation

---

(1) Lorenzo Guadagno, Migrants and the COVID-19 pandemic: An initial analysis, International Organization for Migration, No. 60, page no. 28, (30 June 2020).

(2) Tom Baum, Nguyen Thi Thanh Hai, Hospitality, tourism, human rights and the impact of COVID-19, International Journal of Contemporary Hospitality Management, Vol. 32, No. 7, page no. 11, (24 April 2020).

(3) Edward Koh, The end of over-tourism? Opportunities in a post-Covid-19 world, International Journal of tourism cities, page no. 9, (27 May 2020), available at: https://bit.ly/3cYQ7xL

تسلّط هذه الدراسة الضوء على كون فيروس كورونا له أثر إيجابي على تمكين المرأة في العمل السياسي، وتفسر ذلك بأن بعض مسوح الرأي العام أشارت إلى أن هناك حالة عامة من الاستياء من سياسات الحكومات التي يديرها رجال في التعامل مع الجائحة وذلك على عكس الحكومات التي يديرها نساء، وفي هذا السياق أشارت الدراسة إلى أن الصورة النمطية المعروفة عن من يعملون في المجال السياسي من النساء أنهن يتمتّعن بدرجة عالية من الأمانة والتسامح والشفقة، وأنهن جديرات بالثقة وأن معدَّل الفساد السياسي لديهن أقل من الحكام الرجال وهذه الصفات تجعلهن أفضل في إدارة قطاعات معينة مثل القطاع التعليمي والصحي، وأن إعادة إحياء هذه الصورة النمطية، سيسهم في حصولهنَّ على نسب مشاركة أعلى في الكثير من الدول في السنوات المقبلة(١).

25) Indirect effects of covid-19 on the environment

تتناول هذه الدراسة أثر إجراءات الحماية في ظل وباء كورونا على البيئة الطبيعية بأسرها، وتشير الدراسة إلى أن تضييق النشاط الاقتصادي العالمي كان له أثر إيجابي على انبعاثات غازات الاحتباس الحراري (greenhouse gas emissions) حيث أدّى إلى تقليلها نسبيًّا، هذا بالإضافة إلى العديد من الآثار الإيجابية الأخرى على البيئة؛ لكن على الصعيد الآخر تشير الدراسة إلى بعض الآثار السلبية التي تتعلّق بتوقُّف بعض الأنشطة النافعة للبيئة التي صاحبت توقُّف الكثير من الأنشطة الاقتصادية مثل إعادة التدوير وتكرير المياه، وفي هذا السياق تؤكد على أهمية مناشدة الحكومات لتغيير أنماط النشاط الاقتصادي السائدة التي تهدِّد البيئة ومقدَّراتها(٢).

26) Don't Uncover that Face! Covid-19 Masks and the Niqab: Ironic Transfigurations of the ECtHR's Intercultural Blindness

تتناول هذه الدراسة مسألة الحجاب باعتبارها أحد نقاط النزاع بين الإسلام والغرب لتسلّط الضوء على أثر الجائحة في تغيير طبيعة المجال العام الذي أصبح بأمر من السلطات الحاكمة لا يخلو من أحد إلا ويرتدي غطاء الوجه لتجنُّب العدوى، وفي هذا السياق تناقش الدراسة أثر هذا التغير على سياسة بعض الدول الأوروبية في منع الحجاب في المجال العام ولا سيما فرنسا وذلك لما أحدثته الجائحة من تغييرا في إدراك المجتمعات لفكرة الحجاب وغطاء الوجه وما لهذا من دلالات ثقافية لها أثرها على هذه الصراعات الثقافية، وتطرح أيضا سؤالًا حول مدى استمرارية ممارسة العنصرية ضد المسلمين في هذه الدول بعد مرور الجائحة(٣).

27) The role of religions in the spread of Covid-19

تتناول هذه الدراسة دور الدين في ظل جائحة كورونا، حيث تركّز على مسألة أن الدين لعب دورا سلبيًّا في ظل الجائحة

---

(1) Kelly S. Piazza, Light in the Midst of Chaos: COVID-19 and Female Political Representation, World Development, Vol. 136, No. 105125, page no. 14, (December 2020).

(2) Manuel A. Zambarno, Maria Alejandra, Luis Sanchez, Indirect effects of covid-19 on the environment, An International Journal for Scientific Research into the Environment and its Relationship with Humankind, Vol. 728, No. 138813, page no. 4, (August 2020).

(3) Mario Ricca, Don't Uncover that Face! Covid-19 Masks and the Niqab: Ironic Transfigurations of the ECtHR's Intercultural Blindness, International Journal for the Semiotics of Law, page no. 25, accessed: 30 April 2020, available at: https://cutt.us/BbF4p

وكان سببا في انتشار الفيروس وذلك عن طريقين، الأول هو رفض الكثير من المتدينين إغلاق دور العبادة ويضرب هنا أمثلة عديدة أولها إيرانَ ورحلات الحج إلى مدينة "قم" التي كانت سببا في انتشار الفيروس، والثاني هو اعتقاد الكثيرين بأن الفيروس ابتلاء من الله، ومن ثم فمواجهته لا تكون إلا بالإذعان والاستجابة وليس باتخاذ إجراءات وقائية من شأنها حسب هذا الاعتقاد أن تعارض إرادة الإله، وفي هذا السياق تشير الدراسة إلى الرؤساء الذين كانت لهم مواقف دينية ومنهم ترامب الذي رفع الإنجيل ودعم فتح الكنائس وما لهذا من دلالات[١].

A message from the Hindu Mahasabha's chief says, "for curing coronavirus global leaders must drink cow urine"

28) Society's 'New Normal'? The Role of Discourse in Surveillance and Silencing of Dissent during and Post Covid-19

تتناول هذه الدراسة نقد الهيكل المجتمعي الرأسمالي القائم على العنصرية والقمع، حيث تشير إلى استغلال الحكومات للجائحة لإحكام سيطرتها على الشعوب –وذلك عن طريق دوام المراقبة، ورفض أي نوع من المعارضة ضمن إجراءات الحماية في ظل الجائحة– مما قد يخلق نوعا من الاعتياد لدى الشعوب على هذا النوع من ممارسة السلطة وهو ما أطلقت عليه الدراسة مفهوم "new normal"، والذى يشير إلى إمكانية تطبيع الشعوب مع هذا الخطاب السياسي، وتتناول الدراسة تحليل مثل هذه الفرضية من خلال الوقوف على تاريخ الأوبئة ومآلاته في ظل سياقه السياسي والثقافي[٢].

29) Utilitarianism and the pandemic

تتناول هذه الدراسة نقد النظرية النفعية في ظل وباء كورونا المستجد، حيث تقوم بطرح تساؤلات حول مدى صحة وأخلاقية تطبيقها في مثل هذه الأزمة التي تهدد الإنسانية، ومع ذلك فهي لا تلغيها بالكلية بل تدعو إلى تطبيقها في إطار يأخذ في اعتباره مجموعة من القيم الأخلاقية الأخرى التي تضمن حفظ كرامة الإنسان وحقوقه وتحقق المساواة بين الجميع فيما يتلقونه من معاملة[٣].

*****

(1) David E. singh, The role of religions in the spread of Covid-19, Journal of Ecumenical Studies, Vol. 55, No. 2, page no. 24, (Spring 2020).

(2) Jelena Timotijevic, Society's 'New Normal'? The Role of Discourse in Surveillance and Silencing of Dissent During and Post Covid-19, page no. 18, 27 May 2020, Available at: https://cutt.us/q7jMH

(3) Julian Savulescu, Ingmar Persson, Dominic Wilkinson, Utilitarianism and the pandemic, The American Journal of Bioethics, Vol. 34, No. 6, page no. 13, (July 2020).